غيث المواهب العلية
فى
شرح الحكم العطائية

لأبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفزى الرندى
٧٣٢-٧٩٢هـ

تحقيق

الإمام الأكبر الدكتور
عبد الحليم محمود
«شيخ الإسلام - رضى الله عنه»

والدكتور
محمود بن الشريف

الناشر
مكتبة الإيمان
٤ شارع أحمد سوكارنو العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى الإسلام والتصوف

١ـ ما هو المنهج الملائم؟

إن صلة التصوف بالإسلام ـ منهجا وموضوعا ـ لا يتأتى فهمها فهما صحيحا إلا إذا عرفنا التصوف تعريفا ينطبق على حقيقته أكمل ما يكون الإنطباق بيد أن تعريفه ليس من السهولة بمكان، ذلك: أن تعريفات التصوف ـ كما يقول مؤرخو التصوف القدماء ـ أربت على الألف، وكلها تعريفات لها وزنها وقيمتها، إذ أنها بأقلام الصوفية أنفسهم، وإذا كانت هذه التعريفات بأقلام أرباب الشأن فإنه من الصعوبة بمكان أن يقف الإنسان منها موقف الحكم: يفضل بعضها على بعض، ويجعل بعضها فى المرتبة الأولى، ويجعل البعض الآخر ثانويا، ثم ينتهى بتعريف جامع مانع.

ما هو المقياس؟ وما هو الفيصل؟

ثم بأى سلطان يتدخل الإنسان بين هؤلاء القوم ذوى المذاقات الرقيقة والمشاعر الروحية الدقيقة؟

أبسلطان العلم: ملاحظة واستقراء؟!

أم بسلطان العقل: بحثا واستنتاجا؟!

أم بسلطان الروح: إشراقا وإلهاما؟!

٢ـ التصوف والعلم:

هل يلج العلم بملاحظته واستقرائه حصن التصوف؟ إنه إذا فعل ذلك فإنه سوف لا يلاحظ إلا الشكل الخارجى، ولايستقرئ إلا المظهر الشكلى؟؟ولاشئ بعد ذلك من روح التصوف وجوهره، ومعنى هذا الإخفاق التام وحقا لقد أخفق ـ إلى الآن ـ علم النفس، وأخفق علم الاجتماع إخفاقا كاملا فى الوصول إلى كنه التصوف وحقيقته.

بل إن الدراسات النفسية الحديثة، والدراسات الاجتماعية المعاصرة: أفسدت

الفكرة عن التصوف إفسادا تاما شأنها فى ذلك: شأنها فى كل ما اتصلت به من الدراسات التى تتصل بالروح، وبالوحى، وبالإلهام السماوى وبالدين على وجه العموم.

إن الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة: حددت نفسها بالمادة وتقيدت بالظواهر المادية المحسة الملموسة: المرئية، أو المسموعة، أو المذوقة مذاقا حسيا أو المشمومة!!

وهى تعترف اعترافا صريحا لا لبس فيه: أن مجالها إنما هو المجال المادى، وأن كل ما خرج عن المجال المادى: فإنه لا يدخل تحت مرصدها ومخبرها ومسبرها: وإذن لا يدخل فى إطار بحثها.

والتصوف روح، وإلهام، وإشراق، فلا يدخل فى مجالها.

ومن هنا كان اكتفاء هذه الدراسات بالمظهر والشكل: ومن أجل ذلك كان إخفاقها كاملا، وفشلها: يفجأ النظر.

إن ما نسميه: العلم الحديث: إنما هو العلم السائد فى أوربا وفى أمريكا، فى العصر الحاضر، وقد ألزم نفسه إلزاما تاما: ألا يخرج عن دائرة المادة، وحدد - مختارا - دائرته تحديدا دقيقا بأنها: المادة وربط نفسه بذلك ربطا محكما إلى درجة أن كل من يخرج عن المادة لا يسمونه عالما، أن كل بحث فى غير دائرة الملاحظ المحس: لا يسمونه بحثا علميا ولسنا - الآن - بصدد تخطئة العلم الحديث أو تصويبه، فبما ألزم نفسه به، وإنما نريد أن نبين فى وضوح أن هذا الالتزام: ينفى نفيا باتا أن يتصل العلم الحديث - من قرب أو من بعد - بجوهر التصوف ومفهومه الحقيقى.

ومن أجل ذلك فإن كل ما قيل بلسان العلم عن التصوف: لا يمس منه إلا المظهر والشكل، ولا فائدة فيه بتاتا من حيث الروح والجوهر.

٣ـ التصوف والعقل:

أنلجأ إذن إلى العقل؟ ببحثه المنطقى القياسى وإلى استنتاجاته الناشئة عن المقدمات والأقيسة؟! أيقودنا العقل - آمنين - فى بحار التصوف اللامحدودة، وفى رياضة التى لا تنتهى من حيث كونها نفحات من التجليات الإلهية اللانهائية؟ ولكن المعروف أن العقل: لا يدور إلا فى فلك المادة: إنه يتسامى إلى السماء فيبحث بأقماره، وسفنه، وصواريخه بين أرجائها الشاسعة ومساحاتها الرحبة، ويغوص فى أعماق البحار فيظهر مكنوناتها ويكشف عن أسرارها، ويتعمق فى طبقات

الأرض، فيخرج من أثقالها، ويزيل الغموض عن معمياتها.

إنه مبتدع الصناعة: من الإبرة إلى الصاروخ، ومخترع الكيماويات سهلة كانت أو معقدة، ومكتشف النواميس الكونية في الأرض، وفي السماء، وهو أساس العلم الكسبي: علم التوليد، والاستنتاج، والاستنباط على أشكاله المختلفة ومناهجه المتعددة.

ولكن العقل - ومجاله المادة: استنتاجا، واستنباطا - لا شأن له بالغيب: الغيب الإلهي.

لا شأن له بالمساتير: مساتير الملأ الأعلى.

لا شأن له بكشف المحجوب: المحجوب الروحي.

لا شأن له بمعارج القدس ولا بمنازل الأرواح.

لقد أخفق العقل في إيجاد مقياس عقلي يقيس به الصحة والخطأ في عالم الروح، وعجز عن اختراع فيصل يفصل به بين الحق والباطل في مجال الغيب: لقد أخفق منهج أرسطو، وأخفق منهج ديكارت، وأخفق - إلى الآن - كل منهج عقلي يراد منه أن يصل بنا إلى عالم الإلهية: يعرفنا أسراره، ويسير بنا في مساتيره.

وإخفاق العقل في عالم التصوف قضية اعترف بها اعترافا صريحا فيثاغورث، وأفلاطون، وافلوطين

واعترف بها: الكندي، والفارابي، وابن سينا، واعترف بها:الغزالي، وجميع الصوفية على الإطلاق.

وقد اعترفوا بها لما علموا من أن العقل لا يتأتى له أن يخرج عن دائرة المادة، بل إن الخيال نفسه، بل الوهم، كل ذلك لا يخرج عن دائرة المادة، واعترفوا بها لما رأوه من خلال التاريخ الفكري للإنسانية: من أن العقل وقف أمام منازل الروح، ومعارج القدس عاجزا لا يحير جوابا؟

لقد اعترفوا بها، وبرهنوا، وكان منطقهم من السلامة بحيث صدقه الواقع التاريخي، وليس ذلك بقادح في العقل: فله مجاله الضخم في رحاب الكون وفي أغوار الأرض، وفي أقطار السماء، وعليه وبه قامت الحضارة المادية الحديثة، متسلطة غلابة.

٤ـ المنهج الصوفي:

وإذا عجز المنهج العلمي المادي عن دراسة التصوف في حقيقته، وجوهره، وعجز المنهج العقلي كذلك، فإن الصوفية جميعا، وفلاسفة الإشراق، منذ فيثاغورث، وأفلاطون إلى الآن يعلنون منهجا محددا، يقرؤنه جميعا، ويثقون فيه ثقة تامة، ذلك هو المنهج القلبي، أو المنهج الروحي، أو منهج البصيرة، وهو منهج معروف، أقرته الأديان جميعها، واصطفيته مذاهب الحكمة: القديم منها، والحديث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(١)

أنه سبحانه ذكر الفؤاد على أنه مسئول مثله في ذلك مثل السمع في محيطه والبصر في محيطه، والإمام الغزالي معبرا عن رأي الصوفية، وعن رأي فلاسفة الإشراق، يرى أن الدليل القاطع على أن هناك معرفة ليس مرجعها إلى الحس ولا إلى العقل: إنما هو أمران:

«أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة: فإنه ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضا في اليقظة: فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع، ولا يبصر: لاشتغاله بنفسه.

الثاني: إخبار رسول الله صلى عليه وسلم ـ عن الغيب وأمور في المستقبل ـ وإذا جاز ذلك للنبي (ﷺ) جاز لغيره، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور، وشغل بإصلاح الخلق، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق، ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى «نبيا» بل يسمى: «وليا» أ.هـ.

فمن آمن بالأنبياء، وصدق الرؤيا الصحيحة، لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة، أو بتعبير آخر يقر بباب للقلب ينفتح على عالم الملكوت، هو باب الإلهام، والنفث في الروع، والوحي.

---

(١) (سورة الإسراء الآية ٣٦)

والإمام الغزالى: يتشبث بالرؤيا كبرهان، ودليل على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل، ويردد ذلك فى كثير من كتبه.

إنه يتحدث فى المنقذ(١) عن النبوة فيقول: «وقد قرب الله تعالى، ذلك على خلقه، بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة، وهو النوم: إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحا وإما فى كسوة مثال، يكشف عنه التعبير، وهذا لو لم يجربه الإنسان بنفسه وقيل له: إن من الناس من يسقط مغشيا عليه: كالميت، ويزول عنه إحساسه، وسمعه، وبصره، فيدرك الغيب لأنكره، وأقام البرهان على استحالته، وقال القوى الحساسة سبب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها، فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق، وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة» اهـ

ولكن الإمام الغزالى لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال، بل يأتى بشواهد، فيما يرى فهى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٢).

وقوله (ﷺ): «من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم» وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾(٣)»

قيل: نورا يفرق به بين الحق والباطل، ويخرج به من كل الشبهات.

وسئل رسول الله (ﷺ)، عن قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(٤) ماهذا الشرح؟

فقال: هو التوسعة: إن النور إذا قذف به فى القلب، اتسع له الصدر وانشرح، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين، وإن عمر منهم»

والمحدث: هو الملهم، والملهم هو الذى انكشف له الحق فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسات الخارجية، والقرآن مصرح بأن التقوى: مفتاح الهداية والكشف.

---

(١) (انظر تحقيقنا للمنقذ من الضلال وتعليقنا عليه، نشر دار الكتب الحديثة)
(٢) (سورة العنكبوت الآية ٦٩)
(٣) (سورة الأنفال الآية ٢٩)
(٤) (سورة الزمر الآية ٢٢]

ولم يكن علم الخضر عليه السلام، علما حسيا، أو عقليا، وإنما هو العلم الربانى، واليه الإشارة بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(١)

٥ـ المنهج الصوفى منهج إسلامى:

المنهج إذن: منهج إسلامى صحيح سليم لا غبار عليه. ثم هو منهج فلسفى رغم معارضة الفلاسفة العقليين يقره الكثير من كبار الفلاسفة: الغربيين والشرقيين ومن القدماء والمحدثين.

ثم هو منهج جُرّب فنجح: جربه الإمام الغزالى: فنجح، وجربه غيره فنجح معهم، وعنه يقول الإمام الغزالى: «وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذى أذكره لينتفع به: أنى علمت يقينا أن الصوفية: هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم، وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم: مقتبسة من نور مشكاة النبوة.

وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها ـ وهى أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها ـ الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة ـ استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية فى الله؟

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار، والكسب من أوائلها، وهى على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات، والمشاهدات، حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها المنطق» اهـ.

وعن هذا المنهج يقول الأستاذ رينيه جينو: الحكيم الفرنسى ـ فى محاضرة ألقاها فى جامعة باريس ـ يقول متهكما بهؤلاء الذين يشكون فى هذا المنهج

---

(١) (سورة الكهف الآية ٦٥)

ساخرا من موقفهم الذى يصور الكسل المزرى - «يتساءل قوم: أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها؟، إننا لا نتردد فى أن نجيبهم فى وضوح واضح: ليس ذلك ممكنا فحسب، ولكن ذلك واقع موجود، سيقولون تلك قضية تفتقر إلى برهان؟ ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر ووجوده؟ إنه لمن الغريب حقا أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة بدلا من أن يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية سالكا إليها ما تتطلبه من سبل.

إن الشخص الذى وصل إلى هذه المعرفة، لايعنيه فى قليل أو كثير ما يدور حولها من جدل ونقاش، وإنه لمن الواضح أن إحلال: «نظرية المعرفة» محل: «المعرفة» نفسها إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة» اهـ

٦ـ لا يكتسب التصوف عن طريق القراءة:

والمنهج إذن: إنما هو تزكية النفس، أو جلاء البصيرة.

كيف يتأتى ذلك؟

هل يتأتى عن طريق القراءة والدرس؟ هل السبيل إلى معرفة الغيب مباشرة: هو البحث، والدرس، والاستقصاء، ويتفاوت الناس فى الإشراق بتفاوتهم فى شمول الدراسة، وعموم التحصيل؟.. كلا، قطعا.

يقول الإمام الغزالى معبرا عن الرأى الصحيح المبنى على التجربة نفسها: «ابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبى طالب المكى، رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبى، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلى، وأبى يزيد البسطامى، قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر لى أن أخص خواصهم: مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال، وتبدل الصفات.

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة، وحد الشبع، وأسبابهما، وشروطهما وبين أن يكون صحيحا، وشبعان: وبين أن يعرف حد السكر، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حد السكر وأركانه، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شىء، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه، وما معه من السكر شئ،

والطبيب فى حالة المرض: يعرف حد الصحة وأسبابها، وأدويتها، وهو فاقد الصحة.

كذلك الفرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها، وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا.

فعلمت يقينا: أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطرق العلم: فقد حصلته، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك»

وابن سينا حينما أراد أن يحدد طريق البصيرة حتى يصير سر الإنسان ـ على حد تعبيره ـ مرآة مجلوة، لم يحدده بقراءة، وبحث وإنما حدده: بإرادة، ورياضة.

وأبو الحسن النورى: يرى فى صراحة أن التصوف ليس علما، ويعلل ذلك بأنه لو كان علما، لحصل بالتعلم، ولكن الأمر ليس كذلك، وليس طريق تزكية النفس إذن العلم الكسبى.

٧ـ التصوف والأخلاق:

أهو الأخلاق الطيبة؟

إن الكثير من الكتاب الحديثين ـ متابعين فى ذلك الكثير من الصوفية ـ قد حددوا التصوف نفسه ـ لا تزكية النفس وحسب ـ بأنه الخلق الطيب يقول: أبو بكر الكتانى «المتوفى سنة ٣٢٢هـ» ، «التصوف، خلق: فمن زاد عليك فى الخلق، فقد زاد عليك فى الصفاء» (١)

ويقول أبو محمد الجريرى «المتوفى سنة ٣١١هـ» ـ وقد سئل عن التصوف ـ : «الدخول فى كل خلق سنىَ والخروج من كل خلق دنى(٢)».

أما أبو الحسن النورى فإنه ينفى عن التصوف أن يكون رسما منهجيا تخطيطيا، أو أن يكون علما كسبيا، ويجزم بأنه خلق ويعلل النفى والإثبات فيقول: «ليس التصوف رسما، ولاعلما، ولكنه: خلق، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ولو كان علما لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم».

---

(١) (الرسالة القشيرية ص ١٤٩)
(٢) (الرسالة القشيرية ص ١٤٨)

على أن أبا الحسن النورى نفسه يحدد الأخلاق التى يرى أنها التصوف فيقول: فى موضع آخر معرفا التصوف: «التصوف: الحرية، والكرم، وترك التكلف، والسخاء»

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف، ذكروا، هم أنفسهم، تعاريف أخرى، وذلك - على الأقل - يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم: لم يروا كفاية الجانب الأخلاقى فى تحديد التصوف، وتعريفه.

والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو فى الجانب الأخلاقى الكريم، وأتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية، واتخذوا الفضيلة مذهبا وشعارا، فإننا نجدهم أشخاصا مثاليين فى المحيط الأخلاقى وفى المجتمع.

ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفية ولو نظرنا فى البيئة اليونانية، لوجدنا داعية إلى الفضيلة، ومتمذهبا بها ومحاولا نشرها بشتى الوسائل، وبمختلف الطرق، سواء أكان ذلك بالدعوة الإقناعية، أم بالمنطق الجدلى، أم بالاسوة الكريمة ذلك هو: سقراط، ومع ذلك فإن سقراط هذا لم يكن صوفيا بالمعنى الدقيق لكلمة «صوفى». وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية، فإننا نجد الحسن البصرى - رضى الله عنه - من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالية، لقد كان مثلا صادقا للشعور الأخلاقى فى طهره وصفائه وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر، ومنطقه القوى، وسلوكه المثالى، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصرى صوفيا بالمعنى الدقيق لكلمة «صوفى».

على أنه من الطبيعى: أن تكون الأخلاق الكريمة أساسا من أسس التصوف وأن تكون الأخلاق فى أسمى صورة من صورها، ثمرة للتصوف.

ومن الطبيعى أيضا أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفى فيما بين الأساس والثمرة، فهى إذن: ملازمة للتصوف وللصوفى ملازمة تامة لا تتخلى عنه، ولا يتخلى عنها، ويعبر ابن سينا عن بعض ما يتحلى به الصوفى من أخلاق معللا ذلك فيقول:

«العارف شجاع وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت؟ وجواد، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل؟ وصفاح، وكيف لا ونفسه اكبر من أن تجرحها زلة بشر؟ ونساء للأحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحق؟»

ولكن ليس معنى ذلك أنها هى التصوف .

٨ـ التصوف والزهد:

هل الطريق هو الزهد؟

أن كثيرا من الناس لا يكادون يفرقون بين التصوف والزهد وكثير منهم يرون أن الزهد هو الطريق المؤدى إلى التصوف، أو هو الطريق المؤدى إلى جلاء البصيرة والواقع أننا حينما نفكر فى أمر الزهد نرى منه ألوانا عدة: إن منه هذا اللون المنطقى الفلسفى، الذى يرى صاحبه أن أسمى ما فى الحياة: إنما هو الهدوء والسكينة وراحة البال، وطمأنينة النفس، ولا يتأتى ذلك بالجرى وراء الدنيا، والكفاح فى سبيل الثراء والانغماس من ورائه فى الملاذ.

إن الناس يتكالبون على الدنيا تكالبا شديدا، وإلقاء الإنسان بنفسه فى المعركة ـ معركة التنازع على الدنيا ـ لاينتج غالبا إلا انشغال البال، والفكر، والقلق وسبيل السكينة والراحة إنما هو البعد عن مصدر النزاع وهؤلاء الذين يفكرون هذا التفكير، فيؤديهم إلى الزهد يكون زهدهم، زهدا منطقيا فلسفيا، يقول ابن سينا: «المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد» وهذا الزاهد إما أن يكون هدفه سكينة فى الدنيا، لا يتطلع إلى غير ذلك وهو ما سبق أن تحدثنا عنه وإما أن يتخطى الدنيا، فلا تخطر له على بال أو يكون أمرها فى نظره ثانويا ويتجاوزها إلى الآخرة، يزهد من أجلها ويعرض عن متاع الدنيا وطيباتها من أجل نعيم الآخرة فيكون الزهد عنده ـ على حد التعبير ابن سينا ـ : «معاملة ما، كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة».

وغاية هذا الزاهد من الامتناع عن طيبات هذا العالم: أن يمنحه الله فى الدار الآخرة طيبات ألذ وأمتع إن مثله ـ فيما يرى ابن سينا ـ كمثل التاجر الذى يشترى بمتاع الدنيا، متاع الآخرة، وهؤلاء الزهاد لهم أجرهم وثوابهم عند الله فى الآخرة ولهم سكينتهم فى الدنيا ولكن هذه الطريقة من الزهد المنظور فيه إلى الجزاء والمكافأة والأجر ـ فيما يرى الصوفية ـ لا يقصد الله فيها مباشرة بالعمل، ليكون الله سبحانه وحده هو المطلوب، وإنما يقصد فى قليل أو كثير بطريقة شعورية أو لا شعورية إلى نعيم الآخرة وملاذها.

والزهد الفلسفى وزهد الراغبين فى الآجر لا يؤدى إلى أن يصبح السر مرآة مجلوة وما من شك فى أن طريق الكشف عن البصيرة ينطوى على الزهد ويتضمنه ولكنه زهد هو تسامى عن أن يكون لغير الله شأن يشغل نفسه به فكل ما سواه سبحانه لا يساوى جناح بعوضة، إنه «تنزه ما عما يشغل سره عن

الحق، وتكبر على كل شئ غير الحق(١)» أن الطريق ينطوى على الخلق الكريم وعلى الزهد الخالص، ولكنه يتجاوزهما إلى شئ آخر.

٩ـ التصوف والعبادة:

هل هذا الشئ الآخر هو العبادة؟

هل الطريق هو المواظبة على فعل العبادات: فرائض، ونوافل؟ هل هو الإكثار من النوافل: قياما بالليل، وصوما بالنهار ونحو ذلك؟

إن للعبادة أثرا، لا ينكره أحد فى تصفية النفس، وتزكية الروح، ولكنها إذا كانت تهدف من وراء ذلك إلى دخول الجنة، ونيل الأجر، والثواب، بقيت عبادة مشكورة مأجورا صاحبها، مثابا عند الله سبحانه، ولا يتجاوز القائم بها ـ على هذا الوضع وبهذه الصورة ـ وصف العابد إلى وصف الصوفى.

ووصف العابد من غير شك منزلة عظمى، ولكن العبادة على هذا النمط كأنها: «معاملة ما» (٢) والعابد على هذا الوضع: «كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة: هى الأجر والثواب» (٣) أما الصوفى، فإنه: «يريد الحق الأول، لا لشئ غيره، ولا يؤثر شيئا على عرفانه وتعبده له فقط ولأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه، لا لرغبة أو رهبة».

وتعبر السيدة رابعة العدوية عن هذا المعنى، فتقول: «إلهى، إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فأحرمنيها، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك، فلا تحرمنى يا إلهى من جمالك الأزلى».

وتقول رضوان الله عليها: «ما عبدته خوفا من ناره، وحبا لجنته، فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا وشوقا إليه».

والواقع أن الله سبحانه وتعالى، إذا عبد رغبة فى الجنة أو عبد رهبة من النار فإنه سبحانه لا يكون المطلوب الأول، ولا يكون الغاية التى يسعى إليها العابد،

---

(١) (الإشارات: لابن سينا)
(٢، ٣) (الإشارات: لابن سينا)

وإنما يكون سبحانه كأنه واسطة بين العابد وما رغبه وهو: الجنة، أو رهبه وهو: النار وعبادة العباد التى على هذا الوضع، إذن: لا تنتهى بهم إلى أن «يصبح السر مرآة مجلوة، يحاذى بها شطر الحق» .

١٠ ـ وأن إلى ربك المنتهى:

والصوفى: عابد وهو زاهد وهو على خلق كريم، ولكنه يتجاوز ذلك كله إلى شئ آخر، هو هذه: «الإرادة والرياضة» : الإرادة المصممة، الإرادة التى لا تلين الإرادة التى تزيل ـ لقوتها وتصميمها ـ كل ما يقف أمامها من عقبات فى سبيل الوصول إلى الله سبحانه.

والرياضة التى تتخذ الله هدفها، والتى تتمثل ـ فى وضوح ـ فى معانى الهجرة إلى الله والذهاب إليه سبحانه، والفرار إليه، جل وعلا.

«الإرادة والرياضة» لتحقيق المعنى الجليل الآية القرآنية الكريمة:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾(١) .

وتتعاون الإرادة والرياضة فى الوصول ـ بتوفيق الله ـ إلى هذا المنتهى الذى لابد من الوصول إليه، لتستقر الإرادة وتسكن.

إن الله سبحانه وتعالى، يأمرنا ـ على لسان نبيه، (ﷺ) ـ بالفرار إليه:

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(٢)

والإنسان يفر إلى الله من الكفر إلى الإيمان، ويفر إلى الله من الطاعات إلى القربات، ويفر من الكون إلى المكون، ومن النعمة إلى المنعم.

ومن الخلق إلى الخالق، ومن نفسه إلى ربه.

إن الفرار إلى الله لا نهاية به، لأن الترقى لا نهاية له، وكما أن الفرار إلى الله: مستمر دائم، فإن الهجرة إليه سبحانه، مستمرة دائمة، يقول سيدنا إبراهيم، صلوات الله عليه:

---

(١) (سورة النجم الآية: ٤٢)

(٢) (سورة الذاريات الآية: ٥٥)

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

إنه، صلوات الله عليه، مهاجر إلى ربه بكل عمل يعمله، إنه مهاجر إليه بحركاته وسكناته، ومهاجر إليه بكل نفس من أنفاسه.

والهجرة إلى الله والفرار إليه: بمعنى واحد وهو معنى متسغرق، شامل يشرحه - فى عمومه وشموله - قول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه، ممتثلا أمر الله سبحانه وتوجيهه، فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وصلاة الإنسان إذن ونسكه، ومحياه، ومماته: إنما تكون - فى الوضع الإسلامى السليم - لله سبحانه وحده حيث لا شريك له: من حب مدح، أو ثناء أو زلفى، أو جنة أو بعد عن النار: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٣)

والرياضة: ذكر دائم، أى تذكر له سبحانه، فى كل لمحة ونفس وهى بكل الأعمال إلى الله، وهى هجرة لا تنقطع إليه سبحانه. وقد تتعذر فى المبدأ وتشق فى أول الطريق، فكان لابد من تهيئة الجو المناسب للمران، والتعبد فترة من الزمن.

وهذه التهيئة تتمثل فى الخلوة، والزلة، فترة تطول أو تقصر بحسب طبيعة الإنسان، فقد لا تعدو أن تكون أسبوعا، أو ثلاثة أسابيع، أو أربعين يوما، كأنها إجازة روحية مثلها فى ذلك - بالنسبة للروح - مثل الإجازة الجسمية التى يستمر الإنسان فيها فى الصيف ما يقرب من شهور ثلاثة.

على أنه بينما تتكرر الإجازة الجسمية كل عام أكثر من شهر لاتتكرر الإجازة الروحية، اللهم إلا فى الاعتكاف فى شهر رمضان: عشرة أيام من كل عام اتباعا لسنة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه، بالنسبة لكل مسلم.

«الإرادة والرياضة» ومع ذلك فإن الأمر - كما يرى الصوفية - مرده الأخير: إلى فضل الله وإحسانه.

---

(١) (سورة العنكبوت الآية: ٢٦)
(٢) (سورة الإنعام الآيتان: ١٦٢، ١٦٣)
(٣) (سورة الكهف الآية: ٢٨)

١١ـ مهنج التصوف فيما يرى: الغزالى، وابن خلدون:

٠٠ وهذه المعانى يلخصها الإمام الغزالى فيقول:

«إن الطريق إلى ذلك، إنما هو: تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم.

وإذا تولى الله أمر القلب، فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد، بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة.

فالأنبياء، والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى «فمن كان لله، كان الله له» . وهو بفعله هذا: يصير متعرضا لنفحات رحمة الله، وليس له إختيار فى استجلاب هذه النفحات، وليس له اختيار فى استجلاب هذه النفحات، وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة، وإذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته، تلمع لوامع الحق فى قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى، فينكشف له الغيب، ويحصل له اليقين» .

ويلخصها ويجملها ابن خلدون فيقول:

«ثم إن هذه المجاهدة، والخلوة، والذكر: يتبعها ـ غالبا ـ كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شئ منها، والروح من تلك العوالم.

وسبب هذا الكشف: أن الروح إذا رجعت عن هذا الحس الظاهر إلى الباطن: ضعفت أحوال الحس، وقوى الروح، وغلب سلطانه، وتجدد نشوه. وأعان على ذلك الذكر ؛ فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال فى نمو وتزايد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما، ويكشف حجاب الحس، ويتم وجود النفس الذى لها من ذاتها، وهو عين الإدراك، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية، والعلوم اللدنية، والفتح الإلهى، وتقرب ذاته ـ فى تحقيق حقيقتها ـ من الأفق الأعلى: أفق الملائكة.

وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة، فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم، وكذلك يدرون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها، ويتصرفون بهممهم، وقوى نفوسهم فى الموجودات السفلية، وتصير طوع إرادتهم ؛ فالعظماء منهم: لا يعتبرون هذا الكشف ولا هذا التصوف ولا يخبروهن عن حقيقة شئ لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما وقع لهم من ذلك: محنة ؛ ويتعوذون منه، إذا وقع لهم.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم: على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ؛ لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفى فضائل أبى بكر، وعمر وعثمان، وعلى رضى الله عنهم كثير منها، وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة:ممن اشتملت رسالة القشيرى على ذكرهم، ومن تبع طريقتهم من بعدهم» .

وهكذا، نرى أن المنهج: منهج إسلامى، وأن وسيلة المنهج أو طريقة تحقيق المنهج، أو بتعبير أصح، خطوات المنهج، إنما هى خطوات إسلامية.

١٢ـ ثمرة المنهج:

إلام يؤدى هذا المنهج؟

إذا اتبعنا هذا المنهج، ووفق الله، فما هى النتيجة؟ وما الهدف الذى يسعى الصوفى ـ للوصول إليه؟

إننا فى سبيل الوصول إلى رأى سليم: نبدأ أولا بتقسيم الإسلام للبشر من ناحية درجتهم عند الله ـ والإساس فى ذلك إنما هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١)

وطريق التقوى فى ترقيه وتساميه لا يكاد يقف عند حد، وإكرام الله للإنسان إذن مستمر كلما زادت التقوى حتى يصل هذا الإكرام إلى درجات لا يكاد يتصورها أحد، ويعبر عنها ويشرحها الحديث القدسى الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله (ﷺ) عن رب العزة جل وعلا:

«من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت

---

(١) (سورة الحجرات الآية: ١٣)

سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه» .

وأولياء الله هؤلاء قسمهم الإسلام - بحسب قربهم من الله - إلى طوائف بعضها أقرب من بعض، وكلها قريبة منه سبحانه، تنعم فى رضاه، وفى رضوانه ؛ فقال سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾(١)

هناك إذن أنبياء، وصديقون، وشهداء، وصالحون، هناك السابقون وهناك أهل اليمين، هناك المقربون، وهناك الأبرار، والناس منهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، وتفاوتهم فى التقوى مرتب على تفاوتهم فى التوحيد.

وقمة التوحيد: أن يشهد الإنسان: أن لا إله إلا الله، وهؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله هم أولو العلم، يقول سبحانه:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٢).

هذه الشهادة فى قمتها ليست مجرد كلمة تقال ولا مجرد لفظ ينطق به إنسان من بين شفتيه، فيمر كما يمر أى لفظ آخر، إن لكلمة الشهادة معنى محددا هو هذا المعنى الواقعى الذى يحدث حينما يكون هناك شاهد ومشهود لابد فى الشهادة من شاهد، ولابد من مشهود ولا بد من أن يشاهد الشاهد المشهود، وإلا فهى شهادة، تجاوزا.

ولقد شهد الله على الحقيقة، وتشهد الملائكة على الحقيقة، ويشهد أولو العلم على الحقيقة، أن لا إله إلا الله.

---

(١) (سورة النساء الآيتان ٦٩ ــ ٧٠)
(٢) (سورة آل عمران الآية ١٨)

ولقد اختص أولو العلم من بين البشر بهذه الشهادة، فحققوا بها قمة التوحيد وكانوا بسبب ذلك فى الذروة من الإكرام الإلهى، فشهدوا مع الله سبحانه، ومع الملائكة بأنه تعالى: لا إله إلا هو، وشهادة التوحيد هى الغاية فى الدين، وهى دعوة الأنبياء جميعا.

وهذه الغاية نفسها، هى التى يلتمسها المتصوفة بكل وسيلة، وهى التى يسعون إليها جاهدين، إنها أملهم ممسين، وأملهم مصبحين، وهى لا غيرها ـ التى تنأى بجنوبهم عن المضاجع بل تجعل جنوبهم نفسها، تتجافى عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا، خوفا من الحرمان وطمعا فى القرب وغاية الصوفى إذن: هى الغاية الإسلامية، وجوهر أهدافه: هو جوهر أهداف الإسلام، إنها الشهادة أن لا إله إلا الله.

إن الطريق إنما هو تزكية النفس.

والغاية الشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله، الشهادة على حقيقتها وهذا هو التصوف: طريقا، وغاية.

١٣ـ تعريف التصوف:

ولقد عبروا عن ذلك فى صراحة لا لبس فيها، وفى وضوح لا غموض فيه، ونبدأ بذكر أقوالهم فى تعريف التصوف منظورا إليه باعتباره منهجا:

وهذه التعريفات: إما أن تصور المنهج، شاملا، وإما أن تصور جزءا منه:

١. الصوفى: من صفا قلبه(١): «تزكية النفس» .

٢. التصوف: تمام الأدب(٢) «المنهج فى جانبه الأخلاقى» .

٣. الصوفى: من صفى ربه قلبه: فامتلأ قلبه نورا، ومن حل فى عين اللذة بذكر الله.(٣)

---

(١) (بشر الحافى: «المتوفى سنة ٢٢٧ هـ»)

(٢) (أبو حفص الحداد: «المتوفى حوالى ٢٦٥ هـ»)

(٣) (أبو سعيد الخراز: «المتوفى قبل ٢٩٧ هـ»)

٤. التصوف: أن يختصك الله بالصفاء، فمن صفى من كل ما سوى الله فهو الصوفى(١).

٥. وللجنيد بالنسبة لتعريف التصوف أكثر من تعريف كل منها يوضح جانبا من الجوانب منهجا كان أو غاية.

وقد بلغت تعريفاته أكثر من عشرة تعريفات، والتعريف الآتى يصور جوانب كثيرة، ولكنه مع ذلك لا يأتى على كل الجوانب، يقول: «التصوف تصفية القلوب، حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس، ومنازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم الحقيقة، وعمل كل ما هو خير إلى الأبد والنصح الخالص لجميع الأمة والإخلاص فى مراعاة الحقيقة، واتباع النبى (ﷺ) فى الشريعة» .

وهناك بعض تعريفات تتصل بالغاية، فقد سئل الشبلى: ما بدء هذا الشأن وما انتهاؤه؟.

فقال: بدؤه معرفته، وانتهاؤه توحيده، أى نهايته، أشهد أن لا إله إلا الله.

بيد أن هذه التعريفات كلها تعتبر قاصرة، وقيمتها الكبرى فى أنها تصور جانبا من الجوانب، أو زاوية من الزوايا، وهى حينما تصور المنهج وحسب فإنها لا تصور التصوف كاملا، وحينما تصور الغاية وحسب، فإنها لا تصور التصوف على ما يراه القدماء والمحدثون.

وهؤلاء القدماء والمحدثون - سواء أكانوا من الصوفية، أم من مؤرخى التصوف - يتجهون إلى أن التصوف منهج وغاية، إنه طريقة وحقيقة، إنه سلوك ونتيجة.

والصوفية يشبهون الوحدة التى تجمع بين المنهج والغاية بالدائرة ومركزها يقول الشيخ عبد الواحد يحيى: «إن الطريقة هى الخط الذاهب من الدائرة إلى المركز وكل نقطة على الدائرة هى: مبدأ الخط، وهذه الخطوط التى لا تحصى، تنتهى - كلها - إلى المركز ؛ إنها «طرق» وهى طرق تختلف تبعا لاختلاف الطباع البشرية، ولهذا يقال:

«الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم» .

ومهما اختلفت فالهدف واحد لأنه لا يوجد إلا مركز واحد، وإلا حقيقة واحدة، على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ، تزول شيئا فشيئا مع زوال الإنية،

(١) (الجنيد البغدادى: «المتوفى سنة ٢٩٧ هـ»)

وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا، تزول فيها «صفات العبد التى ليست إلا سجنا: «الفناء» فلا تبقى إلا الصفات الربانية: «البقاء» .

والطريقة، والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما: «الصوف» وهو ليس مذهبا خاصا، لأنه الحقيقة المطلقة.

وليست الطرق مدارس مختلفة، لأنها طرق، أى سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة: «التوحيد واحد» .

١٤ـ تعريف التصوف فيما نرى:

وفى خاتمة ما سبق نقول:

إن التعريف الذى نراه، والذى يجمع جوانب التصوف، إنما هو تعريف الكتانى الذى يقول:

التصوف: صفاء ومشاهدة.

ونقول فى يقين ناتج من كل ما سبق، وهو يقين يسد الطريق فى وجه كل من يحاول أن يثير أوهاما ضد التصوف والصوفية:

إن المنهج الصوفى، إنما هو تحقيق واقعى لقوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾(١)

فتزكية النفس هى صفاؤها، وتصفيتها، إنها الوصول بها إلى الصفاء، والمنهج محاولة للقرب ـ ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا ـ من: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٢)

أما الغاية فإنها: الوصول إلى المشاهدة التى يقول الله تعالى فى بيان من حققوها وتحققوا بها:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ﴾(٣)

إن الغاية هى الوصول إلى:

أشهد أن لا إله إلا الله،

عبد الحليم محمود

---

(١) (سورة الشمس الآية: ٩)
(٢) (سورة الأنعام الآيتان: ١٦٢، ١٦٣)
(٣) (سورة آل عمران الآية: ١٨)

تاج الدين بن عطاء الله السكندرى عن كتاب «طبقات الشاذلية»

«١»

الأستاذ الإمام قطب العارفين، وترجمان الواصلين، مرشد السالكين، ومنقذ الهالكين، مظهر شموس المعارف، ومبدى أسرار اللطائف، الواصل إلى الله والموصل إليه تاج الدين، ومنبع أسرار الواصلين، أبو الفضل سيدى أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامى نسبا، المالكى مذهبا، الإسكندرى دارا، القرافى مزارا، الصوفى حقيقة، الشاذلى طريقة، أعجوبة زمانه، ونخبة عصره وأوانه، الجامع لأنوا ع العلوم: من تفسير وحديث وفقه وتصوف ونحو وأصول، وغير ذلك.

كان رضى الله عنه ونفعنا بأسراره: متكلما على طريقة أهل التصوف واعظا انتفع به خلق كثير، وسلكوا طريقه، وقد شهد له شيخه بالتقديم.

قال فى «لطائف المنن» : «قال لى الأستاذ: الزم فو الله لئن لزمت لتكونن مفتيا فى المذهبين ـ يريد مذهب أهل الشريعة، ومذهب أهل الحقيقة ـ » .

وقال فيه أيضا: «والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعيا يدعو إلى الله تعالى» .

قال رحمه الله: ودخلت عليه ذات يوم، فلما دخلت عليه قال: لا تطالبوا الأستاذ بأن تكونوا فى خاطره، بل طالبوا أنفسكم بأن يكون الأستاذ فى خاطركم فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده وكنت قد حدثت بعض أصحابه: أريد لو نظر إلى الأستاذ بعنايته، وجعلنى فى خاطره، ثم قال لى: أى شئ تريد؟ والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك شأن عظيم والله ليكونن لك كذا وكذا، فكان كما أخبر» .

وقال رضى الله عنه فى لطائف المنن «جرت مخاصمة بينى وبين أحد أصحاب سيدى أبى العباس المرسى، قبل صحبتى له، وقلت لذلك الرجل ليس إلا أهل العلم الظاهر، وهؤلاء القوم يدعون أمورا عظيمة وظاهر الشرع يأباها.

قال رحمه الله «وسبب اجتماعى به أن قلت فى نفسى بعد أن جرت المخاصمة، دعنى أذهب فأنظر إلى هذه الرجل، فصاحب الحق له إمارات، قال فأتيته، فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها، فأذهب الله ما كان عندى» .

وصار ـ رحمه الله ـ من خواص أصحاب أبى العباس المرسى، ولازمه اثنى عشر عاما حتى أشرقت أنواره عليه، وصار من صدور المقربين، وله مؤلفات متداولة سارت بذكرها الركبان منها: الحكم العطائية وهى من أفضل ما صنف فى علم التوحيد وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد، ذات عبارات رائقة ومعان حسنة فائقة، قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين، وإبانة مناهج السالكين والمتجردين، وله كتاب «التنوير» وكتاب «عنوان التوفيق» وهو شرح لقصيدة العارف بالله سيدنا أبى مدين التلمسانى، وكتاب «القول المجرد فى الأسم المفرد» وله غير ذلك توفى رحمه الله بالمدرسة المنصورية بمصر، ثالث عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة، ودفن بسفح جبل المقطم بزاويته التى كان يتعبد فيها ومقامه. بزار، يعرفه الكبير والصغير، ويتوسل به إلى الله الغنى والفقير نفع الله به المسلمين» .

ابن عطاء الله والحكم

«٢»

يقول الشيخ أحمد زروق فى شرحه السابع عشر على الحكم العطائية:

«فصل: ومما قدمناه أيضا التعريف بالمؤلف والكتاب، وإسناده الموصل للصواب، فأما المؤلف فهو الشيخ الإمام العالم العامل العارف المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد بن عيسى بن الحسينى بن عطاء الله، الجذامى نسبا، المالكى مذهبا، الإسكندرى دارا القاهرى مزارا توفى بالقاهرة سنة: سبعمائة وتسعة، فى جمادى الآخرة، وكان أعجوبة زمانه فى التصوف وغيره كما قيل:

حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يازمان فكفر

وأما كتابه فقد مر تعريفه، وأما الإسناد فقد أخبرنا به إجازة شفاها، الشيخ شمس الدين السخاوى سنة: ثمان مائة وستة وسبعين بداره بالقاهرة، قال: أخبرنا به إجازة من بيت المقدس الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عمر القبابى قال:

أخبرنا به فى جملة كتب ابن عطاء الله شيخ الإسلام تقى الدين(١) أبو الحسن على بن عبد الكافى السبكى عن مؤلفها، وهى: «التنوير فى إسقاط التدبير» و«لطائف المنن» و«تاج العروس» و«مفتاح الفلاح» و«القول المجرد فى الاسم المفرد»(٢)

وآثار الهداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خبرة، ودعوا إليه على بصيرة، كثيرة ومن أنفسها كتاب «الحكم العطائية» ألفه الإمام الجليل «ابن عطاء الله السكندرى» الذى جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماء الشريعة، ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة، فكان عالما متشرعا متحققا، بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق.

---

(١) (تولى التدريس فى المنصورية، وجامع الحاكم، وجامع ابن طولون، وكانت له مواقف مشهورة فى الرد على ابن تيميه خصوصا فى زيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام، وكانت شهرته وكفايته سببا فى أن وقع عليه الاختيار سنة ٧٣٩ هـ ليكون قاضى القضاة فى الشام، ولقد ألف عشرات الكتب وهو والد تاج الدين السبكى مؤلف «طبقات الشافعية).

(٢) (انظر شرح الحكم للشيخ زروق، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف)

أخذ العهد على الإمام الكبير أبى العباس المرسى ذلك القطب الذى قال عنه أبو الحسن الشاذلى: «إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض» ، وقال فيه: «هذا أبو العباس، منذ عرف الله لم يحجب عنه، ولو طلب الحجاب لم يجده» .

ويقص ابن عطاء الله فى كتابه اللطيف القيم: «لطائف المنن» قصة صلته بأبى العباس فيقول: .كنت لأمر «أى لأمر الشيخ أبى العباس» من المنكرين، وعليه من المعترضين لا لشئ سمعته منه، ولا لشئ صح نقله، ولكن جرت المخاصمة بينى وبين أصحابه، فقلت فيهم قولا عظيما، ثم قلت فى نفسى: دعنى أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه. , فأتيت إلى مجلسه. , فوجدته يتكلم فى الأنفاس ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به وقربهم منه، فقال: الأول إسلام وهو: درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسيم الشريعة. وثانيها: الإيمان، وهو: مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية. وثالثهما: الإحسان، وهو: مقام شهود الحق تعالى فى القلب. وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثانى عبودية، والثالث عبودة، وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثانى حقيقة، والثالث تحقق، فما زال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقلى وسلب لبى، فعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهى، ومدد ربانى، فأذهب الله ما كان عندى. , ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد فىَّ شيئا يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى، ووجدت معنى غريبا لا أدرى ما هو؟ فانفردت فى مكان انظر إلى السماء وكواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبى أشياء لم أعرفها من قبل، فحملنى ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن لى عليه، فلما دخلت إليه قام قائما وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلا، واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدى، أنا والله أحبُّك، فقال: أحبك الله كما أحببتنى.

ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان، فقال: أحوال العبد أربع لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، فإن كنت فى النعمة، فمقتضى الحق منك

الشكر، وإن كنت بالبلية، فمقتضى الحق منك الصبر: وإن كنت بالطاعة، فمقتضى الحق منك شهود منته عليك، وإن كنت بالمعصية، فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبا نزعته.

ثم سألنى بعد ذلك بمدة:كيف حالك؟ فقلت: أفتش عن الهم فلم أجده، فقال:

ليلى بوجهك مشرق

وظلامه فى الناس سارى

والناس فى سدف الظلام

ونحن فى ضوء النهار

إلزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيا فى المذهبين: فى علوم الظاهر، وحقائق الباطن.

ولازم ابن عطاء الله أستاذه، ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلية.

وابن عطاء الله، فى الواقع، هو الذى كان له الفضل - الكبير فى بيان ما تعرفه الآن من آثار أبى العباس المرسى، وفى بيان الكثير أيضا مما نعرفه عن القطب الكبير الحجة أبى الحسن الشاذلى.

وابن عطاء الله، هو الذى جند قلمه للدعوة إلى طريق الله، فكتب هذه الدرر التى تركها أنجما ومعالم تهدى طريق السائرين إلى الله.

وكتابه «الحكم» مجموعة من «الحكم صفيت من ناحية الأسلوب والصياغة فكانت مثلا عاليا للأدب الرفيع، يضع ابن عطاء الله فى مصاف أعلام الأدب الفصيح البليغ.

وصفيت من ناحية الفكرة، فكانت مثلا عاليا للفكر الصوفى، أو للنور الصوفى، أو لمعراج الروح فى مستوى يضع ابن عطاء الله فى الصف الأول من صفوف المقربين، يقو ل الشيخ أحمد زروق عنه: وكتاب «الحكم العطائية الشاذلية التوحيدية العرفانية الوهبية» عباراته رائقة جامعة، وإشاراته فائقة نافعة، تثلج الصدر وتبهج الخاطر، وتحرك السامع لها والناظر، مع تداخل علومه وحكمه

وتناسب حروفه وكلمه، إذ كله داخل في كله، وأوله مرتبط بالأخير من قوله. بل كل مسألة منه تكمل لما قبلها وتوطئة لما بعدها، وكل باب منه كالشرح للذى قبله، والذى قبله أيضا كأنه شرح له، فكل حكمة أو كلمة إنما هى كالتكملة أو كالمقدمة، فأوسطه طرفاه(١) وآخره مبتداه وأوله منتهاه، يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله.

(١) يريد الشيخ رضى الله تعالى عنه أن يقول: إن الحكم وحدة واحدة وذلك على خلاف مايظن بعض الناس من أنها متناثرات لا رابط بينها ولا تجمعهاوحدة ولا تربطها رابطة التكامل: ولقد خفيت هذه الوحدة مثلا على الدكتور زكى مبارك فقال: وليس بين الحكم العطائية رباط وثيق فهى مجموعة من الأقوال نظمت فى أوقات مختلفة. . .ولاشك أن أمر هذه الوحدة هو من الدقة بحيث ينبه على ذلك الشيخ فيقول: يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله.

الشارح والشرح(١)

قد تكلم الناس على هذا الكتاب وراموه بالشرح كثيرا، فلم يتفق لأحد ممن رأينا إكمال شئ إلا ما لسيدنا الشيخ الفقيه العارف المتحقق الخطيب البليغ، نسيج وحده ومقدم من أتى من بعده، سيدى أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد، النفزى نسبا، المالكى مذهبا، فإنه أكمل كتابه واعتمد فيه على النقل وتحصيل الفوائد المحتاج إليه، فأتى بالعجب العجاب من ذلك. ,

وقد كان رحمه الله ورضى عنه، ذا سمة وهمة(٢)، وتجمل وزهد، وعفاف وصيانة، وعظيم علم، وكبير ديانة.

مولده: «رندة» سنة سبعمائة وثلاث وثلاثين، وبها نشأ على أحسن حال وأكمله.

حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم ارتحل لفاس وتلمسان، فقرأ بهما العربية والأصول والفقه، ككتاب «الإرشاد» ومختصر ابن الحاجب الإصلى والفرعى، وتسهيل ابن مالك.

ومن مشايخه: الأبلى، والشريف أبو عبد الله التلمسانى، والأستاذ المجاصى، وآخرون.

سكن مدينة «سلا» وصحب بها أوحد أهل زمانه علما وعبادة، وأفضلهم ورعا وزهادة سيدى الحاج أحمد بن عمر بن عاشر المرسى، فانتفع به كثيرا ثم انتقل بعد وفاته فجعل خطيبا بجامع القرويين - من مدينة فاس - وبقى بها خمس عشرة سنة على ذلك، ثم توفى يوم الجمعة الرابع لشهر رجب الفرد سنة: اثنتين وتسعين(٣) وسبعمائة عن ثلاث وستين سنة أو نحوها، ودفن ب «كيده البراطل»(٤) (فى التيمورية: كديه البراعل). داخل باب الفتوح، وقبره الآن بها مشهور، ومزيته معروفة شرقا وغربا وقد كتب رسائل معروفة، أكثرها كان لسيدى يحيى السراج. , والله أعلم.

---

(١) (عن الشيخ أحمد مزروق من شرحه على الحكم.]
(٢) (فى التيمورية: ذا صمت وسمت، والسمت هيئة أهل الخير، وهو أيضا الوقار والسكينة)
(٣) (فى التيمورية: سنة خمس وتسعين وسبعمائة)
(٤) (فى التيمورية: كديه البراعل)

أبو عبد الله بن عباد الخطيب(١)

شيخ مشايخ الإسلام، وكعبة القاصدين من الأنام حجة الله الولى الكامل والشيخ الفقيه العامل، المصنف السالك العارف، المحقق الربانى، والقطب الفرد الصمدانى، ذو العلوم الباهرة، والمحاسن المتظاهرة، سليل الخطباء، ونتيجة العلماء، البليغ الوجيه، النسيب الحسيب، سيدنا ومولانا شيخ الشيوخ، وملاذ أهل التمكين والرسوخ، الشارب من صافى الشراب، والآتى من الحقائق ما أبهر العقول والألباب. ولى الله الأكبر، وغوث الله الأشهر، سيدى الشيخ الفقيه الخطيب الخاشع الخاشى، الأستاذ العارف بالله، مولانا سيدى محمد بن مولانا سيدى عبد الله بن مولانا سيدى مالك بن مولانا سيدى أبى إسحاق إبراهيم بن مولانا سيدى يحيى بن مولانا سيدى النفرى نسبا، الندى مولدا، الشاذلى طريقة ومشربا، الفاسى مزارا ودارا، الشهير بابن عباد، الصوفى الزاهد الولى.

ولد - رضى الله عنه وأرضاه - ببلدته رندة(٢) عام سبعمائة وثلاثة وثلاثين «٧٣٣» هـ

وكان والده - قدس سره العالى - من الأولياء، ومن الخطباء، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم، وهو ابن سبع سنوات، فأخذ فى تحصيل العلوم ؛ فأخذ علوم أسرار القرآن - من تفسير وقراءة - عن والده، وقرأ عليه كتاب: «قوت القلوب» لأبى طالب المكى، وأجازه بما فيه، وأخذ علم العربية عن خاله، ثم أخذ فى طريق التصوف، بعد أن امتلأ من العلوم الشرعية، فأخذ فى المباحثة على الأسرار الإلهية، حتى أشير إليه، وتكلم فى علوم الأصول والمقامات، والعلل والآفات، فحل كثيرا من المشكلات وألف تآليف عجيبة وتصانيف بديعة غريبة.

وكان - رضى الله عنه - الغالب عليه الحياء من الله تعالى، والتنزل بين يدى عظمته، وتنزيله نفسه منزلة الحشرات، لا يرى لنفسه مزية على مخلوق، لما غلب عليه من هيئة الجلال، وعظمة المالك، وشهود المنة.....

وكان مع ذلك آية فى التحقق، وكان ذا صمت وسمت، وتجمل وزهد، وتواضع وعفاف، معولا فى حل المشكلات على فتح العلام العليم، كثير الوقار والحياء،

---

(١) (عن كتاب: طبقات الشاذلية «باختصار)

(٢) (وهى مدينة فى جنوبى إسبانيا بالقرب من وادى اللبن، تنتج الغلة والزيت والجلود، كانت من أمنع حصون الأندلس، استولى عليها الأسبان ١٤٨٥ م، ونشبت ثورة المسلمين ضدهم ١٥٠١ م بها آثار إسلامية رائعة).

جميل اللقاء، حسن الخلق والخلق، عالى الهمة متواضعا، معظما عند الخاصة والعامة قال الإمام القسطينى: «كنت إذا طلبته للدعاء احمر وجهه واستحيى كثيرا ويدعى لى، وكان أكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير، ويتولى خدمة نفسه وكان الذى طلبه فى وضع الشرح على الحكم العطائية: سيدى أبو زكريا السراج، فلم تسعه مخالفته، وقد قرب بها ـ رضى الله عنه ـ حقائق الشاذلية، كما قرب ابن رشد مذهب الإمام مالك.

قال سيدى أحمد بن زروق: «شرحت الحكم ستة وثلاثين شرحا، فأبى الله إلا ابن عباد فى الظهور والاستعمال» .

ورحل رضى الله عنه إلى طنجة وفاس(١) وتلمسان(٢)٠ وقدم إلى سلا فلقى بها الشيخ الحاج الصالح السنى الزاهد الورع سيدى أبا العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، الولى المشهور، فأقام معه وصحبه سنين مديدة وأخذ عنه طريقة الشاذلى، وانقطع إليه ولازم خدمته إلا أن توفى ـ رضى الله عنه٠٠.

وكانت وفاته ـ رضى الله عنه ونفع به ـ عام: سبعمائة وسبعة وسبعين، «٧٧٧» هـ فرحل سيدى ابن عباد بعد وفاته إلى حضرة فاس، حرسها الله من كل بأس، وتولى الإمام والخطابة بمسجد القرويين من حضرة فاس، ومكث بها خمسة عشر عاما: يدرس ويخطب ويعظ الناس، وله خطب مدونة بالمغرب مشهورة بأيدى الناس، يقرءونها فيما يتعلق بمولد النبى ـ (ﷺ) ـ بين يدى السلطان تبركا، وله ـ رضى الله عنه ـ تلامذة أخيار مباركون. وكان ـ رضى الله عنه ـ مما من الله به عليه: تألُّف قلوب الصغار، فهم يحبونه محبة تفوق محبتهم لآبائهم وأمهاتهم، وينتظرون خروجه للصلاة وهم عدد كثير، يأتون من كل درب ومن المكاتب البعيدة، فإذا رأوه: ازدحموا على تقبيل يديه، وكذا كان ملوك زمانه يزدحمون عليه،

(١) (احدى مدن المملكة المغربية، كانت عاصمة المغرب بها جامعة القرويين المشهورة) وتلمسان
(٢) (تقع شمال الجزائر)٠

ويتذللون بين يديه، وكان إذا خطب فى الناس أبكاهم كبيرا وصغيرا، وكثيرا ما كان يقرأ فى صلاة الجمعة سورة «إذا جاء نصر الله والفتح» وكان يجتمع عموم أهل المغرب يوم الجمعة للصلاة وراءه حتى السلطان وحاشيته وأتباعه، حتى لم يبق بالمسجد مكان خال من الناس، ورفع بعض أهل المغرب تظلما من الوالى، فخطب بحضرة الوالى والشهود: فقال: «من الأمور المستحسنة ألا يبقى الوالى سنة» فكان كما قال.

وكان شيخه ـ رحمه الله ـ يقول: «ابن عباد أمة وحده» ويشير إليه، وكان ـ رحمه الله ـ يشيد بذكره ويقدمه على سائر أصحابه، ويأمرهم بالأخذ عليه والانتفاع به، والتسليم له ويكرر قوله: «ابن عباد أمة وحده» . ولا شك أنه كذلك.

وهو ـ رحمه الله ـ عند أهل فاس بمثابة الإمام الشافعى بمصر. توفى ـ رضى الله عنه ـ بعد صلاة العصر يوم الجمعة بداره، فى الرابع من شهر رجب سنة سبعمائة واثنين وتسعين «٧٢٩» هـ بكدية البراطل، من داخل باب الفتوح، ولما احتضر جعل رأسه فى حجر أبى القاسم من أصحابه، وأخذ يقرأ آيه الكرسى، إلى أن وصل إلى «الحى القيوم» فصار يكررها، فلقنه بعض الحاضرين بقية الآية الشريفة: ظنا منه أنه غير قادر على إتمامها، فقال رضى الله عنه بلسان فصيح:

ماعودونى أحبائى مقاطعة ... عودونى إن قاطعتهم وصلوا

وكان هذا آخر كلامه ـ رضى الله عنه ـ وأمدنا بأسراره.

وحضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد وخواص أتباعه، و«فاس العتيق» التى هى محل الأعلام من الخاص والعام، و«فاس الجديد» التى هى محل الأمراء والعيان، وأرباب المناصب وذوى الشأن. وبعد أن دفنوه ـ رضى الله عنه ـ همت العمة بكسر نعشه: تبركا به.

ومقامه من الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء، وعليه قبة مبنية معقودة،

وضريح يزوره الكبير والصغير، ويتوسل إلى الله به الغنى والفقير، وذو الحاجة والعليل. وما استجار به أحد إلا أجاره.

وله - رضى الله عنه - كلام فى التصوف عال، فمن أراد الوقوف عليه فليراجع تآليفه، وقد ترجم له تراجم حافلة كثير من ساداتنا أهل المغرب ألفوا فى مناقبه مجلدات، منهم: الإمام سيدى أحمد بن زروق، ألف كتابا مستقلا فى مناقبه وفضائله.

وما ذكرت إلا نقطة من بحر متلاطم الأمواج، ففضائله لا تحصى، ومناقبه لا تستقصى، فهو بحر محيط لاساحل له.

اللهم إنا نسـألك بسره لديك، ومكانته عندك، يا الله يا الله يا الله: أن تمدنا بأسراره، وتنفحنا بأنواره، وتميتنا على حبه وحب أوليائك وأحبائك. يا الله.

اللهم إنا قد رفعنا حوائجنا إليك يا الله، فبسره لا تردنا خائبين، واجعلنا من الذين تجرى من تحتهم الأنهار، فى جنات النعيم، واجعل آخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين، آمين آمين. لا أرضى بواحدة حتى أقول ألف آمين» .

غيث المواهب العلية
فى
شرح الحكم العطائية

لأبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبّاد النفزى الرّندى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير إلى الله تعالى، المعتمد فى غفران ذنوبه على الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن عباد النفزى(١) الرندى، لطف الله به:

الحمد لله المنفرد بالعظمة والجلال، المتوحد باستحقاق نعوت الكمال، المنزه عن الشركاء والنظراء والأمثال، المقدس عن سمات الحدث من التغير والانتقال والاتصال والانفصال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادى من الضلال، وعلى آله وأصحابه الذين خلصت لهم الأعمال وصفت لهم الأحوال، وعلى جميع من اتبعهم فيما لهم من محامد الصفات ومحاسن الخلال، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإنا لما رأينا كتاب «الحكم» المنسوب إلى الشيخ الإمام المحقق العارف المكاشف الولى الربانى أبى الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى(٢) رضى الله عنه ونفعنا به، من أفضل ما صنف فى علم التوحيد وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد، لكونه صغير الجرم، عظيم العلم، ذا عبارات رائقة، ومعان حسنة فائقة، قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين، وإبانة مناهج السالكين والمتجردين، أخذنا فى وضع تنبيه(٣) يكون كالشرح لبعض معانيه الظاهرة، وكالكشف للمعة بسيرة من أنواره الباهرة، ولا قدرة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب، وما

(١) النفزى: بكسر النون وسكون الفاء، وزاى، منسوب إلى «نفزة» قبيلة من البربر بأفريقية، كما جاء فى كتاب «تحرير الأنساب» للأمام السيوطى. وضبطها ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان ج ٤ ص ٧٩٩ قال: نفزاوى: بالكسر وزاى وبعد الألف واو مفتوحة: مدينة من أعمال أفريقية وقال البكرى: وتسير من القيروان إلى نفزاوى ستة أيام نحو المغرب»)

(٢) وضبطها صفى الدين الحلبى فى مخطوطته «الإسكندرى» وكذلك فى مخطوطة السيد عبد الكريم المسماة: «غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية» وهذا الضبط وإن كان أصح لغويا إلا أنه على خلاف التسمية المشهورة).

(٣) «ونظرا لقول ابن عباد هذا، فقد وضع بعض النساخ لهذا الشرح اسم: «كتاب التنبيه» وذلك كما جاء فى المخطوطة رقم ٨٩٠ بدار الكتب المصرية، وهى بخط الناسخ صفى الدين الحلبى، والذى فرغ من نسخها فى شوال سنة ١٠١٣ هـ كما أن بعض النساخ أطلق عنوانا آخر على هذا الشرح فأسماه: «غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية» ، وذلك كما فى المخطوطة رقم ١٠٦٩ وهى بخط الناسخ السيد عبد الكريم سنة ١١١٩ هـ ولقد رجعنا إلى هاتين المخطوطتين وغيرهما من المخطوطات الكثيرة التى فى المكتبة الأزهرية، وفى دار الكتب من أجل تحقيق هذا الكتاب النفيس).

تضمنه من لباب اللباب: لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة، وجواهر حكم مكنونة، لا يكشفها إلا هم، ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقى عنهم.

ونحن فى هذه الكلمات التى نوردها، والمناحى التى نعتمدها غير مدعين لشرح كلام المؤلف، ولا أن ما نذكره فيه هو حقيقة مرادهم حسبما يفعله كل مصنف، فإنا إن ادعينا ذلك كان منا إساءة أدب، تئول بنا، والعياذ بالله، إلى العطب، وكنا قد تعرضنا للخطر والضرر، فى تعاطى ما لا يليق بنا من شرح كلام السادة من أهل الله تعالى من غير خوف ولا حذر، وإنما نورد ذلك على حسب ما فهمناه من كلامهم، وما انتهى إلينا علمه من مذاهبهم، فإن وافقنا فيه حقيقة الأمر، وعثرنا على مكنون السر، كان ذلك من النعم التى لا نحصى لها شكرا، ولا نقدر لها قدرا، وإن خالفنا ذلك ولم نهتد إلى تلك المسالك، أحلناه على نقصنا وجهلنا، وانتفى عنا التغرير بقولنا وفعلنا، واقتصر الأمر فى ذلك علينا، وكانوا هم مبرئين مما قلنا ونوينا، فلا جرم إذ كان هذا مقصدنا لوجود السلامة التى جعلناها معتمدنا، فينبغى لنا أن نقدم أولا كلام المؤلف رحمه الله تعالى، مستوفى، ثم نتبعه كلامنا بصيغة الخبر والدعوى، فنأتى فيه بعبارة أبسط من عبارته، وإشارة أجلى من إشارته، ليفهم بذلك ما عندنا فى تفسير ما ذكره، لا أنه تفسيره حقيقة مقررة ونذكر فى أثنائه كثيرا مما ناسب عندى من الكلام المنبه عليه، لتتم بذلك الفائدة فى الغرض المتوجه إليه، وما ظهر لنا فى كلامه من تكرار معان، وتداخل فروع ومبان رأينا التنبيه عليه كالفرض، وأحلنا بعضه على بعض.

وعلى الناسخ(١) لهذا المجموع أن يتبع فيه ما رسمناه، ويكتب نص كلام المؤلف بصبغ يخالف لونه لون ما يكتب به سواه، أو يكتبهما بقلمين مختلفين فى الغلظ والرقة، ويوفى فى ذلك كلا منهما حقه، ليكون ذلك أقرب إلى حصول المرام فى استخراج فائدة ترتيب الكلام، والله الموفق لا رب غيره، ولا خير إلا خيره.

والذى حملنى على وضعه، وتكلف تصنيفه وجمعه، بعد تقدم إرادة الله تعالى التى لا تغلب وتقديره الذى ليس للعبد منه منجى ولا مهرب، ثم الرأى الذى رأيناه من المطالب والمقاصد المعظمة، ونبهنا عليه فى صدر هذه المقدمة، إلحاح بعض الأصحاب فى ذلك على وترددهم بالمسألة إلى، لكونهم على اعتقاد صحيح فى

(١) نسخ الكتاب: نقله واكتتبه حرفا بحرف»

هذه الطريقة، ومحبة خالصة لأهل الحقيقة، فأسعفتهم(١) بما طلبوه، وحققت لهم الأمل فيما رغبوه، كما شاء الله تعالى وحكم، وقضى به علينا وختم، نفعنا الله وإياهم بما يجرى منه على يدينا، ولا جعله حجة عليهم ولا علينا، ونحن نستغفر الله تعالى مما تعاطيناه من الأمر العظيم، واقتحمناه من الخطر الجسيم، ونستعيذ به من الوقوع فى حبائل العدو الرجيم، ونسأله توفيقا يقف بنا على جادة(٢) الاستقامة ويصرفنا عن العمل بما يعقب ملامة أو ندامة، ونرجوه مع هذا إذ من علينا بالانتماء إلى مذاهبهم، والانتساب إلى كريم مناسبهم، والتعلق بأذيالهم، ومحاولة النسج على منوالهم، ورزقنا شيئًا من تعظيمهم وحبهم، وقسطا من تكريمهم وبرهم، ألا يحرمنا من شفاعتهم ولا يخرجنا من كنف ولا يتهم، ولا يطردنا عن بابهم الكريم، ولا يصرفنا عن منهجهم القويم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم:

لى سادة من عزّهم أقدامُهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلى فى ذكرهم عزٌّ وجاه

اللهم إنا نتوسل إليك بحبهم، فإنهم أحبوك، ولم يحبوك حتى أحببتهم فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك، ونحن لم نصل إلى حبهم فيك إلا بحظنا منك، فتمم لنا ذلك حتى نلقاك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم عليهم تسليما كثيرا.

وهذا حين ابتدائى وبالله التوفيق، ومنه الهداية إلى سواء الطريق.

قال المؤلف قدس الله سره:

---

(١) أسعفه بحاجته: قضاها له.

(٢) «الجادة: وسط الطريق، ومعظمه»

«مِنْ عَلَامَةِ الاعتمادِ على العَملِ نُقْصانُ الرَّجاءِ عند وجودِ الزلَّلِ»

أقول: الاعتماد على الله تعالى نعت العارفين الموحدين، والاعتماد على غيره وصف الجاهلين الغافلين كائنا ما كان ذلك الغير حتى علومهم وأعمالهم وأحوالهم.

أما العارفون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ناظرون إلى ربهم، فانون عن أنفسهم، فإذا وقعوا فى زلة أو أصابتهم غفلة، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم، وجريان قضائه عليهم.

كما أنهم إذا صدرت عنهم طاعة أو لاح عليهم لائح من يقظة، لم يشهدوا فى ذلك أنفسهم، ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم، لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره، وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنوار، ولا فرق عندهم بين الحالين، لأنهم غرقى فى بحار التوحيد قد استوى خوفهم ورجاؤهم، فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان، ولا يزيد فى رجائهم ما يأتون به من الإحسان.

قال «شارح المجالس»: «العارفون قائمون بالله قد تولى الله أمرهم، فإذا ظهرت منهم طاعة لم يرجوا عليها ثوابا، لأنهم لم يروا أنفسهم عمالا لها، وإن ظهرت منهم زلة فالديه على العاقل (١). لم يشاهدوا غيره فى الشدة والرخاء قيامهم بالله ونظرهم إليه، وخوفهم: هيبته(٢) ورجاؤهم: الأنس به» ا هـ وأما غيرهم فبقوا مع نفوسهم فى نسبة الأعمال والأفعال إليها، وطلب الحظ لها وعليها، فاعتمدوا على أعمالهم وسكنوا إلى أحوالهم، فإذا وقعوا فى زلة نقص بذلك رجاؤهم كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أعظم عددهم، وأقوى معتمدهم، فتعلقوا بالأسباب، وحجبوا بتصرفهم بها(٣) عن رب الأرباب: فمن وجد هذه العلامة فى نفسه فليعرف منزلته وقدره، ولا يتعد طوره، فيدعى مقامات

(١) وفى نسخة: فالدية على القاتل، وفى نسخة أخرى: على العاقلة، أى:على جنابه عز وجل، فإن عاقلة الرجل: المانعون له، والعارفون ليس لهم مانع إلا الله، فهو لم يشاهدوا غيره، كما أن الرجل لم ينتسب فى الدنيا لغير أهله وعاقلته، وفى اللغة: عاقلة الرجل قرابته من جهة الأب، وعقل القتيل أدى ديته وسميت الدية عقلا، لأنها تعقل الدماء من أن تراق، ولأن الدية كانت إذا أخذت من الإبل تجمع فتعقل ثم تساق إلى ولى الجناية، والعاقلة الذين يؤدونها).

(٢) «وفى نسخة: هيبتهم».

(٣) «وفى نسخة: بتفرقهم»

الخاصة من المقربين، وإنما هو من عامة أصحاب اليمين، وستأتى إشارات إلى هذا المعنى فى مواضع من كلام المؤلف، قدس الله سره وقد ذكر الشيخ «أبو عبد الرحمن السلمى(١) و «الحافظ أبو نعيم الأصبهانى»(٢) عن «يوسف بن الحسين الرازى»(٣) رضى الله عنهم أنه قال: «عارضنى بعض الناس فى كلام وقال لى: لا تستدرك مرادك من عملك إلا أن تتوب، فقلت مجيبا: لو أن التوبة تطرق بابى ما أذنت لها، على أنى أنجو بها من ربى، ولو أن الصدق والإخلاص كانا عبدين لى لبعتهما زهدا منى فيهما: لأنى إن كنت عند الله فى علم الغيب سعيدا مقبولا، لم أتخلف باقتراف الذنوب والمآثم، وإن كنت عنده شقيا مخذولا لم تسعدنى توبتى ولا إخلاصى وصدقى، وإن الله خلقنى إنسانا بلا عمل ولا شفيع كان لى إليه وهدانى لدينه الذى ارتضاه لنفسه، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٤).

فاعتمادى على فضله وكرمه أولى بى إن كنت حرا عاقلا من إعتمادى على أفعالى المدخولة(٥) وصفاتى المعلولة: لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة معرفتنا بالكريم المتفضل».

قلت: وهذه الحكاية وأمثالها ربما تقرع سمع من لا حقيقة عنده من طريق القوم، فينكر معناها ولا يعتقده أو يسلمه ويدعيه مقاما لنفسه، وكلتا الحالتين مؤدية بصاحبها إلى ضرر وخطر، فليتق الله تعالى عبد ليس له بصر فى هذه الطريقة أن ينكر ماذكرناه فيقع فى الاعتراض على السادة والأولياء، وفى ذلك

---

(١) «هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدى السلمى، أبو عبد الرحمن:من علماء الصوفية وله تصانيف عديدة منها: «حقائق التفسير» و«طبقات الصوفية» و«الفتوة» و «أدب الصحبة» مولده ووفاته بنيسابور ولد سنة ٣٣٠هـ ٩٤٢م وتوفى ٤١٣هـ ١٠٢١ م».

(٢) « هو الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠ ه وهو المحدث الشهير وصاحب كتاب: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»

(٣) « هو شيخ الرى فى وقته «كان أوحد فى طريقته فى إسقاط الجاه، وترك التصنع، واستعمال الإخلاص» ومن كلامه «من ذكر الله بحقيقة ذكره نسى ذكر غيره ومن نسى ذكر كل شئ فى ذكره، حفظ عليه كل شئ إذ كان الله له عوضا من كل شئ» مات سنة أربع وثلاثمائة من الهجرة).

(٤) «من آية ٨٥من سورة آل عمران»

(٥) أى: الفاسدة، يقال دخل «بكسر الخاء» أى: داخله الفساد فهو مدخول»

بعده عن الله تعالى، أو يدعيه مقاما لنفسه من غير أن يستظهر عليها ويتوثق منها، ويزنها بالمعيار الذى نبهنا عليه، ومحال وجود ذلك ممن لم يصحح مقام الفناء عن النفس، فيرتكب حينئذ مساخط(١) الله تعالى ويتعدى حدوده، ويجعل ذلك حجة لنفسه غلطا وجهلا، وهذا باب من الزندقة والعياذ بالله سبحانه وتعالى.

«إرادَتُكَ التَّجْريدَ مع إقامة الله إيَّاكَ فى الأسباب من الشَّهْوةِ الخَفِيَّة، وإرادتُكَ الأسبابَ مع إقامةِ الله إيَّاكَ فى التجريد انحطاطٌ عن الهمَّة العَليَّة».

الأسباب هاهنا، عبارة: عما يتوصل به إلى غرض مما ينال فى الدنيا.

والتجريد، عبارة: عن عدم تشاغله بتلك الأسباب «الدنيوية»: لأجل ذلك فمن أقامه الحق تعالى فى الأسباب، وأراد هو الخروج منه، فذلك من شهوته الخفية، وإنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به وإرادته هو خلاف ذلك، وإنما كانت خفية، لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل، وإنما قصد بذلك التقرب إلى الله تعالى بكونه على حال هى أعلى بزعمه، لكن فاته الأدب، بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من إقامته إياه فيما أقامه فيه، وتطلعه إلى مقام رفيع لا يليق(٢) به فى الوقت.

وعلامة إقامته إياه في الأسباب أن يدوم له ذلك «أى: التفاته وطلبه» وأن تحصل له ثمرته ونتيجته، وذلك بأن يجد عند تشاغله بالأسباب سلامة فى دينه، وقطعا لطمعه عن غيره، وحسن نية فى صلة رحم، أو إعانة فقير معدم إلى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين.

ومن أقامه الحق تعالى فى التجريد وأراد هو الخروج منه إلى الأسباب فذلك من انحطاط همته وسوء أدبه، وكان واقفا مع شهوته الجلية، لأن التجريد مقام رفيع أقام الحق تعالى فيه خواص عباده من الموحدين والعارفين، فإذا أقامه الحق تعالى مقام الخواص فلم ينحط عن رتبتهم إلى منازل أهل الانتقاص؟

قال الشيخ «أبو عبد الله القرشى» رضى الله عنه: «من لم يأنف من مشاركة الأنداد فى الأسباب فهو خسيس الهمة» وعلامة إقامته إياه فى التجريد ما ذكرناه من الدوام ووجدان الثمرة، ومن ثمرات ذلك طيب وقت المتجرد، وصفاء قلبه

---

(١) «ما يستوجب سخط الله وغضبه»
(٢) «وفى نسخة: يلحق»

ووجدان راحته من ملابسة الخلق ومخالطتهم.

والهمة: حالة للقلب، وهى: قوة إرادة، وغلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما، وتكون عالية، إن تعلقت بمعالى الأمور، وسافلة، إن تعلقت بأدانيها، وقال الشاعر وأجاد:

وقائلة لم علتك الهموم
وأمرك ممتثل فى الأمم
فقلت: ذرينى على حالى
فإن الهموم بقدر الهمم

وقال الآخر:

إذا عطشتك أكف اللئام
كفتك القناعة شبعا وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى
وهامة همته فى الثريا
فإن إراقة ماء الحياة
دون إراقة ماء المحيا

وما ذكرته من معانى الإقامة فى نوعى الأسباب والتجريد هو شئ فهمته مما يقوله بعد هذا «من علامة إقامة الحق لك فى الشئ لإدامته إياك فيه مع حصول النتائج» والله أعلم.

وقد ذكر فى «التنوير»(١) هذه المسألة بنصها حاكيا عن هذا الكتاب، وقال بأثره: «وافهم ـ رحمك الله ـ أن من شأن العدو أن يأتيك فيما أنت فيه مما أقامك الله فيه فيحقره عندك لتطلب غير ما أقامك الله فيه، فيشوش عليك قلبك، ويكدر وقتك، وذلك أنه يأتى للمتسببين، فيقول لهم: لو تركتم الأسباب وتجردتم لأشرقت لكم الأنوار، ولصفت منكم القلوب والأسرار، وقائلا أيضا: وكذلك صنع فلان وفلان، ويكون هذا العبد ليس مقصودا بالتجريد ولا طاقة له به، إنما صلاحه فى الأسباب، فيتركها، فيتزلزل إيمانه، ويذهب إيقانه، ويتوجه إلى الطلب من الخلق،

(١) « التنوير فى إسقاط التدبير: كتاب من الكتب العديدة القيمة التي ألفها الإمام الربانى ابن عطاء الله السكندرى، وقد ذكر الشيخ الهدف من تأليفه لهذا السفر عندما قال فى مقدمته: «إن من طلب الوصول إلى الله تعالى فحقيق عليه أن يأتى الأمر من بابه، وأن يتوسل إليه بوجود أسبابه. وأهم ما ينبغى تركه والخروج عنه والتطهر منه وجود التدبير ومنازعة المقادير، فصنعت هذا الكتاب مبينا ذلك، ومظهرا لما هناك وسميته «التنوير فى إسقاط التدبير» ليكون إسمه موافقا لمسماه ولفظه مطابقا لمعناه»

وإلى الاهتمام بأمر الرزق فيرمى فى بحر القطيعة، وذلك قصد العدو منه، لأنه إنما يأتيك فى صورة ناصح كما أتى أبويك فيما أخبر الله تعالى عنه، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ⦗٢٠⦘ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾(١) كما تقدم بيانه.

وكذلك يأتى المتجردين، ويقول لهم: إلى متى تتركون الأسباب؟ ألم تعلموا أن ترك الأسباب تتطلع معه القلوب إلى ما فى أيدى الناس ويفتح باب الطمع ولا يمكنكم الإسعاف والإيثار، ولا القيام بالحقوق وعوض ما تكون منتظرا ما يفتح الله به عليك من الخلق، فلو دخلت فى الأسباب بقى غيرك منتظرا ما يفتح الله به عليه منك إلى غير ذلك.

ويكون هذا العبد قد طاب وقته، وانبسط نوره، ووجد الراحة بالانقطاع عن الخلق، فلا يزال به حتى يعود إلى الأسباب فتصيبه كدورتها، وتغشاه ظلمتها، ويعود الدائم فى سببه أحسن حالا منه: لأن ذلك ما سلك طريقا، ثم رجع عنها، ولاقصد مقصدا ثم انعطف(٢) عنه فافهم، واعتصم بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

وإنما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضى عن الله فيما هم فيه، وأن يخرجهم عن مختار الله لهم إلى مختارهم لأنفسهم، وما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليك﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْلِي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾(٣) فالمدخل الصدق: أن تدخل فيه «بربك»، لا بنفسك والمخرج الصدق أيضا كذلك، فافهم.

والذى يرتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك، حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجك كما تولى إدخالك، وليس الشأن أن تترك السبب، بل الشأن أن يتركك السبب.

---

(١) آيتا ٢٠، ٢١ من سورة الأعراف
(٢) مال.
(٣) « آية رقم ٨٠ من سورة الإسراء»

قال بعضهم: «تركت السبب كذا كذا مرة، فعدت إليه، ثم تركنى السبب فلم أعد إليه».

ودخلت(١) على الشيخ - رضى الله عنه - وفى نفسى العزم على التجريد قائلا فى نفسى، إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحال بعيد من الاشتغال بالعلوم الظاهرة ووجود المخالطة للناس، فقال من غير أن أسأله: صحبنى إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها فذاق من هذه الطريقة شيئا فجاء إلى فقال يا سيدى أخرج عما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أنت فيه وما قسم الله لك على أيدينا فهو إليك واصل، ثم قال الشيخ ونظر إلى: وهكذا شأن الصديقين لا يخرجون من شئ حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى. ووجدت الراحة فى التسليم إلى الله تعالى، ولكنهم كما قال رسول الله (ﷺ): هم القوم لا يشقى بهم جليسهم(٢) انتهى كلامه فى التنوير فى هذا المعنى، وهو كلام حسن، وإنما أثبتناه هاهنا على طوله، لأنه فيه بيان مسألته التى ذكرها فى هذا الكتاب بنفسه بيانا شافيا، فنقلناه بلفظه، ووددنا لو أن جميع مسائله تكون هكذا.

---

(١) «الداخل هو ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه والشيخ هو أبو العباس المرسى رضى الله عنه».

(٢) هم القوم لايشقى بهم جليسهم: هذه الجملة المباركة هى نهاية حديث رواه الإمام البخارى، رضى الله عنه: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ) إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادى؟ قال يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول: هل رأونى؟ قال فيقولون: لا والله يارب ما رأوك قال فيقول: كيف او رأونى؟ قال يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا قال فيقول: فما يسألونى؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة، قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال، يقولون: لا والله يارب ما رأوها قال فيقول: فكيف لو رأوها قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة: قال فمم يتعوذون؟ قال يقولون: يتعوذون من النار قال فيقول: وهل رأوها؟ قال يقولون: لا والله ما رأوها قال فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة قال فيقول: أشهدكم أنى غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال:هم القوم لا يشقى بهم جليسهم وهذا الحديث رواه الإمام مسلم ونهايته كما يلى: «قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا قال يقولون: رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم؟ قال فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»

«سَوابِقُ الهِمَم لاتَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدَارِ»

الهمم السوابق هى: قوى النفس التى تنفعل بها بعض الموجودات بإذن الله تعالى، وتسميها الصوفية «همة» فيقولون: أحال فلان همته على أمر ما فانفعل له ذلك، وهذه الهمم السابقة لا تنفعل الأشياء عنها إلا بالقضاء والقدر وهو معنى قولنا بإذن الله تعالى: فهى على حال سبقيتها ونفوذها لا تخرق أسوار الأقدار ولا تنفذها(١).

وهذه الهمم قد تكون الأولياء كرامات، وقد تكون لغيرهم استدراجا ومكرا كما تكون للعائن(٢).

وقد ثبت أن العين حق، والسحر حق، ومعناه ما ذكرناه .

وحاصل ذلك أنه يجب أن يعتقد أنها أسباب لا تأثير لها ولا فاعلية، وأن الفاعل هو الله وحده «وجد الفعل» عندها لا بها وكأن المؤلف رحمه الله إنما أورد هذه المسألة بين يدى كلامه فى «التدبير»(٣) ليعرفك بذلك أن وجود التدبير لا جدوى له ولا فائدة، لأن الهمة الفعالة إذا لم تفد فى خرق أسوار الأقدار شيئا فكيف يفيد فى ذلك التدبير؟ وما لا فائدة فيه فضول لا ينبغى أن يتشاغل به، ويتعب فيه ذوو العقل، ولذلك قال:

---

(١) قال فى القاموس المحيط: أنفذ الأمر قضاه والقوم: صار منهم أو خرقهم ومشى فى وسطهم ونفذهم جازهم وتخلفهم كأنفذهم، وطريق نافذ: سالك والنافذ الماضى فى جميع أموره».
(٢) «العائن هو من يصيب بالعين أى الحاسد» والساحر.
(٣) « فى الحكمة التالية»

«أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لاتَقُم بِهِ لنفسكَ»

تدبير الخلق لأمور دنياهم على الوجه الذى نقوله(١) مذموم لأن الله تعالى قد تكفل لهم بذلك، وقام به عنهم، وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه، ويقوموا بحق عبوديته ووظائف تكليفاته فقط وهو أن يقدر العبد لنفسه شئونا يكون عليها من أمر دنياه على ما تقتضيه شهوته وهواه، ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال، ويستعد لذلك ويهتم لأجله، وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع، فيخيب ظنه، ويبطل سعيه، ثم فيه من ترك العبودية ومضادة أحكام الربوبية ومنازعة القدر، وإضاعة العمر ما يحمل العاقل على تركه واجتنابه وقطع موارده وأسبابه، قال سهل بن عبد الله(٢) رضى الله عنه: «ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم» قال سيدى أبو الحسن الشاذلى: «إن كان ولابد من التدبير فدبروا ألاتدبروا»:

وهذه المسألة أساس طريق القوم، بل هى جملته وكليته(٣) والكلام فيها طويل عريض، وإنما اقتصرنا فيها على هذا القدر اليسير من التنبيه، لأن المؤلف، رحمه الله افرد فى هذا المعنى كتابا سماه «التنوير فى إسقاط التدبير» أحسن فيه غاية الإحسان، وقرب الأمر فيه بحيث يستغن به عما صنف فى هذه الطريقة من ديوان، فتحصيله متعين على كل مريد نجيب.

---

(١) «وفي نسخة: يقوله»

(٢) «هو: سهل بن عبد الله بن يونس التسترى: أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الإخلاص والرياضات وعيوب الأفعال له كتاب فى «تفسير القرآن» مختصر، انظر ترجمته فى الأعلام للزركلى ج١ ص ٢٩٦ وطبقات الصوفية والوفيات حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع وهو ابن عشر فيحسن الإجابة وله سنة ٢٠٠ هـ ٨١٦م ومن حكمه قوله: «حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت» وقوله «ما أعطى أحد شيئا أفضل من علم يستزيد به افتقارا إلى الله»

(٣) «لعل القارئ لم ينس الحكمة الثانية التى بدأها مؤلف الحكم بقوله: «إرادتك التجريد. . » ولعله يقرن بينها وبين الحكمة الحالية فيكمل المعنى الذى أراده الصوفية فى هذا الموضوع».

«اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منكَ دليلٌ على انْطمَاسِ البصيرةِ منْكَ»

الشئ المضمون للعبد هو رزقه الذى يحصل له به قوام وجوده فى دنياه ومعنى كونه مضمونا: أن الله تعالى تكفل بذلك وفرغ العباد عنه، ولم يطلب منه الاجتهاد فى السعى فيه ولا الاهتمام له.

والشئ المطلوب من العبد: هو العمل الذى يتوصل به إلى سعادة الآخرة والقرب من الله تعالى من عبادات وطاعات.

ومعنى كونه مطلوبا أنه موكول إلى اكتساب العبد له واجتهاده فيه، ومراعاة شروطه وأسبابه وأوقاته، بهذا جرت سنة الله فى عباده: قال الله عز وجل فى المعنى الأول الذى ضمنه للعبد:﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾(١)..

وقال تعالى فى المعنى الثانى الذى طلبه من﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾(٢).

وقد روى فى بعض الآثار: أن الله تعالى يقول: «عبدى أطعنى فيما أمرتك ولاتعلمنى بما يصلحك» وذكر فى الخبر عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «ما بال أقوام يشرفون المترفين، ويستخفون بالعابدين، ويعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم، وما خالف أهواءهم تركوه فعند ذلك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، يسعون فيما يدرك بغير سعى من القدر المقدور والأجل المكتوب والرزق المقسوم، ولايسعون فيما لا يدرك إلا بالسعى من الجزاء الموفور، والسعى المشكور، والتجارة التى لا تبور.

وقال «إبراهيم الخواص»(٣): «العلم كله فى كلمتين: لا تتكلف ما كفيت،

---

(١) « آية ٦٠ من سورة العنكبوت.

(٢) « آية ٩ من سورة النجم»

(٣) «هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص من أقران الجنيد والنورى له فى التوكل والرياضات حظ كبير مات بالرى سنة: ٢٩١هـ «انظر فى ترجمته ص ١٣٦ ج١ من الرسالى القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف» ومن كلامه: «من لم يصبر لم يظفر» و«على قدر إعزاز المؤمن لأمر الله، يلبسه الله من عزه، ويقيم له العز فى قلوب المؤمنين، وذلك قوله تعالى: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» و«دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين».

ولاتضيع ما استكفيت» فمن قام بهذا الأمر على ما ينبغى له من الوجه الذى ذكرناه: من الاجتهاد فى الأمر المطلوب منه، وتفريغ القلب من الأمر المضمون له، فقد انفتحت بصيرته، وأشرق نور الحق فى قلبه، وحصل على غاية المقصود.

ومن عكس هذا الأمر فهو مطموس البصيرة، أعمى القلب، وفعله دليل على ذلك.

والبصيرة: ناظر القلب، كما أن البصر: ناظر العين.

وناظر القلب إنما ينظر إلى العاقبة، والعاقبة للمتقين، فالتقوى هى التى يجب على العبد أن يجتهد فيها ولا يتوانى، ويقصر عما يمنع منها.

وتعبير المؤلف، رحمه الله، بالاجتهاد إشعار بأن طلب الرزق من غير اجتهاد فيه غير مقصود بالكلام، وهو كذلك، لأنه مباح ومأذون فيه، فلا يدل ذلك على انطماس بصيرة صاحبه، إلا إن اقترن به تقصير فيما أمر به، قال فى «التنوير» فى قوله تعالى:﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾(١) أى: قم بخدمتنا، ونحن نقوم لك بقسمتنا، وهما شيئان: شئ ضمنه الله لك فلا تهتم به وشئ طلبه منك فلا تهمله(٢).

فمن اشتغل بما ضمن له عما طلب منه فقد عظم جهله واتسعت غفلته وقل أن يتنبه لمن يوقظه، بل حقيق على العبد أن يشتغل بما طلب منه عما ضمن له، إذا كان الله سبحانه وتعالى قد رزق أهل الجحود فكيف لا يرزق أهل الشهود؟ وإذا كان قد أجرى رزقه على أهل الكفران، كيف لا يجرى رزقه على أهل الإيمان؟ فقد علمت أيها العبد أن الدنيا مضمونة لك، أى: مضمون لك منها ما يقوم بأودك، والآخرة مطلوبة منك أى: العمل لها، لقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾(٣) فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة واهتمامك فيما ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك بما طلب منك من أمر الآخرة؟

حتى قال بعضهم: «إن الله تعالى ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة، فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا»

---

(١)« آية ١٣٢ من سورة طه»
(٢) الاجتهاد فى طلب الرزق هو هذا النوع من التكالب أو الجشع وهذا هو المرذول.
(٣) « آية ١٩٧ من سورة البقرة.

«لايكُنْ تَأخُّرُ أمَدِ العَطاءِ مَعَ الإلحاحِ فى الدُعَاءِ مُوجِباً ليأسك فهو الذى ضَمِنَ لَكَ الإجابةَ فيما يختارُ لكَ، لا فيما تختَارُه لنَفْسكَ، وفى الوقْتِ الذى يرُيدُ لا فى الوقْتِ الذى تُريد»

حكم العبد أن لا يختار شيئا على مولاه، ولايجزم بصلاحية حال من الأحوال له، لأنه جاهل من كل وجه، قد يكره الشئ وهو خير له، ويحب الشئ وهو شر له.

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى(١)» رضى الله عنه: «لاتختر من أمرك شيئا واختر أن لاتختار، وفر من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شئ إلى الله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾(٢).

ودخل رجل على سيدى أبى العباس المرسى(٣) رضى الله عنه، وهو يتألم لما به، فقال الرجل: عافاك الله ياسيدى.

فسكت ولم يجاوبه، ثم سكت ذلك الرجل ساعة، ثم قال: الله يعافيك ياسيدى.

فقال له الشيخ أبو العباس: «وأنا ما سألت الله العافية؟ فقد سألته العافية، والذى أنا فيه هو العافية، هذا رسول الله (ﷺ) قد سأل الله العافية وقد قال: ما ذالت أكلة خيبر تعاودنى، والآن قد قطعت أبهرى وهذا سيدنا عمر رضى الله عنه،

---

(١) «هو أبو الحسن على الشاذلى بن عبد الله بن عبد الجبار ينتهى نسبة إلى سيدنا الحسن بن على بن أبى طالب، ولد بقرية قريبة من مدينة «سبتة» ببلاد المغرب سنة ٥٩٣ هـ قال عنه صاحب كتاب «المفاخر»: إنه صاحب الإشارات العلية والعبارات السنية جاء فى طريق القدم بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب الذى جمع بين العلم والحال أو الهمة والمقال تخرج بصحبته جماعة من الأكابر مثل أبى العباس المرسى وأبى العزائم ماضى وتلمذ له أعيان كثيرة من أعيان أهل الله توفى سنة ٦٥٦ هـ «انظر ترجمته مفصلة فى كتاب «المدرسة الشاذلية» بقلم الدكتور عبد الحليم محمود الناشر دار المعارف

(٢) « سورة القصص: الآية ٦٨»

(٣) «أبو العباس المرسى ولد فى الأندلس فى بلدة «مرسيه» سنة ٦١٦هـ ١٢١٩ م يتصل نسبه بأنصار ونشأ على الصلاح والتقوى اتصل بالإمام أبى الحسن الشاذلى وتلقى عنه حتى صار ثانى خلفاء الطريقة الشاذلية مات سنة ٦٨٦هـ بالإسكندرية. «انظر كتاب قضية التصوف المدرسة الشاذلية، تأليف الدكتور عبد الحليم محمود»

سأل الله العافية، وبعد ذلك مات مطعونا، وسيدنا عثمان رضى الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مذبوحا وسيدنا على رضى الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مقتولا، فإذا سألت الله العافية فاسأله العافية من حيث يعلمها لك أنها عافية» اهـ

فعلى العبد أن يسلم نفسه إلى مولاه، ويعتقد أن الخيرة له فى جميع ما به يتولاه، وإن خالف ذلك مراده وهواه، فإذا دعا وطلب من مولاه شيئا يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالإجابة لا محالة، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾(٢).

وعن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم(٣).

وعن أنس رضى الله عنه، عن النبى (ﷺ) قال: «ما من داع يدعو إلا استجاب الله له دعوته، أو صرف عنه مثلها سوءا أو حط من ذنوبه بقدرها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم».

فإذن الإجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق إلا أن الإجابة أمرها إلى الله تعالى يعجلها(٤) متى يشاء، وقد يكون المنع وتأخير العطاء إجابة وعطاء لمن فهم عن الله تعالى فى ذلك فلم ييأس العبد من فضل الله

---

(١) «آية ٦٠ سورة غافر»

(٢) آية ١٨٦ من سورة البقرة»

(٣) «وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله تعالى إياها أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» فقال رجل من القوم: إذن نكثر، قال الله أكثر رواه أحمد والبزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة، والحاكم وقال صحيح الإسناد».

(٤) «وفى أكثر من نسخة: يجعلها»

تعالى إذا رأى منعا أو تأخيرا، وإن ألح فى دعائه وسؤاله، وقد يكون تأخير ذلك إلى الآخرة خيرا له، فقد جاء فى بعض الأخبار: «يبعث عبدا(١)، فيقول الله تعالى: ألم آمرك برفع حوائجك إلى، فيقول: بلى(٢) وقد رفعتها إليك، فيقول الله تعالى: ما سألت شيئا إلا أجبتك فيه ولكن أنجزت لك البعض فى الدنيا، وما لم أنجزه فى الدنيا فهو مدخر لك، فخذه الآن، حتى يقول ذلك العبد: ليته لم يقض لى حاجة فى الدنيا».

وقد ورد عن رسول الله (ﷺ) معنى النهى عن الاستعجال فى إجابة الدعاء فى قوله: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لى»٠

وقد دعا موسى وهارون عليهما السلام على فرعون، فيما أخبر الله به عنهما حيث قالا ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾(٣) ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٤) قالوا: وكان بين قول الله تعالى لهما قد أجيبت دعوتكما وهلاك فرعون أربعون سنة.

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى، رضى الله عنه، فى قوله تعالى «فاستقيما» أى على عدم استعجال ما طلبتما، «ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون»: وهم الذين يستعجلون الإجابة.

---

(١) «وفى بعض النسخ يبعث الله عبدا، وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى (ﷺ) قال: «يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه، فيقول: عبدى إنى أمرتك أن تدعونى ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعونى؟ فيقول: نعم يارب، فيقول: أما إنك لم تدعنى بدعوة إلا استجبت لك، أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك؟ فيقول: نعم يارب، فيقول: إنى عجلتها لك فى الدنيا، ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجا قال: نعم يارب فيقول: إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ودعوتنى فى حاجة أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها، فيقول نعم يارب، فيقول إنى عجلتها لك فى الدنيا، ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها فيقول: نعم يارب، فيقول: إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا» قال رسول الله (ﷺ): فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له: إما أن يكون عجل له فى الدنيا، وإما أن يكون ادخر له فى الآخرة، قال: فيقول المؤمن فى ذلك المقام: ياليته لم يكن عجل له شئ من دعائه» رواه الحاكم».

(٢) «وفى بعض النسخ «نعم» والأصح لغويا: بلى لأن بلى جواب لما بعد النفى»

(٣) «الآية ٨٨ من سورة يونس»

(٤) « آية ٨٩ من سورة يونس»

وناهيك شرفا وحظا ما يحصل به، بسبب مداومة الدعاء من الظفر بمحبة الله تعالى، وموافقة رضاه، فقد روى عن النبى (ﷺ) أنه قال: «إن الله يحب الملحين فى الدعاء»(١)

وقد جاء فى الحديث: «قال جبريل عليه السلام: يا رب عبدك فلان أقض له حاجته، فيقول: دعوا عبدى، فإنى أحب أن أسمع صوته رواه أنس بن مالك عن رسول الله (ﷺ).

ومقتضى هذا: أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته، وقد روى هذا المعنى أيضا منصوصا، فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه، قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى، رضى الله عنه: «كل من لم يكن فى دعائه تاركا لاختياره وراضيا باختيار الحق فهو مستدرج، وهو ممن قيل له: اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته، فإذا كان فى دعائه مع اختيار الحق تعالى، لا مع اختيار نفسه، كان مجابا وإن لم يعط، والأعمال بخواتيمها» ا هـ.

وقد تكون الإجابة مرتبة على شروط لا علم للداعى بها فتتأخر، لعدم وقوع ذلك أو بعضه، وذلك مثل وجود الاضطرار، قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(٢) فرتب الإجابة على وجود الاضطرار. وقال بعض العارفين: «إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد رزقه الاضطرار فى الدعاء».

والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه فى جميع حالاته، قال بعضهم: «المضطر الذى إذا رفع إلى الله يده لم ير لنفسه عملا»وهذا حال شريف ومقام منيف يعز على أكثر الناس الوصول إليه، فكيف يتحقق مما ينبنى عليه، وفى المسألة التى تأتى بأثر هذا تنبيه على هذا المعنى:

«لايُشَكِّكَنكَ فى الوَعْد عَدَمُ وقُوع المَوعُود، وإنْ تَعَيَّن زَمَنُه لئَلا يكُونَ ذَلكَ قَدْحاً فى بَصيرتَكَ، وإخمْاَداً لنُور سَريرتكَ».

الحق سبحانه لا يخلف الميعاد، فمن وعده مولاه شيئا، وإن كان معين الزمن، ثم لم يقع ذلك الموعود فلا ينبغى أن يشككه ذلك فى صدق وعد ربه، ويجوز أن

(١) « ومن هذا القبيل ما رواه ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»

(٢) «آية ٦٢ من سورة النمل»

يكون وقوع ذلك الوعد معلقا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد، فعلى العبد أن يعرف قدره، ويتأدب مع ربه، ويسكن إليه فيما وعده به ويطمئن إليه ولا يتشكك في ذلك ولا يتزلزل إعتقاده فيه، فمن كان على هذا الوصف فهو عارف بالله تعالى سالم البصيرة، منور السريرة، وإلا فعلى العكس.

«إذَا فَتَحَ لكَ وجْهةً منَ التَّعرُفَ فلا تُبَال مَعَهَا إنْ قَلَّ عَمَلُكَ، فإنَّهُ ما فَتَحَها لَك إلاَّ وهو يُريدُ أن يَتَعَرَّفَ إليكَ، ألمْ تَعْلَم أنَّ التَّعَرُفَ هُو مُوردُهُ عَليَكَ، والأعْمَالَ أنتَ مُهْديهَا إليه، وأينَ مَا تُهْديه إليه ممَّا هُو مُوردُهُ عَلَيْكَ؟!»

معرفة الله تعالى هي غاية المطالب ونهاية الآمال والمآرب، فإذا واجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها، وفتح له باب التعرف له منها، وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها، فذلك من النعم الجزيلة عليه، فينبغي أن لا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر، وما يترتب عليها من جزيل الأجر، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقربين والمؤدي إلى حقائق التوحيد واليقين، من غير اكتساب من العبد ولا بعمل، والأعمال التي من شأنه أن يتلبس بها هي باكتسابه وبعمله، فلا تسلم من دخول الآفات عليها والمطالبة بوجود الإخلاص فيها، وقد لا يحصل له ما يريد من الثواب عند مناقشة الحساب وأين أحدهما من الآخر.

ومثاله: مايصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التي تنغص عليه لذات الدنيا، وتمنعه من تكثير أعمال البر، فإن مراده أن يستمر بقاؤه في دنياه، طيب العيش ناعم البال ويكون حالة في طلب سعادة الآخرة حال المترفين المتورعين، فلا تسخو نفسه إلا بالأعمال الظاهرة التي لا كبير مؤنة عليه فيها، ولا مشقة، ولا تقطع عليه لذته ولا تفوته شهوته.

ومراد الله منه: أن يطهره من أخلاقه اللئيمة، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة، ويخرجه من أسر وجوده إلى متسع شهوده، ولا سبيل له إلى الوصول

إلى هذا المقام على غاية الكمال والتمام، إلا بما يضاد مراده، ويشوش عليه معتادة، ويكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن، ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة.

فإذا فهم هذا علم أن اختيار الله له ومراده منه خير له من اختياره لنفسه ومراده لها.

وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: أنزلت بعبدى بلائى فدعانى، فماطلته بالإجابة فشكانى، فقلت: عبدى كيف أرحمك من شئ به أرحمك.

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: قال الله تبارك وتعالى: إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عواد أنشطته(١) من عقالى، وأبدلته لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، ويستأنف العمل».

وروى عن سعيد المقبرى قال: سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال الله تبارك وتعالى: «إنى أبتلى عبدى المؤمن، فإذا لم يشكنى إلى عواده حللت عنه عقدى، وبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ثم قلت له: استأنف العمل».

قال أبو عبد الله محمد بن على الترمذى(٢) رضى الله عنه: «ولقد مرضت فى

---

(١) «أى: حللته»

(٢) «الترمذى: نسبة إلى «ترمذ» مدينة على طرف نهر بلخ المسمى ب «جيحون» قال الحافظ بن النجار فى تاريخه: «كان إماما من أئمة المسلمين له التصانيف الكثيرة فى التصوف وأصول الدين، ومعانى الحديث» وقال الكلاباذى فى «التعرف» هو: من أئمة الصوفية وقال ابن عطاء الله:كان الشاذلى والمرسى يعظمانه ويقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة ومن حكمه أنه قال: «ما استصغرت أحدا من المسلمين إلا وجدت نقصا فى معرفتى وإيمانى، وما منع الناس من الوصول إلا لركضهم فى الطريق بغير دليل» ومنها: «ليس الفوز هناك بكثرة الأعمال، إنما الفوز هناك بإخلاص الأعمال وتحسينها» ومنها عن الصلاة: «دعا الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم، فهيأ لهم فيها ألوان الضيافات، لينال العبد من كل قول وفعل شيئا من عطاياه فالأفعال كالأطعمة، والأقوال كالأشربة، وهى عرس الموحدين» ومنها: «العاقل من اتقى ربه وحاسب نفسه» ومنها: «صلاح خمسة أصناف فى خمسة مواطن: صلاح الصبيان فى الكتاب، وصلاح القطاع فى السجن، وصلاح النساء فى البيوت، وصلاح الفتيان فى العلم، وصلاح الكهول فى المساجد).
ويرجع فى ترجمته إلى الجزء الأول من الرسالة القشيرية ص١٢٧

سالف أيامى مرضة، فلما شفانى الله تعالى منها مثلت فى نفسى ما دبر الله تعالى من هذه العلة فى مقدار هذه المدة وبين عبادة الثقلين فى قدر أيام علتى، فقلت: لو خيرت بين هذه العلة وبين أن تكون لى عبادة الثقلين فى مقدار مدتها إلى أيهما يميل اختيارى؟ فصح عزمَى، ودام يقينى، ووقفت(١) بصيرتى أن مختار الله تعالى أكثر شرفا، وأعظم خطرا(٢)، وأنفع عاقبة، وهى العلة التى دبرها لى ولا شوب فيه إذ كان فعله، فشتان بين فعله بك لتنجو به وبين فعلك لتنجو به فلما رأيت ذلك دق فى عينى عبادة الثقلين فى مقدار تلك المدة فى جنب ما أتانى، فصارت العلة عندى نعمة، وصارت النعمة منة وصارت المنة أملا، وسار الأمل عطفا، فقلت فى نفسى: بهذا كانوا يستمرون فى البلاء على طيب النفوس مع الحق لهذا الذى انكشف كانوا يفرحون بالبلاء» انتهى.

فهذه هى وجهة التعرف التى فتحها الله تعالى له، وحصلت له الغبطة بها، وآثرها على عبادة الثقلين والله أعلم، فإذا أنزل الله تعالى على العبد شيئا من البلايا فليستشعر ما ذكرناه، وليجعله نصب عينيه، وليجدد تذكاره على نفسه حتى يحصل له من السكون والطمأنينة مايحمل عنه أثقال ذلك، ويزيل عنه مرارته، ويوجده حلاوته وعند ذلك يكون حاله فى بلائه حال الشاكرين من الفرح والاغتباط به، فيرى من حق شكره أن يأتى بما يمكنه من أعمال بره، واعتبر جميع ما قلناه فى هذه المسألة بالحكاية التى ذكرها «أبو العباس ابن العريف»(٣) رحمه الله، فى كتابه «مفتاح السعادة منهاج سلوك طريق الإرادة» قال فيه:

«كان بالمغرب - عمره الله بالإسلام - رجل يدعى «أبا الخيار» رحمه الله ونفعنا بذكره، أصله من «صقلية» وموطنه بغداد، وجاوز سنه التسعين وهو فى الرِّق لم يعتقه مولاه، وذلك منه عن قصد واختيار، وعم جسده الجذام، ورائحة المسك توجد

---

(١) «وفى نسخة: ووقعت»

(٢) «وفى نسخة: أجرا، وفى أخرى: حظا»

(٣) « هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسى المرى: اشتهر بالتقوى والصلاح، له شعر ومشاركة فى العلوم صنف كتاب «المجالس» على طريق القوم ولد سنة ٤٨٢ هـ - ١٠٨٨م، وتوفى سنة ٥٣٦هـ - ١١٤١م»

منه على مسافة بعيدة، قال الذى حدثنى: رأيته يصلى على الماء ثم لقيت بعده «محمدا الإسفنجى» فإذا هو الأبرص(١)» فقلت: ياسيدى كأن الله تعالى لم يجد للبلاء محلا من أعدائه حتى أنزله بكم وأنتم خاصة أوليائه؟

قال: فقال لى: اسكت لاتقل ذلك، إنه لما أشرفنا على خزائن العطاء لم نجد عند الله شيئا أشرف ولا أقرب إليه من البلاء، فسألناه إياه، فكيف بك لو رأيت سيد الزهاد، وقطب العباد، وإمام الأولياء الأوتاد فى غار فى أرض «طرسوس» وجبالها لحمه يتناثر وجلده يسيل قيحا وصديدا، وقد أحاط به الذباب والنمل، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ماأعطاه من الرحمة وما أسكن جسده من العافية حتى يشد نفسه بالحديد ويستقبل القبلة عامة ليله حتى يطلع الفجر» انتهى.

وسيأتى شئ من كلام المؤلف، رحمه الله، فى هذا المعنى، والتنبيه عليه، والله ولى التوفيق.

«تَنَوَّعتْ أجْنَاسُ الأعْمَالِ لِتَنَوُّعِ وَارِدات ألأحْوَالِ»

واردات الأحوال هى: ما يرد على القلوب من المعارف الربانية والأسرار الروحية، وهى توجب لها أحوالا حميدة، فمنها وارد يوجب هيبة، ومنها وارد يوجب أنسا، ومنها وارد يوجب قضاء، ومنها وارد يوجب بسطا، إلى غير ذلك من مختلفات الأحوال.

ولما كانت هذه الواردات متنوعة كانت أجناس الأعمال التى تقتضيها هذه الواردات أيضا متنوعة، والأعمال الظاهرة أبدا تبع لأحوال القلوب الباطنة كما سيقول المؤلف بعد هذا، فى قوله «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال»

«الأعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ وأرْوَاحُهَا وجُودُ سرِّ الإخْلاَص فيهَا»

إخلاص كل عبد فى أعماله على حسب رتبته ومقامه، فأما من كان منهم من الأبرار فمنتهى درجة إخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجلى والخفى

(١) وفى نسخة: فإذا هو مبرص، وفى أخرى: «أبرص»

وقصد موافقة أهواء النفس طلبا لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب، وحسن المآب، وهربا عما أوعد به المخلطين(١) من أليم العذاب وسوء الحساب، وهذا من التحقق بمعنى قوله تعالى «إياك نعبد» أى: لا نعبد إلا إياك ولا نشرك فى عبادتنا(٢) غيرك.

وحاصل أمره إخراج الخلق عن نظره فى أعمال بره مع بقاء رؤيته لنفسه فى النسبة إليها، والاعتماد عليها، وأما من كان منهم من المقربين فقد جاوز هذا إلى عدم رؤيته لنفسه فى عمله، فإخلاصه إنما هو فى شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه فى ذلك حولا ولا قوة، ويعبر عن هذا المقام بالصدق الذى يصح به مقام الإخلاص، وصاحب هذا مسلوك به سبيل التوحيد واليقين، وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى «وإياك نستعين» أى: لا نستعين إلا بك لا بأنفسنا وحولنا وقوتنا، فعمل الأول هو العمل لله تعالى، وعمل الثانى هو العمل بالله، فالعمل لله يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القربة، والعمل لله يوجب تحقيق العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، والعمل لله نعت كل عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، والعمل لله قيام بأحكام الظواهر، والعمل بالله قيام بالضمائر، وهذه العبارات للإمام أبى القاسم القشيرى(٣) رضى الله عنه.

وبهذا يتبين الفرق بين المقامين، وتباينهما فى الشرف والجلالة، فإخلاص كل عبد هو روح أعماله، فيوجد ذلك تكون حياتها وصلاحيتها للتقرب بها، ويكون فيها أهلية وجود القبول لها، وبعدم ذلك يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار، وتكون إذ ذاك أشباحا بلا أرواح، وصورا بلا معان، قال بعض المشايخ: «صحح عملك بالإخلاص، وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة».

ثم ذكر المؤلف، رحمه الله، الحالة التى إذا كان العبد عليها كان مخلصا فقال:

(١) «وفى نسخة: الخاطئين»
(٢) «وفى نسخة: فى عبادتك»
(٣) «هو: أبو القاسم عبد الكريم القشيرى النيسابورى، ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفى سنة ٤٦٥ هـ بمدينة «نيسابور» التى كانت إقامته فيها، وهو من رواد الصوفية، وله تواليف كثيرة فى التصوف والتفسير والأدب «انظر ترجمته مفصلة فى مقدمة الجزء الأول لكتاب «الرسالة القشيرية» تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، وانظر كذلك كتاب «وفيات الأعيان» و«طبقات السبكى» ج٣، وكتاب «الأعلام» للزركلى ج٢»»

«إدْفِنْ وجُودَكَ فى أَرْضِ الخُمُولِ فما نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لا يَتِمّ نَتَاجُه»

لا شئ أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت، لأن ذلك من أعظم حظوظه التى هو مأمور بتركها، ومجاهدة النفس فيها، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ محبة، والجاه وإيثار الاشتهار مناقض للعبودية التى هو مطالب بها.

قال إبراهيم بن أدهم، رضى الله عنه: «ما صدق الله من أحب الشهرة» وقال بعضهم: «طريقتنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كنست أرواحهم المزابل».

وقال أيوب السجستانى، رضى الله عنه: «والله ما صدق الله عبد إلا سره ألايشعر بمكانه»·

وقال رجل لبشر بن الحارث(١) رضى الله عنه: «أوصنى، فقال: أخمل ذكرك، وأطب مطعمك»·

وقال بشر، رضى الله عنه: «ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح».

وقال أيضا: «لايجد حلاوة الآخرة من أحب أن يعرفه الناس»

وقال الفضيل(٢) رضى الله عنه: «بلغنى أن الله عز وجل يقول فى بعض ما يمن به على عبده: ألم أنعم عليك ألم أشترك ألم اخمل ذكرك» ثم إن تلك الأشياء الراجعة إلى محبة الاشتهار والاستعلاء مما يقدح فى إخلاص العبد على اختلاف مراتبه، لأنه إما سقوط الناس عن النظر إليهم أو سقوط النفس عن النظر إليها، ولا يثبت للمريد جميع ذلك إلا بالخمول وسقوط المنزلة عند نفسه وعند الناس، لأنه إن لم يكن بهذه المثابة لم ينفك عن الأغراض التى تبعثه على استمالة قلوب الخلق

---

(١) «هو: أبو نصر: بشر بن الحارث الحافى، ولد سنة ١٥٠هـ «٧٦٧م» فى «مرو» وسكن بغداد ومات بها سنة سبع وعشرين ومائتين، وصحب الفضيل بن عياض، ورأى سريا السقطى «انظر فى ترجمته الرسالة القشيرية ج١ ص ٦٨، ومن كلامه: «الدعاء ترك الذنوب» ومنه: «إن لم تطع فلا تعص»».

(٢) هو: أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى، ولد بخراسان مات بمكة سنة: سبع وثمانين ومائة «٨٠٣م» كان إماما ربانيا شديد الخوف دائم الفكر، ومن كلامه:«جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها» وقال: «يهابك الخلق على قدر هيبتك الله» انظر الرسالة القشيرية ج٢ ص١٧، وطبقات الصوفية وتذكرة الحفاظ، والأعلام للزركلى».

لما يرى لنفسه عليهم من الحق، فتدعوه نفسه إلى ذلك دعاء خفيا، فينصبغ عمله بالرياء انصباغا لا يتفطن له / كما سيأتى عند قوله: «ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك» وبقدر تحققك بوصف الخمول يتحقق لك مقام الإخلاص متى تتخلص بذلك من رؤية إخلاصك، وبهذا يتبين لك إفلاس جميع الناس إلا من رحم الله تعالى، وأن الإخلاص فى غاية الصعوبة على النفس، وأنه أعز الأشياء فى الوجود.

وقيل لسهل بن عبد الله(١) رضى الله عنه: «أى شئ أشد على النفس؟ قال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب».

وقال يوسف بن الحسين(٢) رضى الله عنه: «أعز شئ فى الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى فكأنه ينبت فيه على لون آخر» قال الشيخ أبو طالب المكى(٣) » رضى الله عنه: «والإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق النفس، والإخلاص عند المحبين: أن لايعمل عملا لأجل النفس، وإلا دخل عليه مطالبة(٤) العوض أو تشوف إلى حظ طبع، والإخلاص عند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال، وترك السكون والاستراحة بهم فى الأحوال» انتهى.

فإذا أخمل العبد نفسه، وألزمها التواضع والمذلة، واستمر على ذلك حتى صار له خلقا وجبلة بحيث لا يجد لضعته ألما ولا لمذلته طعما فحينئذ تتزكى نفسه، ويستنير بنور الإخلاص قلبه، وينال من ربه أعلى درجات الخصوصية ويحصل على أوفر نصيب من المحبة الحقيقة.

---

(١) «هو: أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين كان أحد أئمة القوم، وكان صاحب كرامات توفى سنة ثلاثة وثمانين ومائتين وقيل: ثلاث وسبعين ومائتين، ومن حكمه: «حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت» انظر الرسالة القشيرية ج١ ص ٨٣.»

(٢) «يوسف بن الحسين أبو يعقوب الرازى: كان شيخ الرى فى وقته، وكان نسيج وحده فى إسقاط التصنع، وكان عالما أديبا، صحب ذا النون المصرى، وأبا تراب النخشبى، مات سنة: أربع وثلاثمائة «انظر الرسالة القشيرية ج١ ص١٢٦»»

(٣) « أبو طالب المكى هو: محمد بن على بن عطية الحارثى، أبو طالب: واعظ فقيه اشتهر بمكة ورحل إلى بغداد فتوفى بها سنة ٣٨٦هـ «٩٩٦م»، له «قوت القلوب» من أمهات كتب التصوف «انظر فى ترجمته كتاب وفيات الأعيان والأعلام للزركلى ج٢»

(٤) «وفى نسخة: مطالعة»

قال الشيخ أبو طالب: «ومتى ذل فى نفسه واتضع عند نفسه، فلم يجد لذلته طعما، ولا لضعته حسا، فقد صار الذل والتواضع كونه، فهذا لايكره الذم من الخلق لوجود النقص فى نفسه، ولايحب المدح منهم، لفقد القدر والمنزلة فى نفسه، فصارت الذلة والضعة صفة له لا تفارقه، لازمة لزوم الزبالة للزبال، والكساحة للكساح، وهما صنعتان له كسائر الصنائع، وربما فخر بهما لعدم النظر إلى نقصهما، فهذه ولاية عظيمة له من ربه قد ولاه على نفسه، وملكه عليها فقهرها بعزة(١)»، وهذا مقام محمود محبوب، وبعده مقام المكاشفات بأسرار الغيوب.

ثم قال أبو طالب: ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه، كما يطلب المتكبر العز ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إذا فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه، لأن ذلك عيش نفسه انتهى.

فإذا لابد للمريد من إسقاط جاهه، وإخمال ذكره، وفراره عن مواضع اشتهاره، وتعاطيه أمورا مباحة تسقطه من أعين الناس، كقصة السائح الذى سمع به ملك زمانه فجاء إليه، فلما علم بذلك السائح استدعى بقلا(٢) وجعل يأكله أكلا عنيفا بمرأى من الملك، فلما رآه على تلك الحالة استحقره واستصغره وانصرف عنه ذاما له.., وسيأتى نص هذه القصة بعد هذا عند قوله: «ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك»

وقد بالغ بعض أئمة الصوفية، رضى الله عنهم، فى مداواة علة الجاه الذى علق بالقلوب حتى استعملوا فى ذلك أشياء منكرة فى ظاهر الشرع، ورأوا ذلك جائزا لهم أن يفعلوه، ويأمروا به، وذلك مثل قصة الرجل الذى دخل الحمام ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه بحيث تظهر، ومشى بذلك متحيرا(٣) بحيث يرى ويظن به السرقة، فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه، ونزعوا الثياب عنه، واشتهر عندهم بالسرقة، حتى كان يعرف عندهم بـ«لص الحمام» فحينئذ وجد قلبه.

---

(١) فى نسخة: «فقهرها فعزه»»
(٢) «البقل: كل نبات اخضرت به الأرض»
(٣) «وفى نسخة: متمهلا»

ومثله ما يروى عن «أبى يزيد» رضى الله عنه، فى قصة الشاهد الذى أمره بحلق رأسه ولحيته وتعليق مخلاة الجوز فى عنقه، وإعطائه «من ذلك» لمن يصفعه من الصبيان، وطوافه على تلك الحالة فى المحافل والمحاضر.

والحكايتان مشهورتان، ذكرهما الإمام أبو حامد الغزالى(١) رضى الله عنه، وقال بعض المصنفين: «وإذا جاز لمن غص بلقمة من طعام حلال أن يسيغها بجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره، مع أن تحريمه مقطوع به، ولا يفوته إلا حياة فانية(٢) فلئن يجوز مثل هذا إذا تعين أولى، إذ تفوته بذلك الحياة الباقية، والقرب من الله تعالى، فإذا التزم العبد هذه الطرق من الرياضات ماتت نفسه، وحيى قلبه، وقرب من حضرة ربه، واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام، وتلك الثمرة أخلاق الإيمان التى تكيفت(٣) بها نفسه، وصارت كصفات ذاتية له، وهى نتيجة الحكمة التى أنبتها الله فى قلوب عباده المتواضعين ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٤).

قال عيسى، عليه الصلاة والسلام، لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا فى الأرض، فقال عيسى، عليه الصلاة والسلام:كذلك الحكمة لاتنبت إلا فى قلب مثل الأرض.

---

(١) «هو: محمد بن محمد الغزالى الطوسى، أبو حامد، حجة الإسلام: فيلسوف متصوف، له أكثر من مائتى مصنف، ولد فى طوس بخراسان، ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته فتوفى بها سنة ٥٠٥ هـ «١١١١م» وكان مولده سنة ٤٥٠ ه «١٠٥٨م»، ومن كتبه إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة والاقتصاد فى الاعتقاد، والمنقذ من الضلال»

(٢) «وفى نسخة «لايفوته إلا حياة فانية» أي: أنه ينزلها فلان. .إلخ وفى نسخة أخرى «ولايفوته حياة فانية فلا يجوز. .إلخ»

(٣) تكيفت: تخلقت

(٤) « آية ٢٦٩من سورة البقرة».

قلت: وقد ورد عن النبى (ﷺ) فى مدح الخمول وذم الشهرة أحاديث كثيرة، منها: ما روى أبو أمامة، رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) أنه قال: يقول الله عز وجل: «إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ(١) ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه فى السر، وكان غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك، ثم نفض يده، فقال: عجلت منيته، قلت بواكيه، قل تراثه.

وفى حديث أبى هريرة، رضى الله عنه، قال رسول الله (ﷺ): «رب أشعث أغبر ذى طمرين(٢) تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره.

وروى معاذ بن جبل(٣) رضى الله عنه، عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «إن يسيرا من الرياء شرك، وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة. »

وروى أبو هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله (ﷺ) فى حديثه الذى فوه فيه باسم «أويس القرنى» وأشاد بذكره ونبه على عظيم أمره، رضى الله عنه، أنه قال «بينما نحن عند رسول الله (ﷺ) فى حلقة من أصحابه إذ قال: «ليصلين معكم غدا رجل من أهل الجنة» قال أبو هريرة: فطمعت أن أكون ذلك الرجل، فغدوت فصليت خلف النبى (ﷺ) فأقمت فى المسجد حتى انصرف الناس، فبقيت أنا وهو (ﷺ)، فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل «أساد» متزر بخرقه مرتد بمرقعة،

---

(١) «أى ليس له ولد ولا أهل، ولا من يتعلق قلبه إليه: وفى المصباح: الأخذ الأملس الذى ليس له مستمسك لشئ يتعلق به).

(٢) «الطمر: الثوب الخلق والرجل الأشعث المتلبد الشعر لقلة تعهده بالدهن والنظافة والحديث رواه الحاكم ورواه أبو النعيم فى الحلية، وفى معناه مارواه الإمام مسلم والإمام أحمد: رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره، وروى البزار عن ابن مسعود: رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره»

(٣) «معاذ بن جبل عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابى جليل كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، أسلم وهو فتى، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) وبعثه رسول الله (ﷺ) بعد غزوة تبوك قاضيا ومرشدا لأهل اليمن، وأرسل معه كتابا إليهم يقول فيه: إنى بعثت لكم خير أهلى فبقى فى اليمن إلى أن توفى النبى (ﷺ) وولى أبو بكر فعاد إلى المدينة ثم كان مع أبى عبيدة بن الجراح فى غزو الشام، له فى الصحيحين ١٥٧ حديثا، ولد سنة ٢٠قبل الهجرة ٦٠٣م وتوفى سنة ١٨هـ، ٦٣٩م «انظر فى ترجمته طبقات ابن سعد ج٣ والاصابة ج٣، وكتاب الأعلام للزركلى ج٣ ص ١٠٥٠»

فجاء حتى وضع يده فى يد رسول الله (ﷺ)، ثم قال: يانبى الله، ادع الله لى الشهادة فدعا النبى (ﷺ) له بالشهادة، وإنا لنجد منه ريح المسك الأذفر(١) فقلت يا رسول الله: أهو هو؟ قال: نعم إنه لملوك بنى فلان، قلت: أفلا تشتريه فتعتقه يا نبى الله؟ فقال: وأنى لى بذلك، إن كان الله تعالى يريد أن يجعله من ملوك الجنة وساداتهم يا أبا هريرة، إن لأهل الجنة ملوكا وسادة، وإن هذا الأسود أصبح من ملوك الجنة وساداتهم يا أبا هريرة، إن الله عز وجل، يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الأتقياء الشعثة رءوسهم المغبرة وجوههم، الخمصة بطونهم من كسب الحلال، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا. قالوا: يارسول الله، كيف لنا برجل منهم؟ قال: «ذلك أويس القرنى» قالوا: وما أويس القرنى؟ قال: أشهل(٢) ذو صهوبة(٣) ، بعيد ما بين المنكبين(٤) معتدل القامة، آدم(٥) شديد، ضارب بذقنه إلى صدره رام بنظرة إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرآن، يبكى على نفسه، ذو طمرين(٦)، لا يؤبه له، متزر إزار صوف ورداء صوف، مجهول فى أهل الأرض، معروف فى أهل السماء، لو أقسم على الله لأبر قسمه، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد ادخلوا الجنة، ويقال لأويس القرنى: قف فاشفع، فيشفعه الله فى مثل عدد ربيعة ومضر، ياعمر، ويا على إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه يستغفر لكما يغفر الله لكما..» وذكر باقى الحديث.

وفى حديث آخر أن رسول الله (ﷺ) قال: يكون فى أمتى رجل يقال له: «أويس القرنى» يدخل فى شفاعته عدد ربيعة ومضر، لو أقسم على الله لأبره، فمن لقيه بعدى فليقرئه منى السلام، ثم سئل عن علامته، فقال: هو رجل أصهب، أشهل، ذو طمرين أبيضين، له أمٌّ، وقد كان به بياض فدعا الله عز وجل فأذهبه

---

(١) «فى القاموس المحيط ج٢ قال: ومسك أذفر وذفر:جيد إلى الغاية»

(٢) «الرجل الأشهل:من كان فى عينه شهلة، والشهلة: أن يشوب سواد العين زرقة»

(٣) «صهوبة الشعر:خمرته أو شقرته»

(٤) «المنكب للشخص: هو مجتمع رأس العضد والكتف، والمنكب أيضا ناحية كل شئ وجانبه»

(٥) «آدم: أسمر، والأدمة: السمرة، والأدم: الأسمر»

(٦) «الطمر: الثوب البالى»

عنه إلا مقدار الدينار أو الدرهم، لا يؤبه له مجهول في الأرض معروف في السماء، وكان قد بلغ من شدة خموله ونهاية ضعفه(١) أن الناس كانوا يسخرون منه ويستهزئون به، ويؤذونه، ويرون فيه أهلية الخداع والتلصص، وينسبونه إلى ذلك، فقد روى في ذلك، أنه دفع إليه بعض فقهاء الكوفة ثوبين وكان يجالسه فانقطع عن مجالسته لأجل العرى(٢) ، فردهما عليه بعد أن أخذهما منه، وقال: إن الناس يقولون: من أين له هذان الثوبان، ترى من خدع عليهما، وكان في ذلك الوقت يجالس الفقهاء ويظهر للناس، وذلك قبل أن يعرف برفعة القدر، وجلالة الخطر، وتنويه عمر رضي الله عنه به على المنبر، فلما رأى أن الناس عرفوا حاله، هرب عنهم، واستخفى منهم، ولبس(٣) أمره عليهم برعاية الإبل، وغير ذلك». وقيل لعمر، رضي الله عنه لما سأله عنه قومه: مافينا أخمل منه ذكرا، فلما لقيه هو وعلى رضي الله عنهما، وسأله من هو؟ فقال له: راعي غنم، وأجير قوم، وستر ذكر«أويس» فلما سأله عن اسمه قال له: عبد الله، فلما سأله عن اسمه الذي سمته به أمه، امتنع أن يجيبه عن ذلك، فلما أخبراه بوصف النبي (ﷺ) وأنهما عرفاه بذلك، قال لهما: عسى أن يكون ذلك غيري، فلما قالا له: أخبرنا رسول الله (ﷺ) أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء وطلبا منع أن يوضحها لهما، لم يجد بدا(٤) من أن يوضحها لهما، وذلك، والله أعلم، ليريهما رؤية عين صحة قول النبي (ﷺ)، وصدقه في إخباره بالغيب، وذلك أمر واجب عليه، وإلا فلعله كان يتعلل لهما كما فعله في كل شئ سئل عنه، ثم بعد ذلك لما سأله عمر، رضي الله عنه، أن يلتقي معه، ويجعل ذلك الموضع ميعادا بينه وبينه، قال: يا أمير المؤمنين، لاميعاد بيني وبينك، ولا أعرفك ولا تعرفني بعد اليوم، ثم دفع الإبل إلى أصحابها وخلى(٥)» عن الرعاية.

---

(١) «وفي نسخة: ضعته»
(٢) «وفي نسخة: التعري»
(٣) «لبس: أخفى»
(٤) «أي خلاصا»
(٥) «خلى عن الشئ: تركه

وكذلك فعل مع هرم بن حيان، رضى الله عنه، لما لقيه بشاطئ الفرات ووقع بينهما التعرف، قال له: حدثنى بحديث عن رسول الله (ﷺ) احفظه عنك فقال له: لا أحب أن أفتح هذا الباب على نفسى، لا أحب أن أكون محدثا، ولا مفتيا، ولا قاضيا، فلما فرغا من الكلام الذى كانا بصدده سأله مداومة الاجتماع به، فأبى، وامتنع، وقال له: لا أراك بعد اليوم تطلبنى، ولاتسأل عنى، انطلق، أنت ها هنا حتى أنطلق أنا هاهنا ثم بعد ذلك اجتهد فى طلبه والبحث عنه فلم يقع له على خبر.

ومن عجيب أمره أن حقق الله تعالى له هذا الحال من التخفى والتستر، وأتمه له بعد موته مع ما أظهره بسببه من الآيات والعبر، حينئذ قال عبد الله بن مسلمة: غزونا «أذربيجان» زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومعنا «أويس القرنى» رضى الله عنه، فلما رجعنا مرض، فمات، فنزلنا، فإذا قبر محفور، وماء مسكوب، وكفن وحنوط (١)، فغسلناه، وكفناه، وصلينا عليه ودفناه، فقال بعضنا لبعض: لو رجعنا فعلمنا قبره، فرجعنا فإذا لاقبر ولا أثر.

قلت: والحكايات والآثار فى مدح الخمول وذم الاشتهار أكثر من أن يأتى عليها انحصار، قد أورد كثيرا منها الأئمة المصنفون فى هذا العلم، فليطالع ذلك المريد مستمدا من الله تعالى حسن التوفيق والتأييد.

وتعبير المؤلف، رحمه الله تعالى، ها هنا بالدفن والأرض والنبات والنتاج من ملح الاستعارات.

---

(١) «الحنوط: بفتح الحاء، طيب يخلط للميت خاصة، وكل ما يطيب به الميت من مسك وعنبر وكافور وغير ذلك».

«ما نَفَعَ القَلْبَ شَئٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بها مَيْدَانَ فكْرَة»

مداواة أمراض القلب واجبة على المريد، وأمراضه إنما تكون من غلبة أحكام الطبع عليه من صحبته للأضداد، ووقوفه مع المعتاد، وانقياده إلى هوى النفس، وأنسه بعالم الحس.

ومداواة هذا المرض تأتى من وجوه كثيرة، وأبلغها فى ذلك وأنفعها: العزلة عن الناس المصحوبة بالفكرة، فبالعزلة يتقيد الظاهر عن مخالطة من لا تصلح مخالطته، ومن لا يأمن من دخول الآفات عليه بصحبته، فيتخلص بذلك المعتزل من المعاصى التى يتعرض لها بالمخالطة، مثل: الغيبة، والمداهنة، والرياء والتصنع، ويتحصل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الرديئة، والأخلاق الدنيئة، ويستفيد بذلك أيضا صيانة دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع الشرور والفتن، فإن للنفس تولعا وتسارعا إلى الخوض فى مثل هذا فواجب على المعتزل أن يكف لسانه عن السؤال عن أخبار الناس، وما هم مشغولون به، ومنهمكون فيه، ومنكبون عليه، ويصون سمعه عن الإصغاء إلى أراجيف(١) البلدان، وما اشتملت عليه من الأحوال التى ذكرناها، وليحرص على أن لا يغشاه فى خلوته وعزلته من شأنه التطلع لذلك والبحث عنه، وليتجنب صحبة من لا يتورع فى منطقة ولا يضبط لسانه عن الاسترسال فى دقائق الغيبة والوقيعة والتعريض بالطعن على الناس، والقدح فيهم، فإن ذلك مما يكدر صفاء القلب، ويؤدى إلى ارتكاب مساخط الرب، فليهجره المعتزل وليفر منه فراره من الأسد، ولا يجتمع معه فى مكان البتة، وليتنكر إلى كل من يتعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين إلى الدين، فضلا عن غيرهم، كما قال بعضهم: «أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لاتعرف»، وفى الخبر: «مثل الجليس السوء كمثل الكبر(٢) إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه».

وفى الأخبار السالفة أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا بن عمران كن يقظانا، وارتد لنفسك إخوانا، وكل أخ أو صاحب لا يؤازرك على مبرتى فهو لك عدو».

---

(١) «الأراجيف: الأخبار المختلفة الكاذبة السيئة»

(٢) «الكبر بالكسر: زق الحداد ينفخ به ويكون أيضا من جلد غليظ»

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال له: «يا داود مالى أراك منتبذا وحدانيا؟ فقال: إلهى، قليت(١) الخلق من أجلك فقال: ياداود كن يقظانا وارتد لنفسك أخدانا، وكل خدن(٢) لا يوافقك على مبرتى فلا تصحبه فإنه لك عدو، ويقسى قلبك ويباعدك متى».

وما أحسن قول أبى إسحاق إبراهيم بن مسعود الأكبيرى فى هذا المعنى:

فخف أبناء جنسك واخش منهم
كما تخشى الضراغم والسبنتا(٣)
وخالطهم وزايلهم حذارا
وكن كالسامرى إذا لمستا

وبالعزلة أيضا يجتمع همه، ويقوى فى ذات الله عزمه، بخلاف الخلطة، فإنها تفرق الهم وتضعف العزم، وقد قيل: «إن العبد ليعقد فى خلوته على خصال من الخير يعملها، فإذا خرج إلى الناس حلوا عليه ذلك عقدة عقدة حتى يرجع إلى بيته وقد انحلت العقد كلها».

وروى عن عيسى عليه السلام: «لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم قيل:ومن الموتى؟قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها».

وفى الخبر المروى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين» وضعف اليقين إنما يكون من رؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة.

قال أبو طالب المكى رضى الله عنه: «وأضر ما ابتلى العبد به وأدخله وأعمله(٤) فى هلاكه، وأشده لحجبه وإبعاده، ضعف يقينه لما وعد من الغيب وتوعد عليه بالشهادة، وقوة اليقين أصل كل عمل صالح»

وقال بعض هذه الطائفة: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لاتنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة. قلت لابد لى منهم قال: فلا تسمع كلامهم، فإن قسوة قلب قلت: لابد لى منهم،

---

(١) قليت: أبغضت.
(٢) خدن: أخ وصديق.
(٣) الضراغم: الأسود والسبنتا: أى النمر والجمع: سبانت، وسبات).
(٤) «وفى نسخة: وأعجله»

قال: فلا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران ووحشة وحسرة، قلت: أنا بين أظهرهم ولابد لي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم، فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله، قال: ياهذا أتنظر إلى اللاعبيين وتسمع كلام الجاهليين وتعامل البطالين وتسكن إلى الهالكين، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله عز وجل. هيهات هذا لايكون أبدا.

وبالعزلة أيضا ينكف بصره على النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها، وينصرف خاطره عن الاستحسان إلى ما ذمه الله تعالى من زخرفها، فتمتنع بذلك النفس عن التطلع إليها والاستشراف(١) لها ومنافسة أهلها فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾(٢).

ولاينبغي لأحد أن يستحقر هذا، فإنه يؤدي إلى أمراض عظيمة في القلب ومن اعتزل الناس سلم بإذن الله تعالى منها.

قال الإمام أبو القاسم القشيري، رضي الله عنه: «فأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات، قال: وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضيات» انتهى.

وقال محمد بن سيرين(٣)، رضي الله عنه: «إياك وفضول النظر، فإنه يؤدي إلى فضول الشهوة».

وقال بعض الأدباء: «من كثرت لحظاته(٤) دامت حسراته»

(١) «استشرف الشئ: رفع بصره لينظر إليه»

(٢) «من الآية ١٣١ من سورة طه»

(٣)«محمد بن سيرين البصري، أبو بكر إمام دقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي اشتهر بالفقه والورع والحديث وتعبير الرؤيا، كان بزازا، ولد بالبصرة سنة ٣٣ هـ ٦٥٣م ووفاته كذلك بالبصرة ١١٠ هـ - ٧٢٨م «يرجع في ترجمته إلى: تهذيب التهذيب وإلى وفيات الأعيان وإلى الأعلام».

(٤) أي: نظراته

وقالوا: «إن العين سبب الحين ومن أرسل طرفه(١) اقتنص حتفه، وإن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلب، وقد أنشدوا فى هذا المعنى:

وإنك إن أرسلت طرفك رائدا

لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لاكله أنت قادر

عليه، ولاعن بعضه أنت صابر

وبذلك ينقطع طمعه عن الناس ويحصل له منهم الإياس، وذلك من أعظم فوائد العزلة عند العقلاء الأكياس، ولاتتم له منفعة العزلة إلاّ باشتغال القلب بالفكرة، وهى المقصودة هاهنا، وكانت العزلة مقدمة لها، ومعينة عليها، وذلك بعد تقديم ما يحتاج إليه من علوم الشرع الظاهرة، والقيام بمراعاة آدابه الباطنة.

وقد ذكر منها الشيخ أبو خالد الغزالى جملة شافية فى كتاب «العزلة من الإحياء» فلينظر هناك.

وقد جاء فى الخبر: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة» وكذا هو، والله أعلم.

وكان عيسى بن مريم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام يقول: «طوبى لمن كان قوله ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة، إن أكيس الناس من دان(٢) نفسه وعمل لما بعد الموت»

وقال كعب الأحبار: «من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر». وقيل لأم الدرداء: «ما كان أفضل عمل أبى الدرداء(٣)؟ قالت التفكر» وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء وتبين الحق من الباطل، والنافع من الضار، ويطلع به أيضا على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويتعرف به وجوه الحيل فى التحرز عنها والطهارة منها.

---

(١) عينه.

(٢) حاسب.

(٣) «هو: عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى الخزرجى: صحابى كان قبل البعثة تاجرا فى المدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك وفى الحديث «عويمر حكيم أمتى» و«نعم الفارس عويمر» وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، له فى الصحيحين ١٧٩ حديثا توفى سنة ٣٢ هـ - ٦٥٢م.»

قال الحسن البصرى(١)، رضى الله عنه: «الفكر مرآة تريك حسنك من قبيحك، ويطلع بها «الإنسان» أيضا على عظمة الله تعالى وجلاله إذا تفكر فى آياته ومصنوعته، ويطلع بها أيضا على آلاته الجلية والخفية، فيستفيد بذلك أحوالا سئية، يزول بها مرض قلبه، ويستقيم بسببها على طاعة ربه».

قلت والعزلة التى ذكرها المؤلف، رحمه الله تعالى، تتصمن وجود الخلوة، وهى أحد الأركان الأربعة التى هى أساس المريدين، ويلزم عنها من الثلاثة الباقية الصمت، إذ لا يتأتى من أكثر الناس إلا بالخلوة والعزلة، فإن أضاف إليهما المريد الركنين الباقيين، وهما: الجوع، والسهر، فقد حصل على كلية الدواء، والتحق بزمرة الأولياء والبدلاء.

قال سهل بن عبد الله، رضى الله عنه: «اجتمع الخير كله فى هذه الأربع خصال، وبها صار الأبدال أبدالا: إخماص(٢) البطون والصمت، والخلوة والسهر». وقال الشاعر وجمعها فى نظمه:

يا من يروم منازل الأبدال
من غير قصد منه للأعمال
لاتطمعن فيها فلست من أهلها
إن لم تزاحمهم على الأحوال(٣)
بيت الولاية قسمت أركانه
ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم
والجوع والسهر النزيه الغالى

---

(١) «الحسن البصرى: هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصرى: تابعى، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الشجعان النساك ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ - ٦٤٢م وشب فى كنف على بن أبى طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والى خراسان فى عهد معاوية وسكن البصرة وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف فى الحق لومة لائم قال الغزالى: كان الحسن البصرى أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء وأقربهم هديا من الصحابة وكان فى غاية الفصاحة تتصبب الحكمة من فيه. وله مع الحجاج بن يوسف مواقف هائلة وقد سلم من أذاه، وقد توفى بالبصرة ١١٠ هـ - ٨٢٧م انظر تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان والأعلام»

(٢) أى الجوع.

(٣) «وبعض النسخ زادت بعد هذا البيت البيتين الآتيين:

وأصمت بقلبك واعتزل عن كل من ... يدنيك من غير الجيب الوالى
فإذا سهرت وجعت نلت مقامهم ... وصحبتهم فى الحل والترحال

«كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوان مُنْطَبعَةٌ فى مرآته؟! ».
أمْ كيف يَرْحَلُ إلى الله، وهو مُكَبَّلٌ بشَهَواته؟!
أمْ كيف يَطمعُ أن يَدخلَ حَضْرةَ الله وهو لم يَتطهَّرْ مِنْ جَنَابةِ غَفَلاته؟!
أم كـيف يرجـو أنْ يفـهـم دقـائقَ الأسـرارِ وهو لـم يَتُبْ من هَفَواته؟! »

الجمع بين الضدين محال، كاجتماع الحركة والسكون والنور والظلمة وهذه الأشياء التى ذكرها المؤلف، رحمه الله تعالى، أضداد لا تجتمع، فإن إشراق القلب بنور الإيمان واليقين مضاد للظلمة التى استولت عليه من ركونه إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها، والمسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال فى حبس الهوى والشهوات، ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة الداخل ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة غفلاته التى مقتضاها الإقصاء والإبعاد، وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى مضاد للإصرار على المعاصى والهفوات وإليه الإشارة بقوله - عز من قائل: «واتقوا الله ويعلمكم الله»﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(١)، ولما روى فى بعض الأخبار «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

قال يحيى بن معين(٢). رحمه الله تعالى: «التقى أحمد بن حنبل(٣) ، وأحمد

(١) «آية رقم ٢٨٢ من سورة البقرة

(٢) «يحيى بن معين المرى البغدادى أبو زكريا: حافظ للحديث كان أحد الأئمة فيه ونعته الذهبى بسيد الحفاظ قال الإمام أحمد بن حنبل: يحيى أعلمنا بالرجال «رجال الحديث» وقال يحيى: كتبت بيدى ألف ألف حديث توفى بالمدينة حاجا وصلى عليه أميرها، ولد سنة ١٥٨ هـ - ٧٧٥م وتوفى سنة ٢٣٣ هـ - ٨٤٨م)

(٣) «هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلى وأحد الأئمة الأربعة ولد فى بغداد سنة ١٦٤ هـ - ٧٨٠ م وكان أبوه والى «سرخس» فنشأ منكبا على طلب العلم وسافر فى سبيله أسفارا كثيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والمغرب وفارس وخراسان وصنف كتاب «المسند» فى الحديث وهو ثلاثون ألف حديث وفى أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل وتولى المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهرا =

بن أبى الحوارى، فقال ابن حنبل لابن أبى الحوارى: يا أحمد، حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبى سليمان

فقال: يا أحمد، قل سبحان الله بلا عجب.

فقال ابن حنبل: سبحان الله وطولها بلا عجب

فقال ابن أبى الحوارى: سمعت أبا سليمان يقول: «إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت فى الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف(١) الحكمة من غير أن يؤدى إليها عالم علما.

فقام أحمد بن حنبل ثلاثا وقال: ما سمعت فى الإسلام بحكاية أعجب إلى من هذه. , ثم ذكر الحديث الذى ذكرناه «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» ثم قال لأحمد بن أبى الحوارى:

صدقت يا أحمد، وصدق شيخك.

ولأجل كون هذه الأشياء أضداد عجب المؤلف، رحمه الله، ممن يعتقد صحة اجتماعها، وممن طمع فى نيل مراتب الرجال مع كونه على أقبح الخلال.

«الكونُ كلُّه ظُلْمةٌ، وإنَّما أنارَه ظهورُ الحَقِّ فيه. , فمن رأى الكونَ، ولم يشهدْهُ فيه، أو عندَه، أو قَبْلَه، أو بَعْدَه فقد أعْوَزَه وجودُ الأنوارِ، وحُجِبتْ عنه شُموسُ المعارفِ بسُحُبِ الآثار. »

العدم ظلمة، والوجود نور، فالكون بالنظر إلى ذاته عدم مظلم، وباعتبار تخلى نور الحق عليه وظهوره فيه وجود مستنير، ثم اختلف أحوال الناس هاهنا:

فمنهم من لم يشاهد إلا الأكوان، وحجب بذلك عن رؤية المكون، فهذا تائه فى الظلمات محجوب بسحب آثار الكائنات.

ومنهم من لم يحجب بالأكوان عن المكون، ثم هم فى مشاهدتهم إياه فرق فمنهم: من شاهد المكون قبل الأكوان، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار، ومنهم من شاهده بعد الأكوان، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على

= لامتناعه عن القول بخلق القرآن وأطلق سنة ٢٢٠ هـ ولم يصبه شر فى زمن الواثق بالله. بعد المعتصم - ولما توفى الواثق وولى أخوه المتوكل بن المعتصم أكرم الإمام ابن حنبل وقدمه ومكث مدة لا يولى أحدا إلا بمشورته وتوفى الإمام سنة ٢٤١ هـ - ٨٥٥ م.».

(١)«وفى نسخة: بطرائق»

المؤثر. ومنهم من شاهده مع الأكوان، والمعيَّة هاهنا إما معيَّة اتصال وهو شهوده فى الأكوان، وإما معية انفصال، وهو شهوده عند الأكوان، وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولا مكانية، لأن الزمان والمكان من جملة الأكوان. والاتصال والانفصال المذكوران ليسا على ما يفهم من معانيهما، فإنهما أيضا من جملة الأكوان.

ومعرفة تفصيل هذه الأمور والتفرقة بين هذه الحقائق على ماهى عليه موكول إلى أربابه، فلنقتصر على ما ذكرناه، فها هنا زلت أقدام كثير من الناس فتكلموا بكلمات موهمة، وعبروا بعبارات منكرة فى الشرع فكفروا بذلك، وبدعوا كمال التنزيه وبطلان التشبيه، وتمسك بقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١) لا إله غيره.

«ممَّا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ، سُبْحَانَه، أنْ حَجَبَك عَنْهُ بما لَيْسَ بموجودٍ مَعَه!»

اتفقت مقالات العارفين والمحققين وإشاراتهم ومواجيدهم على ماذكرناه قبيل هذه من أن ما سوى الله تعالى عدم محض، من حيث ذاته، لا يوصف بوجود مع الله سبحانه وتعالى، إذ لو وصف به لكان ذلك شركة واثنينية، وهو مناقض لإخلاص التوحيد، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(٢) وقال رسول الله (ﷺ) أصدق كلمة قالها الشاعر:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

قال بعض العارفين: «أبى المحققون أن يشهدوا غير الله، لما حققهم به من مشهود القيومية وإحاطة الديمومية(٣)».

وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: «إننا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان، ونستدل به على الخلق هل فى الوجود شئ سوى الواحد الحق، فلا نراهم وإن كان لابد فنراهم كالهباء فى الهواء، إن فتشتم لم تجدهم شيئا» وقال أيضا رضى الله عنه: قوى على الشهود مرة فسألته أن يستر ذلك عنى، فقيل لى: لو سألته بما سأله موسى كليمه وعيسى

(١) « آية ١١ من سورة الشورى»
(٢) « آية ٨٨ من سورة القصص»
(٣) «الديمومة:: مصدر دام بمعنى ثبت وامتد»

روحه ومحمد صفيه صلوات الله عليهم أجمعين لم يفعل، ولكن سله أن يقويك، فسألته فقوانى»

قال «ابن عطاء» فى «التنوير: «فما سوى الله تعالى عند أهل المعرفة لايوصف بوجد(١) ولا فقد، إذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحديته، ولا فقد لغيره، لأنه لا يفقد إلا ما وجد، ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان» وهذا الكلام هو بسط ما ذكره فى هذا الكتاب.

وقال بعضهم: «لو تكلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده معه» وقال الشاعر:

مذ عرفت الإله لم أر غيرا
وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمعت ما خشيت افتراقا
وأنا اليوم واصل مجموع

وقال آخر:

الله قل، وذر الوجود وماحوى
إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته
عدم على التفصيل والإجمال
وأعلم بأنك والعوالم كلها
لولاه فى محو وفى اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته
فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا بأن لم(٢) يشهدوا
شيئا سوى المتكبر المتعالى
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا
فى الحال والماضى والاستقبال(٣).

---

(١) «أى وجود وفى نسخة: بوجود»
(٢) فى نسخة: فهم لا. وفى أخرى: ولما.
(٣) «لعل هذه الأبيات وخصوصا البيت الثالث والرابع منها تشرح فى صورة واضحة صلة الله بالكون: إنه سبحانه موجده ولولاه سبحانه لأستمر عدما: وذلك أنه لا وجود له من ذاته، فذاته ممكنة =

وقد صنفوا في بيان هذا الأمر تصانيف وتفننوا في الكلام في هذا المعنى نظما ونثرا وكل عبر على حسب شربه(١) وذوقه جزاهم الله عنا خيرا.

فإذا تقرر هذا، ووجدنا أكثر الناس قد حجبوا عن الله تعالى بشهواتهم الدنيوية ودرجاتهم الأخروية ومقاماتهم العلوية فكل ذلك من الأغيار العدمية والوجودات الوهمية، علمنا بذلك وجود قهره، إذ من أسمائه تعالى «القهار» ولو ارتفع الحجاب عنهم لفنوا عن أنفسهم وإرادتهم، وبقوا بربهم، وكانوا عبادا لله حقا.

وقد سئل أبو سعيد بن الأعرابي رضي الله عنه، عن الفناء، فقال: «الفناء أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات، والأذكار تفنيه عن كل شئ وعن عقله وعن نفسه وعن فنائه عن الفناء، لأنه يفرق في التعظيم عقله» انتهى.

قالوا: والفناء على ثلاثة أوجه:

فناء في الأفعال: ومنه قولهم: لا فاعل إلا الله.

وفناء في الصفات: أي لا حي، ولا عالم، ولا قادر، ولا مريد، ولا سميع، ولا بصير، ولا متكلم على الحقيقة إلا الله.

وفناء في الذات: أي لا موجود على الإطلاق، إلا الله تعالى، وأنشدوا في ذلك:

فيفنى(٢) ثم يفنى(٣) ثم يفنى(٤)

فكان فناؤه(٥) عين البقاء

= والممكن معدوم حتى يتحقق له الوجود من غيره فالعالم عدم، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن المتصلين بالله، المقربين إليه هم دائما في استشراف إليه، في تطلع نحوه، إنهم لايرون غيره، لقد فنوا فيه فلا يلتفتون لغيره، لقد ملك الله جل جلاله عليهم جميع أقطارهم فلا مكان فيهم لما سواه، وكل ماسواه بالنسبة لهم عدم ن وإذا فهمنا الوضع على هذا النسق فإن فكرة وحدة الوجود وفكرة الحلول وكل فكرة منحرفة في صلة الله بالكون منسوبة إلى الصوفية تتهافت وتنهار»

(١) حظه ونصيبه.

(٢) «أي عن الأفعال»

(٣) «أي عن الصفات»

(٤) «أي عن الذات»

(٥) «أي عن الثلاث»

وقال سيدى محيى الدين: «من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز(١)، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل». وأنشدوا فى هذا المعنى:

من أبصر الخلق كالسراب

فقد ترقى عن الحجاب

إلى وجود يراه رتقا(٢)

بلا ابتعاد ولا اقتراب

ولم يشاهد به سواه

هناك يهدى إلى الصواب

فلا خطاب به إليه

ولا مشير إلى الخطاب(٣)

«وكيف يُتصوَّر أن يَحجُبَه شئٌ وهو الذى ظَهَر كلَّ شئ؟!»

بما أشرق عليه من نور الوجود، وقد كان فى ظلمة العدم كما تقدم.

«وكيف يُتصوَّر أن يَحجُبَه شئٌ وهو الذى ظَهَر بكلَّ شئ؟!»

حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ﴾(٤)

---

(١) «وفى نسخة: جاز»

(٢) «أى سدا مغلقا»

(٣) «وزاد فى بعض النسخ:

ومن يرجو من الدنيا وفاء ... كمن يرجو شرابا من سراب

له ملك ينادى كل يوم ... لدوا للموت وابنوا للخراب لدوا

«بكسر اللام وضم الدال»»

(٤) آية ٥٣ سورة فصلت»

«وكـيف يُتـصـوَّر أن يَحـجُبَـه شئٌ وهو الذى ظَهَـر فـى كلِّ شئ؟!»

إذ هو المتجلى فيها بمحاسن صفاته وأسمائه.

«كيف يُتصوَّر أن يَحجُبَه شئٌ وهو الذى ظَهَر لكلِّ شئ؟!»

فى طور ذلك الشئ، ولذلك كان ساجدا له ومسبحا بحمده ولكن لا نفقه(١) «ذلك.

«كـيف يُتـصـوَر أن يَحـجُبَـه شئٌ وهو الظاهرُ قـبلَ وجـودِ كلِّ شئ؟!»

لتحقق هذا الاسم له أزلا وأبدا.

«كيف يُتصوَّر أن يَحجُبَه شئٌ وهو أظْهَرُ مِنْ كلِّ شئ؟!»

لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال

«كـيف يُتـصـوَّر أن يَحـجُبَـه شئٌ وهو الواحـدُ الذى ليس مـعـهُ شئ؟!»

إذ كل ماسواه عدم لا وجود له على التحقيق.

«كـيف يُتـصـوّر أن يَحـجُـبَـه شئٌ وهو أقـربُ إليك مِنْ كلّ شئ؟!»

الثبوت إحاطته بك، ووجود قيوميته عليك.

«كـيـف يُتـصـوَّر أن يَحـجُـبَـه شئٌ ولـولاه مـا كـان وجـودُ كل شئ؟!»

---

(١) يشير إلى الآية القرآنية الكريمة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ سورة الإسراء: ٤٤»

حتى استدل به الشاهدون على الأشياء كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١) .

. «يا عجباً، كيف يَظْهَرُ الوجودُ فى العَدَم؟!»

لأن العدم ظلمة، والوجود نور، وهما ضدان لا يجتمعان.

«أم كيف يَثْبُتُ الحادثُ مع مَنْ له وَصْفُ القِدَم؟!»

لأن الباطل لا يثبت مع ظهور الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(٢) وقال عز من قائل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(٣)

قلت: وهذا الفصل من قوله: «الكون كله ظلمة. . إلى هنا» أبدع فيه المؤلف غاية الإبداع، وأتى فيه بما تقر به الأعين وتلذ به الأسماع، فإنه رضى الله عنه ذكر جميع متعلقات الظهور، وأبطل حجابية كل ظلام ونور، وأراك فيه الحق رؤية عيان(٤) وبرهان، ورفعك من مقام الإيمان إلى أعلى مراتب الإحسان.

كل ذلك فى أوجز لفظ، وأفصح عبارة، وأتم تصريح وألطف إشارة، فلو لم يكن فى هذا الكتاب إلا هذا الفصل لكان كافيا شافيا، فجزاه الله عنا خيرا.

ثم قال رضى الله عنه:

«مَا تَرَكَ مِنَ الجَهْلِ شيئاً مَنْ أراد أنْ يُحْدِثَ فى الوقتِ غيرَ ما أظْهَرَهُ الله فيه!»

إذا أقام الله تعالى العبد فى حال من الأحوال التى لا يذمها الشرع فليلتزم حسن الأدب فى اختيار بقائه عليها ورضاه بها، وليراقب الله تعالى فى مراعاة آدابها، وليوافق مراد الله تعالى فى ذلك حتى يكون هو الذى ينقله عنها.

قال أبو عثمان، رضى الله عنه: «منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته، ولا نقلنى إلى غيره فسخطته».

---

(١) «آية ٥٣ من سورة فصلت»

(٢) «آية ٨١ من سورة الإسراء» (٣) « آية ١٨ من سورة الأنبياء».

(٤) «يقال رآه عيانا أى مشاهدة لم يشك فى رؤيته إياه»

وقد تقدمت حكاية المؤلف، رحمه الله تعالى، مع شيخه أبى العباس المرسى حين عزم على «التجرد» (١) وترك ما كان عليه من الأشتغال بالعلم الظاهر، وما أجابه الشيخ رضى الله تعالى عنه، وهذا من نتائج العلم بالله تعالى ومعرفة ربوبيته، فإن سخط تلك الحال وتشوف إلى الانتقال عنها بنفسه، وأراد أن يحدث(٢) غير ما أظهره الله تعالى، فقد بلغ غاية الجهل بربه، وأساء الأدب فى حضرة مولاه عز وجل، وهذا من معارضته حكم الوقت الذى تشير إليه الصوفية، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة، فالواجب على العبد الاستسلام لحكم الله تعالى فى ذلك الوقت، فهو أدب العبودية ومقتضى العلم بالله تعالى، وهذا هو أحد معانى لفظ «الوقت» فى اصطلاحهم.

قال الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله عنه: «وقد يريدون(٣) بالوقت: ما يصادفهم من تصريف الحق لهم، دون ما يختارونه لأنفسهم ويقولون: «فلان بحكم الوقت» أى: إنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له.

وهذا فيما ليس الله تعالى عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع، إذ التضييع لما أمرت به، وإحالة الأمر فيه على التقدير وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير: خروج عن الدين.

ومن كلامهم: الوقت سيف، أى: كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه(٤) الحق ويجريه غالب(٥) واقع».

وقيل: السيف لين مسه قاطع حده، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم(٦) كذلك الوقت: من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى. وأنشدوا فى ذلك:

وكالسيف إن لاينته لان مسه(٧)   وحداه إن خاشنته خشنان

---

(١) وفى نسخة: على التجريد
(٢) أى يظهر
(٣) انظر الرسالة القشيرية جـ ص١٨٩.
(٤) «وفى نسخة بما يقتضيه والمراد بما يقدره الله»
(٥) واقع
(٦) استؤصل
(٧) «وفى نسخة «متنه» أى وسطه والمراد عرضه»

ومن ساعده الوقت: فالوقت له وقت.

ومن ناكده الوقت: فالوقت عليه مقت» هذا كلام الإمام أبى القاسم، وهو موافق لما ذكر صاحب الكتاب، والله الموفق.

«إحَالُتك الأعْمَالَ عَلَى وجُود الفَرَاغِ مِنْ رُعُونَات النَّفْس»

إذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه، وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال وقال «إذا تفرعت عملت» فذلك من رعونة نفسه والرعونة: ضرب من الحماقة، وحماقته من وجوه:

الأول: إيثاره الدنيا على الآخرة، وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين، وهو خلاف ما طلب الله منه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(١)

والثانى: تسويفه بالعمل إلى أوان فراغه، وقد لايجد مهلة، بل يختطفه الموت قبل ذلك، أو يزداد شغله، لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض كما قيل:

فلما قضى أحد منها لبانته(٢)
ولاانتهى أرب(٣) إلا إلى أرب

والثالث: أن يفرغ منها إلى الذى لا يرضيه من تبدل عزمه وضعف نيته، ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوة فى جميع الأحوال ما يستحقر فى جنبه جميع هذا، بل الواجب عليه أن يبادر إلى الأعمال على أى حال كان، وأن ينتهز فرصة الإمكان قبل مفاجأة الموت وحلول الفوت، وأن يتوكل على الله تعالى فى تيسرها(٤) عليه، وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه، وما أحسن قول «ابن الفارض(٥) فى هذا المعنى:

---

(١) « آية ١٦، ١٧ من سورة الأعلى»

(٢) «اللبانة «بضم اللام» الحاجة التى يهم الإنسان قضاؤها، كما جاء فى المنجد»

(٣) «الأرب: الحاجة والغاية»

(٤) «وفى نسخة: تيسيرها»

(٥) ««هو أبو حفص عمر بن على بن رشد: أشعر المتصوفين، يلقب بسلطان العاشقين أصله من حماه وله ديوان شعر مطبوع، ومولده ووفاته فى القاهرة ولد فى ٥٧٦هـ ـ ١١٨١م وتوفى ٦٣٢هـ ـ ١٢٣٥م «انظر وفيات الأعيان والأعلام»

وعد من قريب فاستجب واجتنب غدا
وشمر عن الساق اجتهادا بنهضة
وكن صارما كالوقت فالمقت فى «عسى»
وإياك «مهلا» فهى أخطر علة
وسر «زمنا»(١) وانهض كسيرا فحظك
البطالة ما أخرت عزما لصحة
وجذ بسيف العزم «سوف» فإن تجد
تجد نفسا فالنفس إن جدت جدت

«لاتَطْلُبْ منه أنْ يُخرِجَك من حالةٍ ليستعملَكَ فيما سواها، فَلَوْ أرادَكَ لاستعملَكَ من غير إخْراجٍ»

كما أنه إذا كان المرء على حالة لا توافق غرضه كانت متعلقة بالدين أو بالدنيا لا ينبغى له أن يروم الخروج منها بنفسه ويعارض حكم وقته، فيحدث فيه غير ما أظهر الله فيه، كما تقدم فى قوله «ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهر الله فيه» مع الشرط المتقدم وهو ألا يكون فى ذلك مخالفة أمر أو ارتكاب نهى، فينبغى له أيضا ألا يعارض حكم الوقت ويطلب من مولاه أن يخرجه منها ويستعمله فيما سواها، لأن هذا من التخيير على الله تعالى، ولا خيرة له فى ذلك(٢) بل ينبغى له حسن الأدب معه وإيثار مراده به على اختياره هو، وحينئذ يتحقق بحال يتعرف فيها محبة الله تعالى وإراداته له فيستعمله استعمالا محبوبا عنده مع بقائه على حالته التى هو عليها، فيكون إذ ذاك بمراد الله تعالى له، لا بمراده لنفسه، وهو خير له مما اختاره، قال فى «التنوير»: «يحكى عن بعضهم أنه كان يقول: «وددت لو أننى تركت كل الأسباب أعطيت كل يوم رغيفين» يريد بذلك أن يستريح من تعب الأسباب، قال: فسجنت، ثم كنت فى السجن يؤتى إلى كل يوم برغيفين فطال ذلك على حتى ضجرت، ففكرت يوما فى

---

(١) «زمن الشخص زمنا وزمانه فهو زمن، وهو مرض يدوم زمانا طويلا، «المصباح المنير»
(٢) «وفى نسخة: لأن هذه من التخير ولاخير له فى ذلك»

أمرى، فقيل لى: إنك طلبت منا كل يوم رغيفين ولم تطلب منا العافية، فأعطيناك ما طلبت، فاستغفرت الله من ذلك الذنب ورجعت إلى الله تعالى، فإذا بباب السجن يقرع، فتخلصت وخرجت.

قال فيه: فتأدب بهذا أيها المؤمن، ولاتطلب أن يخرجك من أمر، ويدخلك فيما سواه إذا كان ما أنت فيه مما يوافق لسان العلم، فإن ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى، فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك، فتعطى ماطلبت وتمنع الراحة فيه، فرب تارك شيئا وداخل فى غيره ليجد الثروة والراحة فيتعب(١) وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار» انتهى كلامه فى التنوير، وهو كالتفسير لما ذكره هنا، فلذلك أوردته.

«مَا أرَادَتْ همَّةُ سَالكٍ أنْ تَقفَ عنْدَ مَا كُشفَ لَهَا إلاَّ ونَادَتْهُ هَوَاتفُ الحقيقة: الذى تَطْلُبُ أمامَكَ! وَلاَ تبرَّجَتْ لَهُ ظَوَاهرُ المُكوَّنات إلا ونَادَتْهُ حقَائقُهَا: إنَّمَا نَحْنُ فتْنَةٌ فلاَ تَكْفُرْ»

السائر إلى الله تعالى تتجلى له فى أثناء سلوكه أنوار، وتبدو له أسرار؛ فإن أرادت همته أن تقف عندما كشف لها من ذلك، لاعتقاده أنه وصل إلى الغاية القصوى والنهاية من المعرفة نادته هواتف الحقيقة: المطلوب الذى تطلبه أمامك فجد فى السير ولا تقف، فإن تبرجت له ظواهر المكونات بزينتها فما إلى حسنها وجمالها نادته حقائقها الباطنة «إنما نحن فتنة فلا تكفر» وغمض عينيك عن ذلك ولا تلتفت إليه، ودم على سلوكك وسيرك، واعلم أنه ما دامت لك.

(١) «وفى نسخة: فتعب وقوبل بوجود التعسر».

همة «وإرادة» فأنت بعيد وفى نسخة: فأنت بعد فى الطريق لم تصل» فى الطريق لم تصل، فلو فنيت عنها لو صلت، وما أحسن قول الشيخ أبى حسن الششترى فى هذا المعنى:

ولا تلتفت فى السير غيرا فكل ما
سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه إنه
حجاب، فجد السير، واستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلى
عليك فحل عنها، فعن مثلها حلنا
وقل: ليس لى فى غير ذاتك مطلب
فلا صورة تجلى ولا طرفة الطرفة:
الملحة أو الحديث المستحسن» تجنا

وقد رأيت لسيدى أبى الحسن الشاذلى، رضى الله عنه، كلاما حسنا مناسبا لما ذكره المؤلف، رحمه الله، هنا من الترقى فى الأحوال وظهور النقص فى رؤية الكمال، فرأيت أن أذكره هاهنا بنصه، لما فيه من سنى الفوائد وشريف المقاصد قال رضى الله عنه: اعلم أنك إذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة، إلا من يدلك على الله تعالى بإشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة، وأعرض عن الدنيا بالكلية، ولا تكن ممن يعرض عنها ليعطى شيئا على ذلك، بل كن فى ذلك عبدا لله أمرك أن ترفض عدوه، فإن أتيت بهاتين الخصلتين: الإعراض عن الناس والزهد فى الدنيا فأقم مع الله بالمراقبة والتزام التوبة بالرعاية، والاستغفار والإنابة والخضوع للأحكام بالاستقامة.

وتفسير هذه الوجوه الأربعة: أن تقوم عبدا لله فيما تأتى وما تذر، وتراقب قلبك أن لا يرى قلبك فى الملكة شيئا لغيره، فإن أتيت بهذا نادتك هواتف الحق من أنوار العز أنك قد عميت عن طريق الرشد، من أين لك القيام مع الله تعالى

بالمراقبة وأنت تسمع قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾(١) فهنالك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب، فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك أن لا تشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت عنه فإن صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضا من قبل الحق سبحانه: التوبة منه (٢) بدت، والإنابة منة تتبعها واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك، فهناك تظهر أوصافك فتستعيذ بالله منها وتأخذ فى الاستغفار والإنابة والاستغفار: طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه، فإن كنت بهذه الصفة، أعنى: الاستغفار والإنابة ناداك من قريب اخضع لأحكامى ودع عنك منازعتى، واستقم مع إرادتى برفض إرادتك، وإنما هى ربوبية تولت عبودية وكن عبدا مملوكا لا تقدر على شئ فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها وأنا بكل شئ عليم فإن صح لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هنالك على أسرار لاتكاد تسمع من أحد من العالمين.

«طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهَامٌ لَهُ وطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنْكَ عنه، وطلبُكَ لغيره لقلة حَيائك منه، وطلبُكَ من غيره لوجود بُعْدكَ عنه».

الطلب الذى يتصور من العبد على أربعة أوجه، أكلها مدخولة معلولة: طلبه من الله، وطلبه لغيره، وطلبه من غيره.

فطلبه من الله تهمة له، إذ لو وثق به فى إيصال منافعه إليه من غير سؤال لما طلب منه شيئا، وطلبه له غيبة عنه، إذ الحاضر لايطلب.

وطلبه لغيره قلة حياء منه، إذ لو استحيا منه انقبض عما يكرهه(٣) له من طلبه لغيره، ومن حق الحياء منه ألا يذكر معه غيره، ولا يؤثر عليه سواه وطلبه من غيره لوجود بعده عنه، إذ لو كان قريبا منه لكان غيره بعيدا عنه فلا يطلب منه فالطلب كله عند الموحدين العارفين معلول، سواء كان الطلب متعلقا بالحق أو بالخلق، إلا ما كان من الطلب على وجه التأدب والتعبد واتباع الأمر، وإظهار

(١) آية ٥٢ من سورة الأحزاب
(٢) وفى نسخة: منك»
(٣) « وفى نسخة: عما يكرهه مولاه من طلبه لغيره»

الفاقة والفقر، فحينئذ تزول العلة عنه

«مَا منْ نَفَسٍ تُبْديه إلا ولهُ فيكَ قَدَرٌ يُمْضيه»

الأنفاس: أزمنة دقيقة تتعاقب على العبد ما دام حيا، فكل نفس يبدو منه ظروف لقدر من أقدار الحق تعالى ينفذ فيه كائنا ما كان، فإذا كانت جزئيات العبد ودقائقه قد استغرقتها أحكام اللّه تعالى وأقداره، وكان جميع ذلك يقتضى منه حقوقا لازمة من حقوق اللّه تعالى «الواجبة عليه» يقوم بها وهو مطالب بذلك ومسئول عنه وعن أنفاسه التى هى أمانة للحق عنده لم يبق له إذ ذاك مجال لتدبير أمور دنياه ولا محل لمتابعة شهوته وهواه.

«لاتَترقَّبْ فَرَاغَ الأغْيار، فإن ذلك يقطعُكَ عن وجود المراقَبةِ له فيما هو مُقيمُكَ فيه»

إذا أقام اللّه تعالى عبدا فى سبب من الأسباب فالواجب عليه أن يوفيه حقه ويلتزم فيه الأدب ولا يترقب وقتا ثانيا يكون فيه فارغا منه، فإن تأميله للوقت الثانى يمنعه من القيام بحق الوقت الأول فيما أقيم فيه وتوفيته ما يجب له، وهو خلاف لأمر المطلوب منه، فليجتنب ذلك المريد.

قال أبو حفص، رضى اللّه عنه: «الفقير الصادق هو الذى يكون فى كل وقت بحكمه، فإذا ورد عليه وارد يشغله عن حكم وقته يستوحش منه ويتقيه»(١) .

وقال سهل بن عبد اللّه رضى اللّه عنه: «إذا جنك الليل فلا تؤمل النهار حتى تسلم ليلتك تلك وتؤدى حق اللّه تعالى فيها، وتنصح فيها لنفسك، وإذا أصبحت فكذلك» وسئل سهل رضى اللّه عنه: «متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير وقتا غير الوقت الذى هو فيه»

«قال البغوى فى تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾(٢) الشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر.

---

(١) وفى نسخة: وينفيه عنه.

(٢) آية ٣٥ من سورة الأنبياء.

وقيل: بما تحبون وتكرهون، لننظر شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون»(١)

«لاَتسْتَغْرِبْ وقُوعَ الأكْدَارِ مَا دُمْتَ فى هَذه الدَّارِ، فَإنَّهَا مَا أبْرَزَتْ إلا مَا هُوَ مُسْتَحقُ وَصْفِها وَوَاجِبُ نَعْتِهَا»

جعل الله الدنيا دار فتنة وابتلاء، ليعمل كل أحد فيها على مقتضى ما سبق له، ويوفى جزاءه فى الدار الآخرة، قال الله تعالى: «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» وعمل كل واحد فيها إنما هو مخالفة شهوات نفسه، أو موافقتها، وذلك لا محالة، يستدعى وجود محبوب أو مكروه بفعل أو بترك، فمن ضروريات الدنيا وجدان المكاره والمشاق فيها، فتقع الأكدار بسبب ذلك، وأيضا فحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت طباع الناس إليها، وهى لا تفى بجميع مطالبهم لضيقها وقلتها وسرعة تقضيها وتقلبها، فتجاذبوها بينهم، فتكدر عيشهم ولم يحصلوا على كلية أغراضهم، كما قيل فى المعنى:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها
على أنهم فيها عراة وجوع
أراها، وإن كانت تحب، كأنها
سحابة صيف عن قريب تقشع (٢)

فلا تستغرب وقوع أمثال هذا، فإنه ماظهر منها إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها من وجدان المكاره التى هى ذاتية لها.

قال بعض الحكماء: «لولا أن الدنيا مبنية على المكاره لجعلت منفعة الأهليلج فى اللوزينج(٣) وسيأتى التنبيه على الحكمة فى هذا عند قوله إنما جعلها محلا للأغيار ومعدنا لوجود الأكدار تزهيدا لك فيها.

---

(١) ما بين القوسين زائد فى بعض النسخ وهى النسخ المطبوعة ولا وجود له فى أصول المخطوطة.
(٢) «تقشع: تزول وتنكشف»
(٣) «اللوزينج: نوع من الحلوى يشبه «القطائف»

وفى بعض الحكايات المنقولة عن جعفر الصادق(١) رضى الله تعالى عنه أنه قال: «من طلب مالم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل له: وما ذاك؟ قال: الراحة فى الدنيا» وفى معناه أنشدوا:

تطلب الراحة فى دار العناء خاب من يطلب شيئا لايكون

وقال بعض البلغاء: «ملتمس السلامة فى دار المتالف والمعاطب كالمتمرغ على مزاحف الحيات ومداب العقارب (٢) .

وقال ابن مسعود(٣) رضى الله عنه: «الدنيا كلها غموم فما كان منها فى سرور فهو ربح»

وقال الإمام الجنيد، رضى الله عنه: «لست أستبشع ما يرد على من العالم لأنى قد أصلت(٤) أصلا وهو أن الدنيا دار هم وغم وبلاء وفتنة وأن العالم كله شر، ومن حكمه أن يتلقانى كل ما أكره، فإن تلقانى بكل ماأحب فهو فضل، وإلا فالأصل هو الأول»

وقال أبو تراب(٥) رضى الله عنه: «يأيها الناس أنتم تحبون ثلاثة أشياء،

---

(١) «هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين الهاشمى رضى الله عنه سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة فى العلم أخذ عنه جماعة منهم: أبو حنيفة ومالك وجابر بن حيان، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قطولد بالمدينة سنة «٨٠ هـ – ٦٩٩» وتوفى بها سنة ١٤٨ هـ – ٧٦٥ م، انظر ترجمته فى الجزء الأول من كتاب الأعلام للزركلى ص ١٨٦، وفى نزهة الجليس: للموسوى جزء ٢ ص ٣٥، وفى وفيات الأعيان»

(٢) «أى كالمندوح على طريق الحية والعقرب»

(٣) «هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلى، من أكابر صحابة رسول الله (ﷺ) فضلا وعقلا وقربا من رسول الله (ﷺ) وهو من السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة وكان خادم رسول الله (ﷺ) ورفيقه فى حله وترحاله وغزواته، نظر إليه عمر وقال: وعاء ملئ علما، قدم المدينة المنورة فى خلافة عثمان فتوفى فيها عن نحو ٦٠ عاما له فى الصحيحين ٨٤٨ حديثا».

(٤) «أسست أساسا»

(٥) «هو: أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى، من أكابر علماء الصوفية مات سنة: خمس وأربعين ومائتين من الهجرة، تفقه على مذهب الإمام الشافعى وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل «انظر فى ترجمته الرسالة القشيرية ج١ ص ٩٧» ومن حكمه: «أشرف القلوب قلب حى بنور الفهم عن الله تعالى ومنها: «إذا صدق العبد فى العمل وجد حلاوته قبل مباشرة العمل» ومنها: «من شغل مشغولا بالله عن الله أدركه المقت من ساعته» ومنها تفسير التوكل فى هذه العبارة الحكيمة: «التوكل: طمأنينة القلب إلى الله عز وجل» ومنها «احفظ همك، فإنه مقدمة الأشياء، فمن صح له همه صح له ما بعد ذلك من أفعاله وأحواله»

وليست هى لكم: تحبون النفس، وهى لله، وتحبون الروح، والروح لله، وتحبون المال، والمال للورثة، وتطلبون اثنين ولا تجدونهما: الراحة والفرح: وهما فى الجنة» فالواجب على العبد ألا يوطن على الراحة فى الدنيا نفسه، ولايركن فيها إلى ما يقتضى فرحا وأنسا، وأن يعمل على قول النبى (ﷺ)، فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «الدنيا سجن المؤمن» فتوطين العبد على المحن فى دنياه يهون عليه ما يلقاه، ويجد السلوان عند فقدان ما يهون، كما قيل فى المعنى:

يمثل ذو اللب فى لبه
شدائده قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه
لما كان فى نفسه مثلا
رأى الأمر يفضى إلى آخر
فصير آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه
وينسى مصارع من قد خلا
فإن دهمته صروف الزمان
ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم فى نفسه
لعلمه الصبر عند البلا

فليتلق المريد مايرد عليه من ذلك بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضاء، فعن قريب إن شاء الله ينجلى الأمر ويستوجب من الله تعالى جزيل الأجر، والله تعالى ولى التوفيق.

قال أحمد بن أبى الحوارى(١) رضى الله تعالى عنه: قال لى أبو سليمان

(١) «هو أبو الحسين أحمد بن أبى الحوارى من أهل دمشق مات سنة: ثلاثين ومائتين من الهجرة وكان الجنيد يقول: أحمد بن أبى الحوارى ريحانة الشام، يروى أنه طلب العلم ثلاثين سنة، فلما بلغ، حمل كتبه إلى البحر فأغرقها وقال: يا علم لم أفعل بك هذا هو انا بك ولا استخفافا بحقك بل كنت أطلب لأهتدى بك إلى ربى، والآن استغنيت عنك «انظر الرسالة القشيرية ج١ ص ٩٥» ومن كلامه =

الدارانى(١): «جوع قليل، وعرى قليل وذل قليل، وصبر قليل،وقد انقضت عنك أيام الدنيا. واعلم أن ما ذكرناه من الصبر هو جماع كل فضيلة، وملاك كل فائدة جزيلة ومكرمة نبيلة، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾(٢) وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾(٣) وقال عز من قائل: «﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤)، وفى وصية رسول الله (ﷺ) لابن عباس رضى الله عنهما:

«وإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين(٥) فافعل، وإن لم تستطع فاصبر، فإن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر».

وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه لرجل: «إن صبرت مضى أمر الله وكنت مأجورا، وإن جزعت مضى أمر الله وكنت مأزورا» وقال على رضى الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو، وسيف لا ينبو»

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: «أفضل العدة الصبر عند الشدة» وفى بعض الأخبار: انتظار الفرج بالصبر عبادة، وقد قال الشاعر:

إن الأمور إذا انسدت مسالكها

فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا(٦)

لاتيأسن، وإن طالت مطالبة

:= «من عمل بلا اتباع السنة فباطل عمله» «فى الرباط والغزو نعم المستراح، إذا مل العبد من العبادة استراح إلى غير معصية»

(١) «هو: أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى من دمشق، توفى سنة ٢١٥ هـ ارجع فى ترجمته وحياته وأحكامه وأقواله إلى الرسالة القشيرية ج١ ص ٨٦ ومن كلامه: «من لطائف المعاريض قوله تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ تهديد بلطف: «إذا سكن الخوف القلب: أحرق الشهوات وطرد الغفلة من القلب» ربما يقع قلبى النكتة من نكت القوم أياما، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة» «لكل شئ حلية، وحلية الصدق الخشوع»

(٢) «آية رقم ١٣٧ من سورة الأعراف»

(٣) آية رقم ٢٤ سورة السجدة.

(٤) آية رقم ١٠ من سورة الزمر»

(٥) « وفى بعض النسخ: فى القضاء»

(٦) ارتتج: أغلق»

إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق(١)» بذى الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع قرع(٢) للأبواب أن يلجا

فمن جعل الصبر معتمده فى نوازله، واعتده من أعظم عدده ووسائله، فهو مصيب فى رأيه، منجح فى سعيه، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب كان عاملا فيما يزيده ضراء ويكسبه وزرا، ويفوته أجرا، وناهيك به خسرا كما قيل:

وإذا تصبك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

وكما قيل أيضا:

وعوضت أجرا من فقيد فلا يكن فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

«ما تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أنْتَ طالِبُه بربِّكَ، ولا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أنْتَ طالبُه بنَفْسكَ»

من أنزل حوائجه بالله تعالى والتجأ إليه، وتوكل فى أمره كله عليه، كفاه كل مؤنة، وقرب عليه كل بعيد، ويسر عليه كل عسير، ومن سكن إلى علمه، وعقله واعتمد على قوته وحوله، وكله الله إلى نفسه، وخذله وحرمه توفيقه وأهمله فلم تنجح مطالبه، ولم تتيسر مآربه، وهذا معلوم على القطع من نصوص الشريعة وأنواع التجارب.

قلت: وكلام المؤلف، رحمه الله تعالى، فى هذه المسألة عام يتناول كل مطلب من المطالب الدينية والدنيوية التى مآل أمرها إلى الدين، وأشرف تلك المطالب وأكثرها قواطع ومعاطب، أخذ المريد فى سلوك سبيل التوحيد، ففيه التعلق بالله تعالى أحق وأصوب، وفى جميع جزئياته الرجوع إلى الله تعالى أولى وأوجب، فلا جرم كان من الرأى السديد والأمر الأكيد أن يخصصه من ذلك العام، وأن يفرده عقيب هذه المسألة بمزيد من الكلام فلذلك قال:

---

(١) « أحرى وأجدر»

(٢) « قرع «الباب: دقه ونقر عليه»

«مِنْ عَلامَاتِ النُّجْحِ فى النِّهَايَات: الرُّجُوعُ إلى الله تعالى فى البِدَايَات»

للمريد بداية ونهاية، فبدايته حال سلوكه، ونهايته حال وصوله، فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله تعالى، والتوكل عليه، والاستعانة به، كما ذكرنا أفلح ونجح فى نهايته، وكان وصوله إلى الله تعالى، فأمن عليه من الرجوع والانقطاع.

قال بعض المشايخ: «مارجع من رجع إلا من الطريق، ولو وصلوا ما رجعوا» ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه من تعلقه بالحق وفراره إليه من نفسه والخلق، انقطع ورجع من حيث جاء.

قال بعض العلماء: «من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله قطع به، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه، وكل إلى نفسه» فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله تعالى على ما هو بسبيله، ولايرى حول نفسه ولا قوتها فى كثير من عمله ولا قليله، فهذا هو أساس السلوك الذى ينبنى عليه قواعده.

«مَنْ أشْرَقَتْ بِدَايَته، أشْرَقَتْ نِهَايَته»

هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما تقدم، فإشراق بداية المريد برجوعه إلى الله تعالى فى مهماته وثقته به فى ملماته، وإشراق نهايته الوصول إلى قربته، والحصول فى حضرته.

«مَا استُودِعَ فى غَيْبِ السَّرائر ظَهَرَ فى شَهَادَة الظَّوَاهِر»

هذا بيان علامة تعرف بها حال المريد السالك، وما انغمر به باطنه من المزيد المتدارك، لأن الظاهر مرآة الباطن، كما قيل «الأسرة تدل على السريرة، وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره» فما استودعه الله القلوب والأسرار من المعارف والأنوار لابد وأن تظهر آثار ذلك على الجوارح، فيستدل بشاهد العبد على غائبه من أراد صحبته، والوصلة به، وما أشبه ذلك من الأغراض والمقاصد.

قال أبو حفص(١) رضى اللّه عنه: «حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن، فإن النبى (ﷺ) قال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه»

وقيل: لما ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون أمره لا يخطئ أحد منهم، فقال: يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك!!فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

قلت: وآكد من ذلك أن يعرف المريد نفسه، ويكون من أمرها على بصيرة ولا ينخدع بما يتوهمه من صلاح سريرته دون علانيته، فمن ادعى بقلبه معرفة اللّه تعالى ومحبته، ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك وآثاره من اللّهج بذكره والمسارعة إلى إتباع أمره، والاغتباط بوجوده والاستبشار عند يقين شهوده والفرار من القواطع الشاغلة عنه، والإضراب عن الوسائط المبعدة منه، فهو كذاب فى دعواه، متخذ إلهه هواه، فإن كان موصوفا بأضداد هذه الخصال، ومنحرفا بظاهره عن جادة الاعتدال، فهو فى دعواه أكذب، وحاله للنفاق والشرك أقرب. قال الشيخ أبو طالب المكى(٢) رضى اللّه عنه: «قد جعل اللّه تعالى وصف الكافرين أنهم إذا ذكر اللّه وحده فى شئ انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر غيره فى شئ فرحوا، وجعل من نعوتهم أنهم إذا ذكر اللّه تعالى بتوحيده وإفراده بشئ غمطوا(٣) ذلك وكرهوه، وإذا أشرك غيره فى ذلك صدقوا به فقال تعالى:

---

(١) «هو: أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور مات سنة: نيف وستين ومائتين من هجرة رسول اللّه (ﷺ) «انظر الرسالة القشيرية ج١ ص ٩٦» ومن كلامه: «المعاصى بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت» «التصوف كله آداب: لكل وقت أدب ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب، فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول» «ماظهرت حالة عالية إلا من ملازمة أصل لخشعت جوارحه» وسئل أبو حفص: ما البدعة؟ فقال: التعدى فى الأحكام، والتهاون بالسنن واتباع الآراء والأهواء، وترك الاقتداء والاتباع» وسئل أبو حفص: من الرجال؟ فقال: القائمون مع اللّه تعالى بوفاء العهود، قال اللّه تعالى: «رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه»».

(٢) «هو: محمد بن على بن عطية الحارثى أبو طالب واعظ فقيه اشتهر بمكة ورحل إلى بغداد فتوفى بها سنة ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م «انظر ترجمته فى كتاب الأعلام للزركلى ج٣ ص ٩٤٤، ووفيات الأعيان»

(٣) «وفى نسخة: غطوا»

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾(١) وقال أيضا: ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾(٢) والكفر: التغطية، والشرك: الخلط، أى أنه يخلط بذكره ذكر سواه، ثم قال: ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ يعني: لا يشركه خلق فى حكمه، لأنه العلى فى عظمته، الكبير فى سلطانه، لا شريك له فى ملكه وعطائه، ولا نظير له من عباده، ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب: أن المؤمنين إذا ذكر الله بالتوحيد والإفراد فى شئ انشرحت صدورهم، اتسعت قلوبهم واستبشروا بذكره وتوحيده، وإذا ذكرت الوسائط والأسباب التى دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم، وهذه علامة صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك، لتستدل بها على حقيقة التوحيد فى القلب، أو وجود خفى الشرك فى السر إن كنت عارفا» انتهى.

قلت: وهذه المسألة التى تضمنها كلام الشيخ أبى طالب المكى رضى الله عنه من أعظم المسائل على صدق الصادق وكذب الكاذب، ومن أوضح الدلائل، ولما كان قصدنا فى هذا التنبيه استغنام ذكر الفوائد العجيبة والحرص على رسم المقاصد الغريبة لغربة الدين فى هذا الزمان الرذل واستيلاء الغرة والجهل على المنسوبين إلى العلم والفضل حسن منا إيراد هذه الكلمات على وجه ضرب المثل والاكتفاء بالنهل(٣) عن العلل(٤) ليعمل بمقتضى ذلك مريد سالك ولينتهج من مناصحة ربه فى دينه وقلبه أوضح المسالك واحمل على هذا الأسلوب كل كلام لم تظهر لك مطابقته ولم تتم فى نظرك مناسبته، لتسلم بذلك من الأغراض، وتعلو همتك عما تولع به أصحاب القلوب المراض، عافانا الله بمنه وفضله.

(١) «آية ٤٥ من سورة الزمر»
(٢) آية رقم ١٢ من سورة غافر»
(٣) «يقول المصباح المنير: نهل: شرب الشرب الأول حتى روى فهو ناهل»
(٤) «العلل: الشرب بعد الشرب»

«شَتَّانَ بين مَنْ يَسْتَدِلُّ به أو يَسْتَدِلُّ عَلَيْه! المُسْتَدِلُّ به عَرَفَ الحَقَّ لأهله فأثبتَ الأمْرَ مِنْ وُجود أصله والاستدلالُ عليه مِنْ عَدَمِ الوصُولِ إليه، وإلا فَمَتَى غَابَ حَتَّى يُسْتَدلَّ عَلَيه؟! وَمَتَى بَعُدَ حَتَّى تَكُونَ الآثارُ هى التى تُوصلُ إليه؟!»

بنو آدم فى أول نشأتهم ومبدأ خلقتهم وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل وعدم العلم قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(١) ثم إن الله تعالى اختص بعضهم بخصوصية عنايته واختارهم من أهله لولايته(٢) وما ذاك إلا لحصول العلم الذى تضمنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾(٣) الذى يحقق لهم النسبة ويوجب لهم الزلفى والقربة المشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وجعلهم على قسمين: مرادين، وإن شئت قلت: مجذوبين وسالكين، وكلاهما مراد ومجذوب على التحقيق، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٤) فالمريدون السالكون إلى الله تعالى فى حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار فالآثار والأكوان ظاهرة لهم وموجودة لديهم، والحق تعالى غيب عنهم فلم يروه، فهم يستدلون بها عليه فى حال ترقيهم، والمرادون المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم الأكرم، وتعرف إليهم فعرفوه به، فلما عرفوه على هذا الوجه انحجبت الأغيار عنهم فلم يروها، فهم يستدلون به عليها فى حال تدليهم فهذا هو حال الفريقين، وشتان ما بينهما، أى: بعد ما بينهما، وذلك أن المستدل به على غيره عرف الحق الذى هو الوجود الواجب لأهله، وهو المختص بوصف القدم، وأثبت الأمر المشار به إلى الآثار

(١) «آية رقم ٧٨ من سورة النحل»
(٢) «وفى نسخة: واختار منهم من أهله لولايته، وفى أخرى: واختار منهم لأهل ولايته.
(٣) «آية ٧٨ من سورة النحل»
(٤) «آية ١٣ من سورة الشورى»

العدمية من وجود أصله المشار به إلى المؤثر المتحقق وجوده والمستدل بغيره عليه، على عكس ما ذكرناه، لأنه استدل بالمجهول على وبالمعدوم، وبالعدوم على الموجود، وبالأمر الخفى على الظاهر الجلى، وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب، وعدم احتظائه(١) بالوصول والاقتراب،

وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه بالأشياء الحاضرة، ومتى بعد حتى تكون الآثار القريبة هى التى توصل إليه، أو فقد، حتى تكون الآثار الموجودة هى التى تدل عليه، وأنشدوا:

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذى أشهدته كل مشهد

قال فى «لطائف المنن» (٢): «واعلم أن الأدلة إنما تنصب لمن يطلب الحق لا لمن يشهده، لأن الشاهد غنى بوضوح الشهود(٣) عن أن يحتاج إلى دليل فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية، ثم تعود إلى نهايتها ضرورية وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه(٤) عن إقامة دليل فالمكون أولى بغناه عن الدليل منها» ثم قال: «ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه؟ أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المظهرة له؟ إن كانت الكائنات موصلة إليه فليس ذلك من حيث ذاتها، لكن هو الذى ولاها رتبة التوصيل فوصلت إليه فما وصل إليه غير إلهيته ولكن الحكيم هو واضع الأسباب، وهى لمن وقف عندها ولم تنفذ قدرته عين الحجاب(٥).

---

(١) «وفى نسخة: اختصاصه»
(٢) «لطائف المنن» من كتب الإمام ابن عطاء الله السكندرى يتضمن تعداد مناقب الأئمة الصوفية وفضائل الأقطاب والسالكين كأبى العباس المرسى وشيخه قطب الأقطاب أبى الحسن الشاذلى»
(٣) وفى نسخة: المشهود.
(٤) وفى نسخة: بوجوده
(٥) وفى نسخة: ولم ينفذ إلى قدرته عين الحجاب.

«لينُفقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِه: الوَاصلُونَ إليه، ومَنْ قُدِرَ عَلَيه رِزْقُه: السَّائرونَ إلَيه».

هذه إشارة مليحة إلى حال الفريقين، فالواصلون إلى الله تعالى لما خرجوا من سجن رؤية الأغيار إلى فضاء التوحيد وكمال الاستبصار اتسعت مسافة نظرهم فأنفقوا من سعتهم وتصرفوا فى عوالمهم كيف شاءوا، والسالكون إليه مقدور عليهم فى أرزاق العلوم والفهوم، محبوسون فى مضيق الخيالات والرسوم، ينفقون مما آتاهم الله من الرزق المعلوم المقدر المضيق.

«اهتدى الرَّاحلُونَ إليه بأنوار التَّوَجُّه، والوَاصلُونَ لَهُمْ أنوارُ الُمواجَهة، فَالأوَّلونَ للأنوار، وَهَؤلاء الأنْوارُ لَهُمْ، لأنهم للّه، لا لشئٍ دُونَه «قُلِ اللّه ثُمَّ ذَرْهُمْ فى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»

أنوار التوجه: هو ما صدر منهم إلى الله تعالى من عبادات ومعاملات ومكابدات ومجاهدات.

وأنوار المواجهة: هو ما صدر من الله لهم من تعرف وتقرب وتودد وتحبب فالأولون عبيد الأنوار، لوجود حاجتهم إليها فى الوصول إلى مقصودهم. والآخرون الأنوار لهم؟ لوجود غناهم عنها بربهم، فهم لله لا لشئ دونه، وسيأتى هذا المعنى عند قوله: «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك»

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(١) أفراد التوحيد بعدم ملاحظة الأغيار هو حق اليقين ورؤية ما سوى الله خوض ولعب وهما من صفات الكاذبين والمنافقين، قال الله عز وجل إخبارا عنهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾(٢) وقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾(٣) وقال رضى الله تعالى عنه:

(١) «سورة الأنعام الآية ٩١»
(٢) «سورة المدثر الآية ٤٥»
(٣) «سورة الدخان الآية: ٩»

«تشوُّفُكَ إلى مَا بَطَنَ فيكَ مِنَ العُيوبِ، خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إلى مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنْ الغُيُوبِ».

حكم المريد أن يتشوف إلى معرفة ما غاب عنه من معايب نفسه ويتطلبها، ويبحث عنها، فإن ذلك هو حق الحق تعالى منه، فينبغى أن يحرص عليه، ويصرف عنان(١) اعتنائه إليه، ليحصل له صفاء أعماله من الآفات، ونقاء أحواله من الكدورات، وينتفى عنه الجهل والغرور، وتنقطع عن باطنه مواد الشرور.

وقد ذكر الشيخ أبو حامد الغزالى، رضى الله عنه، فى كتابه: «رياضة النفس» فصلا فى الطريق الذى به يتعرف الإنسان عيوب نفسه، فلينظر فيه المريد، وقد جعل حاصله أربعة أوجه:

أحدها: أن يجلس بين يدى شيخ بصير بالعيوب والآفات فيحكمه فى نفسه ويتبع إشارته فيما يشير به عليه.

والثاني: مصاحبة صديق صدوق يجعله رقيبا على أحواله وأعماله، لينبهه على ما يخفى عليه من مذام خلاله.

والثالث: أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه، إذ لابد من جريان ذلك على ألسنتهم عند ثلبهم وعيبهم.

والرابع: أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس إذ يطلع بذلك على مساويهم، فإذا اطلع عليها منهم وعلم أنه لا ينفك هو عن شئ منها، لأن الطباع البشرية فى ذلك متقاربة، وقد يظهر له فى نفسه ما هو أعظم مما يراه فى غيره فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها، والتنزه عنها» فهذا تلخيص ما ذكره، ثم قال: «وهذه كلها حيل (٢) من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس، مشفقا، ناصحا فى الدين، فارغا من تهذيب نفسه، مشغولا بتهذيب عباد الله ناصحا لهم، فمن وجد

(١) «عنان الفرس «بكسر العين» لجامه الذى به يوجه ويقاد، والمراد هنا:أن يوجه همته وعنايته إلى البحث عن معايب نفسه واكتشاف مثالبها»

(٢) وفى نسخة: حال.

الطبيب فليلازمه، فهو الذى يخلصه من مرضه، وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده» انتهى.

وأما طلبه للغيوب المحجوبة عنه من خفايا القدر، ولطائف العبر، فإنه حظ نفسه، لاحق عليه فيه للحق تعالى، فليطب عنها نفسا ولا يشغل بها عقلا ولاحسا، وما ظهر له منها لا يسكن إليه ولا يعول عليه، فإن ذلك من المعايب القادحة فى عبوديته، ولهذا قالوا: «كن طالبا للاستقامة، ولا تكن طالبا للكرامة، فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة، ولأن تكون بحق مولاك أولى بك من أن تكون بحظ نفسك».

ومن الحكايات فى هذا المعنى الذى ذكرناه ما روى فى الإسرائيليات عن «وهب بن منبه» رضى اللّه تعالى عنه: «أن رجلا من بنى إسرائيل صام سبعين سنة يفطر فى كل سنة ستة أيام، فسأل اللّه تبارك وتعالى أن يريه كيف تقوى الشياطين(١) على الناس، فلما طال ذلك عليه ولم يجب، قال: لو اطلعت على خطيئتى وذنبى بينى وبين ربى لكان خيرا لى من هذا الأمر الذى طلبته، فأرسل اللّه إليه ملكا فقال له: إن اللّه تعالى أرسلنى إليك وهو يقول لك إن كلامك هذا الذى تكلمت به أحب إلىّ مما مضى من عبادتك، وقد فتح اللّه بصرك فانظر، فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض، وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذباب، فقال: أى ربى من ينجو من هذا؟ قال: الورع اللين».

وسيأتى بيان أن الكرامات غير مطلوبة التحصيل ولا مغتبط بوجودها لدى كل عالم نبيل، عند قوله: «ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه».

الحَقُّ ليسَ بمحجوب، وإنَّما المَحْجُوبُ أنْتَ عَنِ النَّظَرِ إليه، إذ لو حَجَبَهُ شَيءٌ، لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَه، ولَو كَان لَهُ سَاترٌ، لَكَانَ لوجُوده حَاصِرٌ، وكُلُّ حَاصرٍ لشىءٍ، فَهُو لَهُ قَاهِرٌ.. «وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عبَاده»

الحجاب على الحق تعالى محال، واستدل المؤلف على ذلك بما ذكره هنا، وهو

(١) وفى نسخة: كيف تقوى الشياطين الناس.



بين لا إشكال فيه والحجاب على العبد واجب من حيث ذاته، إذ هو عدم كما تقدم، ولا نسبة بين العدم والوجود، فإن أراد الله تعالى رفع هذا الحجاب عمن شاء كيف شاء متى شاء رأى من ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، وهذا مما يجب اعتقاده.

«اخْرُجْ منْ أوصَافِ بشَرِيَّتكَ، عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقضٍ لعُبُوديَّتكَ، لتَكُونَ لندَاءِ الحَقِّ مُجيبًا، وَمنْ حَضْرَته قَريباً».

أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين نوعان:

أحدهما: ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهى الأعمال.

والثانى: ما يتعلق بباطنه وقلبه، وهى العقود.

فأما ما يتعلق بظاهره وجوارحه فينقسم قسمين:

أحدهما: ما وافق الأمر، ويسمى «طاعة».

والثانى: ما خالفه، ويسمى «معصية» وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه فينقسم أيضا إلى قسمين:

أحدهما: ما وافق الحقيقة، ويسمى «إيمانا» وعلما.

والثانى: ما خالفهما، ويسمى «نفاقا» وجهلا.

والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد يسمى فى الإصطلاح «تفقها» والنظر فيما يتعلق بباطنه، يسمى فى الاصطلاح «تصوفا».

فهذان الأمران هما كلية العبد، وظاهره تابع لباطنه بالضرورة، لأن القلب هو الملك، والجوارح جنوده ورعيته ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به وينهى عنه، وقد نبه على هذا المعنى رسول الله (ﷺ) حيث قال: «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب».

وصلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها دقيقها وجليلها، وهذه هى الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية التى أشار إليها المؤلف رحمه الله تعالى، وهى التى تسم صاحبها بسمة النفاق والفسوق، وهى كثيرة مثل: الكبر،والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد، والحسد , وحب المال والجاه،

ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء، والتذلل للأغنياء، واستحقار الفقراء، وترك الثقة بمجئ الرزق، وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق، والشح والبخل، وطول الأمل، والأشر والبطر، والغل والغش، والمباهاة والتصنع، والمداهنة والقسوة، والفظاظة والغلظة والغفلة والجفاء والطيش والعجلة، والحدة والحمية، وضيق الصدر، وقلة الرحمة وقلة الحياء وترك القناعة، وحب الرياسة وطلب العلو والانتصار للنفس إذا نالها الذل وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله... , إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللئيمة، وأصل فروعها وعنصر ينابيعها، وإنما هو رؤية النفس والرضا عنها وتعظيم قدرها وترفيع أمرها، فبهذه الأمور كفر من كفر ونافق من نافق، وعصى من عصى، وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه عز وجل من خلع حسبما يقوله المؤلف رحمه الله بأثر هذا «وشأن الصوفى إنما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات، وقد بينوا طرق ذلك فى كتبهم.

قال الشيخ أبو طالب، رضى الله عنه: «فلا يكون المريد بدلا حتى يبدل بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية، وأخلاق الشياطين بأوصاف المؤمنين وطبائع البهائم وأوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم، فعندها يكون بدلا مقربا».

قال: «والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه، فبملكها تسخر له ويسلط عليها، فإن أردت أن تملك نفسك فلا تملكها، وضيق عليها ولا توسع لها، فإن ملكتها ملكتك، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك، وإذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها، واحبسها عن معتاد ملائمها، فإن لم تمسكها انطلقت بك، وإن أردت أن تقوى عليها فاضعفها بقطع أسبابها وحبس موادها وإلا قويت عليك فصرعتك» انتهى.

فإذا قام بذلك المريد على الوجه الذى رسموه له، والتزم الوظائف التى أمروه بها طهر قلبه وتزكت نفسه، واتصفت بمحاسن الصفات التى تزينه بين العباد، وينال بها من قرب ربه غاية المراد، فيظهر حينئذ عليه آثار حميدة من التواضع لله والخشوع بين يديه، والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده، والهيبة له، والخوف منه، والتذلل لربوبيته، والإخلاص فى عبوديته، والرضا بقضائه، ورؤية المنة له عليه فى منعه وإعطائه، ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة

الصدر، والحلم، والاحتمال، والصيانة، والنزاهة، والأمانة والثقة والعطف، والتأنى، والوقار، والسخاء، والجود، والحياء، والبشاشة، والنصيحة،وسلامة الصدر، إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان التى ينال بها العبد غاية السعادة والحسنى الزيادة.

قلت: وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية، رضى الله عنهم، بالتخلى والتحلى، أى: التخلى عن الصفات المذمومة، والتحلى بالصفات المحمودة، ويعبرون عنهما أيضا بـ«التزكية والتحلية» وهما حقيقة السلوك الذى يعبرون عنه أيضا، وستأتى الإشارة إلى كيفية ذلك عند قوله «لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين»

فإذا صح للمريد هذا السفر وانقلب منه إلى أفضل مستقر تحققت عبوديته لربه عز وجل فلم يملكه غيره، ولم يسترقه سواه، وارتقى فى القرب من ربه إلى أشرف محل فيكون هناك منزله ومثواه، فيكون حينئذ كما قال المؤلف رحمه الله تعالى، لنداء الحق مجيبا، لأنه إذ ذاك يناديه باسم العبد، فيقول له: ياعبدى، فيجيب حينئذ مولاه باسم الرب فيقول له لبيك يارب فيكون صادقا فى إجابته متحققا فى نسبته، ويكون أيضا من حضرته قريبا لوجود بعده عن نفسه التى من شأنها النفور عنها والفرار منها، فإذا أقامه الحق تعالى مقام العبودية وحاز مرتبة القرب من حضرة الربوبية كان محفوظا من اقتحام الأوزار، ميسرا عليه أعمال الأخيار، متحليا فى الظاهر والباطن بأشرف الحلى محتظيا بفضيلة التشبه بالملأ الأعلى، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(١) وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(٢) وقال عز من قائل: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٣)

فمرتبة العبودية أنالتهم هذه الخصوصية، وكذلك من تشبه بهم فى محاسن صفاتهم من الصفوة الصوفية، إلا أن هؤلاء محفوظون، لا معصومون، على ما

(١) «أيتا ١٩، ٢٠ من سورة الأنبياء».
(٢) «آية رقم ٢٠٦ من سورة الأعراف».
(٣) «آية رقم ٦ من سورة التحريم».

اصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة، والفرق بينهما هو ما قاله الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله عنه: أن المعصوم لا يلم بذنب ألبتة، والمحفوظ قد تحصل منه همات(١) وقد يكون له فى الندرة زلات، ولكن لايكون له إصرار، أولئك الذين يتوبون إلى الله من قريب.

وقد وصف الله تعالى عباده ذوى التخصيص أولى التطهير والتمحيص فى آيات كريمة بصفات جليلة عظيمة، وأعد لهم على ذلك خيرات جسيمة، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾(٢)

وعليك النظر فيما قاله فيها أهل التفسير، وما استنبطه منها أرباب الإشارات والتذكير، وأما من عدا هؤلاء فهم عبيد نفوسهم الشهوانية ومسترقو حظوظهم الدنيوية، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(٣) وقال النبى (ﷺ) فيما روى عنه: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، الحديث» وهؤلاء هم من عبيد العدد المعنيين بقوله عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(٤).

واعلم أنه لا يتهيأ هذا السلوك إلى حضرة ملك الملوك إلا لمن وفقه الله تعالى

---

(١) «وفى نسخة: هنات»
(٢) «الآيات ٦٣ _ ٧٦ من سورة الفرقان»
(٣) «من آية ٢٣ من سورة الجاثية»
(٤) «من سورة مريم الآيات ٩٣: ٩٥»

لمعرفة نفسه، وما ركبت عليه من مذام الصفات. ومن عرف ذلك من نفسه لا يزال متهما لها مسيئا ظنه بها، آخذا حذره منها، وإلا وقع فى المعاصى والذنوب من حيث لا يشعر، وقد نبه المؤلف، رحمه الله تعالى، على هذا بقوله:

«أصْلُ كُلِّ مَعصيَةٍ وَشَهْوَةٍ وَغَفْلَة: الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ. وأصْلُ كُلِّ طَاعةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ: عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْها».

الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة.

وقد اتفق على هذا جميع العارفين وأرباب القلوب، وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها، ويصير قبيحها حسنا، كما قيل:

«وعين الرضا عن كل عيب كليلة»

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا، لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد كما قيل فى الشطر الأخير:

«كما أن عين السخط تبدى المساويا»

فمن رضى عن نفسه استحسن حالها وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها استولت عليه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعى الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها به ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك، ومن غلبته شهوته وقع فى المعاصى لامحالة،وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه، ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها ولم يسكن إليها، ومن كان بهذا الوصف كان متيقظا متنبها للطوارق والعوارض، وبالتيقظ والتنبه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة، فينصف العبد حينئذ بصفة العفة، فإذا صار عفيفا كان مجتنبا لكل ما نهاه الله عنه، محافظا على جميع ما أمره به،وهذا هو معنى الطاعة لله عز وجل، وأصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه.

فإذا لا شئ أوجب على العبد من معرفة نفسه، ويلزم من ذلك عدم الرضا

عنها، وبقدر تحقق العبد فى معرفة نفسه يصلح له حاله ويعلو مقامه، وقد ورد عن الكبار والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم لنفوسهم، والتهمة منهم لها، وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى.

ولذلك قال أبو حفص، رضى اللّه عنه: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها فى جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شئ منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه، والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(١).

وقال أيضا أبو حفص، رضى اللّه عنه: «منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى أن اللّه ينظر إلى نظر السخط وأعمالى تدل ذلك»

وقال الجنيد(٢) ، رضى اللّه عنه: «لاتسكن إلى نفسك وإن دامت طاعتها لك فى طاعة ربك».

وقال أبو سليمان الدارانى، رضى اللّه تعالى عنه: «ما رضيت عن نفسى طرفة عين»

ويحكى عن سرى السقطى(٣) رضى اللّه عنه، أنه قال: «إنى لأنظر إلى وجهى فى اليوم كذا كذا مرة مخافة أن يكون قد اسود لما أخافه من العقوبة».

---

(١) «سورة يوسف الآية: ٥٣»

(٢) «هو: أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجيند البغدادى الخزاز، مولده ووفاته ببغداد عرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخز قال أحد معاصريه ما رأت عيناى مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته والمتكلمون المعانيه وهو أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد وقال ابن الأثير فى وصفه: إمام الدنيا فى زمانه، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ولكونه مصونا من العقائد الذميمة سالما من كل ما يوجب اعتراض الشرع توفى ببغداد سنة ٢٩٨ هـ ومن كلماته: «الطريق مسدود إلا على المتتبعين آثار المصطفى (ﷺ): «قل هذه سبيلى أدعو إلى اللّه على بصيرة أنا ومن اتبعنى» ومنها: «صفاء القلوب على حسب صفاء الذكر وخلوصه من الشوائب». ومنها من لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه»».

(٣) «هو: أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى، خال الجنيد وأستاذه بغدادى المولد والوفاة كان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته، أخذ عن معروف الكرخى وتتلمذ عليه وسمع الحديث من الفضيل وروى عنه الجنيد، وكان عالما ورعا نقيا «ج١ ص ٦٤ الرسالة القشيرية» ومن كلماته: «الشوق والأنس يرفرفان على القلب فإن وجدا فيه هيبة وإجلالا وإلا ارتحلا» ومنها: «احذر أن تكون ثناء منشورا وعيبا مستورا»،»

وقال أيضا: «من الناس ناس لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر ولا احسبنى إلا منهم»

إلى غير هذا من العبارات الصادرة من المشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى.

وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى(١) رضى الله تعالى عنه جزءا صغير الجرم، عظيم الفوائد فى عيوب النفس وكيفية مداواتها، فلينظر فيه المريد.

وكذلك ألف قبله الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبى(٢) كتابا سماه «النصائح» جمع فيه من معايب النفس وخدعها، وغرورها وشرورها، جملة شافية، ونبه فيه على سنن دراسة عافية، مما كان عليه سلفنا الصالح، رضوان الله تعالى عليهم، من التفتيش والتفقد والنظر فيما يصلح به أعمالهم وأحوالهم وأنفسهم، والمحافظة على تطهير الأسرار والقلوب، والمبالغة فى الحذر من محقرات الذنوب.

وقد نقل الإمام أبو حامد الغزالي، قدس الله سره، منه فصلا فى كتابه، واعتمد فيه ذكره بلفظه، ونص خطابه، بعد أن أثنى على مؤلفه بما هو أهله، أبان للجاهل به علمه وفضله، فقال فى حقه «والمحاسبى، رحمه الله تعالى، حبر(٣) الأمة فى علم المعاملة، وله السبق على جميع الباعثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات».

وكلامه جدير بأن يحكي على وجهه، ثم ذكره، وقد كان أوحد زمانه علما وعبادة، ونخبة أوانه ورعا وزهادة، سيدى الحاج أبو العباس بن عامر، رحمه الله تعالى عليه ورضوانه، يكثر من التحريض على مطالعة ذلك الكتاب(٤) والعمل بما

---

(١) «هو: محمد بن الحسين بن موسى الأزدى السلمى، أبو عبد الرحمن: من علماء الصوفية مولده ووفاته بنيسابور له كتاب «طبقات الصوفية وكتاب «الفتوة» وكتاب «أدب الصحبة» ولد سنة ٣٣٠ هـ ٩٤٢ م وتوفى سنة٤١٢ هـ ١٠٤٢ م انظر الإعلام ج٣ ص ٨٨٩»

(٢) «إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام، قال عنه الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين»: المحاسبى حبر الأمة في علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال مات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ انظر ص ٧٢ ج١ من الرسالة القشيرية»

(٣) «الحبر «بكسر الحاء» والحبر: العالم الصالح ورئيس من رؤساء الدين»

(٤) «طبع هذا الكتاب أخيرا بالقاهرة تحت عنوان: «الوصايا»

تضمنه، من حق وصواب، وأظنني سمعته ذلك يوم يقول: لا يعمل بما فيه إلاّ وليّ، أو كلاما هذا معناه فليتخذ المريد مطالعته وردا، وليحرص علي العمل بما تضمنه، مستعينا بالله تعالى، وسائلا منه توفيقا ورشدا، لينصح مولاه فى مراعاة إصلاح باطنه، والقيام على قدم التصديق فى مواطنه، وليجعل هجيراه(١) مطالعة كتب التصوف وموالاة أهله بالتآلف والتعرف، فبذلك تتقوى أنوار إيمانه ويقينه، وتنتفى عنه الغرة فى عمله بوظائف دينه، ولا يقدم على ذلك إلا فرض العين وما يستجم به نفسه من مكابدة التعب والأين(٢) ولايشغل نفسه بعلم يغبر(٣) على وجه مقصوده، ويوجب له انتكاث(٤) مواثيقه وعهوده وهو ما أكب الناس عليه اليوم، وحادوا به عن سنن القوم حتى تطرق لهم بسبب ذلك من رذائل الصفات، وعظائم الآفات ما صار بهم(٥) إلى الهلاك والشقاء، وأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم اللقاء، وسجل عليهم بالكذب فى دعواهم أنهم قاصدون بعلمهم رضا مولاهم، فإياك وإياهم وأنشد:

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ولذلك قال المؤلف:

«وَلأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ، خَيرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يرضى عَنْ نَفْسِهِ.. فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نفسه؟! وَأَيُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ؟!»

فائدة الصحبة إنما هى الزيادة فى الحال وعدم النقصان فيها، حسبما يأتى الكلام عليه عند قوله: «لاتصحب من لا ينهضك حاله، ولايدلك على الله

---

(١) «أى: دأبه وشأنه»
(٢) «الأين: التعب وفى نسخة: وما تسمح به نفسه من... ألخ»
(٣) «غبر «بتشديد الباء» = أثار الغبار»
(٤) «نكث العهد: نقضه ونبذه وفى نسخة: انكشاف مواثيقه».
(٥) «وفى نسخة: ما أصارهم: أى ردهم وأعادهم»

مقاله». فصحبة من يرضى عن نفسه، وإن كان عالما شر محض، ولا فائدة فيها، لأن علمه غير نافع له، وجهله الذى أوجب رضاه عن نفسه صار غاية الضرر، وكأنه إذ فاته هذا العلم الذى يريه عيبه حتى لا يرضى عن نفسه لا علم عنده.

وصحبة من لا يرضى عن نفسه، وإن كان جاهلا، خير محض، وفيه كل الفائدة، لأن جهله غير ضار، وعلمه الذى أوجب له عدم رضاه عن نفسه نافع غاية النفع، وكأنه إذا حصل له هذا العلم لا جهل عنده.

شُعَاعُ البَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ، وَعَيْنُ البَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوجُودِه، وَحَقُّ البَصِيرةِ يُشْهِدُكَ وجُودَهُ - لاَ عدَمَك، وَلا وُجُودَكَ.

شعاع البصيرة نور العقل، وعين البصيرة نور العلم، وحق البصيرة نور الحق.

فالعقلاء بنور عقولهم شهدوا أنفسهم وشاهدوا ربهم قريبا منهم أى بالعلم والإحاطة.

والعلماء بنور علمهم شهدوا أنفسهم عدما فى وجود ربهم، والمتحققون بنور الحق شاهدوا الحق ولم يشاهدوا معه سواه،

كَانَ اللّهُ وَلا شيءَ مَعَه، وَهُو الآن.. عَلَى مَا عَلَيْه كَان.

الأزمنة ها هنا أمور وهمية لا وجود لها على التحقيق، والمقصود أن الله لاشئ معه، لثبوت أحديته.

فلم يبق إلا الحق لم يبق كائن
فما ثم موصول وما ثم بائن
بذا جاء برهان العيان فما أرى
بعينى إلا عينه إذ أعاين (١)

وسيأتى من كلام المؤلف رحمه الله تعالى: «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته».

(١) «نرجو ألا تلتبس أمثال هذه التعابير على القارئ فما نريد إلا القول بأن وجود الله واجب وأن وجود غيره ممكن وأن الممكن استمد وجوده من الله تعالى، فالوجود الحق لله سبحانه، وإذا تأمل القارئ البيت الثانى رأى أن الشاعر يثبت: راء ومرئى وأن الرائى لايرى بعينه إلا الله حينما يعاين: فهو إذن يثبت نفسه ويثبت مولاه ومن كان كذلك لا يتأتى أن يقول بوحدة الوجود على المعنى المنحرف»

وقال قَّدس اللّه سّره: «لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إلى غـيره، فَالكَرِيْمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمَال».

الهمة العلية تأنف من رفع حوائجها إلى غير كريم ولا كريم على الحقيقة سوى اللّه تعالى، قال الجنيد رضى اللّه تعالى عنه: «الكريم الذى لا يحوجك إلى مسألة».

وقال الحارث المحاسبى، رضى اللّه تعالى عن: الكريم الذى لا يبالى من أعطى.

وقيل: «الكريم الذى لا يخيب رجاء المؤملين» وأجمع العبارات فى معنى وصف الكريم ما قيل: «الكريم الذى إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ولا يبالى كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفى عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء فإذا كانت هذه الصفات لا يستحقها أحد سوى اللّه تعالى فينبغى إذن أن لا تتخطاه آمال المؤملين إلى غيره، كما قال بعضهم:

حرام على من وحد اللّه ربه
وأفرده أن يجتدى أحدا رفدا(١)
وياصاحبى قف بى مع الحق وقفة
أموت بها وجدا وأحيابها وجدا(٢)
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها
فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

(١) «الرفد: العطاء واجتدى واستجدى فُلانا: سأله حاجة وطلب منه ألنفع والعطاء»
(٢) الوجد «والوجد «بكسر الواو»: المحبة، والفرح، والغنى والقدرة والوجد «بفتح الواو»: الحب والحزن

لا تَرْفَعَنَّ إلى غيره حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيكَ، فَكَيفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لهُ وَاضِعًا؟! مَنْ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَرفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسه، فَكَيفَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِه رافعًا؟!

إذا أورد اللّه تعالى عليك حاجة أو أنزل بك نازلة، فاعلم أنه لا رافع لها سواه، إذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هو له واضعا لثبوت توحيده فى أن لا فاعل سواه، إذ هو غالب على أمره، لا يغالبه أحد، ويستحيل أيضا أن يرفعها عن نفسه لو نزلت به لثبوت عجزه وضعفه، ومن المحال تعلقك فى حاجتك بمن هو محتاج مثلك.

قال بعضهم: «من اعتمد على غير اللّه فهو فى غرور مما لا يدوم، ولا يدوم شئ سواه، وهو الدائم القديم الذى لم يزل ولا يزال وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء فى كل نفس وحسن وأوان وزمان».

قال عطاء الخراسانى، رضى اللّه عنه: «لقيت وهب بن منبه فى الطريق، فقلت: حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى وأوجز، قال: أوحى اللّه تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يادواد أما وعزتى وجلالى لايستنصر بى عبد من عبادى دون خلقى أعلم ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن إلاجعلت له منهن فرجا ومخرجا، أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا يستعصم عبد من عبادى بمخلوق دونى أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات السبع من يده وأسخت(١) الأرض من تحته ولا أبالى فى أى واد هلك».

قال محمد بن الحسين بن حمدان: «كنت فى مجلس يزيد بن هارون وكان إلى جانبى رجل قلت له: ما اسمك؟ فقال: سعيد فقلت: ما كنيتك؟ قال: أبو عثمان، فسألته عن قصته وخبره، فقال: نفدت نفقتى!! فقلت: ومن تؤمل لما قد نزل بك؟ فقال يزيد، فقلت: إذن لا يسعفك بحاجتك ولا ينجح طلبك ولا يبلغك أملك!! فقال: وما علمك بهذا رحمك اللّه؟ قلت: إنى قرأت فى بعض الكتب أن اللّه عز وجل يقول: وعزتى وجلالى وجودى وكرمى وارتفاعى فوق عرشى فى علو مكانى لأقطعن أمل كل مؤمل لغيرى بالإياس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربى ولأقطعنه من وصلى، أيؤمل غيرى فى النوائب والشدائد بيدى، وأنا أنجى(٢) ويرجى غيرى، وتطرق الفكر أبواب غيرى وبيدى مفاتيح الأبواب، وهى

(١) أسخت = خسفت
(٢) وفى نسخة: وأنا الحى

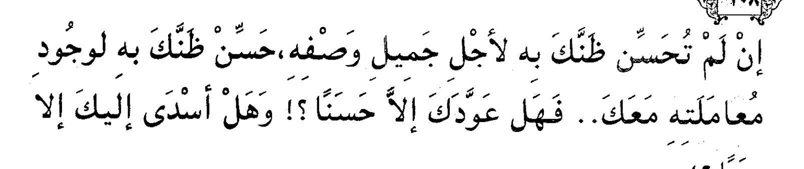
مغلقة وبابى مفتوح لمن دعانى، فمن ذا الذى أملنى لنائبه فقطعت به دونها، ومن ذا الذى رجانى لعظيم جرمه فقطعت رجاءه منى؟؟ أمن ذا الذى قرع فلم أفتحه له، جعلت آمال خلقى بينى وبينهم متصلة، فتعلقت(١) بغيرى وجعلت رجاءهم مدخرا لهم عندى، فلم يرضوا بحفظى، وملأت سمواتى ممن لا يملون تسبيحى من ملائكتى، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى فلم يثقوا بقولى، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها أحد غيرى؟، فمالى أراه بآماله معرضا عنى، ومالى أراه لاهيا بسواى، أعطيته بجودى ما لم يسألنى، ثم انتزعته منه فلم يسألنى رده، وسأل غيرى، أفترانى أبدا بالعطية قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سائلى؟؟ أبخيل أنا فيبخلنى عبدى، أليس الدنيا والآخرة لى، أو ليس الرحمة والفضل بيدى، أو ليس الجود والكرم لى، أو ليس أنا محل الآمال، فمن ذا الذى يقطعها دونى، وما عسى أن يؤمل المؤملون لو قلت لأهل سمواتى وأهل أرضى أملونى ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع ما نقص ذلك من ملكى عضو ذرة، كيف ينقص ملك كامل أنا قيمه(٢) فيا بؤس القانطين من رحمتى، ويا بؤس من عصانى ولم يراقبنى، وثبت(٣) على محارمى ولم يستح منى».

قال: رحمك الله أمل هذا الحديث على فكتبته ثم قال: والله لا أكتب حديثا بعده.

قلت: والأصل الذى ينبنى عليه هذا المعنى هو تحقق العبد فى مقام حسن الظن بالله تعالى، ولذلك أخذ المؤلف رحمه الله تعالى فى ذكره بأثره فقال:

---

(١) وفى نسخة: فقطعت
(٢) وفى نسخة: أناقيومه
(٣) «وفى نسخة: وتوثب على محارمى، أى: توجه للحرمات، وفى أخرى: ويوثب»



إنْ لَمْ تُحَسِّن ظَنَّكَ به لأجْلِ جَميلِ وَصْفه، حَسِّنْ ظَنَّكَ به لوجُودِ مُعامَلَته مَعَكَ.. فَهَل عوَّدَكَ إلاَّ حَسَنًا ؟! وَهَلْ أسْدَى إليكَ إلا مِنَنًا ؟!

حسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين، والناس فيه على قسمين: خاصة، وعامة، فالخاصة حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم، وشمول الفضل والكرم.

والتفاوت بين المقامين ظاهر، ولذلك لا يخاف من التغير والانقلاب فى أحدهما ما يخاف فى الآخر، لأن أرباب المقام الأول لما تحققوا فى المعرفة بالله تعالى واحتظوا(١) بأنوار اليقين، به اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم فلم يبق فيهم متسع لوجود تهمة ولا مجال لسوء ظن.

وأرباب المقام الثانى لم يرتقوا عن نظرهم إلى الأفعال، وهى متلونة عليهم فى كل حال، وعند وقوع بعض ما لا يلائمهم منها، فهم ربما تضعف عن تحمل مكارهها قوى قلوبهم، فلا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن بالله تعالى وتحدث النفس بما يقتضى وجود هلع وجزع، فليكن العبد عند ذلك مشاهدا معنى قوله عز وجل «﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾(٢) وما أشبهه وليقس النادر على الغالب.

قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى، رضى الله عنه: «حسن الظن عبارة عن قطع الوهم أن يكون أو لا يكون، لأن الوهم قاتل وهو لوقت ثان، فمتى أعطيت أذنك للوهم هلكت وحدك، وكذلك الإصغاء بالأذن إلى الشيطان والنفس جنس واحد» انتهى

قلت: وحسن الظن يطلب من العبد فى أمر دنياه وفى أمر آخرته، أما أمر دنياه: فأن يكون واثقا بالله تعالى فى إيصال المنافع والمرافق إليه من غير كد

(١) «احتظى: كان ذا منزلة وحظ ومكانة»
(٢) آية ٢١٦: البقرة

ولاسعى فيها، أو سعى خفيف مأذون فيه ومأجور عليه بحيث لا يفوته ذلك شيئا من نفل ولا فرض، فيوجب له ذلك سكونا وراحة فى قلبه وبدنه، فلا يستفزه(١) طلب ولا يزعجه سبب وأما أمر آخرته: فأن يكون قوى الرجاء فى قبول أعماله الصالحة وتوفية أجوره عليها فى دار الثواب والجزاء، فيوجب له ذلك المبادرة لامتثال الأمر والتكثير(٢) فى أعمال البر بوجود حلاوة واغتباط، ولذاذة، ونشاط.

وقد قال يحيى بن معاذ(٣)، رضى الله عنه: «أوثق الرجاء رجاء العبد لربه، وأصدق الظنون حسن الظن بالله تعالى».

ومن مواطن حسن الظن بالله تعالى التى لاينبغى للعبد أن يفارقه فيها: أوقات الشدائد والمحن، وحلول المصائب فى الأهل والمال والبدن، لئلا يقع بسبب عدم ذلك فى الجزع والسخط(٤) وسيأتى هذا المعنى فى كلام المؤلف، رحمه الله وهو قوله: «من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره». ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالة الموت، وقد جاء فى الخبر: «لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى» وفى حديث جابر «من استطاع منكم ألا يموت إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى فليفعل، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾(٥) ولأنه تعالى قال فيما روى عنه: «أنا عند ظن عبدى بى، فليظن بى ما شاء» قال أبو طالب المكى رضى الله عنه: «وكان ابن مسعود يحلف بالله ماأحسن عبد ظنه بالله تعالى إلا أعطاه الله عز وجل ذلك، لأن الخير كله بيده، فإذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاهما بظنه، لأن الذى حسن ظنه به هو الذى

(١) يحركه.
(٢) «وفى نسخة: والتكثر من»
(٣) «هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى الواعظ قال عنه الإمام القشيرى فى رسالته: «نسيج وحده فى وقته، خرج من نيسابور إلى بلخ وأقام بها مدة، ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة: ٢٥٨ هـ ومن كلامه: «لاتستبطئ الإجابة إذا دعوت وأنت سددت طرقها بالذنوب وأكل الحرام» ومنه: «على قدر حب العبد لله يحببه إلى عباده، وعلى قدر توقيره لأمره يوقره خلقه» و«لايفلح من شمت منه رائحة الرياسة» «جماع الأمر فى شيئين: سلوك القلب بالرضا مع الله على حصول ما قسم، والاجتهاد فى مرضاته».
(٤) «وفى نسخة: والتسخط،
(٥) «آية ٢٣ من سورة فصلت»

أراد أن يحققه له» انتهى.

وقد روى عن أبى النضر بن حيان قال: «خرجت عائدا ليزيد بن الأسود فلقيت «واثلة بن الأسقع» وهو يريد عيادته، فدخلنا عليه وهو فى فراشه فلما رأى واثلة بسط يده وطفق يشير إليه، فأقبل واثلة حتى جلس على الفراش، وأخذ يزيد بن الأسود بكفى واثلة حتى جعلهما على وجهه، فقال له واثلة: أسألك عن شئ تخبرنيه؟ قال: لاتسألنى عن شئ أعلمه إلا أخبرتك به، قال له واثلة: كيف ظنك بالله عز وجل؟ قال: ظنى والله بالله حسن، قال: فأبشر، فإنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «قال الله تبارك وتعالى «أنا عند ظن عبدى بى إن ظن بى خيرا وإن ظن بى شرا».

وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: «عاد رسول الله (ﷺ) مريضا، فقال له رسول الله (ﷺ): كيف ظنك بربك؟ قال: يارسول الله حسن الظن قال: فظن به ما شئت، فإن الله تبارك وتعالى عند ظن المؤمن به».

وروى أبو هريرة رضى الله عنه، أن النبى (ﷺ) قال: «إن حسن الظن بالله من حسن عبادة الله»(١).

قلت: والأخبار والآثار فى الرجاء وحسن الظن بالله وسعة رحمته أكثر من أن تحصى، ومطالعتها مما يزيد المريد قوة فى هذا المقام(٢) فمن أراد الشفاء فى ذلك فعليه بمطالعة كتاب «الرجاء» من قوت القلوب، وكتاب «الإحياء» قال بعضهم:

مازلت أرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الصنع ما هو صانع

ثم بين رحمه الله تعالى الحالة التى بمنازلتها بتحقق العبد فى مقام حسن

(١) هو حديث صحيح رواه الحاكم والترمذى وأحمد فى المسند.
(٢) أى مقام «حسن الظن بالله»

الظن بالله تعالى، وهو عكوف العبد بباب الله وتعلق قلبه بوحدانيته، وأشار إلى أن ذلك هو غاية النعيم، ومنتهى الأمانى، لا ما تتوهمه النفس وتطلبه من النعيم المعقول(١) والأمنيات التى تفنى وتزول، وحكم بان خلاف هذا من عمى القلب ومما يستحق أن يتعجب منه كل ذى لب فقال:

العَجَبُ ـ كُلُّ العَجَبِ ـ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لا انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ، وَيَطْلُبُ مَا لا بَقَاءَ لَهُ مَعَه.. ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ، وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ التى فى الصُّدُورِ ! ﴾.

هرب العبد من مولاه بإقباله على شهواته ومتابعة هواه، وذلك نتيجة عمى قلبه ووجود جهله بربه، لأنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، وآثر الفانى الذى لابقاء له على الباقى الذى لا انفكاك له عنه، ولو كانت له بصيرة لآثر الباقى على الفانى، ولفعل ما فعله سحرة فرعون لما آمنوا بربهم إذ لم يحفلوا بما وعدهم به فرعون من الإحسان والإنعام والتقريب والإكرام، ولم يكترثوا بما توعدهم به من العذاب والقتل والصلب على جذوع النخل، بل قالوا ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(٢) ثم قالوا « ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ فهؤلاء استنارت قلوبهم، وشاهدوا محبوبهم فكان منهم ما كان.

لا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إلى كَوْنٍ، فَتَكُونَ كَحِمَارِ الرَّحَى: يسيرُ.. والمَكانُ الذى ارْتَحَلَ إليهِ هُو الذى ارْتَحَلَ عَنْهُ! ولَكن.. ارحَلْ مِنَ الأكْوَانِ إلى المُكَوِّنِ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾(٣)

العمل على طالب الجزاء والدرجات أو نيل الرتب العلية والمقامات نقصان فى

(١) «وفى نسخة: المعلول، و«المعقول» لعله من العقل بمعنى القيد أى النعيم المحدود المقيد فى كمه وكيفه وزمنه»

(٢) «آية ٧٢: ٧٦ طه وتكملة الآيات:

(٣) آية ٤٢ من سورة النجم

الحال، وشوب فى إخلاص الأعمال، وهو معنى الرحيل من كون إلى كون وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس فى أن تحصل لها رتبة أو تنال بسعيها موهبة وهذه كلها من الأكوان والأكوان كلها متساوية فى كونها أغيارا، وإن كان بعضها أنوارا.

وتمثيله بحمار الرحى مبالغة فى تقبيح حال العاملين على رؤية الأغيار، وتلطف فى دعائهم إلى حسن الأدب بين يدى الواحد القهار حتى يتحققوا بمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ فيكون انتهاء سيرهم إليه وعكوف قلوبهم عليه، وتكون أعمالهم إذ ذاك وفاء بمقتضى العبودية وقياما بحق الربوبية فقط، من غير التفات إلى النفس على أى حالة تكون، فهذا هو تحقيق الإخلاص الكائن عن مشاهدة التوحيد الخاص، جعلنا الله من أهله بمنه وفضله إنه على كل شئ قدير.

وانظر إلى قوله (ﷺ) فمن كانت هجرته إلى

وانظُرْ إلى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فَمَنْ كَانَتْ هجْرَتُهُ إلى اللّه وَرسُوله، فَهجْرَتُهُ إلى اللّه وَرَسُوله. ومَنْ كَانَتْ هجْرَتُهُ إلَى دُنْيَا يُصيبُهَا، أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إليه». فَافْهَمْ قَوْلَه ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلاَم: ـ «فَهجْرَتُهُ إلى ما هاجر إليه»، وتَدَبَّرْ هَذَا الأمْرَ إنْ كُنْتَ ذا فَهْمٍ.

فى هذا الحديث النبوى تنبيه على المعنى الذى ذكره، وموضع الاعتبار والتأمل هو، والله أعلم، قوله فى القسم الثانى «فهجرته إلى ما هاجر إليه» أى: فلا تصيب له من الوصول والقرب الذى حظى به من هاجر إلى الله ورسوله، وهو قوله: «فهجرته إلى الله ورسوله»، وهذا من باب حصر المبتدأ فى الخبر: كما تقول: زيد صديقى، أى لاصديق له غيرى، وكأنه (ﷺ) نبه فى القسم الثانى بالدنيا التى يريد أن يصيبها والمرأة التى يريد أن يتزوجها على حظوظ النفس والوقوف معها والعمل عليها كائنة ما كانت، وإن كان ظاهرها طلب الحظ العاجل، فقوله: «فهجرته إلى الله ورسوله» هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون، وهو المطلوب من العبد، وهو مصرح به غاية التصريح.

وقوله: «فهجرته إلى ما هاجر إليه» هو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها، وهو الذى نهى عنه، وهو مشاربه غير مصرح، فليكن المريد عالى الهمة والنية حتى لا يكون له التفات إلى غير ولا كون ألبته، ولقد أحسن الشاعر فى قوله:

وكل ما قد خلق الله ولم يخلق محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى(١)

قال رجل لأبى يزيد، رضى الله عنه: «أوصنى، فقال: إن أعطاك من العرش إلى الفرش فقل له: لا، أنت أريد». وقال أبو سليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه: «لو خيرت بين ركعتين ودخول الفردوس لاخترت ركعتين، لأنى فى الفردوس بحظى وفى الركعتين بربى». وقال الشبلى رضى الله تعالى عنه، «احذر مكره ولو فى قوله كلوا واشربوا» يريد: لا تستغرق فى الحظ، ولتكن فى كل شئ به لا بنفسك، فقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾(٢) وإن كان ظاهره إكراما وإنعاما، فإن فى باطنه ابتلاء واختبارا حتى ينظر من هو معه ومن هو مع الحظ، قال رضى الله تعالى عنه:

«لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حَالُه، وَلاَ يَدُلُّكَ عَلَى الله مَقَالُه»

تكلم هاهنا فى «الصحبة» وهى أصل كبير من أصول القوم، وفيها منافع وفوائد، ولذلك استمر عليها شأنها قديما وحديثا، وقد نبه المؤلف رحمه الله على فائدتها فى قوله: «لاتصحب من لا ينهضك حاله ولايدلك على الله مقاله» فإنهاض الحال ودلالة المقال على الله تعالى هو فائدة الصحبة، ومعنى الحال المنهضة هاهنا، هو: أن تكو همته متعلقة بالله تعالى، مرتفعة عن المخلوقين، لا يلجأ فى حوائجه إلا إلى الله تعالى ولا يتوكل فى أموره إلا على الله، قد سقط اعتبار الناس من عينه فلا يرى منهم ضرا ولا نفعا، وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا، ولا يقتضى لها حظا، ويكون فى أعماله كلها جاريا على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط، وهذه صفة العارفين الموحدين، فصحبة من هذه حاله وإن قلت عباداته ونوافله، لأن الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء

(١) «المفرق، والمفرق «بفتح الراء»: موضع افتراق الشعر فى الرأس».
(٢) سورة الحاقة: ٢٤

بمن تستحسن حاله، ولايشترط فى المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام، فإن ذلك متعذر، وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه به فقط بحيث يكون أعلى منه حالا، وأصوب منه مقالا، ومن لم يكن على هذا الوصف وكان شأنه المعاملة بالظاهر لاغير، فليس له فائدة فى صحبته، بل ربما زادته شراً، لأن خلطته تدعوه إلى التصنع والتزين له، ويؤديه ذلك إلى كبائر معاصى القلوب وهى أشد عليه من معاصى الجوارح بكثير.

قال يوسف بن حسين الرازى، رضى الله عنه: «لأن ألقى الله بجميع المعاصى أحب إلى من أن ألقاه بذرة من التصنع» فيدخل بذلك عليه النقص فى حاله من حيث رجاء الزيادة فيها.

قال بعض الصوفية: «لاتعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده ببرّ ولاتنقص عنده بإثم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء» وقال بعضهم: «كن مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع أبناء الآخرة بالعلم، ومع العارفين كن كيف شئت» وقيل لبعض الصالحين: «إن فلانا يحبك ويكثر ذكرك، فقال: إنه لحبيب إلى، وأجله، وأعرف قدره، ولكن يهون على أن ألقى الشيطان ألف مرة ولا ألقاه مرة واحدة!! فقيل له: وكيف ذلك؟! قال: أخشى أن أتزين له أو يتزين لى.

قال الشيخ أبو طالب المسكى رضى الله تعالى عنه: «وكانت هذه الطائفة من الصوفية لا يصطحبون إلا على استواء أربعة معان، لا يترجح بعضها على بعض، ولا يكون فيها اعتراض من بعض على بعض، إن أكل صاحبه الدهر كله لم يقل له صاحبه «صم» وإن صام الدهر كله لم يقل له صاحبه «أفطر» وإن نام الليل كله لم يقل له صاحبه «قم فصل» وإن صلى الليل كله لم يقل له صاحبه «نم بعضه»، وتستوى أحواله عنده، فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه، ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه، قالوا: وإذا كان يزيد عنده بالعلم وينقص بترك العمل فالفرقة أسلم للدين وأبعد من المراءاة من قبل أن النفس مجبولة على حب المدح وكراهة الذم، ومبتلاة بأن يرى حالها التى عرفت به، وأن تظهر أحسن ما يحسن عند الناس منها، وأن تجتلب ما يوجب المدح منهم، وتجتنب ما يوقع الذم عندهم، فإذا صحب من يعمل معه هذا فليس ذلك طريق الصادقين ولا بغية المخلصين، فمجانبة هؤلاء الناس

اصلح للقلوب وأسلم للدين، وفى معاشرة أمثالهم فساد القلب ونقصان الإيمان وضعف اليقين، لأن هذه أسباب الرياء، وفى الرياء حبط الأعمال وخسران راس المال والسقوط من عين ذى الجلال.

وكان الثورى، رضى الله عنه يقول: «من عاشر الناس داراهم ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه فيهلك كما هلكوا» وكان بعض الحكماء يقول: «لا تؤاخ من الناس من يتغير عليك فى أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه، لأن هذه المعانى تتغير لها الطباع لدخول الضرر منها على النفس وفقد الانتفاع.

وقال فى موضع آخر: «من كان ناظرا فى أخوة أخيه، أو فى صحبته لكثرة أعماله، أو واقفا مع أكمل أحواله دل على جهله بهذه الطريق التى تنفذ إلى التحقيق لأنها تحول، وإنما العمل على حقائق القلوب لأنها ثابتة فى الأصول(١) فإن اقترن إلى جهله نقص معرفة الاخوة دخل عليه التزين له والتصنع عنده لتعلو منزلته ويحسن عنده أثره فيدخله ذلك فى الشرك(٢) ويخرجه الشرك عن حقيقة التوحيد، فتزل قدم بعد ثبوتها، ويسقط من عين مولاه فلا يتولاه، لأن النفس مبتلاة بحب الثناء والمدح وإثبات المنزلة بإظهار الوصف فيكون هذا الصاحب حينئذ من أشأم الناس عليه وأضرهم له، ويصير أحدهما بلاء على صاحبه، فليفارقه حينئذ لأنه جاهل فلا يصحبه، لأنه بحد النقصان بصحبته، وتدخل عليه الآفات بمقارنته ولينفرد بنفسه ويصدق على حاله عالية كانت أو دنيئة، وضيعة كانت أو رفيعة من غير مقاربة أحد ولا مباينته فهو خير له وأحمد عاقبة» انتهى.

ويدل على إرادة صاحب الكتاب لهذا المعنى الذى ذكرناه فى التنبيه على قوله «لاتصحب من لا ينهضك حاله» ما أعقبه به من قوله: «ولايدلك على الله مقاله»، فيكون الحال والمقال متناسبين فى كون كل واحد منهما متعلقا بالله تعالى عبودية ودلالة، قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه: «احذر صحبة ثلاثة أصناف من

---

(١) وفى نسخة: الوصول
(٢) أى الرياء

الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين» وقال يوسف بن الحسين الرازى، رحمه الله تعالى، قلت لذى النون المصرى رضى الله عنه: «من أصحب؟ فقال: من لاتكتمه شيئا مما يعلمه الله منك».

وقال «حمدون القصار(١) رضى الله تعالى عنه: «اصحب الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير، وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به» إشارة إلى أن العجب بالعمل منفى عندهم فى صحبتهم.

وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه: «إذا أراد الله بالمريد خيرا أرفقه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء».

وقال على رضى الله عنه: «شر الأصدقاء من أحوجك إلى المداراة وألجأك إلى الاعتذار». وقال مرة: «شر الأصدقاء من تتكلف له» وأنشدوا ليوسف بن الحسين الرازى، رضى الله تعالى عنه:

أحب من الإخوان كل مواتى
وكل(٢) غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أحبه
ويحفظنى حيا وبعد مماتى
فمن لى بهذا، ليتنى قد وجدته
فقاسمته ما لى من الحسنات

والحاصل من هذا: أن صحبة الصوفية هى التى يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين إلى الدين والعلم، لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم(٣) فيها غيرهم، وسريان ذلك من الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب فقد قيل: من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، فمن جلس عند دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة، هذا فى

(١) «هو: أبو صالح حمدون بن أحمد بن «عمارة القصار» من نيسابور: دفن بها سنة ٢٧١هـ «انظر الرسالة القشيرية ج١ ص ١٠٣»
(٢) «فى نسخة: وكل وفى غضيض الطرف عن هفواتى»
(٣) «وفى نسخة: يشابههم والإسهام: الاشتراك والمقاسمة»

الحضور والمجالسة فما ظنك فى الصحبة والمؤانسة، وقد وصفهم بعض العلماء فقال: الصوفى من لا يعرف فى الدارين أحدا غير اللّه، ولا يشهد مع اللّه سوى اللّه، قد سخر له كل شئ ولم يسخر هو لشئ وسلط على كل شئ ولم يسلط عليه شئ، يأخذ النصيب من كل شئ ولا يأخذ النصيب منه شئ يصفو به كدر كل شئ ولايكدر صفوه شئ قد شغله واحد عن كل شئ وكفاه واحد عن كل شئ» فانظر رحمك اللّه هذا الصفات ما أعظمها وأجلها، وما أشرف حال من اتصف بها وما أعزه فى هذا الوجود، نفعنا اللّه بهم، ورزقنا من بركاتهم، وفى صحبة أمثال هؤلاء يحصل للمريد من المزيد ما لايحصل له بغيرها من فنون المجاهدات وأنواع المكابدات حتى يبلغ من ذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل ولا يحيط به علم عامل ناقل، قال سيدى أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه: «ماذا أصنع بالكيمياء، واللّه لقد صحبت أقواما يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير إليها فتثمر رمانا للوقت، فمن صحب مثل هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء» وقال أيضا رضى اللّه تعالى عنه: «واللّه ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف إلا حتى يلقوا واحدا مثلنا فإذا لقوه كان بغيتهم(١) وقال أيضا رضى اللّه تعالى عنه: «واللّه ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته». وفيه تقول شيخه أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه تعالى عنه: «أبو العباس هو الرجل الكامل واللّه، إنه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه فلايمسى عليه المساء إلا وقد أوصله إلى اللّه» وسيأتى طرف من ذكر حال المؤلف رحمه اللّه تعالى فى صحبته، وما أوصله إليه ببركة رؤيته عند قوله: «كل كلام يبرز عليه كسوة القلب الذى منه برز».

«رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئاً فأَراكَ الإحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ! » .

هذه أعظم آفة تدخل على من خالف ماذكره، وصحب من هو دونه فى الحال، وهو استحسانه لما هو عليه فيؤديه ذلك إلى رضاه عن نفسه، ورؤيته لإحسانها،

(١) «وزادت بعض النسخ بعد ذلك: «وقال أيضا: الولى إذا أراد أغنى».

وهو أصل كل شر كما تقدم.

«مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ».

مقادير العمال على حسب قلوب العمال، فما صدر عن الزاهدين فى الدنيا من علم طاعة، وإن كان قليلا فى الحس فهو كثير على التحقيق، وما صدر عن الراغبين فيها من عمل بر، وإن كان كثيرا فى الحس فهو قليل على التحقيق، وذلك لأن الزاهدين سلموا من الآفات التى تقدح فى إخلاص أعمالهم من مراءاة الناس والتصنع لهم، وطلب الأغراض(١) الدنيوية عليها منهم، لأنهم زهدوا فيها، فيتحصل لهيم لهم قبول أعمالهم فيتوفر قليلها بسبب ذلك ويكثر، والراغبون تعتريهم الآفات المبطلة لأعمالهم القادحة فى إخلاصهم بسبب رغبتهم فى الدنيا فلا تقبل منهم، فيقل الكثير من أعمالهم لوجود النقصان فيها، وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه:

كونوا لقبول العمل اشد إهتماما منكم بالعمل، فإنه لا يقبل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يتقبل».

وقد وصف الله تعالى ذكر المؤمنين بالكثرة لما تضمنه من وجود الإخلاص وعدم رياء الناس، فقيل فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾(٢) قيل يعنى: خالصا فسمى الخالص كثيرا وهو ما خلصت فيه النية لوجه الله العظيم.

ووصف ذكر المنافقين بالقلة، لما اشتمل عليه من عدم الإخلاص ووجود رياء الناس، فقال تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٣) يعنى غير خالص، وروى عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه أنه قال: «ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا».

---

(١) وفى نسخة: الأعواض.

(٢) «آية ٤١ من سورة الأحزاب»

(٣) «آية ١٤٢ من سورة النساء»

وقال بعض الصحابة لصدر التابعين: «أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله (ﷺ) وهم كانوا خيرا منكم قيل: ولم ذلك؟ قال: كانوا أزهد منكم فى الدنيا».

وعن بعض الصحابة أيضا قال: «تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد فى الدنيا».

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه: «سألت معروفا الكرخى رضى الله تعالى عنه، عن الطائعين لله بأى شئ، قدروا على الطاعة؟ فقال: بإخراج الدنيا من قلوبهم، ولو كان شئ منها فى قلوبهم ما صحت لهم سجدة(١) وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى، رضى الله تعالى عنه: «شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البر ولايجد حلاوة فى قلبه، فقال: لأن عندك بنت إبليس وهى الدنيا، ولا بد للأب أن يزور ابنته فى بيتها وهو قلبك، ولا يؤثر دخوله إلافسادا» وكان أبو محمد بن سهل رضى الله تعالى عنه يقول: «يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد، ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله» قال: ولايرى فى القيامة أحد أفضل من ذى زهد عالم ورع.

«حُسْنُ الأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الأَحْوَالِ. وحُسْنُ الأَحْوالِ مِنْ التَّحَقُّقِ فى مَقَامَاتِ الإِنْزَالِ».

حسن الأعمال توفيتها بما يجب لها من شروط وآداب عبودية لله تعالى، لا لطلب حظ عاجل، ولا لثواب آجل.

وحسن الأحوال: أن تكون سالمة من العلل والدعاوي موسومة بسمة الصدق.

---

(١) «الزهد في عرف محققى الصوفية ليس هو التجرد عن المال والثراء وإنما هو إخراج الدنيا من القلب، «والدنيا» شهوات ونزغات وأهواء وملاذ، إنها حب الجاه والسلطان والغلبة والسيطرة، إنها حب الاحترام والتمجيد والثناء والمدح فإذا أخرج السالك الدنيا من قلبه فقد استقام له الكثير من أمره أما فيما يتعلق بالمال خاصة فإن أبا الحسن الشاذلى معبرا عن رأي الصوفية فى ذلك يقول عن الثروة: «اللّهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا». ويقول رضى اللّه عنه: «اللّهم وسع على رزقى فى دنياى ولاتحجبنى بها عن أخراى» أى معنى الزهد فى النهاية عند الصوفية إنما هو التحقق بقوله تعالى ﴿لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكمَ﴾.

والتحقق فى مقامات النزال: هو ارتواء القلب بما ينزله الحق تعالى فيه من مقامات العلوم والمعارف، بحيث ينتفى عنه كل شك وريب.

وهذه الثلاثة المذكورة مرتب بعضها على بعض، وهو معنى ما يقوله الإمام أبو حامد رضى الله تعالى عنه: «لابد فى كل مقام من مقامات اليقين من علم وحال وعمل، فالعلم ينتج الحال، والحال ينتج العمل» وبهذا الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله تعالى نوع استدلال على ما قاله فى الزاهد والراغب.

لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأنَّ غَفلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذكْرِه أشَدُّ منْ غفْلَتكَ فى وجُود ذكْرِه. فَعَسى أنْ يَرْفَعَكَ منْ ذكْرٍ مَعَ وجُود غَفلة.. إلى ذكْرٍ مَعَ وجُود يَقظَة، وَمنْ ذكرٍ مَعَ وجُود يَقَظَة.. إلى ذكْرٍ مَعَ وجُود حُضُورٍ، وَمنْ ذكْرٍ مَعَ وجُود حَضُورٍ.. إلى ذكْرٍ مَعَ غَيْبَة عَمَّا سوى المَذكُور.. ﴿وَمَا ذلكَ عَلَى اللَّه بعَزيز﴾ .

الذكر: أقرب الطرق إلى الله تعالى، وهو علم على وجود ولايته كما قيل: «الذكر منشور الولاية»(١) فمن وفق(٢) للذكر فقد أعطى المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل، قال الشاعر:

والذكر أعظم باب أنت داخله لله، فاجعل له الأنفاس حراسا

قال الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه: «الذكر عنوان الولاية، ومنار الوصلة وتحقيق الإرادة، وعلامة صحبة البداية، ودلالة صفاء النهاية» فليس وراء الذكر شئ، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر، ومنشؤها عن الذكر، وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى، ولو لم يرد فيه إلا قوله تعالى فى كتابه العزيز ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٣) وقوله عز وجل فيما يرويه عنه رسول

(١) «المنشور: هو ما يكتب لمن ولى ولاية على جهة من الجهات، ليعلم أهل تلك الجهة تحقق ولايته عليهم والمراد: أن الذكر يشهد للذاكر بالولاية كما يشهد المنشور للوالى بولايته على القوم»
(٢) «التوفيق: هو جعل الله فعل عباده موافقا لما يحبه ويرضاه»
(٣) سورة البقرة الآية ١٥٢

اللّه(ﷺ): «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلى شبرا تقربت منه ذراعا، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» لكان فى ذلك اكتفاء وغنية: وهذا الحديث متفق على صحته (١): «قالوا:(٢) ومن خصائصه أنه غير مؤقت بوقت، فما من وقت إلا والعبد مطلوب به، إما وجوبا، وإما ندبا بخلاف غيره من الطاعات وقال ابن عباس، رضى اللّه تعالى عنهما: «لم يفرض اللّه تعالى على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر أهلها فى حال العذر، غير الذكر، فإنه لم يجعل له حدا ينتهى إليه، ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على عقله».

وأمرهم بذكره فى الأحوال كلها، فقال عز من قائل: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾(٤) أى بالليل والنهار وفى البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر وفى الصحة والسقم والسر والعلانية وعلى كل حال.

وقال مجاهد، رضى اللّه تعالى عنه: «الذكر الكثير أن لا تنساه أبدا».

وروى عن رسول اله (ﷺ): «أكثروا ذكر اللّه حتى يقولوا: مجنون»(٥) فينبغى للعبد أن يستكثر منه فى كل حالاته، ويستغرق فيه جميع أوقاته، ولا يغفل عنه، وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه، فإن تركه له وغفلته عنه أشد من غفلته فيه، فعليه أن يذكر اللّه تعالى بلسانه وإن كان غافلا فيه، فلعل ذكره مع وجود الغفلة يرفعه إلى الذكر مع وجود اليقظة، وهذا نعت العقلاء،ولعل ذكره مع وجود اليقظة يرفعه إلى الذكر مع وجود الحضور، وهذه صفة العلماء ولعل ذكره مع وجود الحضور يرفعه إلى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور وهى مرتبة العارفين

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة.

(٢) « زادت بعض النسخ قبل هذا العبارة الآتية «والذكر على وجوه معلومة عند أهلها»».

(٣) آية ١٠٣ من سورة النساء.

(٤) آية ٤١ من سورة الأحزان.

(٥) حديث حسن رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد ورواه البيهقى فى شعب إيمان ورواه غيرهما.

المحقيقين من الأولياء، قال الله تعالى﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾(١) أى: إذا نسيت ما دون الله، عند ذلك تكون ذاكرا لله، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ويكون العبد محوا(٢) فى وجود العيان، وفى هذا المعنى أنشدوا:

ما أن ذكرتك، إلا هم يقلقنى

سرى، وقلبى، وروحى عند ذكراك

حتى كأن رقيبا منك يهتف بى

إياك ويحك والتذكار إياك

أما ترى الحق قد لاحت شواهده

وواصل(٣) الكل من معناه معناك

وقال الواسطى(٤) مشيرا إلى هذا المقام: الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره، لأن ذكره سواه.

وقال أبو العباس بن البنا _ فى كلام ذكره على مقدمة كتاب أبى العز تقى الدين بن المظفر الشافعى، وهو كتاب: «الأسرار العقلية فى الكلمات النبوية» ورأيت هذا الكلام بخطه رحمه الله « ومن أحسن الذكر ما هاج عن خاطر وارد من المذكور جل ذكره»، وهذا هو الذكر الخفى عند المتصوفة على الاستهتار(٥) والتمكن فى الأسرار.

وأما قولهم: حتى يتمكن الذاكر إلى حالة يستغرق بها عن الذكر فليس ذلك

---

(١) آية ٢٤ من سورة الكهف.

(٢) وفى نسخة: ممحوا.

(٣) وفى نسخة: ووصل

(٤) «الواسطى: أبو بكر محمد بن موسى الواسطى، خراسانى الأصل من «فرغانة» عالم كبير الشأن أقام بـ «مرو» ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة من الهجرة، ومن كلامه: «الناس على ثلاث طبقات الطبقة الأولى من الله عليهم بأنوار الهداية فهم معصومون من الكفر والشرك والنفاق والطبقة الثانية، من الله عليهم بأنوار العناية، فهم معصومون من الصغائر والكبائر، والطبقة الثالثة من الله عليهم بالكفاية، فهم معصومون عن الخواطر الفاسدة وحركات أهل الفضيلة»

(٥) «وفى نسخة على الاستمرار وفى أخرى على الاشتهار، واستهتر الرجل بكذا صار مستهترا به أى: مولعا له لا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره»

تمكن حلول ولا اتحاد بل حكمة، وقدرة من عزيز حكيم، وبيان ذلك أن يكون القلب عند الذكر فى الذكر فارغا من الكل، فلا يبقى فيه غير الله جل ذكره، فيصير القلب بيت الحق، ويمتلى منه، فيخرج الذكر من غير قصد ولاتدبر، وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذى ينطق به، فإن بطش هذا الذاكر كان يده التى يبطش بها، وإن سمع كان سمعه الذى يسمع به، قد استولى المذكور العلى على الفؤاد فامتلكه، وعلى الجوارح فصرفها فيما يرضيه، وعلى الصفات من هذا العبد فقلبها كيف شاء فى مرضاته، فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف وتنبعث الأعمال بالطاعات نشاطا ولذة من غير كلال ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٢)، وقد وصف الله قلب أم موسى عليه السلام بمعنى ذلك فى قوله الحق ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾(٣) أى فارغا من كل شئ، إلا من ذكر موسى، فكادت أن تبدى به من غير قصد منها لذكره ولا تدبير، بل كان تركها للتصريح بذكره صبرا بما ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين بما أوحى إليها من قبل فى شأن موسى وبأنه من المرسلين، وبذلك يندفع الإشكال الذى ذكره أبو العز، ووصفه بالعظم، وهو اجتماع الضدين فى بادئ الرأى، وهما: الذكر والغفلة عن الذكر.

وهذه المعالم والمراقى لا يعرف حقائقها إلا السالكون وجدانا والعلماء إيمانا وتصديقا، فإياك والتكذيب بآيات الله فتكون من الصم البكم فى الظلمات.

ولما كان المذكور لايجوز عليه وصف الفقد والعدم ولا يمنعه حجاب، ولا يحويه مكان، ولا يشتمل عليه زمان ولايجوز عليه الغيبة بوجه، ولا يتصف بحوادث المحدثين ولا يجرى عليه صفات المخلوقين فهو حاضر عينا ومعنى، وشاهد سرا ونجوى، إذ هو القريب من كل شئ، واقرب إلى الذاكر له من نفسه من حيث الإيجاد له، والعلم به، والمشيئة فيه، والقدرة والتدبير له، والقيام عليه، خلق الخليقة فلا تلحقه أوصافها، وأوجد الأعداد فلا تحصره معانيها، وهو العلى الكبير»

---

(١) آية ٤ من سورة الجمعة
(٢) آية ١٢٨ من سورة النحل
(٣) آية ١٠ من سورة القصص

انتهى كلام الشيخ أبى العباس رحمه الله تعالى فى منتهى المقام الثالث من مقامات الذكر، وهو فى غاية الحسن والتحقيق مشيرا إلى توحيد الخواص من أهل هذا الطريق.

فلا ينبغى أن يستبعد العبد الوصول إلى هذه المقام الكريم، فليس ذلك بعزيز على الفتاح العليم، فعلى العبد القيام بحق الأسباب، ومن الله تعالى رفع الحجاب، وقال رضى الله عنه:

«مِنْ عَلاَمَات مَوْت القَلْب: عَدَمُ الحُزْن عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ المُوَافَقَات، وَتَرْكُ النَّدم عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنْ وجُود الزَّلاَّت».

القلب إذا كان حيا بالإيمان حزن على مافاته من الطاعات وندم على مافعله من الزلات، ومقتضى هذا وجود الفرح بما يستعمل فيه من الطاعات ويوفق له من اجتناب المعاصى والسيئات.

وقد جاء فى الخبر: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»(١) فإذا لم يكن العبد بهذا الوصف، وعدم الحزن على ما فاته، والندم على ماأتاه فهو ميت القلب!! وإنما كان ذلك من قبل أن أعمال العبد الحسنة والسيئة علامتان على وجود رضا الله تعالى عن العبد وسخطه عليه، فإذا وفق الله تعالى عبده للصالحات سره ذلك، لأنه علامة على رضاه عنه، وغلب حينئذ رجاؤه، وإذا خذله ولم يعصمه فعمل بالمعاصى ساءه ذلك وأحزنه، لأنه علامة على سخطه عليه، وغلب عليه حينئذ خوفه.

والرجاء يبعث على الاجتهاد فى الطاعات، وليس من مقتضاه تركها وعدم الحزن على مافاته منها أمنا واغترارا، والخوف يبعث على المبالغة فى اجتناب المعاصى والسيئات، وليس من مقتضاه فعلها، وترك الندم عليها إياسا وقنوطا، وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله (ﷺ) إذ أتاه آت، فلما حاذانا ورأى جماعتنا أناخ راحلته، ثم مشى إلى النبى

---

(١) «حديث حسن رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى موسى»

(ﷺ) فقال: يا رسول الله أوضعت(١) راحلتى من مسيرة تسع فسيرتها إليك ستا، وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وأنضبت(٢) راحلتى لأسألك عن اثنتين أسهرتانى، فقال له النبى (ﷺ): من أنت؟ قال: زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير، سل فربّ معضلة قد سألت عنها، قال جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد.

فقال النبى (ﷺ): بخ بخ، كيف أصبحت يازيد؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله وأحب أن يعمل به، وإذا فاتنى حننت إليه وإذا عملت عملا قل أو كثر أيقنت بثوابه.

قال: هى هى بعينها يازيد، ولو أرادك الله الأخرى هيأك لها ثم لا يبالى فى أى واد هلكت.

فقال زيد: حسبى، حسبى ثم ارتحل ولم يثبت(٣)

«لاَ يَعْظُمِ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ باللّه. فإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّه، استصْغَرَ فى جَنْبِ كَرَمِه ذَنْبَه».

عظمة الذنب عند مرتكبه على وجهين:

أولهما: أن يعظم عنده عظمة تحمله على التوبة منه والإقلاع عنه، وصدق العزم، على أن لا يعود إلى مثله، فهذه عظمة محمودة، وهى من علامات إيمان العبد، كما قلنا.

قال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فأطاره» ويقال: «إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله وأن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله تعالى».

والثانى: أن تعظم عنده عظمة توقعه فى اليأس والقنوط، وتؤديه إلى سوء الظن بالله تعالى، فهذه عظمة مذمومة قادحة فى الإيمان، وهى شر(٤) عليه من ذنوبه،

(١) «أوضع البعير: جعله يسرع فى سيره، وفى نسخة: أوجعت»
(٢) «أنضى الراحلة: هزلها وأضعفها»
(٣) «وفى نسخة: فلم يلبث»
(٤) وفى نسخة: أشد»

وسبب ذلك وجود جهله بصفات مولاه المحسن الجواد الكريم، ووقوفه مع نفسه وقياسه بعقله وحدسه(١)، ولو كان عارفا بالله حق المعرفة لا ستحقر ذنوبه فى جنب كرمه وفضله، فأى قدر للعبد أو قيمة حتى يقع فى ذنب لا يسعه عفو ربه، ويكبر عليه أن يغفره، قال فى «التنوير»: «واعلم أنه لابد فى مملكته من عباد هم نصب الحلم، ومحل ظهور الرحمة والمغفرة ووقوع الشفاعة»، وأفهم قوله (ﷺ) «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم(٢) وقوله (ﷺ) «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»(٣) .

وجاء رجل إلى الأستاذ أبى الحسن، قدس الله سره العزيز، فقال: ياسيدى كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت.. وكيت.. وظهر من ذلك الرجل استغراب أن يكون هذا، فقال: ياهذا كأنك تريد أن لا يعصى الله تعالى فى مملكته!! من أحب أن لا يعصى الله فى مملكته فقد أحب أن لا تظهر مغفرته وأن لا تكون شفاعة رسول الله (ﷺ): «وكم من مذنب كثرت إساءته ومخالفته وجبت له الرحمة من ربه فكان له راحما بقدر إيمانه وإن عصى عالما!!» انتهى فلا ينبغى للعبد أن يستعظم ذنبه استعظاما يؤديه إلى أن يلقى بيديه إياسا من روحه، وقنوطا من رحمته، وسوء ظن به، بل عليه أن يتوب إلى ربه منه، ويرجع إليه عنه، ويعلم حكمة الله تعالى فى تسليطه عليه وتخليته بينه وبينه، وفى الخبر عن رسول الله (ﷺ) «لولا أن الذنب خير للمؤمن من العجب ما خلى الله تعالى بين مؤمن وبين ذنب أبدا» فنبهك الله بهذا على أن الذنب مانع من وجود العجب الذى هو أعظم حجاب بين العبد وبين مولاه، لأن صاحبه ناظر إلى نفسه، لا إلى ربه،

---

(١) «الحدس: الظن»

(٢) «روى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنهم أن رسول الله (ﷺ) قال: «لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون ليغفر لهم» وهو حديث حسن وقد استنتج بعض العلماء من مجموعة الأحاديث التى وردت فى هذا المقام أن المقصود هو الاستغفار وأن الله سبحانه وتعالى يحث عباده الذين لعبت بهم الأهواء أن يسارعوا إلى طلب المغفرة فى صدق ويقين عازمين عزما لا يتزعزع على ألا يعودوا لمثلها فى مستقبل أيامهم».

(٣) «رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر رضى الله عنه، ورواه أبو داود والنسائى وغيرهم»

مستعظم لطاعته وعبادته، ملاحظ لذلك وساكن إليه، بخلاف ذلك الذنب، لأنه يوجب له الخوف والحذر والملجأ إلى الله تعالى والفرار إليه عن نفسه، والعجب يصرف العبد عن الله تعالى، والذنب يصرفه إليه، والعجب يقبل به على ربه، والعجب يؤديه إلى الاستغناء، والذنب يؤديه إلى الافتقار، وأحب أوصاف العبد إلى الله عز وجل افتقاره إلى مولاه، وأشرف أحوال المؤمن ما يرده إليه، ويقبل به عليه.

«لا صَغيرَةَ إذَا قَابَلَكَ عَدلُه، ولا كَبيرةَ إذَا وَاجَهَكَ فَضْلُه».

إذا ظهرت الصفات العلية بطلت أعمال العاملين، فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر، وإذا ظهر وصف الكرم والفضل على من أحبه أضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر.

قال يحيى بن معاذ(١) رضى الله تعالى عنه: «إن وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة، وإن نالهم فضله لم تبق لهم سيئة».

ومن دعائه، رضى الله عنه: «إلهى، إن أحببتنى غفرت سيئاتى، وإن مقتنى لم تقبل حسناتى».

وما أحسن قول سيدى أبى الحسن الشاذلى، رضى الله عنه، فى دعائه ومناجاته: «.. واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك».

وسيأتى من مناجاة المؤلف رحمه الله فى مثل هذا المعنى قوله: «إلهى كم من طاعة بنيتها، وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أقالنى منها فضلك».

«لاَ عَمَلَ أرْجَى للقَبْولِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُه، ويُحْتَقَرُ عِنْدَكَ وجُودُه».

فى النسخ الموجودة بأيدينا «لا عمل أرجى للقلوب» ومعناه على هذا الوجه: أن

---

(١) «هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى الواعظ: من أعلام المتصوفة فى عصره، مات بنيسابور سنة ثمان وخمسين ومائتين من الهجرة».

العمل الموصوف بهذه الصفة لا يلتفت إليه القلب ولا يعتبره، وفى عدم التفاته واعتباره صلاحه وتحرره من رقِّ رؤيته، فيبقى حينئذ مع ربه لا مع عمله، ويكون ذلك على حذف مضاف تقديره: لاعمل أرجى لصلاح القلوب، أو ما فى معناه وسيأتى من كلام المؤلف ما يناسب هذا المعنى، وهو قوله: «قطع السائرين والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم. , إلخ».

والغالب على الظن أن الذى قصده المؤلف رحمه اللّه تعالى، وذكره إنما هو لفظ «القبول» فغلط الناسخ فقلب حروفه، ولايحتاج فى هذا إلى حذف، وتقريره على هذا الوجه أن تقول: سلامة العمل من الآفات شرط فى قبوله لأن صاحبه متق للّه تعالى، وقد قال، عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(١)

وإنما يسلم العمل من الآفات بإتهام النفس فى القيام بحقه ورؤية تقصيره فيه، فيغيب عنه إذ ذاك شهوده ويحتقر عنده وجوده، فلا يساكنه ولا يعتمد عليه، فإن لم يكن على هذا الوصف بل كان ناظرا إليه مستعظما له، غائبا عن شهود منة اللّه تعالى عليه فى توفيقه له أوقعه ذلك فى العجب فحبط لذلك عمله وخاب سعيه،قال أبو سليمان الدارانى رضى اللّه عنه: «ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبته» وقال على بن الحسين رضى اللّه تعالى عنه: «كل شئ من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك، فذلك دليل على أنه لم يقبل منك، لأن القبول مرفوع مغيب عنك، وما انقطعت رؤيتك فذلك دليل على القبول»

وقد سئل بعض العارفين: «ما علامة قبول العمل؟ قال: نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(٢) قال: فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل ألا يبقى عندك منه شئ، فإنه إذا بقى فى نظرك منه شئ ولم يرتفع لبينونة بين عنديتك وعنديته، فينبغى للعبد إذا عمل عملا أن يكون عنده نسيا منسيا بما ذكرناه من اتهام النفس ورؤية التقصير حتى يحصل له قبوله.

(١) «من آية ٢٧ من سورة المائدة».
(٢) «من آية ١٠ من سورة فاطر»

إنَّمَا أوْرَدَ عَلَيْكَ الوَارِدَ، لتَكُونَ به عَلَيْه وارداً.

الوارد عبارة عما يرد على القلب عن المعارف الربانية واللطائف الروحانية ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته، لأن الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار، فإذن إنما أورده عليك لتكون به عليه واردا.

أورَدَ عَلَيْكَ الوَارِدَ، ليَتَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ الأغْيَارِ، ويُحَرِّرَكَ مِنْ رقِّ الآثَارِ.

الآثار والأغيار غاصبة ومسترقة لك،وذلك لوجود حبك لها وسكونك إليها، واعتمادك عليها، فإنما أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك، وليحررك من ملكية من استرقك، والإشارة إلى هذا المعنى بما ضرب الله تعالى من المثل للكافر فى قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١) فمن سلم من يد الأغيار، وحرر من رق الآثار لا يكون لمخلوق فيه نصيب ولا شركة، وكان سلما(٢) لله عز وجل.

أوْرَدَ عَليكَ الوَارِدَ، ليُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وجُودِكَ.. إلى فَضَاءِ شُهُودِكَ.

سجن وجوده هو: شهوده لنفسه ومراعاته لحظه، وفضاء شهوده: أن يغيب عن ذلك بشهوده عظمة الله تعالى وجلاله ورؤية قيام حركاته وسكناته به، قال أبو القاسم النصر أباذى(٣)، رضى الله تعالى عنه: «سجنك نفسك إذا خرجت منها وقعت فى راحة الأبد» وسيأتى من كلام المؤلف فى معنى قوله: سجن وجودك

(١) آية ٢٩ من سورة الزمر

(٢) «سلما، أسيرا لله ومستسلما له، وخالصا لوجهه»

(٣) «هو إبراهيم بن محمد، وكنيته أبو القاسم، نيسابورى الأصل والمولد توفى بمكة سنة ٣٧٦ هـ وكان عالما بالحديث كثير الرواية، يقول عنه السلمى: «كتب الحديث الكثير، ورواه، وكان ثقة» ومن كلامه: «إذا بدا لك شئ من بوادى الحق فلا تلتفت معه إلى جنة ولا إلى نار، ولاتخطرهما ببالك، وإذا رجعت عن ذلك الحال فمعظم ما عظمه الله تعالى» ومنه: «الراحة ظرف مملوء بالعتاب» «الراغب فى العطاء لا مقدار له، والراغب فى المعطى عزيز»».

«الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته».

الأنوارُ مَطايا القلوبِ والأسْرار.

أنوار الإيمان واليقين مطايا حاملة لأسرار القلوب إلى حضرة علام الغيوب وتلك هى الواردات المذكورات.

النُّورُ جُنْدُ القَلْب، كَمَا أنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْس.

فإذَا أرادَ اللّهُ أنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أيَّدَهُ بجُنودِ الأنْوارِ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّمِ والأغْيَار.

نور التوحيد واليقين، وظلمة الشرك والشك جندان للقلب والنفس، والحرب بينهما سجال(١) فإذا أراد اللّه نصر عبده أمد قلبه بجنوده، وقطع عن نفسه مدد جنودها، وإذا أراد خذلان عبده فعلى العكس، فإذا مال القلب إلى العمل بأمر محمود مؤلم فى الحال ملتذ به فى المآل ومالت النفس إلى العمل بأمر مذموم ملتذ به فى الحال مؤلم فى المآل، وتنازعا وتقاتلا سارع النور الذى هو من أمر اللّه تعالى ورحمته إلى نصرة القلب، وبادرت الظلمة التى هى من وساوس الشيطان وملته(٢) إلى نصرة النفس، وقام صف القتال بينهما، فإن سبقت للعبد من اللّه سابقة السعادة اهتدى القلب بنور اللّه تعالى واستهان بالعاجلة ورغب فى الآجلة، وعمل بما مال إليه القلب وإن آلمه فى الحال لما يرجوه من التنعم به فى المآل، وإن سبقت له من اللّه الشقاوة، والعياذ باللّه، ذهل القلب عن النور، وأعمته الظلمة عن منفعة الآجل، واغتر بلذة العاجل، وعمل بما مالت إليه نفسه، وإن آلمه فى المآل لما يحصل لها من لذة الحال.

وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجندين لا سبيل للعبد إلا فزعه إلى

---

(١) «يقال الحرب بينهما سجال: أى تارة لهم وتارة عليهم».

(٢) «وفى نسخة: وملته، أى صاحبته ورفيقته، فاللمة «بضم اللام»: الصاحب أو الأصحاب فى السفر، يقال: لا تسافروا حتى تصيبوا لمة، أى: رفقة، ويجوز أن تكون بفتح اللام، يقال: أصابت فلانا من الجن «لمة» وهو المس والشئ القليل»

الله تعالى، ولياذه به، وكثرة ذكره له وصدق توكله عليه واستعاذته به من الشيطان الرجيم.

وهذه العبارات الخمس من قوله: «إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا» إلى هنا تفنن فيها صاحب الكتاب، وكررها بألفاظ مختلفة والمعانى فيها متقاربة، وهذه عادته فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب، رضى الله تعالى عنه.

النُّورُ لَهُ الكَشْفُ، والبَصِيرَةُ لَهَا الحُكْمُ، والقَلْبُ لَهُ الإقْبالُ والإدْبار.

هذه ألفاظ مختلفة لمعان متغايرة، فالنور يفيد كشف المعانى المغيبات حتى تتضح وتشاهد، والبصيرة التى هى ناظر القلب تفيد الحكم، وهو صحة ماشاهدته، والقلب له الإقبال عملا بمقتضى ما شاهدته البصيرة،وله أيضا الإدبار تركا للعمل بمقتضى ماشاهدته البصيرة.

لا تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ لأنَّهَا بَرَزَتْ منْكَ، وَافْرَحْ بِهَا لأنَّهَا بَرَزَتْ منَ اللّهِ إليكَ.. ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١)

الفرح بالطاعة على وجهين:

فرح بها من حيث شهودها من الله تعالى نعمة منه وفضلا، فهذا هو الفرح المحمود وهو الذى طلب من العبد وذلك هو مقتضى شكرها.

وفرح بها من حيث ظهورها من العبد باختياره وإرادته، وحوله وقوته فهذا هو فرح مذموم منهى عنه، وهو كفران النعمة، وهو من العجب المحبط للعمل، فالفرح بها على هذا الوجه فرح بلا شئ، وسيأتى فى آخر الكتاب أنواع الفرح بالنعم وما يحمد منها ومايذم تامة مستوفاة.

---

(١) «سورة يونس ٥٨».

قَطَعَ السَّائرينَ لَهُ وَالوَاصلينَ إليه عَنْ رؤيَة أعْمَالهم وشُهُود أحْوَالهم. أمَّا السَّائرُونَ.. فلأنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللّه فيهَا. وأما الوَاصلُونَ.. فَلأنَّهُ غَيَّبَهُمْ بشُهُوده عَنْهَا.

فقد أسبغ اللّه نعمتَه على الفريقين، حيث فعل معهم ذلك، لأنه أبقاهم معه، ولم يدعهم لسواه، فالواصلون فعل ذلك بهم طوعا منهم، والسالكون فعل ذلك بهم كرها ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(١) فالواصلون قطعهم عن ذلك بشهودهم له فى حضرة قُربه، ومن شاهده لم يشهد معه غيره، إذ محال أن يراها ويشهد معه سواه.

والسالكون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق أو البراءة من الدعوى فهم أبدا متهمون لأنفسهم فى توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم قال النهرجورى(٢) . رضى اللّه تعالى عنه: «من علامات من تولاه اللّه فى أحواله أن يشهد التقصير فى إخلاصه والغفلة فى أذكاره، والنقصان فى صدقه، والفتور فى مجاهداته، وقلة المراعاة فى فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقرا إلى اللّه فى قصده وسيره حتى يفنى عن كل ما دونه».

وقال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد(٣) رضى اللّه عنه: «لايصفو لأحد قدم فى العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوى».

وقال أبو يزيد رضى اللّه تعالى عنه: «لو صفت لى تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشئ».

وإلى هذين المقامين تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى رضى اللّه تعالى عنه وذلك: أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان رضى اللّه عنه: بماذا

---

(١) «آية ١٥ من سورة الرعد»

(٢) «النهر جورى هو: أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهر جورى من علماء الصوفية الذين صحبوا الجنيد وغيره والنهر جورى نسبة إلى «نهر جور» قرية بالقرب من الأهواز أقام مجاورا بالحرم سنين كثيرة ومات بمكة سنة ٢٣٠ هـ و ١٩٤١ م «انظر طبقات الصوفية والأعلام وص ١٥٦ من ج١ من الرسالة القشيرية»»

(٣) «كان كبير المنزلة، لقى الجنيد وصحب أبا عثمان الحيرى وأخذ الحديث عن أحمد ابن حنبل وأسند الحديث ورواه، وتوفى بمكة سنة ست وستين وثلاثمائة هجرية»

كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة!! هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشئها».

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه: «وإنما أراد الواسطى بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب، لا تعريجا فى أوطان التقصير، أو تجويزا للإخلال بأدب من الآداب.

«ما بَسَقَتْ أغْصَانُ ذُلٍّ إلاَّ على بذْرِ طَمَع».

البسوق: الطول يقال: بسقت النخلة بسوقا إذا طالت، قال الله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾(١) .

والأغصان: جمع غصن، وهو ما تشعب عن سوق الشجر، ويجمع أيضا على غصون.

والبذر: الحب الذى يزرع، وهذه كلها استعارات مليحة.

والطمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها الفادحة فى عبوديتها، بل هو أصل جميع الآفات، لأنه محض تعلق بالناس، والتجاء إليهم، واعتماد عليهم، وعبودية لهم وفى ذلك من المذلة والمهانة مالا مزيد عليه، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه.

والطمع مضاد لحقيقة الإيمان الذى يقتضى وجود العزة، والعزة التى اتصف بها المؤمنون إنما تكون برفع هممهم إلى مولاهم، وطمأنينة قلوبهم إليه، وثقتهم به دون من سواه، فهذه هى العزة التى منحها الله عبده المؤمن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢) .

وكما أن العزة من صفات المؤمنين كذلك الذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾(٣).

قال أبو بكر الوراق الحكيم(٤) رضى الله عنه: «لو قيل للطمع من أبوك؟ قال:

---

(١) «آية رقم ١٠ من سورة ق»

(٢) آية رقم ٨ من سورة المنافقون

(٣) آية رقم ٢٠ من سورة المجادلة

(٤) «هو أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذى، أقام ببلخ وله تصانيف فى الرياضات وعن حكمه وأقواله أنظر الجزء الأول من الرسالة القشيرية ص ١٣١».

الشك فى المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل: ما غايتك؟ قال: الحرمان».

وقال أبو الحسن الوراق النيسابورى، رضى الله عنه: «من أشعر فى نفسه محبة شئ من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع، ومن طمع فى شئ ذل، وبذله هلك، وقد قيل فى ذلك:

أتطمع فى ليلى وتعلم أنما   تقطع أعناق الرجال المطامع

فالطامع لامحالة فاسد الدين، مفلس من أنوار اليقين.

قال فى التنوير: «وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ماسواه، وتطهر من الطمع فى الخلق، فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ماطهره إلا اليأس منهم، ورفع الهمة عنهم».

قال: وقدم على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، البصرة، فدخل جامعها، فوجد القصاص يقصون، فأقامهم، حتى جاء إلى الحسن البصرى، رضى الله تعالى عنه، فقال: يافتي إني سائلك عن أمر فإن أجبتني عنه أبقيتك، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك - وكان قد رأى عليه سمتا(١) وهديا(٢).

فقال الحسن: سل عما شئت قال: ماملاك(٣) الدين؟ قال: الورع قال: فما فساد الدين؟قال:الطمع قال: اجلس فمثلك من يتكلم على الناس قال: وسمعت شيخنا(٤) رضى الله عنه، يقول: كنت فى ابتداء أمرى بثغر الإسكندرية جئت إلى بعض من يعرفنى فاشتريت منه حاجة بنصف درهم، ثم قلت فى نفسى: لعله لا يأخذه منى، فهتف بي هاتف: السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين.

قال: وسمعته يقول: صاحب الطمع لا يشبع أبدا، ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة: الطاء، والميم والعين.

ثم قال بعد هذا: فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم، فقد سبقت قسمته وجودك وتقدم ثبوته ظهورك.

---

(١) السمت: السكينة والوقار وحسن الهيئة
(٢) قال فى المصباح المنير: الهدى: البيان
(٣) ملاك الشئ: قوامه وأصله»
(٤) هو أبوالعباس المرسى، رضى الله عنه.

واسمع ما قاله بعض المشايخ: «أيها الرجل، ما قدر لما ضغيك أن يمضغاه، فلا بد أن يمضغاه، فكله - ويحك - بعز، ولا تأكله بذل».

قلت: تقدم الآن من كلامه فى «التنوير» ذكر الورع فى مقابلة الطمع، وكذلك فى جواب الحسن لعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما لما سأله مستخبرا له عن صلاح الدين وفساده فى الكلام الذى حكاه عنهما، ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس، وهو ترك الشبهات والتحرج من اقتحام المشكلات لا يقابل الطمع كل المقابلة، وقد ذكرنا الطمع ماهو، وإنما يقابله ورع الخاصة، وهو عندهم: صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وعكوف الهمم عليه، وطمأنينة القلب به، ولايكون له ركون إلى غير، ولاانتساب إلى خلق ولا كون، فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد، به يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد، كما نبه عليه الحسن رضى الله عنه، فى جوابه المذكور.

قال يحيى بن معاذ، رضى الله تعالى عنه: «الورع على وجهين: ورع فى الظاهر، وهو: ألا تتحرك إلالله، وورع فى الباطن، وهو: ألا يدخل قلبك إلا الله».

ذكر أن بعضهم كان حريصا على أن يرى أحدا ممن هذه صفته، فجعل يجتهد فى طلبه، ويحتال على التوصل إليه بأن يأخذ الشئ بعد الشئ من ماله، ويقصد به الفقراء والمساكين، ويقول لمن يعطيه منهم حين المناولة: خذ لا لك، فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جوابا مطابقا لما أراده بكلامه، إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته، وذلك أنه قال لأحدهم: خذ لا لك، فقال له: آخذه لا منك.

فإن كان للعبد استشراف(١) إلى خلق، أو سبقية نظر إليهم قبل مجئ الرزق أو بعده فمقتضى هذا الورع، والواجب فى حق الأدب، ألا ينيل نفسه شيئا مما يأتيه على هذه الحال عقوبة لنفسه فى نظره إلى أبناء جنسه، كقصة أيوب الحمال مع أحمد بن حنبل، رضى الله عنهما، وهى معروفة، وكما روى عن الشيخ أبى مدين، رضى الله عنه، أنه أباه حمال بقمح فنازعته نفسه وقالت له: ياترى، من

(١) «تطلع ونظر، وفى اللغة: استشرف الشئ رفع بصره لينظر إليه»

أين هذا؟ فقال لها: أنا أعرف من أين هو ياعدوة الله، وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء، عقوبة لها، لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى.

وقد قيل: «أحل الحلال مالم يخطر لك على بال، ولاسألت فيه أحدا من النساء والرجال».

وقد صرح بهذا المعنى الذى ذكرناه وأوضح الغرض الذى قصدناه شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة من المتأخرين أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه، فإنه قال: «اعلم أن الورع أن لا يكون بينك وبين الخلق نسبة فى أخذ أو إعطاء أو قبول أو رد، وأن يكون السبق لله تعالى، وهو أن تأتى إليه طاهرا من جميع الأشياء والعلم والعمل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(١)».

وقال أيضا: «الورع: أن لاتتحرك ولاتسكن إلا وترى الله فى الحركة والسكون» فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقى مع الله، فالحركة ظرف لما فيها، كما قال بعضهم: «مارأيت شيئا إلا رأيت الله فيه» فإذا رأى الله ذهبت الأشياء (٢).

وقال أيضا: «أجمع العلماء على أن الحلال المطلق مأخذ من يد الله بسقوط الوسائط» وهذا مقام التوكل، ولهذا قال بعضهم: «الحلال هو الذى لا ينسى الله فيه». إلى غير هذا من العبارات التى عبر بها فى هذا المعنى.

وقال بعض هذه الطائفة: «العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم، ثم يفترقون فى المشاهدات، فمنهم: من يأكل رزقه بذل، ومنهم: من يأكل رزقه بامتهان(٣) ومنهم: من يأكل رزقه بانتظار ومنهم: من يأكل رزقه بعز بلا مهانة ولا انتظار ولاذلة، فأما الذين يأكلون أرزاقهم بذل، فالسؤال يشهدون أيدى الخلق فيذلون لهم، وأما الذين يأكلون ارزاقهم بامتهان فالصناع يأكل أحدهم رزقه بمهنته وكده، وأما الذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار ينتظر أحدهم نفاق(٤) سلعته، فهو متعوب القلب معذب بانتظاره، وأما الذين يأكلون أرزاقهم بعز من غير مهنة ولا انتظار

(١) آية ٩٤ من سورة الأنعام.
(٢) وفى نسخة ذهبت الحركة
(٣) أى باتخاذ مهنة
(٤) قال فى المصباح المنير: نفقت السلعة نفاقا: كثر طلابها.

ولاذل، فالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قسمتهم من يده بعزة».

قال سهل بن عبد الله، رضى الله تعالى عنه: «ليس مع الإيمان أسباب، إنما الأسباب مع الإسلام» قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه، معناه: ليس فى حقيقة الإيمان رؤية الأسباب والسكون(١) إليها، إنما رؤيتها والطمع فى الخلق يوجد فى مقام الإسلام.

وقد عقد المؤلف رحمه الله فى «لطائف المنن» فصلا فى هذا المعنى وجعله لجميع وظائف الآداب الدينية أصلا ومبنى، فرأينا نقله فى هذا الموضع من صواب العمل المتكفل إن شاء الله بنجاح العمل، قال رضى الله عنه: «اعلم - رحمك الله - أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل، فأن من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره أو يميلوا بالحب لغيره، أو تمتد أطماعهم بالطمع فى غير فضله وخيره ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب، وخلع الأنداد والأرباب ومن ورعهم ورعُهم عن الوقوف مع أحادات والاعتماد على الطاعات والسكوت إلى أنواع التجليات ومن ورعهم ورعُهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب، وخلع الأنداد والأرباب، ومن ورعهم وُرُعهم عن الوقوف مع احادات والاعتماد على الطاعات والسكون الى أنواع التجليات ومن ورعهم ورُعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو ترفعهم(٢) الآخرة، تورعوا عن الدنيا وفاء، وعن الوقوف مع الآخرة صفاء قال الشيخ عثمان بن عاشوراء: «خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير، وإذا أنا بالدنيا قد عرضت لى بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها فأعرضت عنها، فعرضت على الجنة بحورها وقصورها **وأنهارها** وثمارها فلم أشتغل بها فقيل لى: ياعثمان، لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنا، فها نحن لك،

---

(١) «هذا هو المعنى الذى يؤمن به الصوفية والذى يفسر به الكلام السابق واللاحق وهو رأى أهل السنة: إن الأسباب لابد من اتخاذها ولقد كان رسول الله (ﷺ) يتخذ لكل أمر عدته فى أدق ما يكون وفى أعمق مايكون وفى أتم ما يكون ولكنه (ﷺ) كان يرى فى كل خطوة فى خطواته أن الله سبحانه هو الفاعل الحقيقى وأن الأسباب أمور ظاهرية وأى ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وإذا كنا نستجيب إلى قوله تعالى: «وامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه» فإنا نؤمن بقوله تعالى: «إليه يرجع الأمر كله» فالمؤمن الصادق يتخذ الأسباب ويرجع الأمر إلى الله، إنه لايرى الأسباب ولا يسكن إليها وإنما يرى الله من قبلها وفيها ومن بعدها ويرد إليه الأمر كله».

(٢) «وفى نسخة: ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا وتوقعهم بالآخرة، وفى أخرى: أو توقفهم الآخرة وربما كانت هذه الأخيرة أصح: أى أنهم لا يقفون عند الآخرة فليست الآخرة هدفهم الأخير وإنما رب الآخرة»

وقسطك(١) من الدارين يأتيك».

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى، وكان مقيما بشرقى الإسكندرية: «حججت سنة من السنين، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية، فإذا على قائل(٢) يقول لى: إنك فى العام القابل عندنا، فقلت فى نفسى: إذا كنت بالعام القادم هاهنا فلا أعود إلى الإسكندرية، فخطر لى الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن فأنا يوما على ساحلها، وإذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم، ثم نظرت فإذا رجل فرش سجادته على البحر ومشى على الماء، فقلت فى نفسى: لم أصلح للدنيا ولاللآخرة، فإذا العلى(٣) يقول لى: من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا».

وقال الشيخ أبو الحسن، رضى الله تعالى عنه: «الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه» فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة، فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون، ولا يريدون ولايتفكرون، ولاينظرون ولاينطقون، ولا يبطشون ولايمشون ولايتحركون إلا بالله، ولله من حيث يعلمون، هجم(٤) بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى عيد الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى واما أدنى الأدنى فالله يوزعهم(٥) عنه ثوابا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزان(٦) فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى، وميراثه التعزز(٧) لخلقه والاستكبار على مثله، والدلالة على الله(٨) بعمله فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العظيم من ذلك، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله

---

(١) « أى: نصيبك»

(٢) «وفى نسخة: فإذا على بهاتف يقول لى، وفى أخرى فإذا أنا يقال لى»

(٣) «وفى نسخة: فإذا أنا يقال لى»

(٤) أى: غلب

(٥) «وزعه: منعه، ويوزعهم يمنعهم، وفى نسخة يورعهم أى يحبسهم ويمنعهم»

(٦) وفى نسخة: ميراث

(٧) «التعزز: اللوم والمنع والضرب، وفى نسخة : التقذر، وفى أخرى: التعزز»

(٨) «وفى نسخة: والدالة على الله بعمله أى أنه يعتبر أن لعمله قيمة فى نفسه وينظر إلى عمله غير ناظر إلى توفيق الله له فيه»

منه، ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقارا لنفسه، وافتقارا لربه، وتواضعا لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيرا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم(١) كما قطع كثيرا من المفسرين بفسادهم عن موجدهم، «فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم». قال: فانظر فهمك الله سبيل أوليائه، ومن عليك بمتابعة أحبائه - هذا الورع الذى ذكره الشيخ رضى الله عنه هل كان يصل فهمك إلى مثل هذا النوع من الورع؟

ألاترى قوله: «قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة، فهذا هو ورع الأبدال والصديقين لا ورع المنقطعين الذى ينشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم» انتهى.

وإنما أوردنا هذه المعانى هاهنا تتميما للفائدة المتعلقة بكلام صاحب «التنوير» من كون الورع مقابلا للطمع، وسيأتى مزيد بيان فيها فى موضع أنسب من هذا عند قوله: «لاتمد يدك إلى الأخذ من الخلائق.. إلخ» فانظره فيه.

«مَا قَادَكَ شَىءٌ مِثْلُ الوَهْمِ».

الوهم: أمر عدمى، وهو ضد الحقيقة الوجودية، والنفس الناقصة انقيادها إلى الأمور الوهمية الباطلة أشد من انقيادها إلى الحقائق الثابتة، لوجود المناسبة بينهما، والطمع فى الناس انقياد إلى الأوهام الباطلة، لأن الطمع تصديق الظن الكاذب، والطمع فيهم طمع فى غير مطمع، وأرباب الحقائق بمعزل عن هذا فلا تتعلق هممهم إلا بالله، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يثقون إلا به، قد سقط اعتبار الأوهام والخيالات التى هى متعلقة بالأغيار عن قلوبهم، فزال عنهم الطمع فاتصفوا بصفة القناعة والورع، فكانت لهم الحياة الطيبة والعيشة الراضية، والقناعة مقام عظيم من مقامات اليقين، وهى من بدايات أحوال الراضين.

قال بعض العارفين: «لايكون العبد قانعا حتى لو جاء إلى باب منزله جميع ما

---

(١) «وفى نسخة: عن مصلحتهم، كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم»

يرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة فعرض عليه لم ينظر إلى ذلك ولم يفتح له بابه قناعة منه بحاله» وقد روى عن النبى (ﷺ) فى معنى قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(١) قال: هى القناعة.

أَنْتَ حُرٌّ مما أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ.

الطمع فى الشئ دليل على الحب له وفرط الاحتياج إلى نيله، وذلك عبودية له، كما أن اليأس من الشئ دليل على فراغ القلب منه وغناه عنه، وذلك حرية منه، فالطامع عبد، واليائس حر، ولهذا قيل:

العبد حر ما قنع

والحر عبد ما طمع

فاقنع ولا تطمع فما

شئ يشين سوى الطمع

وقيل: «لولا الأطماع الكاذبة لما استعبد الأحرار بكل شئ لا خطر له» وقيل: «إن العقاب يطير فى فضاء عزه بحيث لا يرتقى طرف إلى مطاره، ولا تسمو همة إلى الوصل إليه، فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره، فيعلق بالشبكة جناحه، فيصيده صبى يلعب به».

وقيل: إن فتحا الموصلى رضى الله تعالى عنه، كان قاعدا فسئل عمن تابع الشهوات كيف صفته، وكان بقربه صبيان مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع الآخر خبز مع كامخ (٢)، فقال الذى لم يكن معه كامخ لصاحبه: أطعمنى من الكامخ، فقال له: بشرط أن تكون كلبى، فقال: نعم، فجعل فى رقبته خيطا، وجعل يجره كما يقاد الكلب، فقال فتح للسائل: أما إنه لو رضى بخبزه ولم يطمع فى كامخ صاحبه لم يصر كلبا لصاحبه.

(١) ٩٧ من سورة النحل
(٢) الكامخ إدام يؤتدم به

وحكى عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدم التلميذ إليه خبزا قفارا(١) ولم يكن له إدام، فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له إدام يقدمه إلى أستاذه، فقام الأستاذ وقال: تعال معى، فحمله إلى باب السجن فرأى الناس: يضرب واحد، ويقطع آخر، ويعذب كل واحد بأنواع العذاب، فقال الأستاذ للتلميذ: ترى هؤلاء، هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار».

وقيل: إن رجلا أخرج من السجن وفى رجله قيد وهو يسأل الناس، فقال لإنسان: أعطنى كسرة، فقال: لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد فى رجلك ورأى رجل رجلا من الحكماء يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء، فقال: لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا، فقال الحكيم: وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان.

وقد أردت أن أذكر هنا حكاية مناسبة لما نحن فيه ليتعرف بها كيف تكون الهمة السنية والآداب المرضية فى أخذ البلغ(٢) من الدنيا والقناعة باليسير من الأشياء ورؤية منة الله تعالى فى تيسير القليل والشكر له على ذلك، قال بعضهم: «خرجنا من المدينة حجاجا، فلما كنا بالزاوية نزلنا، فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة، وله منظر وهيبة وصورة حسنة ومروءة فقال: من يبغى خادما؟

من يبغى ساقيا؟ فقلت: دونك هذه القربة، فأخذها وانطلق، ولم يلبث إلا يسيرا حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طينا، وأثرت القربة فى كتفيه فوضعها وهو كالمسرور الضاحك، ثم قال: ألكم غيرها؟ قلنا: لا، وأطعمناه قرصا باردا فأخذه وحمد الله سبحانه وشكره شكرا كثيرا، ثم اعتزل، وقعد يأكله أكل جائع، فأدركتنى عليه الشفقة فقمت إليه بطعام طيب كان معنا، وأكثرت له منه، فقلت له: قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع فدونك هذا الطعام، فنظر فى وجهى وتبسم وقال: ياعبد الله إنما هى فورة جوع فلا أبالى بأى شئ رددتها عنى!! فرجعت عنه، فقال لى رجل إلى جنبى: أتعرفه؟ قلت: لا!! قال: إنه رجل من بنى هاشم من ولد العباس بن عبد المطلب، هذا من ولد سليمان بن أبى جعفر المنصور، كان يسكن

---

(١) «قفارا: يابسا ناشفا، وفى القاموس: قفر الطعام: كان قفارا اى غير مأدوم»
(٢) «البلغ: ما يتبلغ به: أى ما يكفى من العيش ولا يفضل»

البصرة فتاب، فخرج منها، ففقد، فما عرف له أثر، فأعجبنى قوله، ثم اجتمعت به، وآنسته، وقلت له: يافتى، أنا رجل من إخوانك، وقد بلغنى موضعك فأحببت الاتصال بك فهل لك أن تعادلنى فإن معى فضلا من راحلتى، فجزانى خيرا وقال: لو أردت هذا لكان لى معدا، ثم أنس إلى، وجعل يحدثنى فقال: أنا رجل من ولد العباس، كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد وتجبر وبذخ وإنى أمرت خادما ان تحشو لى فراشا من حرير، ومخدة بورد نثير، فبينما انا نائم إذا بقمع وردة قد غفلت عنه الخادمة، فقمت إليها فأوجعتها ضربا، ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة، فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة، فهزنى، وقال لى: أفق من غشيتك، وأبصر من حيرتك، ثم أنشأ يقول:

يا خد إنك إن توسد(١) لينا

وسدت بعد الموت صم الجندل(٢)

فامهد لنفسك صالحا تسعد به

فلتندمن غدا إذا لم تفعل

قال: فانتبهت فزعا فخرجت من ساعتى إلى ربى هاربا، فهذا خبرى، قال الراوى: فلما قضى حديثه هذا انخنس عنى، ومضى.

مَنْ لم يُقْبِلْ على اللّهِ بملاطَفاتِ الإحسانِ، قِيْدَ إليهِ بسَلاَسِلِ الامتحانِ.

النفوس الكريمة تقبل على اللّه بملاطفات إحسانه، وموالاة فضله وامتنانه والنفوس اللئيمة لا تنقاد إلا بسلاسل الامتحان ووقع المصائب فى الأموال والأبدان. والقود بالسلاسل استعارة حسنة، قال سيدى أبو مدين رضى اللّه تعالى عنه: «سنة اللّه عز وجل استدعاء العباد لعبادته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم

(١) «توسد الشئ: نام عليه وجعله كالوسادة له»

(٢) الجندل «الحجارة والواحدة جندلة والأهم من الحجارة: المتين الصلب»

يرجعون، لأن مراده عز وجل، رجوع العبد إليه طوعا أو كرها».

مَنْ لم يَشْكُرِ النِّعَمَ، فقد تعرَّضَ لزَوالِها. ومن شَكَرَها، فقد قَيَّدَها بعقَالِها.

شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها، وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها وانفصالها قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢) أي: إذا غيروا مابهم من الطاعات وهي شكر النعم غير الله تعالى ما منه إليهم من الإحسان والكرم، واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا: الشكر قيد النعم.

وقالوا: «الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود» وكان يقال: «النعم إذا روعيت بالشكر فهي أطواق، وإذا روعيت بالكفر فهي أغلال».

والشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب وشكر باللسان، وشكر بسائر الجوارح.

فشكر القلب: أن يعلم أن النعم كلها من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(٣)».

وشكر اللسان: الثناء على الله تعالى، وكثرة الحمد والمدح له، ويدخل فيه التحدث بالنعم وإظهارها ونشرها قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٤).

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه: «تذكروا النعم، فإن تذكرها شكر» (٥).

ومن شكر اللسان أيضا الوسائط بالثناء عليهم والدعاء لهم: وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه: «أن رسول الله (ﷺ) قال: من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله».

---

(١) آية ٧ من سورة إبراهيم

(٢) آية رقم ١١ من سورة الرعد

(٣) آية ٥٣ من سورة ١النحل

(٤) آية رقم ١١ من سورة الضحى.

(٥) وفي نسخة تذاكروا النعم فإن ذكرها شكر.

وعن أسامة بن زيد، رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله (ﷺ) قال «أشكر الناس لله أشكرهم للناس» ، وسيأتى الكلام على هذا المعنى فى آخر الكتاب إن شاء الله عند كلام المؤلف عليه.

وشكر سائر الجوارح: أن تعمل بها العمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾(١)، فجعل العمل شكرا.

وروى عن النبى (ﷺ) أنه قام حتى انتفخت قدماه، فقيل له: يارسول الله أتفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا».

وسأل رجل أبا حازم رضى الله تعالى عنه، فقال: «ما شكر العينين؟ قال إذا رأيت بهما خيرا أعلنته، وإذا رأيت بهما شرا سترته قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيرا وعيته، وإذا سمعت بهما شرا دفنته، قال فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لك، ولا تمنع حقا هو لله فيهما قال: فما شكر البطن؟ قال أن يكون أسفله صبرا وأعلاه علما قال: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾(٢) قال، فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت شيئا غبطته استعملتهما عليه(٣) وإن رأيت شيئا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله تعالى، فأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذه بطرفه ولم يلبسه، فلن ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر».

وأجمع العبارات للشكر قول من قال: «الشكر معرفة بالجنان، وذكر باللسان،

---

(١) آية ١٣ من سورة سبأ

(٢) «٥، ٦ من سورة المؤمنون».

(٣) «وفى نسخة: استعملتهما عملته وفى أخرى: استعملتهما علمه وفى ثالثة استعملتهما فيه»

وعمل بالأركان».

والقدر اللازم من شكر المنعم ما قاله الجنيد، رضى الله تعالى عنه، حين سأله السرى، رضى الله تعالى عنه قال الجنيد رضى الله عنه: كنت بين يدى السرى، رضى الله عنه، وأنا أبن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى: ياغلام، ما الشكر؟ فقلت: «أن لايعصى الله بنعمه فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك». فلا أزال أبكى على هذه الكلمة.

خَفْ مِنْ وُجُود إحسانه إليكَ ودَوام إساءَتكَ معَهُ.. أنْ يكونَ ذلك استدراجًا لكَ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾(١)

الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفات الكافرين، يقول: من أمارات الاستدراج ركوب السيئة والاغترار بزمن المهلة، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة، وهذا من المكر الخفى، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى لا يشعرون بذلك، وهو أن يلقى فى أوهامهم أنهم على شئ، وليسوا كذلك، ليستدرجهم شيئا فشيئا حتى يأخذهم بغتة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(٢) إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: فتحنا عليهم أسباب العافية وأبواب الرفاهية ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الحظوظ الدنيوية، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أى: فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أى: آيسون

(١) «من آية ١٨٢ من سورة الأعراف وكذلك من آية ٤٤ من سورة القلم»
(٢) آية ٤٤ من سورة الأنعام

قانطون من الرحمة.

قال سهل بن عبد الله، رضى الله تعالى عنه، فى قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ «نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا».

وقال ابن عطاء الله: «كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة».

مِنْ جَهْلِ المُريد أنْ يُسيءَ الأدَبَ، فَتُؤخَّرَ العُقُوبَةُ عنه، فيقولَ: لو كان هذا سُوءَ أدبٍ لقَطَعَ الإمدادَ، وأَوْجَبَ الإبْعَادَ. فقد يَقْطَعُ المددَ عَنْهُ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرُ!

ولَوْ لَمْ يَكُنْ إلا مَنْعَ المزيد وقد يقام مقام البعد وهو لا يدرى ولَوْ لَمْ يكنْ إلا أنْ يُخَلِّيَكَ وما تُرِيدُ!

هذا نوع من الاستدراج الذى تقدم ذكره، وسوء أدب المريد موجب لعقوبته، ولكن العقوبات مختلفة، فمنها معجلة، ومنها مؤجلة، ومنها جلية، ومنها خفية، فالعقوبة الجلية: العقوبة بالعذاب، والعقوبة الخفية: العقوبة بوجود الحجاب، فالعقوبة بالعذاب لأهل الخطايا والذنوب، والعقوبة بالحجاب لأهل إساءة الأدب بين يدى علام الغيوب.

وقد تكون العقوبة الخفية والمؤجلة أشد على المريد من العقوبة الجلية المعجلة، ومثال تلك العقوبة الخفية ماذكره من قطع المدد عنه وإقامته فى مقام البعد عنه، وهذا هو مبدأ وقوع الحجاب الذى ذكرناه، فإذا ابتلى(١) به المريد ولم تتداركه رحمة من الله تعالى فى الحال العتيد كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه، وتبدل الانس بالوحشة، وانتساخ الضياء بالظلمة، ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال الأولى، لأنه إذ ذاك تنقطع عنه الإمدادات المتصلة،

(١) « وفى نسخة: ابتدئ»

والواردات المتحصلة، فتنكشف عنه حينئذ شمس العرفان، وتتستر عنه الكشوفات والبيان، وهذه جنود الله تعالى فى قلب العبد، فإذا فقد النصرة من الله تعالى بذلك وقع فى الخذلان، واستحوذ عليه الشيطان، فأنساه الذكر وحاق به سئ المكر، ورجع إلى متابعة هوى نفسه الأمارة، وخرج من دائرة الصفوة المختارة فنعوذ بالله من سوء المقدر وعدم التوفيق إلى مراعاة أوائل الأمور، وما احتج به المريد لنفسه من الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله، يقتضى توجه هذه العقوبة إليه ضربة لازب(١) لأن قوله: «لو كان سوء أدب.. إلخ» دليل على رضاه بحاله واستحسانه لأعماله، وهذا هو الموجب له عدم المزيد الذى اقتضاه قطع المدد عنه، ولو كان المدد متواصلا إليه لازداد عند ما يقع منه سوء الأدب تواضعا لربه وافتقارا إليه وخوفا من مكره، ولم يستحسن حال نفسه ولم يرضها.

قال سيدى أبو العباس، رضى الله تعالى عنه: «كل سوء أدب يثمر لك أدبا مع الله تعالى فهو أدب» وهو الذى أوجب له أيضا التخلية بينه وبين ما يريد الذى اقتضى له إقامته مقام البعد، إذ لو كان مقاما فى القرب لبعد عن رؤية نفسه وكان متهما لها فى إرادتها، وكان واقفا مع مراد الله به، فإن أقدم على أمر بإرادته وشهوته تداركه الله تعالى بالعصمة، وعوق عليه ما أراده، وسد عليه مسالكه، ولم يخله وما أراد من ذلك.

ويقال من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البر عليك من غير قصد منك إليها، وصرف المعاصى عنك مع السعى فيها، وفتح باب اللجاء والافتقار إلى الله تعالى فى كل الأحوال.

(١) «أى ضربة وعقوبة متصلة قال فى القاموس: يقال صار الأمر ضربة لازب أى صار لازما واجبا.

ومن علامة الخذلان ثلاثة: تعسر الطاعات عليك مع السعى فيها، ودخول المعاصى عليك مع الهرب منها، وغلق باب اللجاء إلى الله وترك الدعاء فى الأحوال.

والأدب له موقع عظيم فى التصوف، ولذلك قال أبو حفص، رضى الله عنه:

«التصوف كله آداب: لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول».

وقال أبو عبد الله بن خفيف(١) «قال لى «رويم» (٢): «يا بنى اجعل عملك ملحا، وأدبك دقيقا».

وقال بعضهم: «الزم الأدب ظاهرا وباطنا، فما أساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا، وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا».

وقال ذو النون المصرى(٣) رضى الله تعالى عنه: «إذا خرج المريد عن حد الأدب فإنه يرجع من حيث جاء».

---

(١) «هو: أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى، أمه نيسابورية، أقام بشيراز، كان من الأمراء ثم تفقه وتصوف وتزهد أخذ عن الأشعرى وغيره، ومات سنة: إحدى وسبعين وثلاثمائة هجرية :»

(٢) «هو: أبو محمد رويم بن أحمد بغدادى من أكابر مشايخ الصوفية،مات سنة: ثلاث وثلاثمائة، ومن كلامه: «الإخلاص فى العمل أن لايريد عوضا فى الدارين» «الرضا استقبال الأحكام بالفرح» «الشكر استفرا غ الطاقة».

(٣) «هو: أبو الفيض ذو النون المصرى، أصله من نوبة مصر، ثم نزل بـ «أخميم» من ديار مصر فأقام بها، قال ابن يونس: «امتحن وأوذى لكونه أتى بعلم لم يعهد روى عن مالك والليث وروى عنه كثيرون منهم: الطائى مات سنة: خمس وأربعين ومائتين ومن كلامه: «من راقب العواقب سلم» «إياك أن تكون للمعرفة مدعيا، أو بالزهد محترفا، أو بالعبادة متعلقا ففر من كل شئ إلى ربك» «من وثق بالمقادير لم يغنم» «العبودية أن تكون عبده على كل حال كما هو ربك على كل حال» «من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله (ﷺ): فى أخلاقه وأفعاله، وأوامره وسنته».

وقال الثورى، رضى الله عنه: من «لم يتأدب للوقت فوقته مقت».

وقال ابن المبارك، رضى الله عنه: «نحن إلى قليل من الأدب، أحوج منا إلى كثير من العلم».

وقيل لبعضهم: «ياسيء الأدب!! فقال: لست بسيىء الأدب، فقيل له: ومن أدبك؟ فقال: الصوفية.

والآداب اللازمة للمريد عامة فى ظاهره وباطنه، وآداب الظاهر تبع لآداب الباطن وآداب الباطن، وآداب الباطن هى التحلى بمحاسن الأخلاق كلها، وفى الحديث عن رسول الله -(ﷺ) - أنه قال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى، ثم أمرنى بمكارم الأخلاق» فقال ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(١)

ولا يحصل له ذلك، بعد توفيق الله وتأييده، إلا بالرياضة والمجاهدة.

قال ابن عطاء الله، رضى الله عنه: «النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة، والعبد يردُّها بجهده عن سوء المطالبة، ممن أطلق عنانها فهو شريكها فى فسادها».

ويختلف ما ذكرناه من المجاهدة والرياضة باختلاف الأشخاص، فربّ شخص ذكيِّ الفطرة كريم السجيّة سهل المقادة(٢)، لا يحتاج فى ذلك إلى كثير معاناة ولا تعب، وربّ شخص يكون حالة على عكس هذا، فلا جرم(٣) يحتاج إلى زيادة تعب وقوة ممارسة وشدة مجاهدة، لرداءة فطرته ونقصان غريزته، وبين هذين درجات لا تحصى، ولهذا كله يحتاج المريد إلى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم واتباع أوامرهم ونواهيهم، لأنه إن لم تجر أفعاله على مراد غيره لا يصح له الانتقالُ عن الهوى، ولو بلغ فى الرياضة والمجاهدة كل مبلغ، وذلك لكثافة حجاب نفسه».

وقد سئل الدّقاق، رضى الله تعالى عنه،: «بماذا يُقَوّمُ الرجل أعوجاجَه؟ فقال: بالتأدّب بإمامٍ، فإن لم يتأدب بإمام بقى بطالا، فإذا دام العبد على ذلك تزكت نفسه، وطهر قلبه، وتهذبت أخلاقه، وظهر على ظاهره أنوارُ ذلك، فتكون حركاتُ ظاهرة وباطنة مزمومة(٤) بزمام الأدب حتى تنتهى به إلى المحافظة على تجنب أمور غير مستنكرة، فى ظاهر العلم، ويكون ترك محافظته عليها ذنبا من مثله، وقد يعاتب عليه وقد يعاقب من أجله.

---

(١) سورة الأعراف ١٩٩

(٢) سهل القياد

(٣) لا جرم: لابد

(٤) مزمومة: مربوطة مشدودة.

قال السرى، رضى الله عنه: «صلّيت العشاء واشتغلت بوردى ليلة من الليالى، ومددت رجلى فى المحراب، فنوديت: يا سرى، هكذا تجالس الملوك؟! فضممت رجلى، ثم قلت: وعزّتك وجلالك لا مددتُ رجلى أبدا».

قال الجنيد، رضى الله تعالى عنه: فبقى أربعين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا.

وقال أبوالقاسم القشيرى، رضى اللّه تعالى عنه: «كان الأستاذ أبوعلى الدقاق، رضى اللّه عنه، لا يستند إلى شىء، فكان يوما جالسا فى مجمع، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأنى رأيته غير مستند، فتنحى عن الوسادة قليلا، فتوهمت أنه توقى الوسادة، لأنه لم يكن عليها خرقة ولا سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شىء أبدا».

وقال أبوالقاسم الجنيد، رضى اللّه تعالى عنه: «كنت جالسا فى مسجد «الشونزية» انتظر جنازة أصلى عليها، وأهل بغداد، على طبقاتهم، جلوس ينتظرون الجنازة، فرأيت فقيرا عليه أثر النسك يسأل الناس، فقلت فى نفسى: لو عمل هذا عملا يصون به نفسه لكان أجمل به، فلما انصرفت إلى منزلى، وكان لى شىء من الورد بالليل من البكاء والصلاة وغير ذلك، فثقل علىّ جميع أورادى، فسهرت وأنا قاعد، فغلبتنى عينى فرأيت ذلك الفقير جاءوا به على خوان(١) ممدود وقالوا لى: كل لحمة، فقد اغتبته!! وكشف لى عن الحال، فقلت: ما اغتبته وإنما قلت فى نفسى شيئا!!

فقيل لى: ما أنت مما يرضى منك بمثله، اذهب واستحله فأصبحت ولم أزل أتردد حتى رأيته فى موضع يلتقط من الماء تراد(٢) الماء أوراقا من البقل مما تساقط من غسل البقل، فسلمت عليه، فقال: أتعود ياأبا القاسم؟! فقلت: لا، فقال: غفر اللّه لنا ولك».. إلى غير ذلك من آدابهم، رضى اللّه عنهم أجمعين.

والظاهر أن مراد المؤلف، رحمه اللّه، بإساءة الأدب ما كان فيه نوع من الرعونة وإظهار الدعوى واتصاف العبد بصفة المولى، وانبساطه وإدلاله فى موقف الهيبة والحياء وما أشبه ذلك مما يخاف على صاحبه وقوع الاستدراج والمكر به، ولكن ينبغى للمريد ألاَّ يتهاون بشىء من الآداب ولا يستحقرها، فإن التهاون بذلك والاستحقار له من مخامرة الجهل وعدم المعرفة باللّه تعالى، وهذا أقبح أنواع سوء

---

(١) الخوان ـ بضم الخاء ـ والخِوان ـ بكسر الخاء ـ: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل.

(٢) تراد الماء: ارتد عن مجراه لحاجز، وفى نسخة: عند ترداد الماء والترداد: الرد.

الأدب، فإن وقعت منه اساءة أدب فليكن خائفا من ذلك مستعظما للأمر فيه، وليبادر إلى التوبة والاعتذار والتنصل منها خشية أن توجه إليه العقوبة من حيث لا يشعر. وآكد ما ينبغى أن يجتنبه المريد من مقتضيات هذه الجملة التى ظهر لنا أنها مراد المؤلف، رحمه اللّه تعالى «من أنوا ع سوء الأدب» أن يوطن خاطره على شىء من الاعتراض على اللّه تعالى وتعاطى التدبير معه، والتبرم بأحكامه المؤلة فى نفسه أو غيره، وأن يسرح لسانه بالشكوى إلى الخلق، والعيب لما لا يوافق هواه، أو نقص فى نظره مما يراه من الحق، فإن خطر بباله أو جرى على لسانه شىء من ذلك فليبادر إلى الاستغفار منه والتفصى(١) عنه، وليعلم أن تشاغله بذلك من أعظم الحسنات وأفضل القربات، وذلك يدخله فى مقامات الرضا ويوصّله إلى غاية النعيم والعطاء، كما أن توطينه عليه وتهاونه به من أعظم خطاياه وأكبر ذنوبه، ويؤديه ذلك إلى تسخط الأقدار والوقوع فى دركات النار، نعوذ باللّه من ذلك..

ضاع لبعض الصوفية ولد صغير، فلم يعرف له خبرا ثلاثة أيام، فقيل له: لو سألت اللّه أن يرده عليك،، فقال: اعتراضى عليه فيما قضى أشد علىَّ من ذهاب ولدى.

وقال بعض السادة أذنبت ذنبا، فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة، وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب، فقيل له: وما ذلك الذنب؟ قال: قلت مرَّة لشىء ليته كان!!».

وقال بعض السلف: «لو قرض جسمى بالمقاريض كان أحبّ الىَّ من أن أقول لشىء قضاه ليته لم يقضه».

وقال بعضهم: «مرض الجنيد، رضى اللّه تعالى عنه، فقال: اللّهم عافنى، فسمع هاتفا، يقال: مالك والدخول بينى وبين ملْكِى».

ومن مقتضياتها أيضا: أن يعلق بقلبه شئ من الاعتراض على المشايخ والأولياء، وأن يترك تعظيمهم واحترامهم، وأن لا يقبل اشاراتهم فيما يشيرون به عليه، فقد قالوا: عقوق الأستاذين لا توبة له.

وقال أيضا: من قال لأستاذه لِمَ لا يُفلح.

وقال أبوالقاسم القشيرى، رضى اللّه تعالى عنه: «من صحب شيخًا من الشيوخ، ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة».

---

(١) التفصى: المراد به هنا الابتعاد.

وإن بقى من أهل السلوك قاصد لم يصل إلى مقصوده فليلعم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته، فإن الشيوخ بمنزلة السفراء(١) للمريدين. قال وفى الخبر: إن الشيخ فى أهله كالنبيّ فى أمَّته، وكذلك من سوء أدبه تصدره للتعليم والهداية، وتصدّيه للأمر(٢) والولاية، ومحبته للاستتباع والرياسة وتربيته(٣) للجاه والحشمة والقبول بين الناس، واستدعاؤه بسرّه أن يُكْرم ويعظّم ويتبرك به وتقبل يده ويسارع فى قضاء حوائجه، وذلك من أضر الأشياء به، وهو نتيجة استحسانه لما هو عليه، وعدم تفقده لعيوبه، واتهام نفسه فى كل حال من أحواله، وذلك مذموم منه.

كما قال أبوعثمان، رضى اللّه تعالى عنه: «لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئا، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها فى جميع الأحوال» وقال أبوعبداللّه السجزى، رضى اللّه تعالى عنه، «من استحسن شيئا من أحواله فى حال ارادته فسدت عليه ارادته إلا أن يرجع إلى ابتدائه ويروض نفسه ثانيا».

وقال أبوعبدالرحمن السلمى، رضى اللّه تعالى عنه: «سمعت جدّى يقول: «آفةُ العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه».

فإن استشعر المريد من نفسه شيئا مما ذكرناه فليبادر إلى قطع مواده واستئصال عروقه من قبل أن يستحكم ذلك فيه ويرسخ فيه، فبدايات الأمور هى التى ينبغى أن تراعى كثيرا.

ومن أنواع سوء أدب المريد المفضى إلى عطبة نزوله عن مقتضيات الحقيقة إلى رخص الشريعة، فقد عدوا هذا من الجنايات العظيمة الموجبة لانحطاط الرتبة والبعد عن محل القربة، ولهذا قالوا: «إذا رأيت المريد أنحط عن رتبة الحقيقة إلى رخص الشريعة فاعلم انه قد نقض عهده مع اللّه وفسخ عقده بينه وبين اللّه».

وقال ابن خفيف، رضى اللّه تعالى عنه: «الإرادة استدامة الكدّ وترك الراحة وليس شىء أضرّ على المريدين من مسامحة النفس فى قبول الرخص والتأويلات».

وقال يوسف بن الحسين، رضى اللّه عنه: «إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجىء منه شىء».

---

(١) السفراء أى الادلاء المرشدين.
(٢) وفى نسخة: للإمرة، وفى أخرى: للإمارة وكلها بمعنى واحد.
(٣) وفى نسخة: وتزيينه.

وقال أبوإسحاق إبراهيم بن شيبان: «من أراد أن يتعطل ويتبطل فليلزم الرخص».

ويعنى بالرخصة هاهنا، ما كان مضادا لحال، المريد من تناول الشهوات واللذات والميل إلى المألوفات والمعتادات، والركون إلى الدعة والراحات، وارتكاب الشبهات والتأويلات، فإن حال المريد يقتضى مباينته، لهذا كله وإن كان بعض ذلك مباحا فى رخص الشرع لعامة لناس.

وكان إبراهيم الخوّاص، رضى اللّه عنه يقول: «ألا إنَّ هذه الشهوات التى أظلمت قلوب المتعبدين بعد صفاء نورها، وفترت أبدانهم بعد اجتهادها، وحجبت قلوبهم بعد قربها، وأطالت آمالهم بعد قصرها، وأنسوا بالمخلوقين بعد الهرب منهم، وتوطئوا الفرش بعد الترك لها فسقتهم الدنيا بكأس سمها، فنظروا إلى ظاهرها بعد باطنها فناموا بعد السهر، وشبعوا بعد الجوع، واكتسوا بعد العرى».

وقال أبوسليمان الدارانى، رضى اللّه تعالى عنه: «أوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السلام إنى انما خلقت الشهوات لضعفاء خلقى فإياك أن تعلَّق قلبك منها بشىء، فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبى من قلبك» وفى أخبار داود عليه السلام: «يا داود تمسك بكلامى، وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب محبتى عنك، اقطع شهوتك إلىَّ، فإنى إنما أبحت الشهوات لضعفاء خلقى، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص(١) حلاوة مناجاتى، فإنى لم أرض الدنيا لحبيبى، ونزهته عنها، يا داود لا تجعل بينى وبينك عالما سكران بحبها يحجبك بسكره عن محبتى، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم، ياداود، تحبب إلى بمعاداة نفسك وامنعها الشهوات، أنظر إليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة».

وقال إبراهيم بن أدهم(٢)، رضى اللّه تعالى عنه: «لن ينال الوجل درجة

---

(١) وفى نسخة: تنقض

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور التيميمى: زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى فى بلخ فتفقه ورحل إلى بغداد وجال فى العراق والشام والحجاز وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين ويشترك مع الغزاة، فى قتال الروم وكان إذا حضر مجلس سفيان الثورى وهو يعظ أوجز سفيان فى كلامه مخافة أن يزل، أخباره كثيرة وفيها اختلاف فى نسبته ومسكنه ومتوفاه والراجع، إنه مات سنة ١٦١هـ ودفن فى حصن من بلاد الروم، كما جاء فى تاريخ ابن عساكر «انظر الاعلام جـ١ والرسالة القشيرية جـ ص٥٣».

الصالحين حتى يجوز ست عقبات:

أولاها: أن يغلق(١) باب العزّ، ويفتح(٢) باب الذلّ.

والثانية: أن يغلق باب النعمة، ويفتح باب الشدة.

والثالثة: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد.

والرابعة: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر.

والخامسة: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر.

والسادسة: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

وقال إبراهيم الخواص، رضى الله تعالى عنه: «كنت فى جبل «لكام» فرأيت رمانا فاشتهيته، فدنوت منه فأخذت واحدة فشققتها، فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان، فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السلام عليك فقال: وعليك السلام ياإبراهيم، فقلت: كيف عرفتني؟ فقال: من عرف الله لم يخف عليه شيء، فقلت: أرى لك حالا مع الله تعالى، فلو سألته أن يحميك ويقيك من هذه الزنابير!! فقال: وأرى لك حالا مع الله تعالى، فلو سألته أن يحميك ويقيك من شهوة الرمان، فإن لذع «شهوة» الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة. ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا».

وقال السرى رضى الله تعالى عنه: «إن نفسى تطالبنى منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة فى دبس(٣) فما أطعمتها»، فلما كان ترك الشهوات والتنعمات من شأن المريد ومن مقتضى حاله لزمه الوفاء به وكان عمله على خلافه نقضا وفسخا، كما تقدم.

قال جعفر بن نصير، رضى الله تعالى عنه: «دفع اليَّ الجنيد درهمًا وقال اشتر به التين الوزيرى، فاشتريته، فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها فى فيه ثم ألقاها، وبكى، وقال: أحمله!! فقلت له فى ذلك، فقال: هتف بى هاتف أما تستحى شهوة تركتها من أجله ثم تعود إليها!

---

(١) يغلق، أى يعرض عنه

(٢) يتعرض.

(٣) الدبس «بكسر الدال» عسل العنب.

وعن شقيق بن إبراهيم(١) قال: «لقيت إبراهيم بن أدهم، رضى الله تعالى عنه، بمكة فى سوق الليل عند مولد رسول الله -(ﷺ) - وهو جالس فى ناحية من الطريق يبكى، فعدلت إليه، وجلست عنده، وقلت له: أى شىء هذا البكاء يا أبا إسحق؟ فقال: خير وعافية، فعاودته مرة، واثنتين، وثلاثة، فلما أكثرت عليه قال: ياشقيق استر علىّ. فقلت: ياأخى قل ما شئت قال اشتهت نفسى «سَكْباجًا(٢)» فمنعتها جهدى، فلما كان البارحة كنت جالسا وقد غلبنى النعاس، فإذا أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج قال فاجتمعت همتى(٣) عليه فقرب منى وقال: ياإبراهيم كل، فقلت: ما آكل شيئا قد تركته لله تعالى، فقال لى: فإذا أطعمك الله تأكل؟ فما كان لى جواب إلا أن بكيت، فقال لى: يرحمك الله، كل. قال إبراهيم فقلت له: قد أمرنا ألا نطرح فى وعائنا شيئا إلا من حيث نعلم. فقال لى: كل، يرحمك الله فإنما أعطيته، وقد قيل لى: يا خضر اذهب بهذا وأطعم نفس إبراهيم بن أدهم. فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحمِّلها من منعها، فاعلم ياإبراهيم أنّى سمعت الملائكة يقولون: من أعطى فلم يأخذ، طلب فلم يعطِ، فقلت: فإن كان كذلك فها أنا بين يديك لا أحلُّ العقد مع الله عز وجل، ثم التفتّ فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئا وقال له: ياخضر، لقمة أنت، فلم يزل يلقمنى حتى شبعت فانتبهت وحلاوته فى فمى.

قال شقيق رضى الله تعالى عنه: فقلت: أرنى كفك، فأخذت كفه بكفى فقبلتها وقلت: يا من يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع، يا من يقدح فى الضمير اليقين، يا من سقى قلوبهم من محبته أترى لشقيق عندك حالا، ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء، فقلت: إلهى بقدر هذه الكفّ، وبقدر صاحبها، وبالجود الذى وجده منك، جُد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك، قال: فقام إبراهيم رضى الله تعالى عنه، ومشى حتى دخل المسجد الحرام».

وقال عتبة الغلام لعبد الواحد بن زيد رضى الله تعالى عنهما: «إن فلانا يصف

---

(١) هو: أبوعلى شقيق بن إبراهيم البلخى من مشايخ خراسان، أخذ الفقه عن أبى حنيفة، قال الذهبى: سافر أبوعلى شقيق البلخى ومعه ثلاثمائة فقير فتوسل إليه المأمون حتى اجتمع به وقال له: أنت شقيق الزاهد؟ فقال: نعم، شقيق، ولست بالزاهد، قال: أوصنى. قال: إن الله قد أجلسك مكان الصديق وإنه ليطلب منك مثل صدقه، ومكان الفاروق ويطلب منك الفرق بين الحق وغيره، ومكان عثمان ويطلب منك مثل حياته وكرمه ومقام على ويطلب منك مثل علمه، وعدله.

(٢) السكباج: مرق يعمل من اللحم والخل.

(٣) وفى نسخة: نهمتى.

من قلبه منزلة ما أعرفها، قال: لأنك تأكل مع خبزك تمرا وهو لا يزيد على الخبر شيئا فقلت: إن كنت تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة؟ قال: نعم وغيرها. فأخذ يبكى، فقال له بعض أصحابه: لا أبكى الله عينيك، أعلى التمر تبكى فقال عبدالواحد: دعه فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك هو إذا ترك شيئا لم يعاود فيه أبدا».

وقال احمد بن أبى الحوارى: «اشتهى أبوسليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه، رغيفا حارا بملح فجئت به إليه، فعض منه عضة، ثم طرح الرغيف، وقال: عجلت إلى شهوتى بعد إطالة جهدى وشقوتى، قد عزمت على التوبة فاقبلنى، قال أحمد: فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى».

وقال أبوبكر بن الجلاء، رضى الله تعالى عنه: «أعرف إنسانا تقول له نفسه: أنا أصبر لك على طى عشرة أيام، وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها، فيقول لها: لا أريد أن أطوى عشرة أيام ولكن اتركى هذه الشهوة».

وقال أبوسليمان، رضى الله تعالى عنه: «ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها».

وقال أبوحامد الغزالى، رضى الله تعالى عنه: «وقد اشتد خوف السلف، رضى الله تعالى عنهم، من تناول لذائذ الأطعمة وتمرين النفس عليها، ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة، ورأوا أن منع الله منه غاية السعادة، حتى روى أن وهب بن منبّه، رضى الله تعالى عنه، قال: التقى ملكان فى السماء الرابعة، فقال أحدهما للآخر: من أين؟ فقال: امرت بسوق حُوت من البحر اشتهاه فلان اليهودى.

وقال الآخر: أمرت بإهراق زيت اشتهاه(١) فلان العابد وقال: وهذا تنبيه على أن تيسير الشهوات ليس من علامات الخير.

قال الشيخ أبوحامد الغزالى، رضى الله تعالى عنه: «والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت له أسباب ذلك، ويكون ذلك من الله ابتلاء واختبارا، فينبغى أن يصبر ويستمر(٢)، فإنه إن عوَّد نفسه كسر العزم ألِفتْ ذلك وفسدت، وإذا اتفق منه كسر عزم فنيبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه، كما ذكرناه فى معاقبة النفس من كتاب «المراقبة» فإذا لم

(١) وفى نسخة: اشتراه.
(٢) وفى نسخة: ويحتسب.

يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسَّنت عنده تناول الشهوة، وتفسد الريغة عليه بالكلية».

هذا كلام أبى حامد، وهو حسن، ومعناه صحيح مجرب، فلتعتمد عليه أيها المريد.

وقد يعجل الله تعالى لبعض هؤلاء العقوبة رحمة له، ومنة عليه.

قال أبوتراب النخشبى(١)، رضى الله تعالى عنه: «ما تمنَّت نفسى شهوة من الشهوات إلا مرة واحدة، تمنت خبزا وبيضا وأنا فى سفر، فعدلتُ إلى قرية، فقام واحد وتعلق بى وقال: هذا كان مع اللصوص، فضربونى سبعين درّة، ثم عرفنى رجل منهم، فقال: هذا أبوتراب النخشبى، فاعتذروا إلىَّ، فحملنى رجل منهم إلى منزله، وقدم لى خبزا وبيضا، فقلت فى نفسى: كُلى، بعد سبعين درّة».

وقال بعضهم: اشتهى أبوالخير العسقلانى، رضى الله تعالى عنه، السمك سنين ثم ظهر له ذلك من موضع حلال، فلما مدّ يده إليه ليأكل دخلت شوكة من عظامه أصبعه، فذهبت فى ذلك يده، فقال: «يارب، هذا لمن مدَّ يده بشهوة إلى حلال فكيف بمن مدٍّ يده بشهوة إلى حرام؟».

وقال إبراهيم الخواص، رضى الله تعالى عنه: «كنت جائعا فى الطريق فوافيت «الرىّ» فخطر ببالى أن لى بها معارف، فإذا دخلنها أضافونى وأطعمونى، فلما دخلت البلد رأيت منكرا احتجت أن آمر فيه بالمعروف، فأخذونى وضربونى، فقلت فى نفسى: من أين أصابنى هذا الضرب على جوعى!! فنوديت فى سرى: إنما أصابك ذلك، لأنك سكنت إلى معارفك بقلبك، وقلت: إنهم يطعمونى إذا دخلت البلد».

وحكى عن إبراهيم بن شيبان، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «كنت بحلب، واشتهيت شبعة من الخبز والعدس، فاتفق ذلك فأكلت حتى شبعت، فرأيت على باب المسجد قوارير معلقة شبه أيموذجات، فتوهمتها خلاّ، فقال لى قائل: أما تنظر إليها إنها خمر!! فقلت: لزمنى فرض، فدخلت الحانوت فلم أزل أصبُّ دنا دنا(٢) حتى أتيت على الجميع، فأخذونى وضربونى مائة خشبة وطرحونى فى السجن أربعة أشهر حتى دخل أستاذى أبوعبدالله المغربى البلدة فسمع بحالى

---

(١) هو: أبوتراب عسكر بن الحصين النخشبى، مات سنة ٢٤٥هـ. تفقه على مذهب الإمام الشافعى، وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل وصحب حاتما الأصم.

(٢) الدن «بفتح الدال»: وعاء كالبرميل كبير.

فشفع لى، فلما وقع بصره علىّ، قال: ما شأنك؟ قلت: شبعة خبز وعدس، وضربت مائة خشبة، وسجنت أربعة أشهر، فقال لى: نجوت مجانا، أى: وردت عقوبة هذه الأكلة على ظاهرك ولم تقدح فيما كنت فيه من سرائرك، فكان ذلك رفقا من الله بك».

قال الإمام أبوالقاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه: «وما أصدق ما قال، فإنَّ من أدب فى دنياه فيما يتعاطاه من متابعة هواه، فقد خفف عنه فى عقباه، بل طُهِّر بالتأدب جوهره ومعناه».

وحكاية «خير النساج» رضى الله تعالى عنه، المشهورة من معنى ما ذكرناه، فانظرها، ففيها عبرة للمعتبرين.

قال الحافظ أبونعيم، رضى الله تعالى عنه: «حدثنى جعفر بن محمد بن نصير فى كتابه قال: سألت خيرا النسَّاج: أكان النسج حرفتك؟ قال: لا، قلت: فمن أين سُمِّيت به؟ قال: عاهدت الله، وعقدت ألا آكل الرطب أبدا، فغلبتنى نفسى يوما فأخذت نصف رطل، فلما أكلت واحدة إذا برجل نظر إلى وقال: ياخير، أين هربت منى؟ وكان له غلام اسمه «خير» فوقع علىَّ شبهُه وصورته، فخنقنى، واجتمع الناسُ فقالوا: والله هذا غلامك خير، فبقيت متحيرا، وعلمت بماذا أخذت، وعرفت جنايتى، فحملنى إلى حانوتة الذى كان ينسج فيه غلمانه، فقالوا: يا عبدالسُّوء، أتهرب من مولاك؟! ادخل واعمل عملك الذى كنت تعمل فيه، وأمرنى بعمل «الكرباس»(١)، فدلّيت رجلى على أن أعمل، فأخذت بيدى آلتَه، فكأنى كنت أعمل من سنين، فبقيت معه شهرا أنسج له فقمت ليلة فنسجت، وقمت إلى صلاة الغداة، فسجدت، وقلت فى سجودى: إلهى لا أعود إلى ما فعلت، فأصبحتُ فإذا الشبهُ قد ذهب عنى وعدت إلى صورتى التى كنت عليها فأطلقت، فثبت علىَّ هذا الاسم، فكان سببَ النسج اتباعى شهوة عاهدت الله تعالى ألا آكلها، فعاقبنى بما سمعت».

وفى بعض الأخبار عن الله تعالى «إنَّ أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتى أن أحرِمه لذيذ مناجاتى». وستأتى إن شاء الله تعالى كيفية مجاهدة النفس عند قوله «ولولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين» ولهذا المعنى كروهوا التزويج من غير ضرورة محققة، لأنه إنما يقصدُ بذلك قضاء شهوته

(١) جاء فى المصباح المنير: الكرباس: الثوب الخشن، وهو فارسى معرب. وفى القاموس المحيط: الكرباس - بكسر الكاف - ثوب من القطن الأبيض.

وبلوغه نهمته، وذلك فى الضرر به(١) بمنزلة السمّ القاتل.

وقد قالوا: «من وافق شهوته عدم صفوته».

وقال بعضهم: «من همَّ بشئ مما أباحه العلم تلذذًا عوقب بتضييع العمر، وقسوة القلب، وتعب الهِّم بالدنيا».

وقال أبوسليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه: «ثلاث من طلبهنَّ فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشا، أو تزوج امرأة، أو كتب الحديث».

وقال: ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته».

وكان إبراهيم بن أدهم، رضى الله تعالى عنه، يقول: «من تعوَّد أفخاذ النساء لا يفلح».

وقيل لبعضهم: «لِمَ لا تتزوَّج؟! فقال: المرأة لا تصلح إلا للرجال، وأنا ما بلغت مبلغ الرجال».

ثم فيه من مكابدة أمر غيره، ومن مراعاة توفية حقوقه، ومعاناة أخلاقه، واتباع مرضاته ما يشوش على المريد حاله، ويكدر عليه وقته، وقد كان له فى معاناة أمر نفسه أعظم شاغل عن أن تضاف إلى نفسه نفس أخرى، مع ما يتسلط على باطنه من خوف الفقر، ومحبة الجمع والمنع، وما يرتكبه بسبب ذلك من التأويلات والرُّخص، وذلك كله مضاد لحال المريد.

وقد قالوا: «إذا تزوج الصوفى فقد ركب السفينة، فإذا ولد له فقد غرقت السفينة».

وكان بشر الحافى، رضى الله تعالى عنه، يقول: «لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون «جلوزا»(٢) على الجسر».

وفى الخبر فى «فتن آخر الزمان» قال النبى عليه الصلاة والسلام: «وفى ذلك الوقت حلّت العُزبة(٣)، فقيل: وكيف؟ قال: يعيرونه بالفقر فيتكلف ما لا يطيق فيورده موارده الهلكة».

وفى الخبر عن رسول -(ﷺ) -: «خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ. وقيل: يارسول الله وما خفيف الحاذ؟ قال: الذى لا أهل له ولا ولد».

---

(١) وفى نسخة: وذلك فى غير الضرورة.

(٢) قال فى القاموس: الجلواذ - بالكسر - الشرطى.

(٣) العزبة كالعزلة: العزوبة، أى عدم الزواج.

وقال سهل بن عبد الله رضى الله تعالى عنه: «إياك والاستمتاع بالنساء، والميل إليهن!! فإن النساء مبعدات(١) من الحكمة قريبات من الشيطان وهُنَّ مصايده وحظه من بنى آدم، فمن عطف إليهم بكليته فقد عطف على حظ الشيطان، ومن حاد عنهن يئس منه، وما مال الشيطان إلى أحد كميله إلى من استرقَّ بالنساء، وأن الشرَّ معهن حيث كنَّ، فإذا رأيتم فى وقتكم من قدْ رَكَن إليهنَّ، فايأسوا منه، قيل له: فحديث النبى -(ﷺ) -: «حُبب إلىّ من دنياكم ثلاث» فذكر النساء؟! فقال: النبى -(ﷺ) - معصوم، وقد بلغكم ما كان فيه معهن هى عدوَّة الرجل ظاهرا وباطنا، إن أظهرت له المحبة أهلكته، وإن أضمرتها له أغوته، وأن الله عز وجل جعلهن فتنة، فنعوذ بالله من فتنتهن» انتهى كلام سهل رضى الله عنه، وقال حذيفة المرعشى، رضى الله تعالى عنه: «كان ينبغى للرجل لو خير بين أن يضرب عنقه وبين أن يتزوج امرأة فى الفتنة لاختار ضرب العنق على تزويج امرأة فى الفتنة» وإنما قال ذلك، لما يؤول إليه أمر المتزوج من اكتساب الحرام، وارتكاب الآثام فى زمن الفتنة، وضربُ العنق أحسن حالا وأحمد عاقبة من التعرض لارتكاب شىء من معاصى الله عز وجل، فإن قارف شيئا من ذلك المريد فهو داءُ عضال فى حقه فقد قالوا: «زلة بعد الارادة أقبح من سبعين زلة قبل الارادة» وفى المثل «من عُرف بالخيانة لا يعتمد عليه فى الأمانة».

وقال بعض الأنبياء فى مناجاته لربه «لو عفوت عن فلان ذنوبَه بَعْد عظيم نعمتك، فأوحى الله إليه: ليس الذنب فى القرب كالذنب فى البعد».

وسئل بعضهم: «هل يجد العاصى حلاوة الطاعة؟ فقال: لا، ولا من هَمَّ بالمعصية».

ومن عظيم سوء أدب المريد أن يميل إلى أهل الدنيا، وأن يتقرب منهم، أو أن يصاحبهم.

وقال الإمام أبوالقاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه: «ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا، فإنَّ صحبتهم سمٌ مجرَّب، لأنهم ينتفعون به، وهو ينتقص بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٢). وقد تقدم من كلام المؤلف، رحمه الله «لا تصحب من لا ينهضك

(١) وفى نسخة: مبعدات «بفتح العين».
(٢) سورة الكهف ٢٨.

حالة»، ومن ذلك أيضا معاشرته للأحداث والشبان، وقبول إرفاق(١) النسوان، فإن تعرض لاستجلاب ذلك منهن، فهو أشدّ، قال يوسف بن الحسين الرازى رضى اللّه تعالى عنه: «رأيت آفات الصوفية فى صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد، ورفق النسوان».

قال الإمام أبوالقاسم القشيرى: «ومن أصعب الآفات فى هذه الطريق: صحبة الأحداث، ومن ابتلاه اللّه بشىء من ذلك فبإجماع من الشيوخ أن ذلك عبدٌ أهانه اللّه عز وجل، وخذله، بل عن نفسه شغله، ولو بألف ألف كرامة أهّله»(٢).. ثم قال بعد كلام كثير: «فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم، فإن اليسير منه فتحُ باب الخذلان وبدءُ حال الهجران، ونعوذ باللّه من قضاء السوء».

وآدابُ المريد كثيرة، وإنما نبهنا ها هنا على بعض ما يعظم فيه الخطر والضرر مما حذر منه أئمتنا، رضى اللّه عنهم، وبالغوا فى التوصية به والنهى عنه، وجميع ذلك محتمل لأن يكون مراد المؤلف، رحمه اللّه تعالى فى قوله: «من جهل المريد أن يسىء الأدب» فرأينا أن لا يخلو هذا الموضع من هذا التنبيه، لأن ذلك يقع للمريدين(٣) كثيرا، واللّه ولىُّ التوفيق.

إذَا رَأَيْتَ عَبْداً أَقَامَهُ اللّه تَعَالَى بِوجُود الأَوراد، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُول الإمْدَاد. فَلاَ تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلاه لأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيه سِيمَاءَ العَارِفِينَ، ولا بَهْجَةَ المُحِبِّينَ.. فَلَولاَ وَاردٌ مَا كَانَ وِرْدٌ!

عباد اللّه المخصوصون ينقسمون إلى قسمين: مقربين، وأبرار.

فالمقرّبون: هم الذين أخذوا عن حظوظهم وإرادتهم واستعملوا فى القيام بحقوق ربهم عبودية له وطلبا لمرضاته. وهؤلاء هم العارفون والمحبّون.

والأبرار: هم الذين بقوا مع حظوظهم وإرداتهم، وأقيموا فى الأعمال والطاعات ليجزوا عليها رفيع الدرجات فى الجنات وهؤلاء هم الزاهدون والعابدون.

---

(١) أعطيات ومنح النساء: رفقه رفقا: نفعه وأعانه، وأرفقه: رفق به ونفعه.
(٢) انظر ص٧٤٤ ج٢ من الرسالة القشيرية.
(٣) وفى نسخة: لأن ذلك نفع للمريد كثير.

وكل واحد منهم ممدود(١) فى مقامه الذى هو فيه بمدد إلهى اقتضى منهم القيام بحقوق مقاماتهم على اختلافها، فإذا رأيت عبدا لله أقامه الله تعالى فى أعمال البر الظاهرة ومواصلة الأوراد المتواترة، وأمدّه فى ذلك بالمعونة والتيسير فذلك من اختيار الله تعالى له، فلا تحتقرن ذلك لأجل أنك لم تر عليه سيماء العارفين منْ ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والإرادات بين يدى المريد المختار، ولا بهجة المحبين من الشغف بمرضاة محبوبهم، والانبساط والإذلال بين يدى حبيبهم، فلولا الوارد الإلهى الذى أورده الله تعالى عليه ما استقام على عمله ووِرده، فهو لم يخرج عن دائرة عنايته وحفظه ورعايته، فلا تستحقر خطير ما منحه، وتستقل كثير ما ربحه، وهل ذلك إلا من وجود جهلك ونقصان عقلك. وسيأتى من كلام المؤلف، رحمه الله تعالى: «لا يستحقرن الوارد إلا جهول».

قَوْمٌ أقَامهم الحقُّ لخدمته، وقومٌ اختَصَّهم بمحبَّته.. ﴿كُلاًّ نُمدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾(٢).

الحق - تعالى - له الاختيار التام والمشيئة النافذة «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»: فطائفة أقامهم الحقّ تعالى لخدمته حتى صلحوا لجنته، وهم الزاهدون العابدون، كما تقدم، وطائفة اختصهم بمحبته حتى صلحوا لقُربه والدخول إلى حضرته، وهم العارفون والعلماء قال يحيى بن معاذ، رضى الله تعالى عنه: «الزاهد صَيْدُ الحق من الدنيا، والعارف صيد الحق من الجنة» فإذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الإقامة والتخصيص منعه ذلك مما ذكرناه من الاستحقار، وسلم الأمر لمن بيده التدبير والاختيار.

قال أبويزيد رضى الله تعالى عنه: «اطلّع الله تعالى على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة» وذكر الحافظ أبونعيم فى كتابه «حلية الأولياء» عن سهل بن عبدالله رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «إن الله تعالى يطلع على أهل قرية أو بلدة فيريد أن يقسم لهم من نفسه قسما فلا يجد فى قلوب العباد، ولا فى قلوب الزهاد موضعا لتلك القسمة من نفسه، فيمنّ عليهم أن يشغلهم بالتعبد عن نفسه».

---

(١) وفى نسخة: ممد.

(٢) «سورة الإسراء آية ٢٠»

وقال أبوالعباس الدينورى، رضى الله عنه: «إنّ لله عبادا لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته، وله عباد لم يستصلحهم لخدمته، فأهلهم لمعرفته» والإشارة بالآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله، بينة فى هذا المعنى، وقال رضى الله عنه:

قَلَّمَا تَكُونُ الوَارِدَاتُ الإلهيَّةُ إلا بَغْتَةً.. صيانَةً عن أن يَدَّعيَها العبادُ بوجود الاستعداد!

الواردات الإلهية هدايا من الله تعالى، وتحف، وكرامات يكرم الله بها عباده، فلا تكون فى الغالب إلا بغتة، أى: فجأة، لئلا يدعوها، ويروا أنفسهم أهلا لها بوجود استعدادهم وتهيئهم.

وتحف الله تعالى وهداياه مقدسة عن أن تعلل بأمر، ومنزهة عن أن تقابل بأعمال بر، بل هى محض كرم وفضل من الكريم المتفضل.

مَنْ رأيتَهُ مُجيباً عَنْ كُلِّ مَا سُئلَ، وَذَاكراً كَلَّ مَا عَلمَ، وَمُعَبِّراً عَنْ كُلِّ ما شَهدَ، فاسْتَدلَّ بذلكَ على وجُود جَهْله!

الإجابة عن كل سؤال، والتعبير بكل مشهود، والذكر لكل معلوم أمارات على وجود جهل من اتصف بها، كما قال: أما الإجابة عن كل سؤال فلاقتضائها منه الإحاطة بجميع المعلومات، وذلك محال فى حقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١) فكيف يتصور منه - مع هذا - الإجابة عن كل سؤال لولا وجود جهله، وأيضا فإنه يجب عليه أن يراعى حال السائل من وجود الأهلية فيه لما سأل عنه، فيمتنع عن إجابة من لا أهلية فيه لذلك، ويفعل ما فعله رسول الله -(ﷺ) - فيما روى عنه مع السائل الذى جاء يسأل أن يعلمه من غرائب العلم فإنه استفصله، وقال له: ما فعلت فى رأس العلم، وفى كذا، وفى كذا..؟

فأجابه السائل، فقال له النبى -(ﷺ) -: اذهب، فأحكم ما هنالك ثم تعالى حتى أعلمك من غرائب العلم.

---

(١) آية ٨٥ من سورة الإسراء.

وكما أخذ الله تعالى على العلماء أن لا يكتموا العلم عن أهله، كذلك أخذ عليهم أن يصونوه عن غير أهله، فمن لا يَسلُك هذا المسلك فهو جاهل.

وأما التعبير لكل مشهود، فلأن فيه نوعا من إفشاء السرّ الذى يجب كتمه. وقد قالوا: «فى قلوب الأحرار قبور الأسرار» والسر أمانة الله تعالى عند العبد، فإفشاؤه(١) بالتعبير عنه خيانة، والله تعالى لا يحب الخائنين، وأيضا، فإن الأمور المشهودة لا يستعمل فيها إلا الإشارة والإيماء، واستعمال العبارات فيها افصاح بها واشهار لها، وفى ذلك ابتذالها وإذاعتها، ثم إن العبارة عنها لا تزيدها إلا غموضا وانغلاقا، لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراك حقائقها بالعبارات النطقية فيؤدى ذلك إلى الإنكار والقدح فى علوم السادة الأخيار، قال أبوعلى الروذبارى(٢)، رضى الله تعالى عنه، «علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفى» وأما الذكر لكل معلوم فلعدم تفريقه بين المعلومات، وقد يكون له علم يختص به، فإذا ذكره لغيره استغربه وإن كان ينتفع به هو، فعدم تفريقه بين المعلومات فى ذكرها من وجود جهله.

إنّمَا جَعَلَ الدَّارَ الآخرةَ مَحَلاً لَجزَاءِ عبَاده المُؤمنين، لأنَّ هَذه الدَّارَ لا تَسَعُ مَا يُريدُ أنْ يُعْطيَهُم، ولأنَّه أَجَلَّ أقدارَهُم عَنْ أنْ يُجازيَهُمْ فى دَارٍ لا بَقَاءَ لَهَا.

إنما جعل ثواب المؤمنين فى الدار الآخرة فيما ظهر لنا لوجهين:

أحدهما: أن الدنيا لا تسع ما يريد أن يعطيهم من أنواع النعيم حسا ومعنى. أما الحسّ، فلأن الدنيا متدانية المسافات، ضيقة الأقطار، ويعطى الله تعالى لآحاد المؤمنين فى الدار الآخرة فى ملك واحد منهم - كما وَرَد فى الخبر - مسيرة خمسمائة عام، فما ظنك بخواصهم، فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم وأما المعنى، فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص، والخساسة والحقارة

---

(١) وفى نسخة فإشهاره.

(٢) هو: أبوعلى أحمد بن محمد الروذبارى، بغدادى أقام بمصر ومات بها سنة ٣٢٢هـ ومن كلامه: «المريد من لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له، والمراد لا يريد من الكونين شيئا غيره»، و«سئل رضى الله عنه عن الذى يسمع الملاهى ويقول: هى لى حلال لأنى قد وصلت إلى رجة لا توثرفى اختلاف الأحوال. فقال: نعم قد وصل، ولكن إلى سقر»، «وسئل عن التصوف، فقال: هذا مذهب كله جد لا تخلطوه بشىء من الهزل». وقال: من علامة الاغترار أن تسىء فيحسن الله إليك فتترك الإنابة والتوبة توهما أنك تسامح فى الهفوات وترى أن ذلك من بسط الحق لك.

والأشياء التى ينتعم بها أهل الجنة أمور شريفة رفيعة، كما جاء فى الأخبار: إن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، وإن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس، وما أشبه هذا، ويكفى فى ذلك قوله عز من قائل: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(١) وقول النبى -(ﷺ) - فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

والثانى: أن الله تعالى «أجَلَّ أقدار عباده المؤمنين، فلم يجعل لهم الجزاء على طاعتهم فى دار فانية، منقضية منصرمة، لأنَّ كل ما يفنى وإن طالبت مدته كلا شيء، بل أعطاهم الخلود فى النعيم، والبقاء الدائم فى الملك المقيم، وناهيك به شرفا بتسميته إياهم باسمه الكريم وهو «الحى الذى لا يموت»، جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾(٢) إنه يرسل الله تعالى الملك إلى وليه، ويقول له: استأذن على عبدى، فإن أذن لك فادخل، وإلا فارجع فيستأذن عليه من سبعين حجابا، ثم يدخل عليه ومعه كتاب من الله عز وجل عنوانه: «من الحى الذى لا يموت إلى الحى الذى لا يموت» فإذا فتح الكتاب وجد مكتوبا فيه: عبدى، اشتقت إليك فزرنى، فيقول: هل جئت بالبراق؟ فيقول: نعم، فيركب البراق، فيغلب الشوق على قلبه، فيحمله شوقه، ويبقى البراق إلى أن يصل إلى بساط اللقاء.

«مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً، فَهُو دَلِيلٌ عَلَى وجُودِ القَبُولِ آجِلاً».

ثمرة العمل: وجدان الحلاوة فيه والنعيم به، ويتصور ذلك فى أكثر الأعمال بالمواظبة عليه على حال تكره واستثقال له، هذا هو غالب الأمر، قال بعض العارفين: «ليس شيء من البر إلا ودونه عقبة يحتاج إلى الصبر فيها، فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة، وإنما هى مجاهدة النفس، ثم مخالفة الهوى، ثم مكابدة فى ترك الدنيا، ثم اللذة والتنعم».

وقال عتبة الغلام، رضى الله عنه: «كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة».

وقال ثابت البنانى، رضى الله تعالى عنه: «كابدت القرآن عشرين سنة،

(١) آية ١٧ من سورة السجدة.
(٢) سورة الإنسان الآية ٢٠

وتنعمت به عشرين سنة».

وقال بعض العلماء: «كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله -(ﷺ) - يتلوه على أصحابه رضى الله تعالى عنهم ثم رفُعت إلى مقام فوقه وكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله -(ﷺ) - ثم تصدق الله تعالى بمنزلة أخرى فأنا الآن كأنى أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه».

وما ذكرناه، من: الحلاوة والنعيم، إنما هو ثمرة الأعمال الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى.

قال أبوتراب، رضى الله عنه: «إذا صدق العبد فى العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل»، والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله تعالى. ورد فى الخبر: «لا يقبل الله من مستمع ولا مراء» دليل خطابه أن العمل السالم من الرياء والسمعة مقبول من قوله عز من قائل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(١) وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو من ثوابه المعجل، كما يقول المؤلف بعد هذا: «وذلك علامة على وجود الجزاء عليه فى الدار الآخرة حسبما يأتى فى قوله «وجدان ثمرات الطاعات عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا».

وقال أبوسليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه: «كل عمل ليس له ثواب فى الدنيا ليس له جزاء فى الآخرة» فحصل من هذا أن وجدان الحلاوة علامة على وجود القبول المقتضى لوجود الرضا والجزاء.، ولذلك قال الحسن رضى الله تعالى عنه: «تفقدون الحلاوة فى ثلاث، فإن وجدتموها فأبشروا وأمضوا لقصدكم، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكر وعند السجود» وزاد غيره «وعند الصدقة، والأسحار».

وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(٢) قال: جنة معجلة، وهى حلاوة الطاعة ولذاذة المناجاة والاستئناس بفنون المكاشفات، وجنة مؤجلة، هى فنون المثوبات، وعلو الدرجات.

فقلت: وهذه الحلاوة المذكورة لا تكون إلا فى مقام المعرفة الخاصة، وهى التى

---

(١) آية ٢٧ من سورة المائدة

(٢) آية ٤٦ من سورة الرحمن.

تنافيها المعصية.

فقلت: وهذ الحلاوة المذكورة لا تكون إلا فى مقام المعرفة الخاصة، وهى التى تنافيها المعصية.

قيل لبعضهم: هل تعرف الله؟ فغضب على السائل، وقال: أترانى أعبد من لا أعرفه؟!.

فقال له: أو تعصى من تعرفه!!

وقيل لبعضهم: بم تعرف أنك عرفته؟

فقال: لم أقصد مخالفته إلا وَرَد على قلبى استحياء منه.

وقال إسماعيل بن نجيد(١)، رضى الله تعالى عنه: التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر، فإن(٢) العصيان فى حال العرفان بعيد» فإن وقعت منه زلة أو هفوة بحكم - وكان أمر الله قدرا مقدورا - وجد، لا محالة، لذلك مرارا وألما فى قلبه. فوجدان هذه المرارة والألم فى المعصية علامةٌ على صحة ما وجد من الحلاوة والنعيم فى الطاعة، فهذه هى الحلاوة التى هى الميزان للأعمال المقبولة وغير المقبولة كما ذكرناه.

وأما الحلاوة التى يجدها من دون أهل هذا المقام فى بعض العبادات فمدخولة معلولة إلا ما فيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة.

والحلاوة على الاطلاق إذا جدها المعامل فى العمل لا ينبغى له أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها، وكذلك أيضا لا ينبغى له أن يقصد بعمله إلى نيلها لما له فيها اللذة والحظ، فإن ذلك مما يقدح فى إخلاص عبادته وصدق إرادته، وليكن اعتناؤه بحصولها لتكون ميزانا لأعماله، ومحكا لأحواله فقط.

قال الواسطى، رضى الله تعالى عنه: «استحلاء الطاعات سموم قاتلة». قال فى «لطائف المنن»: وصدق الواسطى: فأقل ما فى ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائما فيها متطلبا لحلاوتها فيفوتك صدق الاخلاص فى نهوضك لها، وتحبُّ دوامها، لا قياما بالوفاء بها ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة، فتكون

---

(١) هو أبوعمرو إسماعيل بن نجيد. صحب أبا عثمان الحيرى، ولقى الجنيد، وأخذ الحديث عن احمد بن خليل وأسند الحديث ورواه وكان ثقة. توفى بمكة سنة ٣٢٦هـ «انظر ص١٧١ جـ من الرسالة القشيرية» ومن كلامه: «كل من لم تهذبك رؤيته فهو غير مهذب» إذا أراد الله بعبد خيرا رزقه صحبة الصالحين والعمل بما يشيرون به عليه». «التصوف الصبر تحت امتثال الأمر والنهى». «من الجهل اظهار العبد محاسنه لمن لا يملك نفعه ولا ضره». «آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه».

(٢) وفى نسخة: فإذن.

فى الظاهر قائما لله، وفى الباطن إنما قمت لحظ نفسك، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاء تعجلته فى الدنيا فتأتى يوم القيامة ولاجزاء لك».

إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَه، فَانْظُرْ فى ماذا يُقيمُكَ.

هذا ميزان صحيح، وقد روى عن رسول الله -(ﷺ) - أنه قال: «من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه فإن الله عز وجل ينزل العبد عنده حيث أنزله العبدُ من نفسه»(١).

وهذا الإنزال المذكور المنسوب إلى العبد هو معنى الإقامة المذكورة، إذْ العبد لا فعل له على التحقيق.

قال الفضيل بن عياض، رضى الله تعالى عنه: «إنما يطيع العبدُ ربَّه على قدر منزلته منه».

قال الشيخ أبوطالب المكى، رضى الله تعالى عنه: «فإذا كان العبد لنظر مولاه مكرما، ولحرماته معظما، وإلى محبوبه ومرضاته مسارعا كان الله عز وجل له فى الآخرة، لوجهه مكرما، ولشأنه معظما، وإلى مسرته من النعيم المقيم مسارعا، وإذا كان العبد بحق مولاه متهاونا، وبأمره مستخفا ولشعائره مستصغرا كان الله عز وجل له مهينا وبشأنه متهاونا، وإلى ما يكره من العذاب الأليم له مسارعا، والعياذ بالله من ذلك».

وقال وهب بن منبه، رضى الله تعالى عنه: «قرأت فى بعض الكتاب: ياابن آدم أطعنى فيما أمرتك، ولا تعلمنى بما يصلحك إنى عالم بخلقى إنما أكرم من أكرمنى وأهِن من هان عليه أمرى، لست بناظر فى حق عبدى حتى ينظر عبدى فى حقى».

«مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ، والغنَى به عَنْهَا، فَاعْلَمْ أنَّه قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً».

المطلوب من العبد شيئان: إقامة الأمر فى الظاهر، والتعلق بالله فى الباطن وهو الاستغناء به عن غيره، فإذا رزق الله تعالى العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأوصله إلى غاية الأمل فى الدنيا والآخرة، سبحانه جل

---

(١) روى الدراقطنى عن أنس، وروى أبونعيم فى الحلية عن أبى هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: «من أراد أن يعلم ما له عند الله فينظر ما لله عنده».

وعلا، وقال رضى الله تعالى عنه:

«خَيْرُ مَا تَطْلُبُه منْهُ مَا هُوَ طَالبهُ منْكَ».

إن كان لابدّ من الطلب منه فاطلب ما هو طالبه منك، من الاستقامة على سبيل العبودية له فذلك خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك، لأنك حينئذ تكون به وله، ويسعفك بمطلوبك عاجلا من غير تأخير.

وأما إن طلبت منه حظ نفسك ونيل مرادك فقد يحصل فى ذلك تأخير ومنع، مع ما يفوتك حينئذ من حسن الأدب فى الطلب، يحكى عن أبى الحسين الديلمى، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «وصف لى بـ«أنطاكية» إنسان أسود يتكلم على القلوب، قال: فقصدته، فلما رأيته رأيت معه شيئا من المباحات يريد أن يبيعه، فساومته، وقلت له: بكم تبيع هذا؟ فنظر إلىّ ثم قال: اقعد، فإنك جائع منذ يومين، حتى إذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيئا.

قال: فمضيت إلى غيره، وتغافلت كأنى لم أسمع ما قال، وساومت غيره ما كان بين يديه، ثم رجعت إليه وقلت له: بكم تبيع هذا؟ فنظر إلىّ وقال: اقعد، فإنك جائع منذ يومين حتى إذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيئا.

قال: فوقع فى قلبى منه هيبة، فلما باع ذلك أعطانى شيئا ومضى، قال: فمضيت خلفه لعلى أستفيد منه شيئا.

قال: فالتفت إلىّ وقال: إذا عرضتْ لك حاجة فأنزلها بالله، إلا أن يكون لك فيها حظ فتحجب بها عن الله تعالى».

ومن دعاء أبى القاسم الجنيد، رضى الله تعالى عنه: «اللّهم وكل سؤال سألتك فعن أمرك لى بالسؤال، فاجعل سؤالى إليك سؤال محابِّك، ولا تجعلنى ممن يتعمدً بسؤاله مواضع الحظوظ، بل يسأل القيام بواجب حقك».

ومن دعائه أيضا: «اللّهم إنى أسألك منك ما هو لك، وأستعيذك من كل أمر يسخطك، اللّهم ولا تشغلنى بشغل من شغله عنك ما أراده منك، إلا أن يكون لك، اللّهم اجعلنى ممن يذكرك ذكر من لا يريد بذكره منك إلا ما هو لك، اللّهم اجعل غاية قصدى إليك ما هو لك، ولا تجعل قصدى إليك ما أطلبه منك».

«الحُزْنُ عَلَى فِقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ(١) إليها مِنْ عَلامَات الاغتِرَار».

هذا هو الحزن الكاذب، الذى يكون معه البكاء الكاذب(٢)، كما قالوا: كم من عين جارية وقلب قاس وهو من مكر الله تعالى الخفىّ، حيث منعه ما ينفعه، وأعطاه ما يغترُّ به من الحزن والبكاء.

سمعتْ رابعة العدوية، رضى الله تعالى عنها، رجلا يقول: واحزناه!!

قالت: «بل قل واقلّة حزناه، لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس».

وأما الحزن الصادق فبخلاف هذا، وهو مقام من مقامات السالكين، وهو يبعث على الانكماش فى الأعمال والنهوض إلى الطاعات على كل حال، كما قال الشيخ أبوعلى الدقاق، رضى الله تعالى عنه: «صاحب الحزن يقطع من طريق الله عز وجل فى شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه فى سنين» وفى الخبر: «إن الله يحب كل قلب حزين» وفى التوراة: «إن الله إذا أحبّ عبدا نصب فى قلبه نائحة، وإذا أبغض عبدا نصب فى قلب مزمارا».

وكان رسول الله -(ﷺ) - متواصل الأحزان، دائم الفكر، وقيل: «الحزن إذا فقد من القلب خرب، ومن لم يذق طعم الحزن لم يذق لذة العبادة»، فإذن الحزن الذى يجده العبد من نفسه إن لم يبعثه على النهوض والانكماش والاجتهاد فذلك من علامات الاغترار، وليس بمقام السالكين الأبرار.

«مَا العَارِفُ مَنْ إذَا أشَارَ وَجَدَ الحَقَّ أقْرَبَ إليه مِنْ إشارَته. بَل العَارِفُ مَنْ لا إشَارَةَ لَه، لِفَنَائِه فى وجُوده، وانْطِوَائه فى شُهُوده».

الإشارة ألف من العبارة، وهى كناية وتلويح، وإيماء لا تصريح، وهى التى يستعملها أهل هذه الطريقة فيما بينهم عند ذكرهم لأسرار التوحيد، كما تقدم عند قوله: «من رأيته مجيبا عن كل ما سُئل، ومعبرا عن كل شهد» فالمشير إلى

(١) عدم النهوض إلى الطاعة أى عدم القيام والاجتهاد فى طلبها.

(٢) وفى نسخة الذى يكون معه بكاء الكاذبين، وفى نسخة عند البكاء الكاذب.

الله تعالى الملاحظ لإشارته، وإن وجد الله تعالى أقرب إليه من اشارته غير عارف على التحقيق، لأنه بوصف التفرقة بشهوده للأغيار بل العارف الفانى فى وجوده المنطوى فى شهوده، الذى غاب عن الإشارة والمشير والمشار به.

سئل الشيخ أبوعلى الدقاق، رضى الله تعالى عنه، عن المريد، فقال: «حقيقة المريد أن يشير إلى الله تعالى فيجد الله مع نفس الإشارة، قيل له: فالذى يستوعب حاله؟ قال: هو الذى يجد الله بإسقاط الإشارة».

وسئل أبوعلى الروذبارى، رضى الله عنه، عن الإشارة، فقال: «الإشارة: الإبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه لا غير».

وفى الحقيقة: إن الإشارة تصحبها العلل، والعلل بعيدة من عين الحقائق.

وقال الشبلى، رضى الله تعالى عنه: «وكل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهى مردودة عليهم، حتى يشيروا إلى الحق بالحق وليس لهم إلى ذلك طريق، قال أبوزيد البسطامى(١) رضى الله تعالى عنه: «أبعدهم من الله أكثرهم إشارة إليه».

«الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ، وَإلاَّ.. فَهُوَ أمْنِيَّةٌ!».

الرجاء مقام شريف من مقامات اليقين، وهو يبعث على الاجتهاد فى الأعمال، كما ذكرناه فى الحزن، لأن من رجا شيئا طلبه، ومن خاف من شىء هرب منه.

وأما الرجاء الكاذب الذى يُفتر صاحبه عن العمل، ويُجرئه على المعاصى والذنوب، فليس هذا برجاء عند العلماء، ولكنه أمنية واغترار بالله تعالى، وقد ذمَّ الله قومًا ظنوا مثل هذا ، وأصرُّوا على حب الدنيا والرضا بها، وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم «خَلْفا» والخلْف: الردىء من الناس، فقال عز من قائل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾(٢).

---

(١) هو أبويزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى، ذكر ابن عربى أنه كان القطب الغوث فى زمانه، وقد اختلف فى زمن وفاته، فقيل مات سنة ٢٦١هـ، وقيل سنة ٢٣٤ هـ. «انظر الرسالة القشيرية جـ١ ص٨٠». يقول الذهبى عنه: «نقلوا عنه أشياء الشأن عدم صحتها منه» وقال الإمام ابن حجر: «أبوزيد يسلم له حاله، والله يتولى السرائر» ومن طريف ما يروى عن أبى يزيد أنه قال: أوقفنى ربى بين يديه، وقال: يا أبا يزيد بأى شىء جئتنى؟ قلت: بالزهد فى الدنيا. قال: إنما مقدار الدنيا عندى جناح بعوضة، ففيم زهدت؟ قلت: إلهى أستغفرك من ذلك. جئت بالتوكل عليك، فقال: ألم أكن ثقة فيما ضمنت لك؟ قلت: أستغفرك، حيث جئت بالافتقار إليك، فقال عند ذلك: قبلناك».

(٢) آية ١٦٩ من سورة الأعراف.

قال معروف الكرخى رضى الله تعالى عنه: طلبُ الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق».

وقال(١) معروف الكرخى، أيضا: «رجاؤك الرحمة ممن لا تطيعه خذلان وحمق».

واعلم انه ليس فى أفعال الحق سبحانه وتعالى ما يوجب أن يؤمن عقابه، إنما فى أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته: وكما لا يحسن أن لا يظهر من لطفه فى خلقه لا يحسن الطمع فى جانبه ويؤمن أخذه وانتقامه، فإن من قطع أشرف عضو بربع الدنيار لا يؤمن أن يكون عذابه غدا هكذا».

وقد قالوا: «من زعم أن الرجاء مع الاصرار صحيح فليزعم أن طلب الربح فى الفقر وقدح النار فى البحر صحيح».

وفى الحديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ أنه قال: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبعَ نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى».

وقال الحسن، رضى الله تعالى عنه ـ «إن قوما ألهتهم أمانىُّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة، يقول أحدهم: أحسنُ الظنهَ بربى، وهو يكذب، لو أحسن الظنَّ بربّه لأحسن العمل، وتلا قوله عز وجل: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢).

وكان يقول، رضى الله عنه: عباد الله، اتقوا هذه الأمانى، فإنها أودية الهلكة(٣) يحلون فيها، والله ما آتى الله عبدا بأمانيه خيرا فى الدنيا ولا فى الآخرة».

وكتب أبوعمير المنصورى إلى بعض إخوانه: «أمابعد، فإنك قد أصبحت تؤمل بطول عمرك، وتتمنى على الله الأمانى بسوء فعلك، وإنما تضرب حديدا باردا».

---

(١) ما بين القوسين ساقط فى أكثر النسخ.

(٢) آية ٢٣ من سورة فصلت.

(٣) وفى رواية «أودية النوكى» أى الحمقى.

«مَطْلَبُ العَارِفِينَ مِنَ اللّه الصَّدْقُ فى العُبُودِيَّةِ، وَالقِيَامُ بحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ».

مطلب العارفين من ربهم أعلى من مطالب غيرهم، سواء كانوا عبادا، أو زهّادا أو علماء، لأن مطلب العارفين من ربهم انما هو الصدق فى العبودية والقيام بحقوق الربوبية فقط، من غير مراعاة حظ، ولا بقاء مع نفس، وكل من عداهم لم يفارقوا الحظوظ والأغراض(١) فى مطالبهم، وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه اللّه تعالى «خير ما تطلبه منه منه ما هو طالبه منك».

قال سيدى أبومدين، رضى اللّه تعالى عنه: «شتان بين من همّته الحور والقصور، وبين من همّته رفع الستور ودوام الحضور»:

«بَسَطَكَ، كى لا يُبقيَكَ مع القَبْض. وقَبَضكَ. كى لا يَتْرُكَكَ مَعَ البَسْط. وأخْرَجَكَ عَنْهُما، كَىْ لاَ تكونَ لشَىءٍ دُونَه».

القبض والبسط من الحالات التى يتلون بها العارفون، وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين، وسببهما الواردات التى ترد على باطن العبد وقوتهما وضعفهما بحسب قوة الواردات وضعفها.

والمقصود هاهنا أنهما وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما، فإنها يقتضيان بقاء العبد ووجوده، فمن لطف اللّه بعده تلوينه فيها، ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه.

قال فارس، رضى اللّه تعالى عنه: القبض أولا، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان فى الوجود، وأما مع الغناء والبقاء فلا.

وكان الجنيد، رضى اللّه تعالى عنه يقول: «الخوف يقبضنى والرجاء يبسطنى، والحقيقة تجمعنى، والحق يفرقنى، إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى، وإذا بسطنى بالرجاء ردّنى علىّ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى، فغطّانى عنه، فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير مسكنى، وموحشى غير مؤنسى، فحضورى للذوق طعم وجودى(٢)، فليته أفنانى عنى فمتعنى، أو غيبنى

(١) وفى نسخة: الأعواض والمعنى واحد.
(٢) وفى الرسالة القشيرية ج١ ص١٩٨ «فأنا بحضورى أذوق طعم وجودى».

عنى فروّحنى».

وقد تكلم صاحب كتاب «عوارف المعارف» فى القبض والبسط بكلام بديع طويل تركت نقله هاهنا اختصارا، فمن أراده فلينظره هناك.

«العَارِفُونَ إذَا بُسِطُوا أَخْوَفُ منْهُمْ إذَا قُبِضُوا. ولا يَقفُ عَلَى حُدُود الأدبِ فى البَسْطِ إلاَّ قليلٌ!».

إنما اشتد خوف العارفين فى البسط ما لا يشتد فى القبض من قبل ملاءمته لهوى أنفسهم بخلاف القبض، كما سيقوله المؤلف، فيخافون حينئذ من رجوعهم إليه، وذوقهم لطعم نفوسهم، وفى ذلك الطرد والبعد، وقد كتب يوسف بن الحسين الرازى، إلى الجنيد، رضى الله تعالى عنهما: «لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها لا تذوق بعدها خيرا أبدا» ومن ثم يتأكد عليهم فى ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار، وذلك أمرٌ عسيرٌ فى هذا الحال، ولذلك لا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل، كما قال المؤلف، رحمه الله تعالى، وقد قيل: «قف على البساط وإياك والانبساط».

وقال رجل لأبى محمد الجريرى، رضى الله عنه: كنت على بساط الأنس، وفتح على طريق البسط، فزللت زلة فحجبت عن مقامى فكيف السبيل إليه؟ دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه!!».

فبكى أبومحمد وقال: ياأخى، الكلُّ فى قهر هذا الخطيئة، لكنى أنشدك أبياتا لبعضهم وأنشأ يقول:

قف بالديار فهذه آثارُهم
تبكى الأحبَّة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بربعها(١) مستخبرا
عن أهلها، أو سائلا أو مشفقا
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها(٢)
فارقت من تهوى فعزّ الملتقى

---

(١) الربع: الدار
(٢) الرسم: ماكان لاحقا بالأرض من آثار الدار.

وسئل بعض المشايخ عن هذه الزلّة، فقال: «انبساط مع الحق بغير أدب».

قال الأستاذ أبوالقاسم القشيرى، رضى اللّه تعالى عنه: «ومن هذا خشى الأكابر والسادة».

قال فى «لطائف المنن»: البسط مزلّة أقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم، وكثرة لجئهم، والقبض أقرب إلى وجود السلامة، لأنه وطن العبد، إذا هو فى أسر قبضة اللّه وإحاطة الحق محيطة، به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه، والبسط خروجٌ عن حكم وقته، والقبض هو اللائق بهذه الدار، إذ هى وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق اللّه تعالى».

قال: وأخبرنى بعض الصوفية قال: «رأى شيخنا شيخه فى المنام بعد موته مقبوضا، فقال له: ياأستاذ، مالك مقبوضا؟! فقال له: يا بنى، القبض والبسط مقامان من لم يوفهما فى الدنيا وفاهما فى الآخرة، قال وكان هذا الشيخ الغالب عليه فى حياته البسط» انتهى.

«البَسْطُ تَأْخُذُ النَّفسُ مِنْهُ حَظَّهَا بوجُودِ الفَرَحِ. والقَبْضُ لا حَظَّ للنَّفسِ فيه».

فى هذه إشارة إلى ما تقدّم، من: أن مراعاة الأدب فى البسط أمرٌ عسير، وذلك أن فى البسط وجود حظِّ النفس، فيستولى عليها الفرح بذلك، فلا يتمالك حتى يقع فى سوء الأدب والقبض ليس فيه حظ للنفس، فلذلك كان أسلم.

وكان الأستاذ أبوعلىّ الدقّاق،رضى اللّه تعالى عنه يقول: «القبض حقّ الحق منك، والبسط حقُّ العبد منه(١)، ولأن تكون بحقِّه منك أتمُّ من أن تكون بحظك منه».

وأما آداب القبض والبسط فلا أعلم الآن من استوفى الكلام فيهما من علماء الصوفية ومصنفيهم، وإنما وجدنا لهم منذ ذلك اشارات إلى أمور جُملية، كقول الإمام أبى القاسم القشيرى، رضى اللّه تعالى عنه، بعد أن تكلم على لفظتى: «القبض، والبسط»، وتَبْيِن معانيهما، إلى أن قال: «وقد يكون قبض(٢) يشكل على صاحبه سببُه: يجد فى قلبه قبضا لا يدرى ما موجبه ولا سببه، فسبيل صاحب هذا القبض التسليم حتى يمضى ذلك الوقت، لأنه لو تكلَّف نفيه، أو استقبل

---

(١) وفى نسخة: حظ وهى أولى.

(٢) اظنر صفحة ١٩٨ ج١ من الرسالة القشيرية.

الوقت قبل هجومه عليه باختياره زاد فى قبضه، ولعله يعدّ ذلك منه سوء أدب، وإذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض، فإن الله سبحانه قال: و«الله يقبض ويبسط».

وقد يكون بسط يرد بغتة، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سببا يهزُّ صاحبه ويستفزهُ فسبيل صاحبه: السكون ومراعاة الأدب، فإن فى هذا الوقت له خطر عظيم فليحذر صاحبه مكرا خفيا، كما قال بعضهم: «فتح عليَّ بابٌ من البسط فزلت زلّة فحجبتُ عن مقامي، انتهى كلام الإمام أبى القاسم.

وقد رأيت كلاما مبسوطا مستوفى فى آداب القبض والبسط لسيدى أبى الحسن الشاذلى، رضى الله تعالى عنه، فأحببت أن أذكره هاهنا، لتتم به الفائدة التى تعرض لها المؤلف، رحمه الله تعالى، وإن كان كلام الشيخ أبى الحسن فى ذلك أعم مما هو عند غيره من أئمة الصوفية، قال رضى الله عنه: «القبض والبسط قلما يخلو العبد منهما، وهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار، والحق سبحانه وتعالى يرتضى(١) منك العبودية فيهما، فمن وقته القبض فلا يخلو من أن يعلم سببه، أو لا يعلم. وأسباب القبض ثلاث:

ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك أو نقصت لك، أو ظالم يؤذيك فى نفسك أو فى عرضك، أو ينسبك لغير دين أو غير ذلك. فإذا ورد عليك القبض من أحد هذه الأسباب، فالعبودية تقتضى أن ترجع إلى العلم مستعملا له كما أمرك الله تعالى، أما فى الذنب فبالتوبة والإنابة وطلب الإقالة.

وأما فيما ذهب عنك من الدنيا أو نقص فبالتسليم والرضا والاحتساب. وأما فيما يؤذيك به ظالم فبالصبر والاحتمال،

واحذر ان تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان: ظلم غيرك لك، وظلمك لنفسك.

فإن فعلت ما التزمت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو وتصفح، وربما أثابك من نور(٢) الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو، له فتجاب فيه دعوتك، وما أحسن ذلك إذا رحم الله بك من ظلمك، فتلك درجات الصديقين الرحماء، وتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.

وأما إذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سببا فالوقت وقتان: ليل ونهار، فالقبض

---

(١) وفى نسخة: يقتضى

(٢) وفى نسخة: يرد، وكلاهما صحيح المعنى.

أشبه شىء بالليل، والبسط أشبه شىء بالنهار فإذا ورد عليك القبض بغير سبب تعلمه، فالواجب عليك السكون، والسكون عن ثلاثة أشياء: عن الأقوال والحركات والارادات فإن فعلت ذلك فعن قريب يذهب عنك الليل بطلوع شمس نهارك أو ببدو نجم تهتدى به، أو قمر تستضىء به، أو شمس تتبصر(١) بها، والنجوم نجوم العلم، والقمر قمر التوحيد، والشمس شمس المعرفة.

وإن تحركت فى ظلمة ليلك فقلما تسلم من الهلاك، واعتبر بقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢) فهذا حكم العبودية فى القبضين جميعا.

وأما من كان وقته البسط فلا يخلو من أن يعلم له سببا أولا، والأسباب ثلاثة:

الأول: زيادة فى الطاعة، أو نوال من المطاع كالعلم والمعرفة.

الثانى: زيادة من دنيا بكُسب، أو كرامة، أو هبة أو صلة.

الثالث: بالمدح والثناء من الناس وإقبالهم عليك بطلب الدعاء منك وتقبيل يديك.

فإذا ورد عليك البسط من أحد هذه الأسباب فالعبودية تقتضى أن ترى النعمة والمنَّة من الله تعالى عليك واحذر أن ترى شيئا من ذلك لنفسك وحصنها أن يلازمها(٣) خوف السلب مما به أنعم عليك فتكون ممقوتا.

هذا فى جانب الطاعة والنوال من الله تعالى.

وأما الزيادة من الدنيا، فهى نعمة أيضا كالأولى وخَفْ مما بطن من آفاتها!!

وأما مدح الناس لك وثناؤهم عليك فالعبودية تقتضى شكر النعمة بما ستره عليك، وخف من الله تعالى أن يظهر ذَرّة مما بطن منك، فيمقتك أقربُ الناس إليك، فهذه آداب القبض والبسط فى العبودية.

وأما البسط الذى لا تعلم له سببا فحقُّ العبودية فيه ترك السؤال والإدلال، والصولة على النساء والرجال، اللّهم إلا أن تقول: سلِّم.. سلم.. إلى الممات.. فهذه آداب القبض والبسط فى العبودية جميعا إن عقلت. والسلام».

انتهى ما ذكره الشيخ أبوالحسن، وكلامه فى ذلك احسن، والحمد لله الذى بيده سوابغ المنن.

---

(١) وفى نسخة: تبصر.

(٢) آية ٧٣ من سورة القصص

(٣) وفى نسخة: وحقها أن تلازم الخوف.. إلخ وفى نسخة: وحقها أن تلازم الخوف خوف السلب، وفى أخرى: وحصنها: أن يلازمها الخوف خوف السلب.. إلخ.

«رُبما أعْطاكَ فَمَنَعكَ، ورُبَّما مَنعَكَ فَأعْطَاكَ».

منْعُ اللّه تعالى عبدَ من نيل شهواته ولذاته، والكون مع شىء(١) من عاداته عطاءٌ جزيلٌ منه، لأنه أبقاه معه واقتطعه عن حظوظه وأغراضه وجردّه(٢) منها. وعكس هذا هو «المنع» على التحقيق. وإن كان عطاء فى الظاهر.

قال الشيخ محيى الدين بن العربى: «إذا منعت فذلك عطاؤه، وإذا أعطيت فذلك منعه، فاختر الترك على الأخذ».

فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك فلن يعدم منه خيرا.

«مَتَى فَتَحَ لَكَ بابَ الفَهْمِ فى المَنْعِ. عَادَ المَنْعُ عَيْنَ العَطَاء».

سيأتى بيان هذا من كلام المؤلف رحمه اللّه فى قوله: «متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره» إلى آخره..

«الأكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ، وباطِنُها عِبْرَةٌ.. فَالنَّفْسُ تَنْظُرُ إلى ظَاهِرِ غِرَّتِها، وَالقَلْبُ يَنْظُرُ إلى باطِنِ عِبْرَتِها».

الأكوانَ ـ هاهنا ـ: كلٌّ ما يمكن أن يكونَ للنَفس فيه حظٌ من متاع الدنيا وزهرتها، وهى رائقة الظاهر قبيحة الباطن، كما قيل:

على وجه ميٍ مسحةٌ من ملاحة   وتحت الثياب العارُ لو كان باديا

فهى من حيث ظاهرها محبوبة حلوة خضرة، وبالنظر إلى باطنها جيفة قذرة، فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغتر بها، فتهلك صاحبها، والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنية، فيعتبر بها، فيسلم من شرها.

وقد روى فى الكتب السالفة أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: يا روح اللّه صف لنا أولياءَ اللّه تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال عليه السلام: هم الذين بهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، وبهم علم الكتاب، وبه علموا وبهم قام الكتاب، وبه قاموا، نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وعاينوا آجِل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم،

---

(١) وفى نسخة: مع سيىء من عاداته.

(٢) وفى نسخة: وحرره

وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم، فصار ذكرهم فيها قوتا(١)، وفرحهم فيها حزنا، ما عارضهم منها رفضوه، وما أشرف لهم منها بغير الحق وضعوه، خلقتْ الدنيا عندهم فلم يجددوها وخرجت فيما بينهم فلم يعمروها، وماتت في صدورهم فلم يحيوها بعد موتها، «هدموها»، وبنوا بها آخرتهم، أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيئون بنوره، ويضيئون به، لهم الخير العجيب، وعندهم الخير العجيب.

وكان بعض الأولياء يقول: «ما سطع لي زينة من زخرف الدنيا إلا كُشف له عن باطنه فظهر لي عزوف عنها».

قال أبوطالب المكي: «فهذه عناية من الله لمن وليه من أوليائه المقرّبين منه، فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره، ومَنْ عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها، ومن كُوشف له بعاقبتها لم تستهوه زخرفُها».

وكان عيسى عليه السلام يقول: ويلكم علماء السوء مثلكم مثل قناة حُشٍ(٢) ظاهرها جصٌ وباطنها نتن!!

«إنْ أرَدْتَ أنْ يَكُونَ لَكَ عزٌّ لا يَفْنَى، فلا تَسْتَعزَّنَّ بعزٍّ يَفنَى».

العزّ الذي لا يفنى: هو الغنيَ عن الأسباب كلها بوجود مسَبِّبَها، لأنه باق لا يفنى، فالتعلق، به عز لا يفنى.

والعزّ الذي يفنى: هو الغنى بالأسباب مع الغيبة عن مسببها، لأنها فانية، فالتعلق بها عز فانٍ لا يبقى.

والتعلّق بالله عز لا يفنى وليس لكل إلا أحدهما، لأنهما ضدان لا يجتمعان، فإن اخترت العزّ الباقي بالله تعالى لم يقدر أحد أن يذلك، يحكى أن رجلا أمر بالمعروف لهرون الرشيد فحرد(٣) عليه هارون الرشيد، وكانت له بغلة سيئة الخلق، فقال: اربطوه معها تقتله برمُحها(٤)، ففعلوا ذلك فلم تضره، فقال: أطرحوه في بيت وطيّنوا(٥) عليه الباب، ففعلوا ذلك فرؤي في بستان وباب البيت مسدود، فأخبر هارون الرشيد بذلك، فأتي للرجل فقال: من أخرجك من البيت؟

---

(١) وفي نسخة: فصار دركهم فيها فواتا، وهذا أنسب.
(٢) الحش: مكان قضاء الحاجة، والجص: الطلاء الذي تطلى به الدور والبيوت.
(٣) حرد، غضب.
(٤) بشدة جريها واندفاعها.
(٥) اختموه بالطين واطلوه به.

فقال: الذى أدخلنى البستان. فقال: ومن أدخلك البستان؟ فقال: الذى أخرجنى من البيت. فقال: أركبوه دابة وطوفوا به فى البلد وليقل قائل: «ألا إن هارون قد أراد أن يذل عبدا أعزه الله فلم يقدر!!».

وإن اخترت العز بالأسباب خذلك وأسلمتك أحوج ما تكون إليها، وكنت فى غاية الذل والهوان، حكى بعضهم أنه قال: رأيت رجلا فى الطواف وبين يديه «شاكريةٌ» يطردون الناس، فبعد ذلك بمدة رأيت إنسانا يتكفف الناس على الجسر ويسأل شيئا، قال: فنظرت إليه وشبهته بذلك الرجل، فقال: لأى شىء تنظر؟ فقال: أشبهك برجل رأيته فى الطواف من شأنه كذا.. وكذا فقال: أنا ذلك الرجال: تكبرت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله فى موضع يترفع فيه الناس!!

قال فى التنوير» فإن اعتززت بالله دام عزّك، وإن اعتززت بغيره فلا بقاء لمن أنت به مُعزّ.

قال وأنشدنا بعض الفضلاء لنفسه:

اجعل بربِّك شأنَ عزِّكَ
يستَقرُّ ويثبت
فإن اعتززت بمن يموت
فإنَّ عزّك ميّت

قال: ودخل إنسان على بعض العارفين وهو يبكى، فقال: ما شأنك؟ قال: مات استاذى!! فقال له ذلك العارفك ولم جعلت أستاذك من يموت!! ويقال لك: إذا اعتززت بغير الله تعالى فقدته، واستندت إلى غيره فعدمته «وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما».

«الطَّيُّ الحَقِيقِيُّ أنْ تَطْوِيَ مَسَافَةَ الدُّنْيَا عَنْكَ، حَتَّى تَرى الآخِرَةَ أقْرَبَ إليكَ مِنْكَ».

طَيّ مسافة الدنيا إما يَتصور من العبد إذا أشرق نور اليقين فى قلبه فحينئذ تنعدم الدنيا فى نظره وتنطوى فى اعتباره، ويرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده، بل يراها أقرب إليه منه إذ ذاته فانية منطوية بهذا الاعتبار، فمن كانت هذه شاهدته لا يتصور منه حُبُّ الغائب الفانى وهو الدنيا، واستبدله بالحاضر الباقى وهو الآخرة، ولذلك كان أصل الرغبة فى الدنيا وايثارها على الآخرة ضعف

اليقين، فمن لم يشرق فى قلبه نور اليقين لم يشاهد الملك الكبير، ومن لم يشاهده أحب الدنيا، وهى لا شىء، فلم تكن قيمته عند الله تعالى شيئا فهذا هو الطىّ الحقيقى لمسافة الدنيا الذى يكرم الحقُّ به أولياءه وبه تتحقق عبوديتهم لربهم عز وجل، لا طى مسافة الأرض الذى ربما يكون استدراجا ومكرا، ولا طىّ الليالى والأيام بالوصول للصيام وترك الشراب والطعام إذا لم يتمحض طاعة وبرا. وسيأتى من كلام المؤلف ـ رحمه الله تعالى: «لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها».

العَطَاءُ مِنَ الخَلْقِ حِرْمَان، والمَنْعُ مِنَ اللّه عزَّ وجلَّ إحْسَان.

عطية الخلق لك حرمان على التحقيق، لما فيه من رؤيتك لغير الله، وقوفك مع حظوظك وشهواتك.

ومنع الله لك إحسان، لأنه ألزمك الوقوف ببابه، وعافاك من جودة حجابه.

وإن شئت قلت: العطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك، وتقلد منتهم فى أخذ عطيتهم.

والمنع من الله إحسان لأنه حبيبك وكلّ ما يفعله الحبيب محبوب، ولله درّ من قال:

فلا ألبس النعمى وغيرك مُلبسى ... ولا أقبل الدنيا وغيرك واهب.

وفى وصية علىّ رضى الله عنه: لا تجعل بينك وبين الله منعما، واعدد نعمة غيره عليك مغرما.

وقال بعض الحكماء حمل المنن أثقل من الصبر على العدم.

وقال آخر: عزّ النزاهة أشرف من سرور الفائدة.

جَلَّ رَبُّنَا أنْ يُعَامِلَهُ العَبْدُ نَقْداً، فَيُجَازِيَهُ نَسيئَةً!

جزاء المعاملة لا يختص بالدار الآخرة، بل ربما أظهر الحق تعالى منه لبعض أوليائه فى الدنيا أنموذجا يحملهم على الاجتهاد فى الأعمال ويتحققون به وجود قبولها فى كل الأحوال، وذلك لعظيم كرمه وعيمم فضله، جل وعلا.

كَفَى مِنْ جَزَائِه إيَّاكَ عَلى الطَّاعة أنْ رَضِيَكَ لها أهْلاً!

هذا بيان جزائهم المعجل: وهو أنه عرّفهم من عظمته وجلاله وكبريائه ما استحقروا معه أنفسهم أن يكونوا أهلا لأن يكلفهم القيام بطاعته، ويمدهم فيها

بتيسيره ومعونته، فسباهم حينئذ حبُّه، واستولى عليهم قربُه، فانخنَست(١) إذْ ذاك نفوسهم واضمحل وجودهم، وذهب بهم الحياء كل مذهب، وهذا هو غاية الجزاء، ونهاية العطاء عند العلماء العارفين الذين يمنعهم وجدانه من التطلع إلى غيره من الحظوظ الآجلة.

كَفَى العَامِلينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِم فِي طَاعَتِه، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِه.

هذا بيان آخر لما يكرمهم به من الجزاء المعجَّل، وهو: أن العاملين لربِّهم يفتح لهم من المعارف، ويورد على قلوبهم من أنواع اللطائف ما يتنسمون منه روح الأنس، ويتنعمون به في حضرة القدس. وهذا من علامات وجود الرضوان الأكبر الذي يتلاشى دونه كلّ جزاء ويستحقر، كان بعضهم يقول: التملق للحبيب، والمناجاة للقريب في الدنيا ليس من الدنيا، هو من الجنة أظهر(٢) لأهل الله تعالى في الدنيا لا يعرفه إلا هم، ولا يجد سواهم روحا لقلوبهم.

وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق(٣) في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة.

وقال أحمد بن أبي الحواري، رضي الله عنه: دخلت علي أبي سليمان الداراني، رضى الله تعالي عنه، يوما وهو يبكي، فقلت له: وما يبكيك؟ فقال: ياأحمد، ولم لا أبكي: انه اذا جنَّ الليل. ونامت العيون.. وخلا كلُّ حبيب بحبيبه.. وافترش أهل المحبة اقدامهم.. وجرت دموعهم على خدودهم، وتقطرت في محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه، فنادى: يا جبريل، بعيني من تلذّذ بكلامي واستراح إلى ذكري، واني لمطلع عليهم فى خلواتهم: أسمع أنينهم، وأري بكاءهم، فلم لا تنادى فيهم؟ ياجبريل، ما هذا البكاء هل رأيتم حبيبا يعذِّب أحبابه، أم كيف يجمل بى أن آخذ قوما إذا جنّهم الليل تملقوا لى، فبي حلفت إذا وردوا على القيامة لأكشفنَّ لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إليَّ، وانظر لهم.

---

(١) انقبضت وتأخرت.

(٢) وفى نسخة يظهر.

(٣) الذين يتملقون الله سبحانه وتعالى: أى يعبدونه فى صورة من الثناء عليه والمدح له، وهى كلمة مستعملة فى الجو الصوفي علي هؤلاء الذين يستيقظون فى الثلث الأخير من الليل يناجون الله سبحانه بما هو أهله.

«مَنْ عَبَدَهُ لشَىء يَرْجُوهُ منْه، أوْ ليَدْفَعَ بطَاعته وُرُودَ العُقُوبة عَنْه. فَمَا قَامَ بحَقِّ أوْصَافه».

عمل العاملين لأجل حصول الجزاء، أو فرارا من عقوبة المولى مدخول معلوم ليس من شأن الحاذقين المحققين، لأن قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضى أن لا يعمل لأجل حظه من جلب ثواب أو دفع عقاب، لأنه عبد يستحق عليه مولاه كلَّ شىء ولا يستحق هو عليه شيئا، وهذا من أعلى(١) المحبة لله تعالى، لأن المحبَّ مجتمع الهم بأمر محبوبه لا مُرَاد له إلا ما أراد فعلى العبد أن يعمل لربه عزَّ وجل لأجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التى لا يشارك فيها، فإن خالف هذا أو عمل على طلب حظِّه لم يقم بحق صفات مولاه، وكان ذلك نتيجة جهله وغفلته وعدم حبّه لربه ومعرفته.

قال سهل بن عبدالله التسترى، رضى الله عنه: «ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض إلا وهم جهَّال بالله تعالى، إلا من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته»، وفى أخبار داود عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه إن أوَد الأودَّاء(٢) إلىَّ من عبدنى لغير نوال، لكي يعطى الربوبية حقها، وفيما نقل وهب بن منبِّه من الزبور: ومن أظلم ممن عبدني لجنَّة أو لنار، لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا لأن أطاع؟! أو كما قال عز وجل.

وفى أخبار عيسى عليه السلام: إذا رأيتَ التقىَّ مشغوفا فى طلب الرَّبِّ فقد ألهاه ذلك عما سواه.

ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشِّنَان(٣) البالية، فقال: من أنتم؟ فقالوا: نحن عباد الله تعالى. فقال: ولأى شىء تعبدتم؟ قالوا: خوّفنا الله من ناره فخفنا منها. فقال: حقٌّ على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه، ثم جاوزهم، فمرَّ بآخرين أشدَّ عبادةً منهم، فقال: لأى شىء تعبدتم؟ قالوا: شوّقنا الله إلى الجنان وما أعدَّ فيها لأوليائه، فنحن نرجوها، فقال: حقٌّ على الله أن يعطيكم ما رجوتم، ثم جاوزهم، ومر بآخرين يتعبدون فقال: ما أنتم؟ قالا: المحبون لله عز وجل لم نعبده خوفا من ناره، ولا شوقا إلى جنته، ولكن حبا

(١) وفى نسخة من إعلام المحبة لله.

(٢) إن أود الأوداء، أى أحب الأحباب.

(٣) الشن والشنة: القربة الخلقة الصغيرة، والجمع شنان.

له، وتعظيما لجلاله. فقال: أنتم أولياء الله حقا، معكم أُمرت أن أقيم، فأقام بين أظهرهم. وفى لفظ آخر أنه قال للأولين: مخلوقا خفتم، ومخلوقا أحببتم، وقال للآخرين: أنت المقربون.

قال الشيخ أبوطالب المكى، رضى الله عنه: وممن رُوى عنه هذا لاقول وأقيم فى هذا المقام جماعة من التابعين. منهم: أبوحازم المدنى كان يقول: إنى لأستحى من ربى أن أعبده خوفا من العذاب فأكون مثل عبدالسوء إن لم يخف لم يعمل. وأستحى أن أعبده لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له.

قال الشيخ أبوطالب المكى: وقد روينا معنى هذا الكلام عن رسول الله (ﷺ) «لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء إن لم يعط الأجر لم يعمل».

وقال بعض إخوان معروف رضى الله عنه له: أخبرنى عنك ياأبا محفوظ، أىّ شىء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت. فقلت: ذكرت الموت؟ فقال: وأىّ شىء الموت!! قلتُ: فذكرتَ القبر؟ قال: وأىّ شىء القبر!! فقلت: خوف النار ورجاءَ الجنّة؟ فقال: وأىّ شىء هذان من ملك هذا كلّه بيده إن أحببته أنساك جميع هذا، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. قال أبوطالب: وحدّثوا عن علىّ بن الموفق قال: «رأيت فى النوم كأنى أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه قوم، فيدخل بعضهم الجنة ويردّ آخرين، قال: ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس، فرأيت فى سرادقات العرش رجلا قد أشخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف، فقلت لرضوان: من هذا؟ فقال: هو معروف الكرخى عبدالله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته، بل حُبًّا له، فقد أباحه النظر إليه إلى يوم القيامة، وذكر أن الآخرين: بشر بن الحارث واحمد بن حنبل رضى الله عنهما.

قال أبوطالب المكىّ: «وروينا عن رابعة العدوية(١)، وكانت احدى المحبين، وكان

---

(١) ترجم لها صاحب كتاب الأعلام في ج١ ص٣١٤ فقال: هى أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية، مولاة آل عتيك، البصرية، صالحة مشهورة، لها فى العبادة والنسك أخبار كثيرة،، مولدها بالبصرة ورحلت إلى القدس فتوفيت بها سنة ١٣٥هـ ٧٥٢م، وقد كتب عنها كثيرون من خير الكتب عنها كتاب الأستاذ الفاضل محمد عطية خميس وكتاب المرحوم طه عبدالباقى سرور.

سفيان الثورى يجلس بين يديها ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة. وكانت تقول له: نعم الرجل أنت لولا أنك تحبُّ الدنيا. وكان يعترف لها ويسلم قولها. وكان عالما زادها إلا أنه كان يؤثر كتب الحديث والاقبال على الناس، وهى أبواب الدنيا، وقال لها الثورى يوما: لكل عبد عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفا من النار فأكون كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا حبًّ للجنة فأكون كالأجير السوء إن أعطى عمل، ولكن عبدته حبًّا له وشوقا إليه». والآثار والحكايات فى هذا المعنى كثيرة لا تنحصر.

فإذا عمل المريد على ما ذكرناه كان عبدا لله حقا، فإن طلب منه الثواب أو استعاذ به من العقاب فإنما يطلبه أو يستعيذ به انتجازا لوعد ربه، وفرارا من دعوى رؤية حظه، واتباعا لما أحبه منه، وأذن له فيه من طلبه لفضله وإحسانه وكرمه وامتنانه وهذا وما أشبهه هو المعنيُّ بالحديث المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله -(ﷺ) - لرجل: ما تقول فى الصلاة؟ قال: أتشهَّد، ثم أقول اللّهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما والله ما أُحْسن دندنتك(١) ولا دندنة معاذ فقال: حولها ندندن. لا أن يكون رجاؤه لحصول ذلك وخوفه من فقده باعثا له على القيام بطاعته وملازمة عبادته، فيكون عمله إذا ذاك مدخولا معلولا. هذا هو مذهب العارفين والمحققين. وعليه تنبنى قواعد التصوف كلها.

«مَتَى أعْطَاكَ، أشْهدَكَ برَّهُ، وَمَتَى مَنَعَكَ، أشْهَدَكَ قَهْرَهُ.. فَهُوَ فى كُلِّ ذَلكَ مُتَعرِّفُ إلَيْكَ، وَمُقْبلُ بوجُود لُطْفه عَلَيْكَ».

المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية والأسماء الحسنى. ولا سبيل لهم إلى معرفته إلاّ بتعرّفه لهم، وتعرّفه لهم إنما يكون: بما ينزله بهم من النوازل، ويورده عليهم من الأحكام.

ثم هو على قسمين: ما وافق الهوى والطبع، ويسمى ذلك «عطاءً ومنحًا» وما خالفهما، ويسمى «منعًا».

فبوجود العطاء تشهد صفاته البرّية«من: الجود، والكرم، والإحسان، واللطف،

(١) قال فى القاموس: دندن الرجل، نغم بتشديد الغين» ولم يفهم منه كلام.

والعطف، وغير ذلك.

وبوجود المنع تشهد صفاته «القهرية» من: الجبر، والكبرياء، والعزّة، والاستغناء.

فينبغى لك أيها العبد أن لا تفرّق بينهما إن أردت معرفة ربك ولم يستغرقك(١) حبّ حظك.

إذن فمنعه لك عطاءُ على التحقيق، فهو فى كلتا الحالتين منعم عليك، ومقبل بوجود عطفه إليك.

وهذا هو بيان ما تقدّم من قوله: «متى فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع هو عين العطاء».. والله أعلم.

قال سفيان الثورى، رضى الله عنه: «أتيتُ أبا حبيب البدورى أسلم عليه، ولم أكن رأيته، فقال لى: أنت سفيان الثورى الذى يقال؟ قال: فقلت نعم، فنسأل الله عز وجل بركة ما يقال.

فقال لى: ياسفيان، ما رأينا خيرا قط إلا من ربنا. قلت: أجل. قال: فما لنا نكره لقاء من لم نر خيرا قطّ إلا منه!!

ثم قال: ياسفيان، منع الله إيّاك عطاء منه لك، وذلك انه لم يمنعك من بُخل ولا عُدم، وإنما منعه نظر منه واختبار يا سفيان إنّ فيك لأنسا، ومعك شغلا،ثم أقبل على غُنَيمته وتركنى.

«إنَّمَا يُؤْلِمْكَ المَنْعُ لعَدَمِ فَهْمكَ عَنِ اللّه فيه!»

إذا كان منع الله سبحانه وتعالى وعطاؤه نعمتين عظيمتين، كما ذكرناه الآن، فينبغى أن يكون فى كتليهما قرة عين المريد، فإن تألم بأحدهما وهو المنع وتلذذ بالآخر وهو العطاء، فذلك لعدم فهمه وقصور علمه وإنما الأكمل والأفضل له أن يألم بالعطاء ويلذ بالمنع كما قال إبراهيم الخواص رضى الله عنه: لا يصحّ الفقر للفقير حتى يكون فيه خصلتان:

إحداهما: الثقة بالله تعالى.

والأخرى: الشكر لله فيما زَوى عنه مما اتبلى به غيره من الدنيا، ولا يكمل الفقير حتى يكون نظر الله له فى المنع أفضل من نظره له فى العطاء، وعلامة صدقه فى ذلك: أن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء ولا يعرفه غير باريه

---

(١) وفى نسخة ولم يسترقك.

الذى خصه بمعرفته وأياديه، فهو لا يرى سوى مليكه، ولا يملك إلا ما كان من تمليكه، وكلُّ شيء له تابع، وكلُّ له خاضع» أ. هـ.

«ربَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ، وَمَا فَتَحَ لَكَ بابَ القَبُولِ.. وَقَضَى عَلَيْكَ بالذَّنْب، فَكَانَ سَبَبًا فى الوُصُولِ!».

ينبغى أن لا ينظر العبد إلى صور الأشياء، ولينظر إلى حقائقها، فصور الطاعات لا تقتضى وجود القبول لها، لما قد تضمنّه(١) من الآفات القادحة فى الاخلاص فيها، وذلك مانع من وجود القبول لها، ووجود صورة الذنب ألا تقتضى الإبعاد والطرد، بل ربما يكون ذلك سببا فى وصوله إلى ربه، وحصوله فى حضرة قربه، كما قيل: «رُبَّ ذنب أدخل صاحبه الجنّة».

وقد جاء فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى اللّه عنه، عن رسول اللّه (ﷺ) أنه قال: «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب اللّه بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر اللّه لهم». وذلك أنه يصحبه عند عمله بالطاعة أن يعجب بها ويعتمد عليها ويتكبر بفعلها، ويصحبه عند وقوعه فى الذنب اللجاء إلى اللّه تعالى والاعتذار إليه منه، واستصغار نفسه وتعظيم من لم يفعله. قال أبوحازم، رضى اللّه عنه: «إن العبد ليعمل الحسنة تسرّه حين يعملها وما خلق اللّه له من سيئة أضرّ له منها. وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها، وما خلق اللّه له من حسنة أنفع له منها، وذلك أن العبد حين يعمل الحسنة تسرّه، فيمتنّ بها، ويرى أن له فضلا على غيره، ولعل اللّه أن يحبطها ويحبط معها عملا كثيرا، وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها، ولعل اللّه أن يحدث له بها وجلا حتى يلقى اللّه تعالى، وإن خوفها فى جوفه لباق». ثم بين المؤلف رحمه اللّه هذا المعنى بقوله:

«مَعْصِيةٌ أوْرَثَتْ ذُلاً وانْكِسَاراً، خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أوْرَثَتْ عِزاً واسْتِكْبَاراً».

الذل والافتقار من صفات العبودية. والعزُّ والاستكبار مناقضان لهما، لأنهما من صفات الربوبية. ولا خير فى الطاعة إذا لزم عنها شىء مما يناقض صفات العبودية، لأنها تحبطها وتبطلها، كما لا مبالاة بالمعصية إذا لزمتها صفات

(١) وفى نسخة تضمنته.

العبودية، لأنها أيضا تمحوها وتزيلها. قال سيدى أبومدين رضى الله عنه: «انكسار العاصى خيرٌ من صولة المطيع».

وكان سيدى أبوالعباس المرسى رضى الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة، وكان يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله تعالى حتى أنه ربما دخل عليه مطيع فلا يعبأ به، وربما دخل عليه عاص فأكرمه.

لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصى دخل عليه بكثرة معاصيه وذلة مخالفته. وقد تقدم مثل هذا عند قوله: «لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدّك عن حسن الظن بالله تعالى» فمن هذا لامعنى ما روى عن «أبان بن عياش» أنه قال: «خرجت يوما من عند أنس بن مالك رضى الله عنهما بالبصرة، فرأيت جنازة يحملها أربعة من الزنج ولم يكن معهم رجل آخر، فقلت: سبحان الله بسوق البصرة وجنازة يحملها أربعة من الزنج ولم يكن معهم رجل آخر، فقلت: سبحان الله بسوق البصرة وجنازة مسلم لا يشيعها أحدٌ!! فلأكونن خامسهم.. فمضيت معهم، فلما وضعوها بالمصلى قالوا لى: تقدم. فقلت: أنتم أولى به فقالوا: كلنا سواء. فتقدمت، فصليت عليه، وقلت لهم: ما القصة؟ فقالوا: اكترتنا تلك المرأة. قال فقعدت حتى دفنوه. فلما كان بعد ساعة انصرفت تلك المرأة وهى تضحك، فدخل قلبى شىء، فقلت لا ينجيك إلا الصدق، أخبرينى ما القصة؟ فقالت: إن هذا ابنى ما ترك شيئا من المعاصى إلا فعله فمرض منذ ثلاثة أيام فقال: ياأمّاه، إذا متّ فلا تخبرى بوفاتى جيرانى، فإنهم لا يحضرون جنازتى ويشمتون بموتى، واكتبى على خاتمى هذا «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» واجعليه على كفنى فلعل الله يرحمنى به، وضعى رجلك على خدّى وقولى: هذا جزاء من عصى الله، فإذا دفنتينى فارفعى يديك إلى الله تعالى وقولى: إنى رضيت عنه فارض عنه، فلما مات فعلت جميع ما أوصى به، فلما رفعت يدى إلى السماء سمعت صوته بلسان فصيح: إنصرفى يا أمّاه، فقد قدمت على رب كريم رحيم، غير غضبان على، فإنما ضحكت من هذا.

ومن المعنى الآخر ما روى أن رجلا من بنى إسرائيل أتى عابدا من بنى إسرائيل فوطىء على رقبته وهو ساجد، فقال له العابد: ارفع، فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله عز وجل إليه: إيها المتألّى علىّ، بل أنت لا يغفر الله لك!!

قال الحارث المحاسبى، رضى الله عنه: لأنه إنما تألّى على الله عزّ وجلّ أن لايغفر الله له لعظم قدر نفسه عنده، وأن الإساءة إليه عند الله عز وجل عظيمة لا

يغفرها اللّه تعالى لموضع عبادته وسجوده، لأنه عد نفسه عظيم القدر عند اللّه عز وجل فجمع بين عجب وكبر واغترار باللّه عز وجل. ومن المعنيين جميعا ما روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام خرج ومعه صالح من صالحى بنى إسرائيل فتبعهما رجل خاطىء مشهور بالفسق فيهم، فقعد منتبذا عنهما منكسرا، فدعا اللّه سبحانه وتعالى وقال: اللّهم اغفر لى.

ودعا هذا الصالح وقال: اللّهم لا تجمع بينى وبين هذا العاصى، فأوحى اللّه تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام إنى قد استجبتُ دعاءهما جميعا: رددت ذلك الصالح، وغفرت لذلك المجرم.

وروى عن الشعبىّ، وروى أيضا عن الخليل بن أيوب: أنَّ رجلا كان فى بنى إسرائيل يقال له «خليع بنى إسرائيل» لكثرة فساده مرَّ برجل آخر من بنى إسرائيل يقال له «عابد بنى إسرائيل» وعلى رأس العابد غمامة تظله. فقال الخليع فى نفسه: أنا خليع بنى إسرائيل وهذا عابد بنى إسرائيل فلو جلست إليه لعل اللّه عز وجل أن يرحمنى به فجلس إليه، فقال العابد فى نفسه: أنا عابد بنى إسرائيل وهذا خليع بنى إسرائيل يجلس إلىَّ!! فأنف منه، وقال قم عنى فأوحى اللّه عز وجل إلى نبىّ ذلك الزمن مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد. وفى حديث آخر فتحولت الغمامة على رأس الخليع.

قال الحارس المحاسبى: «وإنما أراد الله عز وجل من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد، وأنف تواضع الجاهل أو العاصى وذل هيبة للّه عز وجل وفرقا منه فهو أطوع للّه عز وجل من العباد أو العالم بقلبه».

«نعْمَتَان مَا خَرَجَ مَوجُودٌ عَنْهُمَا، وَلاَ بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ منْهُمَا: نعْمَةُ الإيجاد، وَنعْمَةُ الإمْدَاد».

نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد نعمتان لازمتان لكل مكوَّن موجود، لأنه فى ذاته معدوم متلاش، فنعمة الإيجاد أزالت العدم السابق، ولولا ذلك لم يزل معدوما، ونعمة الإمداد أزالت العدم اللاحق، ولولا ذلك لتلاشى وفنى.

قال سيدى أبومدين: «الحق تعالى ممد، والوجود مستمد والمادة من عين الوجود فلو انقطعت المادة انهدم الوجود» وهذا توطئة لما يريد بيانه من الفقر الذاتى للعبد.

« أَنْعَمَ عَلَيْكَ أوّلاً بالإيجَاد ، وَثَانياً بتوَالى الإمْدَاد ».

هذا أحد جزئيات الكلية المتقدمة، وهو جودك ودوام وجودك، ومما لا ينبغى أن يتغافل عنه من أنواع هذا الجنس نعمة إيجاد الإيمان ومحبة الطاعة فى قلبك، وإمدادهما، وكذلك كراهة الكفر والمعصية، فإن ذلك من النعم العظيمة التى لا مدخل للعبد فيها ولا له وسيلة إليها، ولولا توالى اللّه تعالى له بتَيْنك النعمتين فى القسمين لتاه فى ظلمات الضلالات وغرق فى بحار الجهالات وقد نبه اللّه عز وجل على هذا المعنى فى كتابه الكريم فقال عز من قائل:

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ⑦ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾(١) قال الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى اللّه عنه: «إن من فكر فى صنوف الضلال، وكثرة طرق المحال، وشدة أغاليط الناس فى البدع والأهواء، وما يتشعب بكل قوم مختلفى النحل والإراء، ثم فكر فى ضعفه ونقصان عقله وكثرة تحيره، فى الأمور وشدة جهله وتناقض تدبيره فى أحوال وشدة حاجته إلى الاستعانة بأشكاله فى أعماله، ثم رأى خالص يقينه، وقوة استبصاره فى دينه ونقاء وجه توحيده عن غبرة الشرك، وصفاء عين عرفانه عن رَهَج(٢) الشرك، علم أن ذلك ليس من طاقته، ولا بجهده وكده وسعيه وجده بل بفضل ربه وسابغ طَوْله(٣)، قال اللّه تعالى ذكره: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(٤)فهو الظاهر بنعمائه وآثار نعمه عليك متظاهرة، والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة» أ. هـ.

فعلى العبد أن يعرف قدر هذه النعمة ويتوكل على مولاه فى بقائها وحفظها عليه ولا يعتمد فى ذلك على عقله وعلمه.

وعن ذى النون المصرى(٥) رضى اللّه عنه، ما هو قريب من هذا: «من كان فى توحيده ناظرا إلى نفسه لم ينجه توحيده من النار حتى يكون نظره إليه فى

---

(١) آية ٧، ٨ من سورة الحجرات.

(٢) رهج: فتنة، وفى نسخة وهج الشرك.

(٣) فضله وإنعامه.

(٤) آية ٢٠ من من سورة لقمان.

(٥) هو أبوالفيض ثوبان بن إبراهيم الأخميمى المصرى، من أهل مصر، نوبى الأصل، كان عالما زاهدا فصيحا، توفى بالجيزة سنة ٢٤٥هـ = ٨٥٩م.

توحيد أيّاه عز وجل، فهذا هو شكر هذه النعمة العظيمة».

قال الشيخ أبوطالب المكىّ، بعد أن ذكر ما روى عن رسول الله (ﷺ) من قوله: أحبُّوا الله لما أسدى إليكم من نعمه ولما يغذوكم به أيضا»(١) فمن أفضل ما غذّانا به نعمة الايمان به والمعرفة له، وغذاؤه لنا منه دوام ذلك ومدده بروح منه وتثبيتنا عليه فى تصريف الأحوال، إذ هو أصل الأعمال التى هى مكان النوال، فلو قلَّب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال، كما يقلب نياتنا فى الأعمال أىَّ شىء كنا نصنع؟ وعلى أى شىء كنا نعول؟ وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو؟ فهذا من أعظم النعم ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة، وادعاء الإيمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوة وحول هو كفر نعمة الإيمان. وأخاف على من توَّهم ذلك أن يُسلب الإيمان، لأنه بدَّل شكر نعمة الله كفرا» انتهى كلام الشيخ أبى طالب، وهو حسن فى هذا المعنى.

«فَاقَتُكَ ذاتيَّةٌ، وَوُرُودُ الأَسْبَابِ مَذَكِّراتٌ لَكَ بِمَا خَفِىَ عَلَيْكَ مِنْهَا. وَالفَاقَةُ الذَّاتيَّةُ لا تَرْفَعُهَا العَوَارِضُ!».

إذا ثبت أن نعمتى الإيجاد، والإمداد لازمتان لك وأنك فى ذاتك عدم لولاهما، فالفاقة إذن ذاتية لك، والاضرار لازم لوجودك، وإن كنت غنيا بوجود النعمتين المذكورتين فإن ذلك أمر عرضى، والأمور الذاية لا تزيلها الأمور العرضية.

وإنما أورد عليك الأسباب التى تضاد وجودك أو بقاء وجودك ليذكرك بذلك ما خفى عليك من وجود الفاقة الذاتية لك والاضطرار اللازم لوجودك فتلازم مركزك وتقوم بحقِّ عبوديتك ولا تجاوز حدك وطورك. قال بعضهم: «إنما حمل فرعون على قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾(٢) طول العافية والغنى، لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولا حم جسده ولم يضرب عليه عرق، فادعى الربوبية، ولو أخذته الشقيقة(٣) ساعة واحدة، أو المليلة(٤) كلّ يوم لشغله ذلك عن دعوى

---

(١) روى الحاكم والترمذى ـ وصححاه ـ عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله. قال: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبونى لحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى».

(٢) آية ٢٤ من سورة النازعات.

(٣) الشقيقة: وجع فى نصف الرأس.

(٤) المليلة: الحمى الباطنية.

الربوبية»(١).

قال فى لطائف المنن: «الاضطرار تعطيه حقيقة العبد، إذ هو ممكن، وكل ممكن مضطر إلى ممد يمده ومدد يمده، وكما أن الحق سبحانه هو الغنى أبدا فالعبد مضطر إليه أبدا، ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. ولو دخل فى الجنة فهو محتاج إلى الله تعالى فيها، غير أن غمس اضطراره فى المنة التى أفرغت عليه ملابسها، وهذا هو حكم الحقائق، إذا لا يختلف حكمها لا فى الغيب، ولا فى الشهادة، ولا فى الدنيا، ولا فى الآخرة، فالعلم صفته الكشف، أىّ علم كان، فى أى وقت كان،والإرادة صفتها التخصيص، أىّ ارادة كانت، فى أىّ وقت كانت. ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره وقد عاتب الله أقواما اضطروا إليه عند وجود أسباب الجأتهم إلى الضطرار، فلما زالت زال اضطرارهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً﴾(٢)، وقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٣).. إلى غير ذلك من الايات الواردة فى هذا المعنى، ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم سلط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطرار ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة إلهيته».

«خَيْرُ أوْقَاتك: وَقْتٌ تَشْهَدُ فيه وجُودَ فَاقَتكَ، وتُرَدُّ فيه إلى وُجُود ذلَّتكَ».

إنما كانَ ذلك خير الأوقات لوجود حضورك فيها مع ربك وانقطاع نظرك عن الوسائط والأسباب الموجبة لبعدك وحجبك، فهى لا محالة خير أوقاتك، وهى مواسمك وأعيادك حسبما يقوله المؤلف، رحمه الله، بعد ذلك.

حكى عن عطاء السلمى، رضى الله تعالى عنه، أنه بقى سبعة أيام لم يذق شيئا من الطعام ولم يقدر على شيء فَسُرَّ قلبه بذلك غاية السرور، فقال:«يارب إن

(١) إن مثل هذا الحديث يحمل على تخيل إنسان كذلك، ولا يحاول الإنسان الجدل فى الشكل مثل طول العمر، وإنما يأخذ المغزى وإذا نظر الإنسان إلى المغزى فإنه سيرى أن هذه القصة ينتهى مغزاها دون النظر إلى شكلها، إلى قوله تعالى: «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى».
(٢) آية ٦٧ من سورة الإسراء.
(٣) الآيات ٦٣، ٦٤ من سورة الأنعام.

لم تطعمنى ثلاثة أيام أخر لأصلّينّ لك ألف ركعة».

وقيل: «إن فتحا الموصلى، رضى اللّه تعالى عنه، رجع ليلة إلى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجا ولا حطبا، فأخذ يحمد اللّه تعالى ويتضرَّع إليه ويقول: إلهى لأىّ سبب وبأىّ وسيلة واستحقاق عاملتنى بما عاملت به أولياءك».

وقال بشر الحافى رضى اللّه تعالى عنه: «بلغنى أن بنتا لفتح الموصلى عريت، فقيل له: ألا تطلب من يكسوها؟ فقال: لا أكسوها حتى يرى اللّه عريها وصبرى عليها، قال: وإذا كان ليالى الشتاء جمع عياله ومال بكسائه عليهم ثم قال: اللّهم أفقرتنى وأفقرت عيالى، وجوعتنى وجوَّعت عيالى، وأعريتنى وأعريت عيالى، بأىّ وسيلة توسلت إليك وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابك، فهل أنا منهم حتى أفرح؟».

وقيل: ان الفضيل بن عياض رضى اللّه تعالى عنه بكى فى ليلة قُرَّة(١) ثم قال: إلهى أجعتنى وأجعت عيالى، وأعريتنى وأعريت عيالى، وأقعدتنى وأقعدت عيالى فى بيت ليس فيه مصباح، قديما تفعل هذا بأوليائك وأهل طاعتك، إلهى، فبأى عمل استحق هذا منك حتى أدوام لك عليه».

وقيل للربيع بن خيثم، رضى اللّه تعالى عنه: قد غلا السعر!! فقال: نحن أهون على اللّه من أن يجيعنا، إنما يجيع أولياءه.

«مَتَى أوْحَشَكَ منْ خَلْقِه، فَاعْلَمْ أنَّه يُرِيدُ أنْ يَفْتَح لَكَ بَابَ الأُنْس به».

فتحَ بَابَ الأنس باللّه تعالى هو: الاستيحاش من الناس. ولذلك قيل: «الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس».

فإذا فتح لك هذا الباب استوحشت من الأغيار كلها، وتحققت فى أنسك بربك ومعنى الوحشة هنا أن تشمئز بقلبك منهم، وتنقبض عنهم بسرك، ولا يكون للأشياء وقع عندك، ولا تجد فيها مقنعا لك، كما جاء عن أبى يزيد البسطامى رضى اللّه عنه حين اطلع على أنواع من العجائب، ووجه بسنى الرغائب، وكُشف له عن الملكوت الأعلى، فقيل له: هل استحسنت منها شيئا؟ فقال: لم أر شيئا استحسنه!! فقيل له: أنت عبداللّه حقا.

فإذا كان العبد على هذا الوصف كان ذلك علامة على تحققه بمقام الأنس،

(١) شديد البرد

ونزوله فى حضرة القدس، وسيأتى هذا المعنى فى قوله فى مناجاته: «أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم».

«متى أَطْلَقَ لسانَكَ بالطَّلب. فاعْلَمْ أنَّه يُريدُ أنْ يُعطيَكَ»

اطلاق اللسان بالطلب هو أن يحل عنه عقدة الصمت الذى أوجبه الاستغناء بالأغيار، وعدم رؤية الفاقة والافتقار، فإذا حلّ عنه هذه العقدة بشهود فقره وفاقته، وأطلق لسانه بالطلب، كان إذا ذاك داعيا بلسان الاضطرار، وكان مجاب الدعوة لصدق الوعد بإجابة دعوة المضطر، والله لا يخلف الميعاد، وأنشدوا:

لو لم تُرد نيل ما أرجوه من طلب   من فيض جودك ما ألهمتنى الطلبا(١)

وفى الحديث عن عبدالله بن عمر، رضى الله تعالى عنهما، عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «من أذن له فى الدعاء منكم فتحت له أبواب الرحم، وما يُسأل الله شيئا قط أحبُّ إليه من أن يُسأل العفو والعافية فى الدنيا والآخرة».

قال الشيخ أبوبكر الخفاف، رضى الله تعالى عنه: «وكيف لا يجيبه وهو يحب صوته ولولا ذلك ما فتح له باب الدعاء».

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): «إذا أحب الله عبدا صبَّ عليه البلاء صبًّا، وسحّه(٢) عليه سحا، فإذا دعا قالت الملائكة صوت معروف، وقال جبريل: يارب عبدك فلان أقض حاجته، فيقول الله دعوا عبدى، فإنى أحبُّ أن أسمع صوته، فإذا قال: يارب، قال الله تعالى: لبيك عبدى وسعديك، لا تدعونى بشىء إلا استجبت لك، ولا تسألنى شيئا إلا أعطيتك، إما أن أعجل لك ما سألت، وإما أن أدخر لك عندى أفضل منه، وإما أن أدفع عنك به من البلاء ما هو أعظم من ذلك».

«العَارِفُ لاَ يَزُولُ اضْطِرَارُه، وَلا يَكُون مَعَ غَيْرِ اللّه قَرَارُه».

معرفة العارفين هى معرفتهم بأنفسهم، وبما هى عليه من الفاقة والافتقار إلى

---

(١) وروى بلفظ آخر فى بعض النسخ:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه   من فيض جودك ما علمتنى الطلبا

(٢) سح الماء، صبه صبا متتابعا، روى البيهقى فى شعب الإيمان: وإذا أحب الله عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه. وروى البهيقى فى شعب الإيمان والطبرانى فى الأوسط حديثا صحيحا عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: إذا أحب الله قوما ابتلاهم».

العزيز الجبَّار وبقدر ما يتحققون بذلك من أنفسهم تكون معرفتهم بالله عز وجل كما جاء فى الخبر: «من عرف نفسه عرف ربَّه» فلذلك كان العارف لا يفارقه الاضطرار.

قال سيدى أبوالعباس المرسى رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(١). «الولىُّ لا يزال مضطرا».

قال الأستاذ تاج الدين بن عطاء قدس الله سره: «معنى كلام الشيخ هذا أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم فلو شهدوا قبضة الله تعالى الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم. وإنما لم يكن له مع غير الله قرار لوجود وحشته من الأشياء ونفوره بقلبه عنها، كما تقدم، وكأنه - رحمه الله - قصد بهذا أن يعلمك أن ما تقدم له من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب من الحق نعتان من نعوت العارفين.

«أَنَارَ الظَّواهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِه، وأَنَارَ السَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِه. لأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ الظَّواهِرِ، وَلَم تَأْفُلْ أَنْوَارُ القُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ، وَلِذلِكَ قِيلَ:

إنَّ شَمْسَ النَّهارِ تَغْرُبُ باللَّيْلِ ... وشَمْسُ القُلوبِ لَيْسَتْ تَغيبُ

أنوار الظواهر التى بها أنارها الحق تعالى، هى: الادراكات، والإحساسات والحركات التى اتصف بها ظاهر العبد.

وأنوار السرائر التى بها أنارها الحق تعالى، هى: المعارف، والعلوم، ولطائف الادراكات والفهوم التى اشتمل عليها باطنه، وسره، فأنوار الظواهر متعلقة بأنوار الآثار الحادثات، وأنوارها معانيها ولطائفها المستكنة فيها.

وأنوار السرائر متعلقة بأنوار الصفات الأزليات، ولأجل اختلاف التعلقين فى الحدوث والقدم، والغنى والفقر، والفناء والبقاء كان ما ذكره المؤلف رحمه الله من أفول أنوار ما تعلّق بالحادث الفانى وعدم أفول أنوار ما تعلق بالقديم الباقى، ثم أنشد المؤلف البيت المذكور مستشهدا به على ما ذكره، ومعناه بين، وقبله:

---

(١) آية ٦٢ من سورة النمل.

طلعت شمس من أحبُّ بليل فاستضاءت، فما لها من غروب.

وفى هذا تنبيه على أن الأمور الباقية هى التى ينبغى أن يغتبط بها ويفرح بحصولها ويعتنى بتربيتها، ومراعاة حالها بخلاف الأمور الفانية الآفلة، وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾(١).

ويروى أن رجلا سأل سهل بن عبدالله، رضى الله تعالى عنه، عن: «القوت فقال: هو الحى الذى لا يموت، فقال: إنما سألتك عن القوام!! فقال: القوام هو العلم، فقال: إنما سألتك عن الغذاء!! فقال: الغذاء هو الذكر، فقال: إنما سألتك عن طُعم الجسد!! فقال: مالك وللجسد،، دع من تولاه أولا يتولاها آخرا، إذا دخلت عليه علة فرده إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت رُدت إلى صانعها حتى يصلحها؟ وفى معناه أنشدوا:

كَمِّل حقيقتك التى لم تكمل
والجسم دعه فى الحضيض الأسفل
أتكمِّل الفانى وتترك باقيا
هملا، وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلةٌ
ما لم تحصله بها لم يحصل
يفنى، وتبقى دائما فى غبطة
أو شقوة وندامة لا تنجلى
أعطيت جسمك خادما فخدمته
أتملك المفضول رق الأفضل
شرك كثيف أنت فى أحباله
مادام يمكن الخلاص فعجل
من يستطع بلوغ أعلى منزل
ما باله يرضى بأدنى منزل!!

وقيل فى هذا المعنى أيضا:

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته
وتطلب الربح فيما فيه خسران

(١) آية ٧٦ من سورة الأنعام.

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

لِيُخفِّفْ أَلَمَ البَلاء عنك علْمُكَ بأنَّه سُبْحَانَهُ وتعالى هُوَ المُبْلى لَكَ.. فالذى واجَهَتْكَ مِنْهُ الأَقْدَارُ، هُوَ الَّذى عَوَّدَكَ حُسْنَ الاخْتيَار.

إذا علم العبد أن الله تعالى رحيم به، ومتعطف عليه، وناظر إليه، فكل ما يورده عليه من أنوا ع البلايا والرزايا ينبغى له ألاَّ يكترث بذلك، ولا يباليه فإنه لم يتعود منه إلا خيرا له، فليحسن به ظنه، وليعتقد أن ذلك اختيار له، وأنّ له فى ذلك مصالح خفية لا يعلمها إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(١) قال أبوطالب المكى فى هذه الآية: «فالعبد يكره العَيْلَة(٢) والفقر والخمول والضر وهو خير له فى الآخرة، وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شر له عند الله تعالى وأسوأ عاقبة.

وفى معنى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٣) قيل: ظاهرة: العوافى، وباطنة، البلايا، لأنها نعمة فى الآخرة.

فإذن كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة كائنا ما كان، فله الحمد على نعمه قال فى «التنوير»: «إنما يقويهم على حمل أقدارهم شهود حسن اختياره وأنشد فيه لنفسه بقوله:

وخفف عنى ما ألاقى من العنا
بأنك أنت المتبلى والمقدر
وما لا مرىء عما قضى الله معدل
وليس له منه الذى يتخير

وكان الأستاذ أبوعلى الدقاق، رضى الله عنه يقول: «جربت مرة وكنت فى صورة وحشة من ذلك، فدخلت الحمام ففتح على قلبى بشىء من الرضا فكنت ألثم كلَّ واحدة من تلك القروح فخرجت ولم يبق منها أثر».

---

(١) آية ٢١٦ من سورة البقرة.
(٢) الفقر.
(٣) آية ٢٠ من سورة القمان

وقال الأستاذ أبوالقاسم القشيرى، رضى الله عنه: سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول فى آخر عمره، وقد اشتدت به العلة: «من أمارات التأييد حفظ التوحيد فى أوقات الحكم»، ثم قال كالمفسر لقوله مشيرا إلى ما كان فيه زمن حالة «هو أن يقرضك بمقاريض القدرة فى إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن خامد».

وقال الجنيد، رضى الله عنه: «كنت نائما عند سرى السقطى، رضى الله عنه فنبهنى وقال لى: يا جنيد رأيت كأنى قد وقفت بين يديه فقال: ياسرى خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتى، فخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم وبقى معى العشر، وخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر، وبقى معى عشر العشر، وخلقت النار فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر عشر العشر، فقلت للباقين معى: لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم، ولا من النار هربتم، ولا من البلاء فررتم فماذا تريدون؟ قالوا: إنك تعلم ما نريد فقلت لهم: إنى أُسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسى أتصبرون؟ قالوا: اذا كنت أنت المبتلى فافعل ما شئت، فهؤلا عبادى حقا».

«مَنْ ظَنَّ انْفكاكَ لطفه عَنْ قَدَره، فذلكَ لقُصور نَظَره!».

قصور النظر فى عدم رؤية اللطف فى القدر إنما هو من ضعف اليقين وقلة حسن الظن بالمقدر الحكيم، ولو كمل نظر العبد وقوى بصره لرأى فى ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يحصى وما غاب عنه أكثر، ولكان كما روى بعض الصالحين والعارفين أنه قال: «لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول»، وكان عمران بن الحصين رضى الله عنه قد استسقى(١) ببطنه، فلبث ملقى على ظهره سطيحا ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد، قد نقب له على سرير من جريد، وكان تحته نقب لغائطه وبوله، فدخل عليه مطرف أو أخوه «العلاء بن الشخير» فجعل يبكى لما رأى من حاله، فقال له: لم تبكى؟ قال: لأنّى أراك على هذه الحالة العظيمة. قال: لا تبك فإنى أحبُّ ما أحبه الله تعالى إلىّ. ثم قال: أحدثك بشىء لعلّ الله تعالى ينفعك به واكتم علىّ حتى أموت: إنَّ الملائكة تزورنى فآنس بهاوتسلم على فأسمع تسليمها.

(١) سقى بطنه من باب رمى، واستسقى: أى اجتمع فيه ماء أصفر عن مرض.

وقال بعضهم: دخلنا على «سويد بن شعبة» نعوده، فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف، فقالت له امرأته، أهلى فداؤك، ما نطعمك وما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة، ودبرت الحراقيف(١) وأصبحت نضوا(٢) ما أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا.. فذكر أياما، ثم قال: ما يسرنى أن نقصت من هذا قلامة(٣) ظفر».

فهؤلاء شاهدوا فى بلايا عطاياه، وفى محنة مننه، وفى عنفه لطفه، فأوجب لهم ذلك من الرضا بما هم فيه والتنعم به والتلذذ ما حملهم على أن لا يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه.

ووجوه الألطاف والمنن فى البلايا لا تحصى، ولكنا نذكر منها ها هنا ما يزداد المريد به قوة، وحسن ظن بربه عز وجل، ويحمله ذلك على القيام بواجبها، فنقول: البلايا التى يبتلى الله بها عباده مناقضة لارادتهم ومنغصة لشهواتهم وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها فهو محمود العاقبة من قبل أن ذلك رادٌّ له إلى الله تعالى وملازمة بابه بصدق اللجاء والافتقار، وهذا هو أعظم فوائد البلايا ويجد ذلك من نفسه كلٌّ من نزلت به بلية أو أصابته رزية، وفيها أيضا ضعف النفس وذهاب قوتها وبطلان صفاتها، إذ بوجود ذلك يقع العبد فى الذنوب والمعاصى، وتتأكد منه الرغبة فى الدنيا، والحرص على اتباع الهوى.

وقد قيل «لا يخلو المؤمن من علة أو عيلة، أو ذلة أو قلة». وفى الخبر عن الله تعالى: «الفقر سجنى، والمرض قيدى أحبس بذلك من أحببت من عبادى». وفيها أيضا تحصل له طاعات القلوب وأعمالها، وذرة منها خير من أمثال الجبال من

أعمال الجوارح، وذلك مثل: الصبر، والرضا، والزهد والتوكل، وحب لقاء الله تبارك وتعالى.

قيل لعبد الواحد بن زيد، رضى الله عنه: «ها هنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال: أخبرنى عنك، هل قنعت به؟ قال: لا. قال: فهل أنست به؟ قال: لا. فهل رضيت عنه؟ قال: لا. قال فإنما مزيدك منه الصلاة والصيام؟ قال: نعم. قال: لولا أنى أستحى منك لأخبرتك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة!!».

قال أبوطالب المكىّ رضى الله عنه: أراد بذلك أنه لم يرفعك بأعمالك إلى

---

(١) الحراقيف: جمع حرقفة، والحرقفة: رأس الورك. ودبرت: ماتت أو ضعفت وشلت.

(٢) مهزولا.

(٣) القلامة: ما سقط من الشىء المقلوم، وقلم الظفر: قطع ما طال منه.

مقامات المقرّبين فيوجدك مواجد العارفين فيكون مزيدك منه أعمال القلوب التى يستعمل بها كل محبوب مطلوب، لأن القناعة به حال الموقن، والأنس به مقام المحبّ، والرضا وصف المتوكل، أى: إنما أنت عنده فى طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح، وهذه إشارة إلى ما قلناه من أفضلية أعمال القلوب على أعمال الجوارح، فمن وفقه اللّه تعالى إلى منازلة هذه المقامات وتوفية حقوقها فى البلايا النازلة به فقد حصل على كنوز البر.

وذكر أبوإبراهيم اسحاق بن إبراهيم التجيبى القرطبى المالكى، رحمه اللّه، فى كتاب «النصائح» له: «أن عروة بن الزبير (١)، رضى اللّه عنه، امتحن بقرحة فى ساقه بلغت به إلى نشر عظم ساقه فى الموضع الصحيح منها، فقال له الأطباء ألا نسقيك مُرْقِداً(٢) فلا تُحس بما نصنع بك؟ فقال: لا، ولكن شأنكم بها. فنشرت الساق، ثم حموها بالنار، فما حرك عضوا، ولا أنكروا منه، حتى مسَّته النار، فما زاد على أن قال: حسبى.

وأصيب حينئذ ابنه محمد، وكان من أحب ولده إليه، فلما رأى القدم بيد بعضهم قال: أما إن اللّه تعالى علم أنى لم أمش بها إلى معصية قط، ثم قال: ياغلام، اغسلها وكفنها وادفنها فى مقبرة المسلمين، ثم جعل يقول: لئن أفنيت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لطالما أعطيت.

وذكر «ابن قتيبة» فى «عيون الأخبار» له عن «المدائنى» قال: «قدم رجل من «عبس» ضرير محطوم الوجه على الوليد، فسأله عن سبب ضره، فقال: بت ليلة فى بطن وادى ولا أعلم على وجه الأرض «عبسيا» يزيد ماله على مالى، فطرقنا(٣) سيل اذهب ما كان لى من مال وأهل وولد إلا صبيا رضيعا، وبعيرا صعبا، فندّ(٤) البعير والصبى معى، فوضعته، واتبعت البعير لأحبسه، فما

---

(١) هو: عروة بن الزبير بن العوام الأسدى القرشى. أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان عالما بالدين صالحا كريما لم يدخل فى شىء من الفتن. قدم مصر وتزوج وأقام بها سبع سنوات وعاد إلى المدينة فتوفى بها سنة ٩٣هـ - ٧١٢م.

(٢) المرقد «بضم الميم وكسر القاف»: دواء يرقد شاربه كالأفيون.

(٣) طرقنا: أتانا ليلا.

(٤) ند البعير: نفر وذهبْ شاردا.

جاوزت إلا ورأس الولد فى بطن الذئب قد أكله، فتركته، واتبعت البعير، فاستدار، فرمحنى(١) رمحة حطم بها وجهى وأذهب عينى، فأصبحت لا ذا مال، ولا ذا أهل، ولا ذا ولد، ولاذا بدن. فقال الوليد، اذهبوا به إلى «عروة» ليلعم أنَّ فى الناس من هو أعظم بلاء منه».

وروى عن عبدالواحد بن زيد، رضى اللّه تعالى عنه، أنه خرج مع بعض اخوانه إلى ناحية من نواحى البصرة، فأواهم(٢) السير إلى كهف جبل، فإذا فيه عبد مقطع بالجذام، يسيل جسده قيحا وصديدا، فقالوا له: يا هذا، لو دخلت البصرة فتعالجت من هذا الذى بك، فرفع طرفه إلى السماء وقال: ياسيدى بأىّ ذنب سلطت علىَّ هؤلاء ليسخطونى عليك ويكرّهونك إلىَّ، سيدى لك العتبى من ذلك الذنب، واستغفرك منه ولا أعود فيه أبدا. قال: ثم أعرض عنا بوجهه، فانصرفنا، وتركناه.

وروى عن بشر بن الحارث الحافى، رضى اللّه تعالى عنه، أنه قال: «رأيت بـ«عبادان» رجلا قد قطعه البلاء وقد سالت حدقتاه على خديه وهو مع ذلك كثير الذكر عظيم الشكر للّه تعالى. قال: وإذا هو قد صرع من جنة به، قال: فوضعت رأسه فى حجرى وجعلت أسأل اللّه تعالى أن يكشف ما به وأدعو، فأفاق، فسمع دعائى، فقال: من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى ويعترض عليه فى نعمته علىَّ!! ونحى رأسه من حجرى. قال بشر: فعاقدت اللّه تعالى أن لا أعترض على عبد فى نعمة أراها عليه من البلاء.

وقد روى فى بعض الأخبار: أن يونس وجبريل عليهما الصلاة والسلام التقيا، فقال يونس لجبريل: دلنى على أعبد أهل الأرض، فأتى به على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه. قال: وإذا هو يقول: «متعتنى بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت، وأبقيت لى فيك الأمل يا بر يا وصول. فقال يونس: يا جبريل، إنما سألتك أن ترينى صوَّاما قوَّاما!!قال: إن هذا كان قبل البلاء هكذا، وقد أُمرتُ أن أسلبه بصره، فأشار إلى عينيه فسالتا، فقال: متعتنى بهما حيث شئت، وسلبتنيهما حيث شئت، وأبقيت لى الأمل فيك يا برُّ يا وصول. فقال جبريل، هلم تدعو وندعو معك أن يرد اللّه عليك يديك، ورجليك، وبصرك، فتعود إلى العبادة التى كنت فيها، فقال: ما أحب ذلك، قال: ولم؟ قال: إذا كانت محبته فى هذا

---

(١) رمحته الدابة: رفسته.
(٢) أنزلهم.

فمحبته أحبُّ إليَّ من ذلك. قال يونس: ياجبريل، والله ما رأيت أحد أعبد من هذا. قال جبريل: يايونس، إن هذا طريق ليس يتوصّل إلى رضاه بشىء أفضل منه».

وفى الخبر: «إذا أحبَّ الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه» وفيها أيضا يحصل له كفارة الذنوب والخطايا، ويستوجب من الله جزيل الهبات والعطايا، ولا سبيل له إلى ذلك إلا بما يرد عليه من أنواع البلايا لأن العبد قد يعجز عن القيام بوظائف الطاعات، ويتكاسل عن المواظبة على نوافل الخيرات، فيكون حينئذ محروما من ثوابها غير حاصل له تكفير سيئاته بها، وإن قدر عليها ولم يتكاسل عنها لم يأمن تخليصها من الشوائب وتسليمها من الآفات والمعايب، وحينئذ يبطل عمله، ويخيب من انتفاعه به أمله، فليحسن العبد ظنه بمولاه، وليعلم أن ما اختاره له خير له مما يختاره لنفسه بشهواته وهواه.

فقد روى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال للرجل الذى قال له: أوصنى، قال: « لا تتهم الله فى شىء قضاه عليك».

وذكر مسلم، رحمه الله من حديث، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): «عجبا لأمر المؤمن: إ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابه خير فشكر كان خيرا له، وإن أصابه ضرٌّ فصبر كان خيرا له».

وذكر البخارى ومسلم فى صحيحهما من حديث أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، رضى الله عنهما، أنهما سمعا رسول الله (ﷺ) يقول: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهمَّ يهمهُ إلا كفّر الله به من سيئاته».

وذكر أيضا من حديث عبدالله بن مسعود، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ الله تعالى عنه به سيئاته كما تحطُّ الشجرةُ أوراقها».

وذكر البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله (ﷺ): «ما من مسلم يُشاك بشوكة فما فوقها إلا كتبت له درجة ومُحيت عنه بها خطيئة».

وذكر البخارى أيضا عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): «من يرد الله به خيرا يصب منه».

وفى حديث أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ):

«مثل المريض إذا برئ وصح من مرضه كمثل البَرَدة(١)، تقع من السماء فى صفائها ولونها».

وروى عن عيسى عليه السلام، أنه قال: «لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده، وماله، لما يرجو بذلك من كفارة خطايا».

وروى عن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أخبار كثيرة فى الحمى والعمى وغير ذلك.

وروى البزّار من حديث أبى سعيد الخدرى رضى اله عنه: «أنه دخل على رسول اللّه (ﷺ)، فوضع يده عليه، وعليه حمى، فوجد حرَّها من فوق اللحاف، فقال: ما أشدها عليك يارسول اللّه!! قال: «إنا كذلك يشتد علينا البلاء ليضاعف لنا الأجر»، قال: يارسول اللّه: أىّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون: ان كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا عباءة يحويها(٢). وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء».

وقيل فى معنى قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(٣) أى: من الآثام والذنوب بالحمى والأمراض، كما قال رسول اللّه (ﷺ) فيما يروى عنه للحمى: «اذهبى إلى أهل قباء» وقد روى فى بعض الأخبار بدلا من أهل قباء «الأنصار» ففيه أن النبى (ﷺ) «رأى يوما شخصا أسود، فقال: من أنت؟ فقالت: أم ملدم، آكل اللحم وأشرب الدم وحرى من فيح جهنم، صورة الحمى. فقال عليه السلام: اذهبى إلى الأنصار فإنّ لهم علينا حقوقا. فأصبح النبى (ﷺ) فلم ير أحدا من الأنصار حضر الصلاة، فطلبهم، فقيل: أخذتهم الحمى: فقال: فقوموا بنا نعودهم. وقال لهم: الحمى طهارة وكفارة فقالوا: يارسول اللّه، ادع اللّه حتى يزيدنا منها».

وذكر مسلم، رحمه اللّه من حديث جابر رضى اللّه عنه، «أن رسول اللّه (ﷺ) دخل على أم السائب «أو أم المسيب» فقال: مالك يا أم السائب أو أم المسيب» فقال: ترفرفين؟ قالت: الحمى، لا بارك اللّه فيها!! فقال: لا تسبى الحمى فإنها

---

(١) البردة واحدة البرد، والبرد: حب الغمام المعهود، وهو ماء الغمام يسقط جامدا لشدة البرد.
(٢) أى: يملكها.
(٣) من الآية ١٠٨ من سورة التوبة.

تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير(١) خبث الحديد».

وذكر البخارى من حدث أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: إن الله - عز وجل - قال: إذا ابتليت عبدى المؤمن بحبيبتيه، ثم صبر، عوضته منهما الجنة» يريد: عينيه. كذا قال فى آخر الحديث من قول أحد الرواة والحبيبتان، هما العينان، وهما الكريمتان أيضا.

وروى أن أنس بن مالك، وأبا ظلال، رضى الله عنهما، كانا فى بيت «ثابت البنانى» فقال أنس: ياأبا ظلال، متى فقدت بصرك؟ قال: وأنا صبى لا أعقل فقال: ألا أحدثك حديثا حدثنيه حبيبى رسول الله (ﷺ)، يرويه عن جبريل، ويرويه جبريل عن ربه عز وجل، «قال: ياجبريل، ما جزاء من سلبت كريمتيه قال: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود فى دارى والنظر إلى وجهى».

ومن طريق هلال بن سويد، وهو أبوظلال المذكور، أنه سمع أنسا، رضى الله عنه، يقول: «مر بنا ابن أم مكتوم، فسلم، فقال رسول الله (ﷺ): ألا أحدّثكم بما حدّثنى به جبريل عليه اللام عن هذا وأضرابه الذين ذهبت أبصارهم؟ قال رسول الله (ﷺ): حدّثنى جبريل أن الله عز وجل يقول: حقٌّ عليَّ: من أخذت كريمتيه ليس له جزاء إلا الجنة».

وفى حديث بريدة عن النبى (ﷺ) قال: «ما أصيب عبد بعد دينه بأشد من ذهاب بصره، وما ذهب بصر عبد فصبر إلا لقى الله ولا حساب عليه».

وذكر البخارى ومسلم، رحمهما الله تعالى، من حديث ابن عباس، رضى الله عنهما، «أن امرأة سوداء أتت النبى (ﷺ) فقالت: يارسول الله إنى أصْرع(٢)، وإنى انكشف، فادع الله لى، قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك. قالت: أصبر. ثم قالت: فإنى أتكشف، فادع الله ألا انكشف. فدعا لها» إلى غير ذلك مما روى عن النبى (ﷺ) فى هذا الباب مما لا يحصى كثرة.

---

(١) زق ينفخ فيه الحداد.

(٢) صرع: أصابه الصرع، والصرع: علة تمنع الأعضاء النفسانية عن أفعالها منعا غير تام. وفى المصباح المنير. الصرع: مرض يشبه الجنون.

وفيها أيضا يحصل له تجديد التوبة وأداء الحقوق والتبعات والظلامات وكثرة الاستغفار، وحسن التذكار، وكثرة ذكر الموت، إذْ ذاك أبلغ ما يذكر به، فقد قيل: «الحمىّ بريد(١) الموت». وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(٢) أى: يختبرون بها.

وفى حديث عائشة وأنس رضى الله عنهما «قيل: يارسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ قال: نعم، من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة» وفى لفظ الحديث الآخر: «من يذكر ذنوبه فتحزنه».

وقد كان السلف، رضى الله عنه، يستوحشون(٣) إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أو أمال.

ويقال: «لا يخلو المؤمن فى كلّ أربعين يوما أن يراع «يروع» بروعة، أو يصاب بنكبة». وكانوا يكرهون فقد ذلك فى هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشىء.

وفيها أيضا يقع له خلف ما يفوته من الطاعات ونوافل العبادات فيكتب له فى مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك فى صحته، وذلك أبلغ له فى الوصول إلى غرضه، لأنه من اختيار الله تعالى له، وهو خير مما اختاره لنفسه، وفى الخبر: يقول الله تعالى لملائكته اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمله فى صحته، فإنه فى وثاقى إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتى».

وفى الحديث الصحيح من حديث أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه،

---

(١) قال فى المصباح المنير: البريد: الرسول، ومنه قول بعض العرب «الحمى بريد الموت» أى رسوله.
(٢) الآية ١٢٦ من سورة التوبة.
(٣) استوحش. ضد استأنس، أى وجد الوحشة أو شعر بها.

قال: قال رسول الله(ﷺ): «إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحاً» إلى غير ذلك من الألطاف التى لا نعلمها، وإنما ذكرنا هذه المعانى هاهنا، لأنها لائقة بكلام المؤلف - رحمه الله - وكأنها مفسرة له وأيضاً فإن العبد محتاج إليها غاية الاحتياج، لأنه فى حال نزول البلايا يتسخط، ويجزع، ويضطرب إيمانه، ويتزلزل إيقانه، فيحتاج إلى مذكر يذكره بأمثال هذه المعانى، ليحصل له بذلك من الرضا وحسن الظن بالله تعالى والمحبة له ما يرجى له بذلك إن مات من فوره حسنُ الخاتمة وحبُّ لقاء الله تعالى. والأعمال بخواتيمها.

وهذا الغرض هو الذى أوجب لنا فى هذا الفصل الإكثار من الحكايات وإظهار نسبة أكثر الأحاديث فيه إلى رواتها الثقات، لتطمئن قلوب أهل البلاء بذلك وتسلك إلى الله واضحات تلك المسالك والله ولى التوفيق.

لا يُخَافُ عَلَيْكَ أنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ عَلَيْكَ. وَإنمَا يُخَافُ عَلَيْكَ منْ غَلَبَة الهَوَى عَلَيْكَ».

الطريق إلى الله تعالى واضحة لائحة، لأن الحق تعالى هو الذى تولى ذلك، وبه أنزل الكتب وأرسل الرسل ونصب عليه الأدلة والبراهين، فلا يخاف على العبد من التباسها عليه، وإنما يخاف من غلبة الهوى عليه حتى يعميه ذلك عن ربه(١).

قال أحمد بن خضرويه(٢) البلخى - رضى الله عنه - «الطريق واضح، والحق لائح، والداعى قد اسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمى».

«سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سرَّ الخُصُوصيَّة بظُهور صَفات البَشريَّة، وظَهَرَ بعظَمَة الرُّبوبيَّة فى إظهار وَصْف العُبُوديَّة»!

سر الخصوصية، هو: حقيقة المعرفة التى اختص بها أهل ولاية الله تعالى بحيث لا يبقى معها وجود لغير ولا كون.

وذلك لما جعله فيهم من التهيؤ والقابلية، فمن لطيف حكمة الله تعالى أن ستر ذلك بما أظهره من البشرية التى من لوازمها وجود الغير والكون. ولولا هذا الستر لكان سر الله مبتذلاً غير مضمون، كما قال فى «لطائف المنن»:

---

(١) وفى نسخة: عن رؤيتها.

(٢) هو: أبوحامد بن خضرويه البلخى من كبار مشايخ خراسان، صحب أبا تراب النخشبى، قدم نيسابور وخرج إلى بسطام ومات سنة ٢٤٠هـ عن خمس وتسعين سنة.

«ولابد للشمس من سحاب، وللحسناء من نقاب». ثم إن من حقيقة ظهور البشرية الاتصاف بصفة الافتقار والاحتياج وغير ذلك من أوصاف الحدوث.

وذلك هو حقيقة التأله والتعبد، فظهر لنا من ذلك لزوم وجود إله معبود، وهذه هى عظمة الربوبية التى ظهرت لنا من وراء حجاب العبودية، ولولا ذلك لكان باطناً لا يظهر كما قال سيدى أبو الحسن الشاذلى ـ رضى الله عنه ـ: «العبودية جوهرة أظهرتها الربوبية» فسبحان اللطيف الخبير، ومن هو على كل شىء قدير. والتسبيح الذى ذكره المؤلف هاهنا فى غاية المناسبة لما ذكره من المعنى.

«لاَ تُطالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ، وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أدَبِكَ».

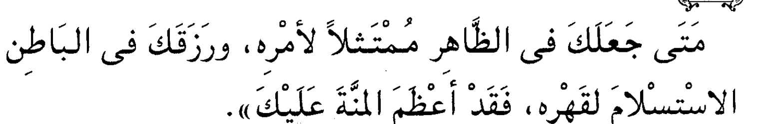
إذا دعوت ربك بتأخر مطلباً من المطالب ولم تظهر لك الإجابة فحسن به ظنك ولا تطالبه بالوفاء بذلك، فإنه يفعل ما شاء لا يسأل عما يفعل، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك، فإنها أهل للمطالبة، وسوء أدبها من وجوه:

أحدها: أنك دعوت لتجاب فى دعائك، فيحصل لك بذلك غرض، وهذا مما يقدح فى كمال عبوديتك، وسيأتى هذا المعنى عند قوله: «لا يكن طلبك سبباً إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بأحكام الربوبية».

والثانى: اعتقادك أنه لم يستجب لك، إذ ظهر لك عدم الإجابة منه، وليس من شرط الإجابة أن تظهر لك، بل له أن يخفيها عنك لما فى ذلك من المصالح، والإجابة إليه أمرها يجعلها ما شاء مما تعلمه أو تجهله. وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: «لا يكن تأخير أمر العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجباً ليأسك.. إلخ».

والثالث: وهو أشد: اعتراضك على ربك فى حكمه ومطالبتك له إذا تأخرت إجابته عليك.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ الحالة التى يكون عليها العبد قائماً بحق الأدب، وواصلاً إلى غاية الأرب فقال:



«مَتَى جَعَلَكَ فِى الظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لأَمْرِهِ، وَرَزَقَكَ فِى البَاطِنِ الاسْتِسْلامَ لِقَهْرِهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ المِنَّةَ عَلَيْكَ».

هذان الأمران هما اللذان يلزمانك فى إقامة العبودية لربك لا غير، فمتى يسرهما الله تعالى لك، وأقامك فى مراعاة أحكامهما ووفقك لذلك، فقد أعظم المنة عليك، فلماذا تتشوف؟! وما الذى تلتمس بعدهما إن كنت عبداً حقيقياً؟!

قال سيدى أبو الحسن ـ رضى الله عنه ـ: «صحبت أخاً فى الله تعالى فى البادية واعتزلنا فى مغارة عسى أن نكون من أولياء الله تعالى وأن يفتح علينا بما فتح الله عليهم، فأقمنا زماناً نقول: لعل فى هذه الجمعة.. لعل فى هذا الشهر. فلم يفتح الله علينا، فنحن كذلك وإذا بشيخ على باب المغارة يستأذن فأذنا له، فدخل، فسلم، ووقف، فقلنا له: مَن أنت؟ فقال: عبدالملك، فعلمنا منه أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حالك.. «كيف حالك..» يرددها كالمنكر علينا.. ثم قال: كيف حال من يقول لنفسه فى هذه الجمعة أكون ولياً.. فى هذا الشهر أكون ولياً.. فلا ولاية، ولا فلاح ولا دنيا، ولا آخرة، يا نفس ألا تعبدين الله تعالى كما أمرك مخلصة لوجهه كما أمرك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١) ثم انصرف عنا فانتبهنا لغلطتنا وتيقظنا: من أين دخل علينا؟! وعلمنا أن الله تعالى، رحمنا به، فرجعت على نفسى باللوم والتوبيخ، وقلت لها يا نفس!! من أنت؟ وما عملك؟ وما خطرك؟! أنت لا شىء. وتبنا واستغفرنا الله تعالى. قال: ففتح الله علينا بجوده وفضله.

«لَيْس كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُه كَمَلَ تَخْلِيْصُه»!

التخصيص هاهنا، هو: أن يظهر الحق تعالى على بعض عباده أثرته، وعنايته، وتولية لطفه ورعايته فمنهم من يستمر له ذلك حتى يتحقق بالعرفان، ويتخلص من رؤية الأغيار والأكوان، وهؤلاء هم خواص المقّربين أهل العلم بالله والحب له. ومنهم من يوقفه عن بلوغ ذروة الكمال ويريه(٢) فى حاله بما يليق به من علوم وأعمال، وهؤلاء عامة المقربين وخاصة أصحاب اليمين العباد الزهاد، وأهل المجاهدة والأوراد، وهؤلاء وإن شاركوا الأولّين فيما يتحفهم الحق تعالى من

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات

(٢) وفى نسخة: يربيه.

لطائف الكرامات، وفيما يمنحهم إياه من القيام بوظائف الطاعات والعبادات فلم يتخلصوا من رؤية نفوسهم، ولم ينفكوا عن مراعاة حظوظهم، بل هم ساكنون إلى الأسباب، مرتبطون(١) بوجود الحجاب. وقد يختص الله تعالى هؤلاء بإظهار الكرامات على أيديهم، ويسببهم(٢)، تسكيناً لنفوسهم وتثبيتاً لليقين فى قلوبهم، ويمنعها الأولين، لأنهم لا يحتاجون إليها، لما هم فيه من الرسوخ فى اليقين، والقوة والتمكين كما قال صاحب كتاب «عوارف المعارف».

وقد يكون من لا يكاشف بشيء من معانى القدر أفضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة، فالقدرة أثر ا لقادر، ومن أهل القرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئاً من القدرة ويرى القدرة تتجلى له من سجف(٣) أجزاء عالم الحكمة.

وسئل الشبلى ـ رضى الله عنه ـ وقيل له: إن أبا تراب ذكر أنه جاع فى البادية فرأى البادية كلها طعاماً. فقال: عبد رفق به ولو بلغ إلى محل التحقيق لكان كمن قال: إنى أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى.

قال فى «لطائف المنن»: «واعلم أن الكرامات تارة تظهر للولى نفسه، وتارة تظهر منه لغيره، فإن ظهرت للولى فى نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله، وفرديته، وأحديته، وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب، وأن العوائد هو حاكم عليها ليست هى حاكمة عليه، وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحديته، فالواقف عندها مخذول والنافذ منها إليه من هو بالعناية موصول.
قال: وقال الشيخ أبوالحسن ـ رضى الله عنه ـ: «فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية بجمع لا يفترق وأمر لا يفتقد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد لا يستوى من تعرف الله إليه بنوره بمن تعرف إلى الله بعقله، ولأجل أنها تثبيت لمن ظهرت له ربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم، وفقدها أهل النهايات فى نهاياتهم، إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبت.

---

(١) وفى نسخة: مغترطون.
(٢) وفى أكثر من نسخة: ويسلبهم.
(٣) السجف(بفتح السين وكسرها) وجمعه سجوف وأسجاف: الستران، بينهما فرجة أو الشق من السترين المقرونين على الباب.

وهكذا كان السلف ـ رضى الله عنهم ـ لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى إلى ظهور الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية ولا يحتاج الجبل إلى مرساة. فالكرامة رافعة لزلزلة الشك فى المنة ومعرفة بفضل الله تعالى فيمن ظهرت عليه وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه.

والناسُ فى الكرامات على ثلاثة أقسام:

قوم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من ظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه.

وقسم قالوا: وما هى الكرمات؟ إنما هى خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا بها على حدودهم حتى لا يلحقوا مقاماً ليس هو لهم، حتى قال أبو تراب النخشبى لأبى العباس الرقى: ما يقول أصحابك فى هذه الأمور التى تكرم الله بها على عباده؟ فقال: ما رأيت أحداً إلا وهو مؤمن بها، فقال أبو تراب: من لم يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال.

فقال: ما أعرف لهم قولا. فقال أبوتراب: بل قل زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع فى حال السكون إليها، فأما من لم يفرح بها ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين. وكان هذا من أبى تراب ـ رضى الله عنه بعد أن عطش القوم وهم أصحابه، فضرب بيده الأرض فنبع الماء فقال فتى: إنى أريد أن أشربه فى قدح، فضرب بيده الأرض فناوله قدحاً من زجاج أبيض فشرب وسقانا، قال أبوالعباس الرقى: ومازال القدح معنا إلى مكة.

قال الشيخ أبوالحسن: «والقول الفصل فى ذلك: أنه لا ينبغى أن تطلب أدباً مع الله تعالى، ومن ظهرت عليه عظم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى».

قال: «والقسم الثالث: وهو أن تظهر الكرامات فى الولى لغيره، والمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذى شهدها بصحة طريق هذا الولى الذى ظهرت عليه الكرامة إما أن يكون جاحداً إلى الاعتراف، أو كافراً فيعود إلى الإيمان، أو شاكاً فى خصوصية هذا العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان» انتهى كلامه.

قال أبوالنصر السراج: «سألت أبا الحسن بن سالم فقلت له ما معنى الكرامات وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختياراً، وكيف أكرموا بأن تجعل لهم الحجارة ذهباً، فما وجه ذلك؟ فقال: لا يعطيهم ذلك لقذرها، ولكن يعطيهم ذلك

حتى يحتجوا بذلك على نفوسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذى قسم الله لهم، فيقولون: الذى يقدر على أن يصير لك الحجارة ذهبا كما هو ذا تنظرين إليه قادر على أن يسوق إليك رزقك من حيث لا تحتسبين، فيحتجوا بذلك على تصحيح نفوسهم عند فوت الرزق ويقطعوا بذلك حجج نفوسهم، فيكون ذلك سبباً لرياضة نفوسهم وتأديباً لها.

قال أبونصر: «وقد حكى لنا ابن سالم فى معنى ذلك حكاية عن سهل ابن عبدالله عنه أنه قال: كان رجل بالبصرة يقال له «إسحق بن أحمد» وكان من أبناء الدنيا فخرج من الدنيا، أعنى من جميع ماله، وتاب، وصحب سهلاً فقال يوماً لسهل: يا أبا محمد، إن نفسى هذه ليست تترك الصياح والصراخ من خوف فوت القوت والقوام(١)، فقال له سهل: خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاماً تأكله، فقال له: ومن إمامى فى ذلك حتى أفعل؟ فقال: إمامك إبراهيم - عليه السلام - حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(٢) المعنى فى ذلك: أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين، لأن من جبلتها(٣) الشك، فقال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى حتى تطمئن نفسى فإنى مؤمن بذلك، والنفس لا تطمئن إلا برؤية العين.

قال: فكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديباً لنفوسهم وتهذيباً لها، وزيادة لهم» انتهى كلام أبى نصر.

وقال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات إلا على أيدى البله من الصادقين.

وكان رجل يصحب سهل بن عبدالله - رضى الله عنه - فقال له يوماً: ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يدى قضبان ذهب وقضبان فضة. فقال سهل أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا «خشخاشة»(٤) ليشتغلوا بها.

وحكى جعفر الخالدى عن الجنيد - رضى الله عنه - قال: جاءنى أبوحفص النيسابورى مرة ومعه «عبدالله الرباطى» وجماعة وكان فيهم رجل أصلع قليل الكلام فقال يوماً لأبى حفص: قد كان فيمن مضى لهم الآيات الظاهرة «يعنى بها

---

(١) القوام(بكسر القاف) والقوام(بفتح القاف): ما يكفى الإنسان من القوت.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠.
(٣) طبيعتها.
(٤) قال فى المصباح: الخشخاخ بفتح الأول نبات معروف، الواحدة خشخاشة.

الكرامات» وليس لك شيء من ذلك!! فقال أبوحفص - رضى الله عنه -: تعالى، فجاء به إلى سوق الحدادين إلى كير عظيم، فأحمى فيه حديدة عظيمة، فأدخل يده فى الكير فأخذ الحديدة المحماة فأخرجها فبردت فى يده، فقال له: يجزيك هذا!! فسئل بعضهم عن معنى إظهار ذلك من نفسه فقال: كان مشرفاً على حاله فخشى على حاله أن يتغير عليه إن لم يظهر له ذلك، فخصه بذلك شفقة عليه وصيانة لحاله، وزيادة لإيمانه، بل ربما ينفر عنها العارفون، ويخاف المحققون.

قال بعض السلف: ألطف ما يخادع به الأولياء الكرامات والمعونات.

وذكر عن أبى حفص، أو غيره أنه كان جالساً وحوله أصحابه فنزل ظبى من الجبل فبرك عندهم، قال: فبكى أبوحفص فسئل عن بكائه فقال: كنتم حولى فوقع فى قلبى أن لو كان لى شاة لذبحت لكم، فلما برك هذا الظبى عندنا شبهت نفسى بفرعون حين سأل الله تعالى أن يجرى معه النيل فأجراه معه، فبكيت وسألته الإقالة مما تمنيت وأطلقت الظبى.

ويحكى أن بعض الأبدال قال لتلميذ من تلامذة الشيخ أبى مدين - رضى الله عنه -: ما بالنا لا يعتاص علينا شيء، وهو يعتاص عليه أقل الأمور مع أنا نتمنى مقامه وهو لا يتمنى مقامنا. فبلغ ذلك الشيخ أبا مدين، فقال: قل له تركنا مرادنا لمراده.

وعن بعضهم أنه كان يسير فى البادية فانتهى إلى بئر فإذا الماء ارتفع إلى رأس البئر فقال: أنا أعلم أنك قادر على هذا، ولكن لا أطيقه، فلو قيضت لى بعض الأعراب ليصفعنى صفعات ويسقينى شربة ماء كان أسلم لى، ثم إنى أعلم أن ذلك الرفق ليس من جهته.

قال يحيى بن معاذ الرازى - رضى الله عنه -: إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبدال وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء فطريقه طريق المحبة، وهو أعلى من الذى قبله، وإذا رأيته يشير إلى الذكر ويكون قلبه معلقاً بالذكر الذى ذكر فطريقه طريق العارفين، وهو أعلى درجة من جميع الأحوال.

وقال أبويزيد - رضى الله عنه -: كنت فى بدايتى يرينى الحق تعالى الآيات والكرامات فلم ألتفت إليها، فلما رآنى كذلك جعل لى إلى معرفته سبيلاً.

«لا يَستحْقرُ الوَرْدَ إلا جَهُولٌ.

الوَاردُ يُوجَدُ فى الدَّارِ الآخرة، والوِرْدُ يَنْطَوى بانْطواءِ هَذه الدَّارِ.. وَأولَى مَا يُعتنَى به مَا لا يُخْلَفُ وُجُودُه.

الوِرْدُ: هو طالبُه منكَ، والوَاردُ: أنت تَطْلُبُه منهُ.. وأيْنَ مَا هُوَ طالبُه منْكَ، مَمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ منْه»؟!

الورد: عبارة عما يقع بكسب العبد من عبادة ظاهرة أو باطنة.

والوارد: هو الذى يرد على باطن العبد من لطائف وأنوار فينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه وسره.

فالورد: ما من العبد للحق تعالى من معاملة وعبودية. والوارد: ما من الحق سبحانه وتعالى للعبد من لطف وكرامة.

والورد أحق ما يعتنى به العبد ويراعيه من الوارد، لوجهين:

أحدهما: أن الورد مختص بهذه الدار لا يقع إلا فيها، فهو منقطع بانقطاعها وفان بفنائها، فينبغى للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها، إذ لا يمكنه خلف ما فات منها.

والثانى: أن الورد هو حق الحق منك، والوارد هو حظك منه، وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلب حظوظك ووقوفك معها، فإذا ثبتت مزية الورد على الوارد باعتبار العبد كان استحقاره من نهاية الجهل، وكان مستحقره جهولاً، كما قال فى «لطائف المنن»: «واعلموا أن الله تعالى أودع أنوار الملكوت فى أصناف الطاعات، فإن من فاته من الطاعات صنف، أو أعوزه من الموافقة جنس فقد من النور بمقدار ذلك، فلا تهملوا شيئاً من الطاعات، ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات، ولا ترضوا لأنفسكم بما رضى به المدعون من جرى الحقائق على ألسنتهم وفقد أنوارها من قلوبهم، لأن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرعة لباب الغيب، فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه، وإنما حجاب الغيوب وجود العيوب، والتطهر من العيب يفتح لك باب الغيب، ولا تكن ممن يطلب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لله، فذلك حال الجاهلين الذين لم يفهموا عن الله ولا واجههم المدد من الله والمؤمن ليس كذلك، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه، فإن توقف عليه الوقت استبطأ أدبه

ولا يستبطئ مطلبه».

ثم ذكر كلاماً كثيراً وفي كلامه - رحمه الله تعالي - تنبيه على تأكد أمر الأوراد وعظم موقعها من الدين وأن مراعاتها من أحسن سمات العارفين، وقد رؤى الجنيد - رضى الله تعالي عنه - وفي يده سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة!! فقال: نعم، سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً.

وكان يدخل كل يوم حانوته، ويسبل الستر، ويصلى أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته ورؤى بعد وفاته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات، وأبيدت تلك الرسوم، وغابت تلك العلوم، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.

وحكى أبومحمد الحريري - رضى الله تعالى عنه - قال: كنت عند الجنيد - رضى الله عنه - في حال نزعه وكان يوم جمعة ويوم نيروز(١)، وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟! فقال: ومن أولى مني بذلك وهو ذا يطوى صحيفتى(٢)!!

وقال أبوالحسين السراج - رضى الله عنه -: ذُكر عند الجنيد أهلُ المعرفة بالله تعالى، وما يراعونه من الأوراد والعبادات بعد ما لا طفهم الله به من الكرامات، فقال الجنيد: العبادة على العارفين أحسنُ من التيجان على رءوس الملوك.

وقال أبوبكر العطار: حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا فرأيناه قاعداً يصلي ويثنى رجله إذا أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه، فثقلت عليه حركتهما، فمد رجليه، فرآه بعض أصدقائه ممن حضر ذلك الوقت، وكانت رجلا أبى القاسم قد تورمتا، فقال: ما هذا يا أبا القاسم؟ فقال: هذه نعم الله، الله أكبر، فلما فرغ من صلاته قال له أبومحمد الجريرى: يا أبا القاسم، لو اضطجعت.. فقال: يا أبا محمد، هذا وقت وجود منة الله، الله أكبر، فلم يزل ذلك حاله حتى مات - رحمه الله.

وقال الحصري - رضى الله عنه -: «الناس يقولون: الحصري لا يقول بالنوافل وعلى أوراد من حال الشباب لو تركت منها ركعة لعوتبت».

وقال محمد بن ثابت البناني - رضى الله عنهما : «لما حضرت أبي الوفاة

---

(١) النيروز، هو أول السنة، لكنه عند الفرس عند نزول الشمس أول الحمل، وعند القبط أول شهر توت، كذا في المصباح.

(٢) وفي نسخة: وحينئذ تطوى.

جعلت ألقنه الشهادة، فقال لي: يا بني دعني، فإني في وردي السابع».

قال أبوطالب المكي - رضي الله عنه -: «ومداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين وطريق العابدين، وهي مزيد الإيمان وعلامة الإيقان».

وفي خبر أن عائشة - رضي الله تعالى عنها - سئلت عن عمل رسول الله(ﷺ) فقالت: كان عمله ديمة(١)، وفي لفظ آخر: «كان إذا عمل عملاً أتقنه وأثبته».

وفي الخبر المشهور: «أحبُّ الأعمال إلي اللّه تعالى أدومها وإن قلّ»

وجاء في الأثر كلام تارة يروى عن الحسن بن عليّ، وتارة يروى عن الحسن البصري، ومرة عن عائشة - رضي الله عنهم أجمعين - وبعضهم يحكيه عن النبي(ﷺ) في المنام: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن في مزيد فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له».

وقد يكون استحقار الورد من المكر والاستدراج للعبد، ويكون مبدأ ذلك أن تلوح له خيالات، وتظهر له صور كرامات توجب له استحسان حالته واختيار بطالته، وفي ذلك رفض العبودية بالكلية، وهو أمارة لوجود الطرد والبعد، والعياذ بالله وصاحب هذا عظيم الجهالة، شديد العماية والضلالة.

وقد قال الجنيد - رضي الله تعالى عنه - لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل:- أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك «تلك»(٢) الحركات من باب البر والتقرب إلى الله تعالى، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه راجعون فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها، إنه لأوكد لي في معرفتي وأقوى في حالي.

قال السهروردي - رضي الله عنه - في كتاب: «عوارف المعارف»: «فأما من تعوق بخيال، أو قنع بمحال، ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص فيدخل الخلوة بالزور، ويخرج بالغرور، فيرفض العبادات ويستحقرها، ويسلبه الله تعالى لذة المعاملة، ويذهب عن قلبه هيبة الشريعة، ويفتضح في الدنيا والآخرة، فيعلم الصادق أن المقصود من الخلوة، التقرب إلي الله تعالي بعمارة الأوقات، وكف

---

(١) ديمة: أي دائماً غير مقطوع.

(٢) وفي نسخة: يصلون إلى نيل سقوط الحركات.

الجوارح عن المكروهات، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة مداومة الأوراد وتوزيعها على الأوقات، ويصلح لقوم دوام المراقبة ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر» انتهى ما يتعلق بغرضنا من كلام السهر وردى - رضى الله عنه - وهو مناسب لما ذكره المؤلف - رحمه الله تعالى - وليس من هذا المعنى ما روى عن أبى سليمان الدارانى، وأحمد بن عاصم الأنطاكى - رضى الله عنهما - أنهما قالا: «إذا صارت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح» وإن كان ظاهره موهماً له، فإن أبا نصر السراج - رضى الله عنه - فسره بعد أن حكاه عن أبى سليمان الدرانى فقال: «وهذا الذى قاله أبوسليمان يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه أراد بذلك استراحة الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال إذا اشتغل بحفظ قلبه، ومراعاة سره من الخواطر المشغلة، والعوائق المذمومة التى تشغل عن ذكر الله تعالى قلبه، ويحتمل أيضاً أنه أراد بذلك أن يتمكن من المجاهدات والأعمال والعبادات وتصير وطنه ويستلذ بها بقلبه، ويجد حلاوتها، ويسقط عنه التعب ووجود الآلام التى كان يجدها قبل ذلك».

انتهى كلام أبى نصر، ومعناه صحيح، والله أعلم وبه التوفيق.

«ورُودُ الإمْداد بحَسَبِ الاستعداد، وشُرُوقُ الأنْوارِ عَلَى حَسَبِ صَفَاءِ الأسْرَارِ».

ورود الموارد الإمدادية من الله على قلب عبده بحسب القوة الاستعدادية المجعولة(١) فيه.

وشروق الأنوار اليقينية على حسب صفاء سره من كدر التعلق بالآثار، والركون إلى الأغيار.

(١) وفى نسخة: المجبولة.



«العَامِلُ.. إذَا أصْبَحَ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ، وَالعَاقِلُ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ الله بِهِ».

أول خاطر يرد على العبد هو ميزان توحيده، فالغافل إذا أصبح أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى نفسه، فيقول: ماذا أفعل اليوم، فهو مشتغل بتدبير نفسه، مصروف عن النظر إلى مولاه، وذلك لوجود غفلته عنه، فهو حقيق بأن يكله الله تعالى إلى نفسه، فيتشتت عليه قلبه، وينغص عليه مراده، والعاقل أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى الله تعالى فيقول: ماذا يفعل الله بى، فهو ناظر إلى اللّه تعالى، وإلى ما يرد عليه منه، وذلك لوجود عقله، ودوام يقظته، فلا جرم أن يكفيه الله تعالى تعلقات الآمال، ويفرغه من جميع الأشغال، ويرضيه، ويقر عينيه بما يقيمه فيه من أعمال، أو يورده عليه من أحوال وهذه سعادة عظيمة ومنة من الله تعالى لمن وليه من عباده جسيمة.

قال عمر بن عبدالعزيز: «أصبحت وما لى سرور إلا فى مواقع القدر».

وقال أبوعثمان - رضى الله تعالى عنه -: «منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته، ولا نقلنى إلى غيره فسخطته».

ومن أملح ما رأيت فى هذا المعنى الذى ذكره المؤلف - رحمه الله تعالى - وما يجب أن يحذو على مثاله كل عالم متصوف ما ذكره الشيخ أبوالقاسم عبدالرحمن الصقلى - رضى الله عنه - فى كتابه «صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء» بسنده إلى «أيوب بن بشر الطالقانى» قال: «حدثنا رجل من أصحابنا، قال: رأيت رجلاً فى مرج الديباج ليس معه شىء، فدنوت منه، فسلمت عليه، فرد علىّ السلام، فقلت: يرحمك الله أين تريد؟ قال: ما أدرى!! قلت: هل رأيت أحدا يريد مكاناً لا يدرى أين يذهب؟!! فقال: نعم «أنا واحد. فقلت: فأين تنوى؟ قال: إلى مكة، قلت: تنوى مكة ولا تدرى أين تذهب؟ قال: نعم»(١)، وذلك أنى كم مرة أردت أن أذهب إلى مكة، فيردنى إلى «طرسوس»، وكم مرة أردت أن أذهب إلى «طرسوس» يردنى إلى «عبادان»، فنيتى إلى مكة ولا أدرى.

قلت: فمن أين المعاش؟ قال: لا أدرى، قلت: أخبرنى بأسباب ذلك، قال: من حيث يريد يجيعنى مرة، ويشبعنى مرة، ويكرمنى مرة ويهيننى مرة، ومرة يقول لى: ما على وجه الأرض أزهد منك، ومرة يقول لى: أنت لص، ومرة ينومنى على

(١) ما بين القوسين ساقط فى معظم النسخ.

الفراش ويطعمنى الطيب ويدهن رأسى ويكحل عينى، ومرة يطردنى الطرد العنيف ولا ينومنى إلا عند «النواويس»(١).

قلت يرحمك، من يفعل ذلك بك، قال الله عزّ وجلّ. قال: فالقانى فى البحر

قلت: فسر لى يرحمك الله كيف هذا؟ قال: أنا رجل أسير نهارى فأينما جن الليل بت، فربما يأوينى الليل إلى قرية فإذا نظر إلىّ أهلها قال بعضهم لبعض: هذا لص، لا تدعوا هذا يأوى الليلة فى هذه القرية، فإذا صليت العشاء الآخرة يدخل المسجد رجل فيقول: يا نائم، فأقول: لبيك، فيقول لى بالعنف: قم من هنا ليس لك هاهنا موضع!! فأقول له: حباً وكرمة فأين أبيت الليلة؟ فيقول: خارج القرية عند «النواويس».

فأقول: نعم وكرامة، لا يكون لى مأوى إلا عند «النواويس» تلك الليلة، فإذا أصبحت سرت فيأوينى الليل إلى قرية فإذا رآنى أهلها قال بعضهم لبعض: قد ورد عليكم الليلة رجل زاهد خير فاضل، فيقول هذا: عندى يبيت، ويقول هذا: عندى يبيت، فإذا صليت العشاء الآخرة، فيقول رجل منهم: قم بنا إلى البيت، فأقول: نعم حباً وكرامة، فأمضى معه إلى المنزل فيأتينى بالطعام الطيب، ويدهن رأسى ويكحل عينى، و يأتينى بالفراش اللين فينومنى عليه ولا يدع شيئا من البر إلا فعله بى حتى أصبح، فهذا حالى مع سيدى.

فقلت: رحمك الله، متى قدر لك أن تدخل بغداد فإن منزلى فى موضع كذا وكذا.

قال: فأنا يوماً قاعد فى منزلى وإذا بإنسان يدق الباب فخرجت فإذا أنا بصاحبى، سلمت عليه وأدخلته البيت، فقلت له: أى شىء صنع بك مولاك؟ قال: آخر ما فعل بى ضربنى ضرباً شديداً وقال لى: يا لص، ثم أرانى ظهره فإذا أثر الضرب عليه.

فقلت: وما القصة؟ قال: كان أجاعنى جوعاً شديداً، فلما بلغت الأنبار جئت إلى «مقثأة»(٢) قد نبذ منها «المدود» و«المر» فقعدت مقعداً آكل منه، فنظرنى صاحب «المقثأة» فأقبل إلىّ بعصاه، فجعل يضرب ظهرى ويقول: يا لص، ما

---

(١) النواويس: جمع ناووس، وناوس: مقبرة النصارى، أو حجر منقور تجعل فيه جثة الميت.
(٢) قال فى المصباح: أرض مقثأة: أى ذات قثاء، والقثاء الخيار والفقوس.

أخرب مقثأتى غيرك، مذكم «أرصدك» حتى وقعت عليك، وإذا أنا بفارس قد أقبل مسرعاً إليه فضربه بالسوط فى رأسه وقال: أما تخاف الله تعمد إلى رجل زاهد فتضربه!! أو يقال لمثل هذا يا لص؟!

قال: فما كان بأسرع من أن كنت عنده لصاً فصرت زاهداً كما حدثتك(١).

قال: فأخذ بيدى صاحب المقثأة فذهب بى إلى منزله، فما أبقى من الكرامة شيئاً واستحلنى(٢) فخرجت من عنده وجئت إليك».

وقد يكون من معنى نظره إلى ما يفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الإشارات من قبله، فيكون إقدامه وإحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق.

وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وصدق افتقاره.

قال سيدى أبومدين - رضى الله عنه - «احرص من أن تصبح وتمسى إلا مفوضاً مستسلماً لعله أن ينظر إليك فيرحمك»».

وقال بعضهم: من اهتدى إلى الحق لم يهتد إلى نفسه،ومن اهتدى إلى نفسه لم يهتد إلى الله، فانظر إذا استقبلك شغل، فإن عاد قلبك في أول وهلة إلى حولك وقوتك فأنت المنقطع عنه، وإن عاد قلبك إلى الله فأنت الواصل إلى الله وكل العالم فى قبضته.

وتخصيص أهل الوصلة بأنهم فى كنف إيوائه، ولا يكلهم إلى غيره واعتبر هذا المعنى بعمرة الحديبية، وذلك أن النبى(ﷺ) لما صده المشركون فيها عن مكة ومنعوه من أن يتم بين أظهرهم نسكه رجع فى الحال عن تلك العمرة ولم يتعرض لهم بما يحصل له به فى الظاهر عزة أو نصرة بعدما كان دعا إليه من بيعة «الرضوان» تحت الشجرة وما عز عليه من مناجزة من حاده من الكفرة، وعمل فى ذلك على ما أظهره الله له من آياته العظام عند بروك ناقته لما أراد توجيهها إلى البيت الحرام، وقال حينئذ مظهراً لما قصده ومقرراً لما اعتمده «إنما حبسها حابس الفيل لا تدعونى اليوم قريش إلى خطة فيها صلة رحم إلا أجبتهم إليها».

فكان كما قال(ﷺ) وشرف وكرم: صالحهم على وضع الحرب فيما بينهم عشر

---

(١) وفى نسخة:(تعمد إلى رجل زاهد فتضربه وهو لم يأكل من مقثأتك شيئاً إلا الورق، وتقول لمثل هذا: يا لص!!

فما بين أن كنت عنده لصاً إذ صرت عنده زاهداً إلا كما حدثتك).

(٢) استحله: جعله فى حل مما بيهما.

سنين لينقلبوا فى الأرض آمنين، فلما استتب بينهم الصلح وأنزل الله تعالى سورة «الفتح» ظهرت الفوائد التى تضمنها ذلك التدبير الحسن وقرت أعين الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - بما أبرزه الله إليهم من ألطاف ومنن، وقد صح بالمعنى جميع ما قلناه فى الخبر ونقله إلينا علماء الحديث والسير.

وليكن من دعاء صاحب هذا المقام ومناجاته ليوافق عقده قوله فى جميع تصرفاته: اللهم إنى أصبحت لا أملك لنفسى ضراء ولا نفعً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى، ولا أتقى إلا ما وقيتنى اللهم وفقنى لما تحبه وترضاه من القول والعمل فى طاعتك، إنك ذو الفضل العظيم.

وليقل أيضاً ما رأيته لسيدى أبى الحسن الشاذلى - رضى الله تعالى عنه -: «اللهم إن الأمر عندك وهو محجوب عنى ولا أعلم أمراً اختاره لنفسى، فكنت أنت المختار لى، واحملنى فى أجمل الأمور عندك وأحمدها عاقبة فى الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير.

«إنَّما يسْتوْحَشَ العُبَّادُ والزُّهَّادُ منْ كُلَّ شَىء، لغَيْبَتهم عن الله فى كُلَّ شَىء.. فَلَوْ شَهِدُوهُ فى كُلَّ شَىء، لَمْ يَسْتَوْحشُوا منْ شَىء»!

العباد والزهاد فى حجبهم(١) عن ربهم ينظرون لنفوسهم ومراعاة حظوظهم، فهم يفرون من الأشياء ويستوحشون منها، لأنها موجودة فى نظرهم، والزهد(٢) فى المزهود شاهد له بالوجود، كما قال سيدى أبوالحسن الشاذلى - رضى الله عنه -: والله لقد عظمتها إذ زهدت فيها، فهم يخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم عن مقاصدهم بميلهم إليها وافتتانهم بها، ولو كانوا من أهل العلم بالله والمحبة له لرأوه ظاهراً فى الأشياء كلها ولكان لهم فى ذلك من قرة أعينهم ما يشغلهم عن رؤيتهم لأنفسهم، فلا يكون لهم من الأشياء وحشة ولا يخشون منها فتنة، لأنها فانية متلاشية بهذا الاعتبار.

---

(١) وفى نسخة: فى حجبة عن ربهم ينظرون لنفوسهم.. إلخ.
(٢) وفى نسخة: والزهاد فى المزهود شاهدون له بالوجود.

«أمَرَكَ فى هَذه الدَّارِ بالنَّظَرِ فى مُكَوَّناته، وسَيَكْشفُ لَكَ فى تلْكَ الدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاته».

رؤية العباد لربهم عز وجل على حسب تجليه لهم، ففى هذه الدار يرونه ظاهراً فى المكونات(١) بأنوار بصائرهم لما تجلى لهم من وراء حجابها، ولذلك أمرهم بالنظر فيها، وفى الدار الآخرة يرونه معاينة بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع، وهذا غاية الظهور والكشف.

«عَلِمَ منْكَ أنَّكَ لا تَصْبِرُ عَنْه، فأشْهَدَكَ ما بَرَزَ منْه».

عدم الصبر عن الله تعالى من وجود الاحتظاء بمعرفته وهو حال شريف يقتضى دوام وجود المعية الاختصاصية، والمعية الاختصاصية تقتضى دوام المشاهدة والحضور، والمشاهدة الحقيقية غير متصورة فى هذه الدار لما هى عليه من الدناءة والنقص والفناء والذهاب، فأكرم الله تعالى عبده لعلمه بعدم صبره عنه بأن أشهده ما برز عنه من الآثار والأكوان تسلية له بالأثر عن النظر، فحصلت له حينئذ المعية الاختصاصية اللائقة بحاله حتى إذا أقعده فى مقعد الصدق وحصلت له عندية الحق خلع عليه خلع التقريب والتكريم، وواجهه بوجه الكريم، فحصلت له حينئذ المعية الحقيقية والمشاهدة السرمدية وما ذلك على الله بعزيز.

«لَمَّا عَلمَ الحَقُّ منْكَ وجُودَ الذلَلِ، لَوَّنَ لَكَ الطَّاعَات. وعَلِمَ مَا فيكَ منْ وجود الشَّرَه، فحَجَرَها عَلَيك فى بَعض الأوقَات، ليكُونَ هَمكَ إقَامَةَ الصَّلاة، لا وُجودَ الصَّلاة.. فما كُلُّ مُصَلٍّ مُقيم».

تلون الطاعات لوجود الملل، وتحجرها فى الأوقات لوجود الشره، نعمتان عظيمتان أنعم الله بهما على عبده، فإن الملل والشره فتنتان(٢) عظيمتان قاطعتان على العبد سبيل عبوديته، والملل تكره يعرض للإنسان من عمل يلحقه فيه

---

(١) وفى نسخة: المكنونات.
(٢) وفى نسخة: آفتان.

مشقة فيصبر عليه ويتحمل التعب فيه حتى يضجر ويسأم، ذلك العمل ويرفضه استثقالاً له، وهو شيء يعرض للطبع بعد إيثاره للشيء ومحبته له. والشره: مجاوزة الحد في التسارع إلى العمل والحرص عليه.

والذي يوجب وجود الملل المداومة على نمط واحد من العبادات فتسأمها النفس وتستثقلها، فإذا لونت عليها استحلتها واستخفتها، وقد قال بعض الشعراء:

لا يُصلح النفسَ إذ كانت مدبرة
إلاّ التنقُّلُ من حالٍ إلى حال

والموجب لوجود الشره صلاحية الأوقات كلها لإيقاع العبادات فيها مع شدة الحرص عليها.

وعند وقوع الشره يقع النقص والتقصير فيها، فذلك عين لها أوقاتاً تقع فيها، وأوقاتاً لا تقع فيها. وذلك هو معنى «تحجيرها» في الأوقات، فإن كان الملل والشره واقعين في الصلاة لم يكن الآتي بها مقيما لها، لوقوع التقصير منه فيها، ولم يؤمر إلا بإقامة الصلاة لا بوجود صورة الصلاة. قال سيدي أبوالعباس المرسي - رضي الله تعالى عنه -: «كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح، فإنه إنما جاء لمن أقام الصلاة، إما بلفظ الإقامة، أو بمعنى يرجع إليها، قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾(١)، وقال الله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾(٢)، وقال الله عز وجل: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾(٣) و﴿إِقَامَ الصَّلاةِ﴾(٤) و﴿الْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾(٥)، ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(٦) ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة، فالإقامة: أنه إذا صلى المؤمن صلاة فقبلت منه خلق الله من صلاته صورة في ملكوته راكعة ساجدة إلى يوم القيامة، وثواب ذلك لصاحب الصلاة، وإقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهراً وباطناً.

قال ابن عطاء الله - رضي الله عنه -: «إقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهراً

(١) سورة البقرة آية ٣
(٢) آية ٤٠ من سورة إبراهيم.
(٣) سورة طه آية ١٤.
(٤) سورة الأنبياء آية ٧٣.
(٥) سورة الحج الآية ٣٥.
(٦) آية ٤، ٥ من سورة الماعون.

وباطناً مع حفظ السر مع الله عز وجل، لا يختلج بسرك سواه».

وقال الإمام أبوالقاسم القشيرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ: «هو القيام بأركانها وسننها، ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلى له».

فتحفظ عليه أحكام الأمر فيما يجرى عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو، فنفوسهم منهم مستقبلة إلى القبلة وقلوبهم مستقرة فى حقائق الوصلة.

وتمثيل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ بالصلاة دون سائر العبادات حسن، لأن ذلك أكثر ما يقع بها، وقد يكون ذلك استطراداً للكلام على الصلاة، حسبما يقوله بأثر هذا.

«الصَّلاةُ طُهْرَةٌ للْقُلُوبِ من أدناس الذنوب»

كما روى فى الحديث الصحيح، عن رسول الله(ﷺ) من قوله: «أنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب يمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك أيبقى من درنه شيئاً؟

«واسْتفْتَاحُ لبَابِ الغُيوبِ»

لأن القلوب إذ طهرت وتزكت رفع عنها الحجب والأستار فرأت ما غاب عنها من الأسرار.

«الصَّلاُة مَحَلُّ المُنَاجَاة»

لأن فيها يكون الثناء والدعاء له، والمناجاة: مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار.

«ومَعْدنُ المُصَافَاة»..

وهى زوال الأكدار الكونية بينك وبين ربك، حتى يصفو قلبك وسرك فيصفو لك حينئذ شهوده ويمحو ذاتك وجوده.

«تَتَّسعُ فيها مَيَادينُ الأسْرَارِ»

حتى تتكاثر عليك فى الظهور.

«وتُشْرِقُ فيهَا شَوَارِقُ الأنوارِ».

فيكون فى قلبك نور على نور، وهذه العبارات الست معانيها متقاربة.

ولما كانت هذه الأحوال التى ذكرها المؤلف - رحمه الله تعالى - من فوائد الصلاة، وأن المقصود منها إنما هو تحصيلها كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به إنما هو إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فإن الصلاة المعتبرة إنما هى صلاة الخاشعين، لا صلاة الغافلين التى لا تنهض لبلوغ هذه المقاصد السنية، ولذلك كانت الصلاة «أم العبادات» وأساس الخيرات وعماد الدين، قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى﴾(١)، فأخبر أن المراد من الصلاة الذكر.

وقد روى معنى ذلك عن رسول الله(ﷺ) أنه قال: «إنما فُرِضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله».

ولذا كانت قرة عين حبيب الله(ﷺ) على ما سيأتى الكلام عليه حيث تعرض المؤلف له.

وفى بعض الأخبار: «أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وإن المصلى لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه منادى: «لو يعلم المناجى من يناجى ما انفتل(٢)، وأن أبواب السماء تفتح للمصلى، وإن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين».

وفى التوراة: «يا بن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى مصليا باكياً فأنا الله الذى اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نورى».

وكانوا يرون أن تلك الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنو الرب من القلب.

وقال محمد بن على الترمذى - رضى الله عنه -: «دعا الله تعالى الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم، وهيأ لهم فيه ألوان الضيافات لينال العبد من كل فعلٍ وقول شيئاً من عطاياه فالأفعال كالأطعمة، والأقوال كالأشربة، وهى عرس الموحدين هيأها رب العالمين لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس الأغيار»(٣).

---

(١) آية ١٤ من سورة طه.

(٢) أى ما خرج من صلاته.

(٣) وفى نسخة: دنس ولا غبار.

قال أبوطالب المكى - رضى الله تعالى عنه -: «حدثت أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرض خوفاً منه، لأنه تأهب للدخول على الملك، فإذا كبر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه وواجهه الجبار بوجهه الكريم، فإذا قال: الله أكبر، اطلع الملك على قلبه، فإذا كان ليس فى قلبه أكبر من الله فيقول الملك: صدقت: الله أكبر فى قلبك كما تقول.

قال: فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش فينكشف له بذلك النور ملكوت السماوات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات، قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته(١) الشياطين كما يحتوش الذباب نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الملك على قلبه، فإذا كل شىء فى قلبه أكبر من الله عنده فيقول الملك: كذبت، ليس الله أكبر فى قلبك كم تقول.

قال: فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه عن الملكوت، فيرد ذلك الحجاب صلاته وتلتقم الشياطين قلبه، فلا تزال تنفخ فيه، وتنفث وتوسوس إليه وتزين له حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه.

ومعانى هذه الآثار موافقة لمعنى ما ذكره المؤلف دالة عليه، فلذلك أوردها ها هنا، والله ولى التوفيق برحمته.

عَلِمَ وجُودَ الضَّعْف منْكَ، فَقَلَّلَ أعْدَادَها. وَعَلِمَ احْتيَاجَكَ إلى فَضْله، فَكَثَّرَ أمْدَادَهَا».

فهذا من فضل الله تعالى الذى عوده عبده فتقليل أعدادها: بأن جعل الخمسين خمساً، وذلك تخفيف منه لما علم من وجود ضعفه، وتكثير أمدادها: بأن جعل للخمس ثواب الخمسين، وذلك فضل منه عليه، إذ كان محتاجاً إليه فله الحمد والشكر على ذلك. وهذه المعانى مذكورة فى حديث الإسراء.

«مَتَى طَلَبْتَ عِوَضاً عَلى عَمَلٍ، طُولِبْتَ بِوُجود الصِّدْق فيه.. ويَكْفى المُريبَ غَنيمةً وجْدانُ السَّلامَة».

تقدم أن العمل لأجل حصول الجزاء مدخول معلول، وحكينا هنالك من الآثار والحكايات عن العارفين وأرباب القلوب ما فيه مقنع، وقد كرر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا المعنى فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب، وما ذكره ها هنا تقبيح

(١) احدقوا به وتجمعوا عليه.

لحال طالب الجزاء على العمل.

ومعنى ما ذكره، أن: العمل على هذا الوجه معرض للبطلان، لأنه إذا طالب ربه بالجزاء على عمله طالبه ربه بوجود الصدق فيه، والصدق فيه الوفاء بحقه في العمل، وأنى له توفية ذلك!! مع كونه طالباً للحظ من ربه، فهو - لا محالة - مريب، فيكفيه وجدان السلامة من غير مزيد عليها. وقال الواسطي - رضي الله عنه -: «العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض عليها».

وقريب من هذا قول النصراباذي: «العبادات إلى طلب العفو والصفح عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها». وقال خير النساج - رضي الله عنه -: «ميزان(١) أعمالك ما يليق بأفعالك، فاطلب ميزان فضله فإنه أتم وأحسن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٢).

«لا تَطْلُبْ عوَضاً على عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فاعلاً.

يَكْفى منَ الجَزَاءِ لك على العمل أنْ كان لَهُ قابلاً»!

المنفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله عز وجل، فكيف يطلب العبد الجزاء على عمل لا مدخل له فيه على الحقيقة؟! ومعنى كون القبول جزاءً قد تقدم.

«إذا أرَادَ أنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عليكَ، خَلَقَ العَمَلَ ونَسَبَ إليكَ»!

فضل الله تعالى عظيم، فإذا أراد أن يظهره عليك خلق لك الطاعة، وحلاك بها، ونسبها إليك، وقال لك: يا عبدي أنت مطيع، ومتق، ومجتهد، وعامل وسأثيبك على ذلك.

فإذا شهد العبد هذا الفضل العظيم، واستولى عليه الخجل والحياء من سيده الكريم، وانطلق لسانه في هذه الحالة بالدعاء والسؤال، وقال: يارب كما تفضلت عليّ بخلق الطاعة لي، وحليتني بها، ووصفتني بصفات حميدة أن خلي عنها في الحقيقة، ووعدتني مع ذلك جزيل الثواب والنجاة من العقاب، فتقبل مني عملي،

---

(١) وفي نسخة: ميراث.. إلخ فاطلب ميراث فضله.

(٢) من الآية ٥٨ من سورة يونس.

وأنجز لى ما وعدتنى: كان فى ذلك مصيباً، وإلا فلا.

فحق العبد أن لا ينسب إلى نفسه شيئاً من محامد الصفات، ومحاسن الأعمال حقيقةً ولا أدساً، إذ لا أهلية فيه لذلك.

وأما مذام الصفات والأعمال ومساوئهما فمقتضى الأدب أن يضيف ذلك إلى نفسه، وأن يعترف بأن ذلك من ظلمه وجهله.

قال سهل بن عبدالله ـ رضى الله تعالى عنه ـ: «إذا عمل العبد حسنة وقال: يارب أنت بفضلك استعملت، وأنت أعنت، وأنت سهلت، شكرا لله تعالى له ذلك، وقال له: يا عبدى، بل أنت أطعت وأنت تقربت، وإذا نظر إلى نفسه وقال: أنا عملت وأنا أطعت، وأنا تقربت. أعرض الله تعالى عنه، وقال: يا عبدى أنا وفقت وأنا أعنت، وأنا سهلت. وإذا عمل سيئة وقال: يارب أنت قدرت، وأنت قضيت وأنت حكمت غضب المولى عليه وقال له: يا عبدى بل أنت أسأت، وأنت جهلت، وأنت عصيت. وإذ قال: يارب أنا ظلمت نفسى وأنا أسأت، وأنا جهلت، أقبل المولى جلت قدرته عليه، وقال: يا عبدى أنا قدرت وقد غفرت، وحلمت، وسترت.

«لا نهَايةَ لِمَذامِّكَ إنْ أرْجَعَكَ إلَيْكَ. ولا تَفْرُغُ مدائحُكَ إنْ أظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ».

من أرجعه الحق إلى نفسه، ووكله إلى عقله وحسه، فقد طرده عن بابه وأبعده عن جنابه، وكانت أحواله مدخولة معلولة وأعماله مستقبحة مرذولة، ومن آواه إليه وأظهر جوده عليه فقد اصطنعه لنفسه ورفعه إلى حضرة قدسه، وكانت أحواله حسنةً جميلة، وأعماله كلها ممدوحة مقبولة، كما قيل:

لمّا انتسبت إلى حماك تعرّفتُ ذاتى فصرت أنا وإلا من أنا

«كُنْ بأوْصَافِ رُبُوبيَّتهِ مُتَعَلِّقاً، وبأوْصَافِ عُبوديَّتكَ مُتَحَقِّقاً».

التعلق بأوصاف الربوبية أن تشهد وجودك ولوازم وجودك لا شىء من جميع ذلك لك ولا منك، وإنما هى عوار عندك، فلا ترى وجودك إلا بوجوده، ولا بقاءك إلا ببقائه، ولا عزتك إلا بعزته، ولا قدرتك إلا بقدرته، ولا غناك إلا بغناه.. إلى غير ذلك من الأوصاف، ولا يتم لك ذلك إلا بأن تتحقق بأوصاف عبوديتك من: عدمك، وفقرك، وذلكَ، وعجزك والتعلق والتحقق المذكوران متلازمان، بل هما شىء واحد لا تعدد فيهما على التحقيق.

«منَعَكَ أنْ تَدَّعِىَ مَا لَيْسَ لَكَ ممَّا للْمَخْلُوقيْنَ.. أفَيُبيحُ لَكَ أنْ تَدَّعِىَ وَصْفَه وَهُوَ رَبُّ العَالَمينَ»؟!

أورد هذا كالدليل على ما ذكرناه آنفاً، من أنه: لاحظ للعبد من صفات مولاه إلا التعلق بها فقط، وأن ادعاه شىء منها من كبائر معاصى القلب ومن مشاركة المربوب للرب، ومن مقتضى الغيرة التى اتصف بها وأعلمنا بشأنها على لسان رسول الله(ﷺ) حيث قال: «لا أحد أغير من الله تعالى» ومن غيرته أنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن «تحريم ذلك على العبد والتسجيل عليه باستحقاق الطرد والبعد»(١)، ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شىء من الشركة فى قلب العبد بادعاء شىء من أوصاف الربوبية لنفسه عقداً أو قولاً، لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه.

وفى حديث ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال: قال رسول الله(ﷺ): قال الله عز وجل: «الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى فى واحدة منهما ألقيته فى النار».

ومعنى المنازعة: الدعوى قولاً وعبارة، والإضمار فعلاً وإشارة.

ومعنى الغيرة فى حقه تعالى: أنه لا يرضى بمشاركة غيره له فيما اختص به من صفات الربوبية، وفيما هو حق له من الأعمال الدينية.

وإذا كان الحق تعالى مانعاً لك ومحرماً عليك أن تدعى ما ليس لك مما أعطى المخلوقين من الأموال ومسميا ذلك ظلماً وعدواناً، فكيف يبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين، لا شريك له فى ذلك ولا أنت ولا غيرك!! فهو إذن من أعظم الظلم، وأشد العدوان، عافانا الله من ذلك.

قلت: وهذا المعنى الذى ضمنه المؤلف ـ رحمه الله ـ فى هذه المسألة هو الغرض الأقصى الذى هو مرمى نظر الصوفية، وكل ما صنفوه ودونوه ونهوا عنه من أفعال وأقوال وأحوال إنما هى وسائل إلى هذا المقصد الشريف والمقام المنيف.

فشأنهم أبداً إنما هو العمل على موت نفوسهم وإسقاط حظوظها بالكلية، كما قيل: الصوفى دمه هدر، وملكه مباح.

(١) ما بين القوسين ساقط فى كثير من النسخ.

وليس ذلك هو المقصود لهم بالذات، وإنما غرضهم من ذلك ما يلزم عنه من انفراد الله تعالى بالوجود انفراداً لا يشاركونه فى شىء منها ألبتة، كما ذكرناه آنفاً.

وهذا هو «كيمياء السعادة» الذى أعوز أكثر الناس، ولم يحظوا منه إلا بالإفلاس، إذا بذلك يستحق المرء عبودية الله عز وجل الذى لا مقام للعبد أشرف منه، كما قال الشاعر:

ألست لى خلفا منى، كفى شرفاً   فما وراءك لى قصد ومطلوب

ولهذا المعنى كانت عندهم دقائق خطرات الحظوظ وخفيات هواجس الهوى. وكل ما يقتضى بقاء حظ النفس وثبوتها من محبة المقامات وإيثار الألطاف والكرامات ذنوباً عظيمة، وأخلاقاً ذميمة لئيمة قادحة فى صدق العبودية والإخلاص للربوبية، يتوبون من جميع ذلك إلى ربهم، ويتعوذون به من شره، ويخافون من مساكنته وملاحظته غاية البعد، نهاية المكر والطرد كما قيل:

إذْ قُلتُ: ما أذنبتُ، قالت مجيبةً   وجدودُك ذنبٌ لا يقاس به ذنب

ذكر أنه كان لبعض الملوك عبد يقدمه على أشكاله وأقرانه فشكا أهل إقليم عاملهم إلى الملك، فقال: تخيروا من شئتم أوليه عليكم. فاختاروا ذلك العبد لما رأوا ميل الملك إليه، فقال الملك: راجعوه، فإن اختار الولاية وليته عليكم. فرغب الغلام فى الولاية، فأمر بكتب المنشور وأمر باستقباله إذا وافى محل ولايته والمبالغة فى إلطافه بأنواع المكرمات والمبار، «وأمر بصيغ جميع الإكرام معه» ودس من يرش عليه ماء ورد فيه سم، ثم أمر من يقول إذا أشرف على الموت: هذا جزاء من اختار الولاية على خدمة مولاه.

ففى هذا عبرة لأولى الأبصار، وتبصرة لأرباب الاعتبار وإلى هذا المعنى الجليل المؤدى إلى سواء السبيل تشير الحكاية المشهورة المروية عن أبى يزيد البسطامى ـ رضى الله تعالى عنه :ـ حدّث يحيى بن معاذ ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه رآه فى بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزاً(١) على صدور قدميه، رافعاً أخميصهما(٢) مع عقبيه عن الأرض، ضارباً بذقنه على صدره، شاخصاً(٣) بعينيه لا يطرف، قال: ثم سجد عند السحر(٤) فأطال، ثم

(١) استوفز فى قعدته: قعد غير مطمئن، وكأنه يتهيأ للوثوب.
(٢) أخمص القدم، ما لا يصيب الأرض من باطنها. والعقب: مؤخر القدم.
(٣) شخص ببصره: رفعه وفتحه.
(٤) السحر: قبيل الصبح.

قعد فقال: اللهم إن قوماً طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والمشى فى الهواء، فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك.

وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم طىّ الأرض، فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك.

وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض، فانقلبت لهم الأعيان، فرضوا بذلك، وإنى أعوذ بك من ذلك.

وإن قوماًم طلبوك فأعطيتهم عبدك خضراً، فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك.

حتى عد نيفا وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء، ثم التفت إلىّ فرآنى، فقال: يحيى!! قلت: نعم، قال: منذ متى أنت هنا؟ قلت: منذ حين، فسكت، فقلت: يا سيدى، حدثنى بشىء، فقال: أحدثك بشىء يصلح لك، أدخلنى فى الفلك الأسود، فدورنى فى الملكوت السفلى، فأرانى الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى، فطوف بى فى السماوات، وأرانى ما فيها من الجنات إلى العرش، ثم أوقفنى بين يديه فقال: سلنى أى شىء رأيت حتى أهبه لك.

فقلت: يا سيدى ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إياه. فقال: أنت عبدى حقاً، تعبدنى لأجلى صدقاً، لأفعلن بك.. وذكر أشياء، فقال يحيى بن معاذ: فهالنى ذلك وامتلأت به وعجبت منه، فقلت: يا سيدى لِمَ لَمْ تسأله المعرفة به إذ قال لك ملك الملوك سلنى ما شئت؟! قال: فصاح به صيحة وقال: ويلك، اسكت، وتلك غيرة عليه منى، لا أحب أن يعرفه سواه.

قال الشيخ أبوطالب المكى ـ رضى الله عنه ـ بعد أن ذكر هذه الحكاية: فهذا حال عبد فان عن نفسه مأخوذاً: إذا كان ربه عز وجل له موجوداً وأطال مقامه فى المقامات فقصرت عن وصفه الصفات، وحق له إذا نظر إلى الحسن الذى حسنت المحاسن كلها عن حسنه، وشانت الزينات جميعها بعد النظر إلى زينته، وشهد الجمال الذى تجمل الجمال والمتجملون بجماله أن لا يستحسن سواه، وكيف يحب غير ما استحسن أو يزين فى عينه إلا إياه؟!

أم كيف يطلب غير ما أحب أو يصبر مع غير ما طلب؟! بل كيف يهتم بغير ما طلب؟! فهذا نعت عبد مطلوب بعين(١) ما طلب، ووصف شخص محبوب بعين ما أحب ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾(٢) أ. هـ.

---

(١) وفى نسخة: بمعنى.

(٢) الآية ٥٧ من سورة الحج.

وفى الإشارات عن الله سبحانه وتعالى: يا عبدى اعزل نفسك ينعزل معها الملك والملكوت، فتلحق الدارين بالملك، وتلحق العلوم بالملكوت، فتكون عندى من وراء ما أبدى، فلا يستطيعك ما أبدى، لأنك عندى، وإذا كنت عندى كنت عبدى حقاً وإذا كنت عبدى كان عليك نورى فلا يستطيعك ما أبدى وإن أرسلته إليك، لأن نورى عليك وليس نورى عليه، فإذا جاءك لم يطقك(١) فأوذنك به، فتأذن أنت له.

والعبارات عنهم فى هذا المعنى خارجة عن الحصر، وفيما رسمناه منها كفاية.

وإنما ذكرنا هذه المعانى، وإن كانت فى الظاهر أعلى من أن يتناولها كلام المؤلف - رحمه الله تعالى - لأن مرجع أمره إليها إذا دققنا فى النظر وتصرفنا فيه بوجوه العبر، فكان باطنه هو المقصود المعتبر.

وكلام الصوفية - رضى الله تعالى عنهم - كثيراً ما يجرى هذا المجرى والله تعالى يجزيهم عنا خيراً، ويمن علينا بالفهم عنهم وحسن القبول منهم ويفتح أسماعنا للاصغاء إليهم، ويشرح صدورنا باستحسان ما يرد منهم، أو يبدو عنهم بمنه وفضله.

«كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ العَوَائِدُ، وأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ من نَفْسِكَ العَوائدَ»

خرق العوائد بانكشاف عالم القدرة لا يكرم الحق تعالى به إلا من خرق عوائد نفسه، وفنى عن إرادته وحظوظه، فمن لم يصل إلى هذه المقامات لا يطمع فيها، وإن ظهر له ما صورته صورة الكرامة فينبغي له أن يخاف عند ذلك من الاستدراج والمكر، حيث لا يحب ذلك ولا يطلبه، فإن أحبه أو طلبه فهو دليل على بقائه مع إرادته وحظوظه وعاداته، فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة؟ وهل هذا إلا محال لا يستقيم، قال الشيخ أبوطالب المكى - رضى الله عنه -: «وجميع الأنوار(٢) من الغيوب التى وراء الحجب والأستار، لا يظهر عليها إلا مطلوب، والمطلوب لا يكون محجوباً، وهو عن نفسه مسلوب(٣)، فمتى بقيت عليه من نفسه بقية ونظر إلى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية فيسترها عليه رحمه له، لأنه لو كوشف بها لهلك فى حيرة الهوى وغرق فى بحار الدنيا ونفس

(١) وفى نسخة: يطغك.
(٢) وفى نسخة: الأسرار.
(٣) وفى نسخة: وهو عن نفسه محجوب فمن بقيت.. إلخ.

حبه وعين طلبه إياها هو حجابه عنها، واستتارها عنه حتى يكون كارهاً لظهورها كراهيته ظهور الخلق على معصيته، وخائفاً منها كخوفه على نفسه فى تظاهرها عليه بهلكته، فهنالك حين يبتلى بها ويختبر يظهر كيف يعمل» وكذا الشيخ أبوعبدالله القرشى ـ رضى الله عنه ـ قال: «من لم يكن كارهاً لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصى فهى فى حقه حجاب، وسترها عليه رحمة، فإذن من خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شيء من الآيات وخوارق العادات له، بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك، فإذا فنى عن إرادته جملة فكان له تحقق فى رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف ووجود الإسعاف، وسلك إلى مرتبة المهيع(١) الناهج(٢)، وضرب مع أهل الإرادة بقدح الفالج(٣)».

قال الشيخ أبوالعباس بن العريف: «أصبحت يوماً مهموماً فقلت للشيخ أبى القاسم بن رويبل: حدثنى بحكاية عسى الله أن يفرج ما بى، فقال: نعم، وصف لى رجل ببعض السواحل يعرف بـ «أبى الخيار» فقصدته، فوجدته على ساحل البحر، فسلمت عليه وجلست فلم يتكلم ولم أكلمه، حتى إذا كان وقت الصلاة أقبل نفر من بعض الأودية متفرقون، فاجتمعوا إليه، وتقدمهم واحد منهم فصلى بهم ثم افترقوا ولم يكلم أحد منهم أحداً، وجلس الشيخ مكانه وجلست عنده إذا كان وقت الصلاة حضر النفر فصلوا، ثم انصرفوا حتى إذا كان وقت صلاة العصر اجتمعوا وصلوا ثم جلسوا بعد ذلك وتذاكروا سير الصالحين ومقامات العارفين والأولياء إلى قرب اصفرار الشمس، ثم تفرقوا واجتمعوا للمغرب، ثم تفرقوا فجلست عندهم ثلاثة أيام وهم على ذلك، ثم وقع فى نفسى أن أسأله عن مسألة أستفيدها، فتقدمت إليه فقلت: أيها الشيخ مسألة أسأل عنها؟

فقال: قل، فنظر الجماعة إلىّ كالمنكرين ففزعت، فقلت: أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد؟ قال: فأعرض عنى ولم يجيبنى!! فخفت أن أكون قد أغضبته، فقمت عنه، فلما كان فى اليوم الثانى، قلت لابد أن أسله، وعزمت على ذلك: فتقدمت إليه وقلت: أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد؟

فأعرض عنى كالأولى ولم يجاوبنى، فقمت وعدت فى الثالثة فسألته عن المسألة

---

(١) المهيع: الطريق الواسع البين.
(٢) الواضح.
(٣) الفالج: مكيال.

بعينها، فاجتمع وقال: لا تقل هكذا! أظنك تريد أن تسأل عن أول قدم يضعه المريد فى الإرادة؟ فقلت: نعم، قال لى: إذا اجتمع فيه أربع خصال:

إحداها: أن تطوى له الأرض وتكون عنده كقدم واحد، وأن يمشى على الماء، وأن يأكل من الكون متى أراد، وأن لا ترد له دعوة، فعند ذلك يضع أول قدمه فى الإرادة، وأما متى ما علم المريد عندنا أنه مريد سقط من حد(١) الإرادة! قال الشيخ أبوالعباس بن العريف - رضى الله عنه -: فصحت صيحةً كادت نفسى تذهب معها، ثم قلت له: آيستنا من الإرادة يا أبا القاسم.

وتعجبت من علو همة هذا الشيخ» انتهى.

واعلم أنه أول ما يخرق له من العادة تسميته باسم «المريد» مع كونه مسلوب الإرادة، وما أحسن ما قال الشاعر:

تكون مريداً ثم فيك إرادة إذا لم رُد شيئاً فأنت مريد

والتحقيق فى هذا: أن من تمحضت إرادته لعبودية الله عز وجل بمراعاة حقوقه لأجل ما وجب عليه من ذلك لا يتوصل به إلى نيل حظ ما: هو الذى يسمى مريداً، فلم يسم بذلك إلا لأنه متصف بالإرادة الحقيقية المتعغم بأشرف المطالب ونهاية الآمال والمآرب، وذلك أمر وجودى يصح أن يشتق منه اسم لمن قام به ذلك الأمر، لا أنه سمى بذلك لأجل ما سلب عنه من الإرادة المجازية المتعلقة بحظوظه، لكن لما كان سلب إحداهما يقتضى وجود الأخرى كاقتضاء الواجب صح لذلك الشاعر أن يطلق اسم الإرادة على من سلبت منه، ويحجزه عمن وجدت فيه رشاقة وملاحة ونعمة. وبهذا تبين لك صحة كلام أبى يزيد، واستقامته حيث قيل له: ما تريد؟ فقال: أريد أن لا أريد. وأنه ليس بمختل ولا متناقض كما توهم بعضهم.

قال فى التنوير: «واعلم أنه قال بعضهم: إن أبا يزيد لما أراد أن لا يريد فقد أراد، وهذا قول من لا معرفة عنده!! وذلك: أن أبا يزيد إنما أراد أن لا يريد، لأن الله تعالى اختار له وللعباد أجمع عدم الإرادة معه، فهو لا يختار معه شيئاً ولا يريده، فهو فى إرادته أن لا يريد موافق لإرادة الله له».

ولذلك قال الشيخ أبوالحسن: «فكل مختارات الشرع وترتيباته هو مختار لله، ليس لك منه شىء، فاسمع وأطع، وهذا موضع الفقه الربانى والعلم اللدنى وهو

(١) وفى نسخة: سقط حظه من الإرادة.

أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذ عن الله».

وقال: فأبان الشيخ بهذا الكلام إن كل مختار الشرع لا يناقض اختيار مقام العبودية المبنى على ترك الاختيار لئلا ينخدع عقل قاصر عن درك الحقيقة بذلك فيظن أن الوظائف والإرادات ورواتب السنن إرادتها يخرج بها العبد عن صريح العبودية، لأنه قد اختار، فبين الشيخ أن كل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منه شيء، وإنما أنت مخاطب أن تتخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها لا عن تدبير الله تعالى ورسوله لك، فأفهم.

قال: فقد علمت أن أبا يزيد ما أراد أن لا يريد، إلا لأن الله أراد منه ذلك، فلم تخرجه هذه الإرادة عن العبودية المقتضاة منه» انتهى.

وقد طال الكلام بنا فى هذا المعنى حتى آل إلى بُعْدالمناسبة بينه وبين المسألة المنبه عليها من الكتاب، والحديث شجون يجر بعضه إلى بعض، لكن لما كان قصدنا فى هذا التنبيه استغنام ذكر الفوائد فى مواضعها ومظانها، لتقرع مسائل هذا الفن الغريب أسماع من أراد الله تعالى توفيقه ممن بينه وبينه بعد المشرقين صح منا ذلك وكنا سائرين فيها على أوضح المسالك، وبالله التوفيق.

«ما الشَّأْنُ وُجُودَ الطَّلَب. إنَّماَ الشَّأْنُ أنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الأدَب»

إذا التزم العبد طلب حوائجه وحظوظه من مولاه ولم يطلب ذلك من غيره، فلا يظن أنه وفى بما يجب عليه من حق الربوبية، فليس ذلك بالشأن المعتبر عند المحققين، وإنما الشأن أن يتأدب العبد بين يدى مولاه أدباً حسناً بأن يفوض أمره إليه، ويرضى بما قسم له، ولا يطلب منه ما ليس له، كما سيقول المؤلف - رحمه الله - بعد هذا، ويطلب عبودية له، لا لقصد نيل حظه فبهذين الوجهين يحسن أدبه، ويصح سؤاله وطلبه، وذلك هو الوفاء على التحقيق.

«ما طَلَبَ لَكَ شَيءٌ مِثْلُ الاضْطِرَارِ، وَلا أَسْرَعَ بِالمَوَاهِبِ إلَيْكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ والافْتِقَارِ»

اضطرار العبد هو أخص أوصاف عبوديته، ولذلك لم يطلب من العبد شيء أجل منه، قال أبومحمد عبدالله بن منازل(١) ـ رضى الله عنه ـ «العبودية الرجوع فى كل شيء إلى الله عز وجل على حد الاضطرار» وفيه أيضاً خاصية إجابة الدعاء، قال الله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(٢)، والاضطرار المطلوب منه: ألا يتوهم العبد من نفسه شيئاً من الحول والقوة، ولا يرى لنفسه سبباً من الأسباب يعتمد عليه أو يسند إليه، ويكون بمنزلة الغريق فى البحر، أو الضال فى التيه القفز، لا يرى لغايته إلا مولاه، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحداً سواه.

وقال بعض العارفين: المضطر الذى يقف بين يدى مولاه فيرفع يديه إليه بالمسألة فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئا فيقول: يا مولاى، هب لى بلا شيء».

والذلة والافتقار أمران لازمان له، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾(٣)، فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرهم، كما قيل:

وإذا تذللت الرقاب تقرباً ... منها إليك فعزُّها فى ذُلها

وقيل: حيث أسلمتنى إلى «الذال واللام» تلقيتنى بعين وزاى.

قال فى لطائف المنن: «والجالب للتوفيق علامة صدق الرجعى إلى الله فى أول كل فعل وترك تحقيق الفقر والفاقة إليه والانغماس فى بحر الذلة والمسكنة بين يديه واستصحاب ذلك إلى الفراغ من ذلك أبدا، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾(٤)، فلا تدخل جنة عملك وعلمك، وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذل فأخبر

---

(١) ترجم له صاحب الرسالة القشيرية فقال: شيخ الملامتية، وأوحد وقته، صحب حمدون القصار، وكان عالماً وكتب الحديث الكثير.
مات بنيسابور سنة تسع وعشرين، أو ثلاثين وثلاثمائة(انظر الرسالة القشيريةجـ١ ص١٥٤).

(٢) الآية ٦٢ من سورة النمل.

(٣) الآية ١٢٣ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٦٠ من سورة التوبة.

الله عنه بقوله: ﴿دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾(١)، ولكن ادخلها كما بين لك، وقل كما رضى لك: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾(٢)، وافهم هاهنا قوله(ﷺ): «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»(٣)، وفى رواية أخرى: «كنز من كنوز تحت العرش» فالترجمة ظاهر الكنز، والمكنوز فيها صدق التبرى من الحول والقوة والرجوع إلى حول الله تعالى وقوته.

«لَو أَنَّكَ لا تَصلُ إِلَيـه إِلاَّ بَعْدَ فَنَاء مَسَاوِيكَ، وَمَحْو دَعَاوِيكَ، لَمْ تَصلْ إِلَيـه أَبَداً، وَلَكنْ.. إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصلَكَ إِلَيْه، غطى وَصْفَكَ بوَصْفه، ونَعتَكَ بنَعْته.. فَوَصَلَكَ إِلَيْه بِمَا منْه إِليكَ، لاَ بِمَا منْكَ إِليه».

الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بمحو صفات النفس، وقطع علاقات القلب، وشيء من ذلك لا يتصور من العبد من حيث هو، لأن ذلك طبعه وجبلته ولو لم يكن إلا إرادته وعمله فى تحصيل هذا الغرض بنفسه، فهما من جملة المساوى والدعاوى المحتاج إلى محوها الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله» يعنى: انقطاع أدب لا انقطاع ملل(٤).

وقال سيدى أبوالحسن ـ رضى الله عنه ـ «ولن يصل الولىّ إلى الله ومعه شهوة من شهواته، أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته» فلو خلى الله تعالى عبده وذلك، لم يصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إليه تولى ذلك له بأن يظهر له من صفاته العلية، ونعوته القدسية ما يغيب بذلك صفات عبده ونعوته عنه، ويكون ذلك علامة على محبته، كما أشار إليه بقوله فى الحديث القدسى: «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها»(٥) وعند ذلك لا تكون له إرادة

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الكهف. (٢) الآية ٣٩ من سورة الكهف.

(٣) أخرج البخارى رضى الله عنه عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله(ﷺ) قال له:(قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة).

(٤) وفى نسخة: انقطاع أرب لا أنقطاع ملل.

(٥) هذا جزء من حديث قدسى أخرجه البخارى رضى الله عنه والحديث بأكمله:
(من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلىّ من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصره به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه).

ولا اختيار إلا ما ختاره له مولاه وأراده، فيكون حينئذ واصلاً إلى الله بما من الله إليه من الفضل والكرم لا بما من العبد إليه من الاجتهاد والعمل فسبحان المتفضل على من شاء بما شاء.

«لَوْلا جَمِيلُ سَتْرِه، لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً للقَبول»!

العبد مبتلى بنظره إلى نفسه، وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه، وشهود حوله وقوته عليه، وهذا لا محيض له عنه إلا بما شاء ربه،وقد يكثف حجابه فيرائى به ويطلب حمد الناس له، وهذا كله من الشرك الخفى القادح فى الإخلاص الحقيقى والإخلاص شرط فى قبول العمل كم تقدم.

قال يحيى بن معاذ - رضى الله عنه -: «مسكين ابن آدم، جسم معيب، وقلب معيب، يريد أن يخرج من معيبين عملاً بلا عيب» فعمل العبد لما كان بهذه المثابة لم يكن فيه أهلية لوجود القبول لولا جميل ستر الله تعالى وعظيم حلمه وبره.

فليعتمد المريد على فضل الله تعالى وكرمه لا على اجتهاده وعمله

قال الشيخ أبو عبدالله القرشى - رضى الله تعالى عنه -: «إذا طالبهم بالإخلاص تلاشت أعمالهم، وإذا تلاشت أعمالهم زاد فقرهم وفاقتهم فتبرءوا عن كل شيء ومن كل شيء لهم ومنهم».

«أَنْتَ إلى حِلْمِه إذَا أَطَعْتَه، أَحْوَجُ مِنْكَ إلى حِلْمِه إذا عَصَيْتَه»

شرف العبد ورفعة قدره إنما تكون بنظره إلى ربه عز وجل، وإقباله عليه، وسكونه إليه، واعتماده عليه، ودناءته وخسته، وسقوطه من عين الله تعالى إنما تكون بنظره إلى نفسه، وإقباله على غيره، واستناده إلى سواه، فالعبد عند عمله بالطاعة معرض لهذه الأخطار من نظره إلى نفسه، واستعظام عمله، وعجبه بطاعته، وسكونه إلى معاملته، وليته يسلم فيه من دقائق الرياء والتصنع، بخلاف المعصية فى جميع هذه الأشياء، فإنها تحمله على الحذر، والخوف من ربه، وتوجب له الاستكانة والخضوع، وشدة الافتقار إليه، فلذلك كان العبد إلى حلم الله - إذا أطاعه - أحوج منه إلى حلمه إذا عصاه.

وفى الخبر عن رسول الله(ﷺ) أنه قال: أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء: «قل لعبادى الصديقين: لا تغتروا، فإنى إن أقمت عليهم عدلى وقسطى أعذبهم

غير ظالم لهم، وقل لعبادى الخاطئين: لا تيأسوا من رحمتى، فإنى لا يكبر علىّ ذنب أغفره».

ولهذا المعنى قال أبوزيد - رضى الله عنه -: «توبة المعصية واحدة، وتوبة الطاعة ألف توبة».

«السَّتْرُ عَلَى قِسْمين: سَتْرٌ عن المعْصيَة، وسَتْرٌ فيها. فالعامَّةُ يَطْلُبُونَ منَ الله تعالَى السَّتْرَ فيْهَا خَشْيَةَ سُقُوط مَرْتَبتهم عنْدَ الخَلْق، والخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ عَنْهَا خَشْيَةَ سُقُوطهمْ منْ نَظَر المَلك الحَقّ»

العامة يغلب عليهم شهود الخلق، والتصنع والتزين لهم ومحبة حمدهم وكراهية ذمهم، فهم يعملون المعصية ويستخفون بها ويطلبون الستر من الله عليهم فيها، أى: فى حال كونهم عاملين بها لئلا يراهم الخلق فيسقطوا من أعينهم وفى أمثالهم قال الله عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾(١).

قال الإمام أبوالقاسم القشيرى - رضى الله عنه - فى هذه الآية: «الغالب على قلوبهم رؤية الخلق، ولا يشعرون أن الحق مطلع عليهم أولئك الذين وسم الله قلوبهم بوسم الفرقة».

روى عدى بن حاتم - رضى الله عنه - عن رسول الله(ﷺ) أنه قال: «يؤمر يوم القيامة بناس «من الناس» إلى الجنة حتى إذا دنوا منها ونظروا إليها واستنشقوا ريحها وما أعد الله لأهلها نودوا أن اصرفوهم عنها فلا نصيب لهم فيها. فيرجعون بحسرة، مارجع الأولون بمثلها فيقولون: يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا، قال: ذلك أردت بكم: كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتوهم مخبتين(٢) تراءون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم، هبتم الناس ولم

---

(١) من الآية ١٠٨ من سورة النساء.

(٢) خاشعين خاضعين.

تهابونى، وأجللتم الناس ولم تجلونى وركنتم إلى الناس ولم تركنوا إلى، فاليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب».

وفى بعض الكتب المنزلة: إن لم تعلموا أنى أراكم فالخلل فى إيمانكم وإن علمتم أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم.

وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(١): هو الرجل تمر به المرأة فى القوم فيريهم أنه يغض بصره عنها ويود أنه يطلع على عورتها ويقدر عليها.

وقال فى رواية أخرى: «هو الرجل يكون فى القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها فإذا رأى من القوم غفلة لحظ إليها ونظر، فإذا خاف أن يفطنوا غض بصره عنها فقد اطلع الله عز وجل على قلبه أنه يود له نظر إلى عورتها».

وهذا كله شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار، ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار».

والخاصة من أهل الإيمان واليقين براء من هذا الوصف الذميم لا التفات لهم إلى الخلق مدحاً ولا ذما، وهمتهم مصروفة عن النظر إليهم والاعتماد عليهم فى نفع، أو دفع ضر، وحالهم إنما هو القناعة بعلم الله تعالى، ومراقبة نظره، فهم يطلبون الستر من الله، عنها فى أن يغيبها عن نظرهم ولا يخطرها بقلوبهم فتميل إليها أنفسهم فيعملون بها، فيقعون فى مخالفة ربهم والتعرض لسخطه والسقوط من عينه، وشتان ما بين الحالين.

وإلى هذا المعنى أشار سيدى أبوالحسن الشاذلى ـ رضى الله عنه ـ فى دعائه بقوله: «اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ونعوذ بك من المعصية وأسبابها، وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها واحملنا على النجاة منها ومن التفكر فى طرائقها، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنبناه منها واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدها».

---

(١) آية ١٩ من سورة غافر.

«مَنْ أكْرَمَكَ.. فإنَّمَا أكْرَمَ فيكَ جَميلَ سَتْرِه،

فالحَمْدُ لمَنْ سَتَرَكَ، لَيْسَ الْحَمْدُ لمَنْ أكْرَمَكَ وشَكَرَكَ»!

العبد محل الآفات والعيوب، وستر الله الجميل هو الذى يحبب الناس إلى الناس، فإذا أكرمك أحد فلا يذهبن ذلك بك إلى أن ترى لنفسك وصفاً محموداً تستحق به الإكرام، فتكون جاهلاً بنفسك، ولا يحملنك أيضاً رؤية إكرام الخلق لك، لوجود جهلهم بحالك، على أن تحمدهم عليه دون ربك الذى اضطرهم إلى إكرامك وستر عنهم عيوبك وأظهر لهم محاسنك، فتكون بذلك كافراً بنعمة ربك ظالماً بوضع الحمد فى غير موضعه.

«لا تصحب(١) إلاَّ مَنْ صَحِبَكَ وَهُوَ بعَيْبِكَ عَليمٌ، ولَيْسَ ذلكَ إلاَّ مَوْلاكَ الكَريمُ.

خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ: مَنْ يَطْلُبُكَ لاَ لشَىْءٍ يَعُودُ منْكَ إلَيْه»

الصاحب على الحقيقة هو: من بذل إحسانه إليك، وأسبغ نعمه عليك ولم يمنعه من ذلك ما يعلمه من عيوبك التى يكرهها منك، وليس ذلك إلا مولاك.

وخير صاحب لك أيضاً من اعتنى بك وآثرك وأرادك من غير منفعة ينالها منك، وليس ذلك أيضاً إلا مولاك فاتخذه صاحباً، ودع الناس جانباً.

«لو أشْرَقَ لَكَ نُورُ اليَقين، لَرأيتَ الآخرَةَ أقْرَبَ إلَيْكَ منْ أنْ تَرْحَلَ إليها، ولرأيتَ مَحَاسنَ الدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كسْفَةُ الفَنَاء عَلَيْها»!

نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هى عليه فيحق به الحق ويبطل به الباطل الآخرة حق، والدنيا باطل، فإذا أشرق نور اليقين فى قلب العبد أبصر به الآخرة التى كانت غائبة عنه حاضرة لديه، حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرحل إليها، فحق بذلك حقها عنده، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت

---

(١) فى كثير من النسخ المخطوطة والمطبوعة: (ما تصحبك إلا) وهو خطأ.

حاضرة فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن، فيوجب له هذا النظر اليقينى الزهادة فى الدنيا والتجافى عن زهرتها، والإقبال على الآخرة، والتهيؤ لنزول حضرتها.

ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال النبى(ﷺ): «إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: نعم، التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»، أو كما قال(ﷺ) وعند ذلك تموت شهواته، وتذهب دواعى نفسه، فلا تأمره بسوء، ولا تطالبه بارتكاب منهى، ولا يكون همه إلا المسارعة إلى الخيرات: والمبادرة إلى اغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره حلول الأجل وفوات صالح العمل.

وإلى هذا المعنى الإشارة بحديثى: حارثة، ومعاذ - رضى الله تعالى عنهما -: روى أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: بينما رسول الله (ﷺ) يمشى إذا استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبى(ﷺ): «كيف أصبحت يا حارثة»؟ فقال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، قال: «انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة»، فقال: يا رسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، فكأنى بعرش ربى بارزاً وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها.

فقال: «أبصرت، فالزم، عبد نور الله الإيمان فى قلبه»، قال: يا رسول الله ادع الله لى بالشهادة فدعا له رسول الله(ﷺ) فنودى يوماً فى الخيل: يا خيل الله اركبى، فكان أول فارس ركب، وأول فارس استشهد، فبلغ أمه ذلك، فجاءت إلى رسول الله(ﷺ) فقالت له: يا رسول الله اخبرنى عن ابنى حارثة، فإن يك فى الجنة فلن أبكى ولن أجزع، وإن يك فى غير ذلك بكيت ما عشت فى الدنيا، فقال(ﷺ): «يا أم حارثة إنها ليست بجنة، ولكنها جنة فى جنات، وحارثة فى الفردوس الأعلى» فرجعت وهى تضحك وتقول: بخٍ بخٍ لك يا حارثة.

وروى أنس أيضاً: أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله(ﷺ) وهو يبكى، فقال له: «كيف أصبحت يا معاذ» قال: أصبحت بالله مؤمناً قال النبى(ﷺ): «إن

لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول؟»، قال: يا نبى الله ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أن لا أمسى، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت ألا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت ألا أتبعها أخرى، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها، معها نبيها وأوثانها التى كانت تعبد من دون الله، وكأنى أنظر إلى عقوبة أهل الدار، وثواب أهل الجنة، قال(ﷺ): «عرفت فالزم».

فهذان الرجلان الفاضلان: حارثة بن سراقة، ومعاذ بن جبل الأنصاريان ـ رضى الله عنهما ـ لما أشرف عليهما نور اليقين وتمكن من قلبيهما أى تمكين صدر منهما ما صدر مما ذكراه من فنون العبر، وشاهدا أمر الدارين بمنزلة رأى العين، فسلمت أعمالهما من العيوب والآفات، وحفظا من الهفوات والسيئات، وطهرت منهما الأسرار والقلوب، وسارعا فى كل أمر محبوب، وطارت أرواحهما اشتياقاً إلى لقاء الواحد الفرد، وطابت أنفسهما بالموت حتى صار عندهما أحلى من الشهد «حبيب جاء على فاقة لا أُفلح من ندم(١)» وكذلك غيرهما من الصحابة وكبار التابعين، وأئمة الدين ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ:

ولقد أجاب معبر عن حالهم   فاسمع مقالاً صادقاً مقبولاً

إن الأُلَى ماتوا على دين الهدى   وجدوا المنية منهلاً(٢) معسولاً

وروى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ: أن حرام بن ملحان ـ رضى الله عنه ـ وهو خال أنس طعن يوم «بئر معونة» فى رأسه، فتلقى دمه بكفه، ثم نضحه(٣) على رأسه ووجهه، وقال: فزت ورب الكعبة.

وكان «حيان بن سلمى» فيمن حضر بئر معونة مع عامر بن الطفيل، ثم أسلم بعد ذلك فكان يقول: مما دعانى إلى الإسلام أنى طعنت رجلاً منهم فسمعته يقول: فزت والله. فقلت فى نفسى: والله ما فاز، أليس قتلته! حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقال: الشهادة فقلت: فاز لعمر الله «والمطعون ها هنا، والله أعلم، هو: عامر بن فهيرة».

وقال رسول الله(ﷺ) فى شأن الأمراء الثلاثة يوم مؤتة أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد

---

(١) ما بين القوسين محذوف من بعض النسخ.
(٢) وفى نسخة: وجدوا المنية مرها معسولاً.
(٣) رشه.

بن الوليد عن غير إمرة ففتح الله عليه. أظنه قال(ﷺ): والله ما يسروا(١) أنهم عندنا أو ما يسرهم إنهم عندنا، وعيناه تذرفان دموعاً، فالله درهم، لقد حازوا مرتبة شريفة ومنزلة عالية منيفة وتباً لأمثالنا الذين عميت بصائرهم وأظلمت سرائرهم، فحجبت عنا شموس المعارف وأوقعتنا فى أودية المهالك والمتالف واغتررنا بهذه الدار الغرارة، الفتانة الساحرة، فتشبثت مخالبنا بشباكها وارتبكنا فى مصايدها أشراكها من غير شعور منا بحالها وتزوير محالها، فكنا فى قصدنا إليها وتعويلنا عليها بمنزلة ظمآن لاح له سراب حسبه ماء فلما جاءه لم يجد فيه هناء ولا غناء!! ثم مع هذا كله ينتسب إلى الدين ويدعى كمال المعرفة واليقين والدخول فى بحار أولياء الله المتقين، مع أن أحدنا لو خير بين حلول الحين، أو البقاء فى الدنيا معلقاً بأشفار العين لاختار البقاء فيها على هذه الحال، مع كونه لا يحدث نفسه فى طاعة بازدياد، ولا عن معصية بانتقال وهذه كلها أخلاق يهودية لا تليق بمن ينتسب إلى هذه الملة المحمدية.

قال الله عز وجل مخبراً عن حال اليهود. وكاشفاً لأسرارهم وهاتكاً لأستارهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(٢)، فلو لم ينه العاقل عن محبته البقاء فى هذه الدار ويأمره بإيثار دار القرار إلا تشبهه باليهود الناقضين للعهود، المتهاونين بأوامر المعبود، لكان ذلك أبلغ ناه وآمر، فضلاً عما ورد فى ذلك من مواعظ وزواجر، نزع الله عن قلوبنا حجاب الغفلة والغرور وحمانا عن مشابهة كل ظلوم وكفور وحبب إلينا لقاءه ورزقنا ما رزق أولياءه وأصفياءه بمنه وكرمه(٣).

«مَا حَجَبَكَ عَنِ الله وجُودُ مَوْجُودٍ مَعَه - إذ لا شَىءَ مَعَه .. وإنما حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمُ موْجُودٍ مَعَه»!

تقدم: ألا موجود سوى الله تعالى على التحقيق، وإن وجود ما سواه إنما هو وهم مجرد، فلا حاجب لك من الله تعالى إلا توهم وجود ما سواه لا غير والتوهمات باطلة، فلا حاجب لك عن الله تعالى إذن.

(١) فى أكثر النسخ المطبوعة(ما يسرنا وهو خطأ).
(٢) الآية رقم ٩٦ من سورة البقرة.
(٣) وزادت نسخة بعد ذلك:(فإنه لا يخيب عبداً بالذل ناداه، بل يجيب دعاه).

وقد استوفى المؤلف - رحمه الله - ذكر جميع أنواع الاعتبارات فى هذا المعنى قبل هذا، قال فى «لطائف المنن»: «وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال، والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا ثبتت ظلية الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر، لأن الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله كذلك أيضاً من شهد ظليه الآثار لم تعقه عن الله تعالى، فإن ظلال الأشجار فى الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار.

ومن ها هنا يتبين لك أيضاً أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب إليك من الله، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه، وذلك كرجل بات فى مكان وأراد البراز فسمع صوت الرياح من «كوة» هناك، فظنه زئير أسد فمنعه ذلك عن البراز، فلما أصبح لم يجد هناك أسداً، وإنم هو الريح انضغط فى تلك الكوة، فما حجبه وجود أسد، وإنما حجبه توهم الأسد.

لَولاَ ظُهُورُهُ فى المُكَوَّنَاتِ مَا وَقَعَ عليها وجُودُ إبْصَارٍ! ولو ظَهَرَتْ صفَاتُه، اضْمَحلَّتْ مُكَوَّنَاتُه.

ظهور الحق تعالى من وراء حجاب المكونات هو الذى أوجب ظهورها ووقوع الأبصار عليها، ولولا وجود حجابيتها لم يقع عليها أبصار ولتلاشت، لوجود التجلى الحقيقى، كما قال: «لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته» بل لم يكن هناك بصر ولا إبصار ولا مبصر، كما جاء فى الحديث: «حجابه النار» وفى رواية «النور» لو كشف عنها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره.

« أظْهَرَ كُلَّ شَيءٍ، لأنهُ البَاطِنُ. وَطَوَى وجُودَ كُلَّ شَيءٍ، لأنَّهُ الظَّاهِرُ ».

من أسمائه تعالى: الظاهر، والباطن، فاسمه الظاهر يقتضى بطون كل شيء حتى لا ظاهر معه فينطوى حينئذ وجود كل شيء، واسمه الباطن يقتضى ظهور كل شيء حتى لا باطن معه، فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء، فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار والحمد لله.

«أباحَ لَكَ أنْ تَنْظُرَ مَا فى المُكَوَّنات، وَمَا أذِنَ لَكَ أنْ تَقفَ مَعَ ذَوَاتِ المُكَوَّنات: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١) ، فتح لَكَ بابَ الإفْهام وقال انظروا ماذا فى السموات. وَلَمْ يقُلْ: «انْظُروا السَّماوات»، لئَلاَّ يَدُلَّكَ عَلَى وُجود الأجْرام».

أمر الله تعالى بالنظر فى المكونات ليس لذاتها لأن فى ذلك البعد عن الله تعالى بالنظر إلى ما سواه، ولم يبح هذا. وإنما أمرهم بذلك ليتوصلوا بنظرهم فيها إليه لوجود ظهوره فيها. والإشارة إلى هذا المعنى بـ«فى» فى قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فالمعنى المقصود: فى وجود الظرفية ومنها يستفاد، وهو معنى قوله: «فتح لك باب الأفهام»، فلو أسقطها وقال: انظروا السماوات لكان فيه دلالة على وجود الأجرام، وهى أغيار له، وفيها البعد عنه فكيف يدل على ذلك وهو لم يأذن فيه؟!. قال فى «لطائف المنن»: «فما نصبت لك الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها. قال: ولنا فى هذا المعنى:

ما أبينت لك العوالم إلا
لتراها بعين من لا يراها
فارق عنها رقى من ليس يرضى
حالة دون أن يرى مولاها

«الأكْوَانُ ثَابتَةٌ بإثْبَاته، ومَمْحُوَّةٌ بأحَديَّة ذَاته».

الأكوان من ذاتها العدم المحض، كما تقدم وإنما حصل لها وصف الثبوت بإثبات الله تعالى لها، وجعلها أكوانا(٢)، فالثبوت لها أمر عرضى، والحق اللازم هو وجود أحدية الله عز وجل، والأحدية مبالغة فى الوحدة، ولا تتحقق إلا إذا

(١) الآية ١٠١ من سورة يونس.
(٢) وفى نسخة: بإثبات الله تعالى لها وجعل لها ذلك الوصف.. إلخ.

كانت الوحدة بحيث لا يمكن أن يكون أشد ولا أكمل منها، فمنها مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث لا توجد إذ لو وجدت لم تكن أحدية ولكان في ذلك تعدد واثنينية، كما قيل:

رب وعبد ونفي وضد
قلت له ليس ذاك عندي
فقال: ما عندكم؟ فقلنا
وجودُ فقد وفقد وجدِ
توحيد حقّ بترك خلق
وليس حقّ سواي وحدي

وأنشدوا أيضاً:

سر سرى من جناب القدس أفناني
لكان بذاك الفنا عني قد أحياني
وردّني للبقا حتى أعبر عن
جمال حضرته لكلّ هيمان
وطرت في ملكوتٍ من عجائبه
لم ألق غير وجود ماله ثاني

وأنشد المؤلف - رحمه الله تعالى - لنفسه في «لطائف المنن» يوصي رجلاً من إخوانه اسمه «حسن» فقال:

حسن بأن تدَع الوجود بأسره
حَسَنٌ فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمت لتعلمن بأنه
لا ترك إلا للذي هو حاصل
ومتى شهدت سواه فاعلم أنه
من وهمك الأدنى وقلبك ذاهل
حسب الإله شهوده لوجوده
والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت إلي الصريح من الهدى
دلت عليه - إن فهمت - دلائل

وحديث كان وليس شىء غيره
يقضى به الآن اللبيب العاقل
لا غرو إلا نسبة مثبوتة
ليذم ذو ترك، ويحمد فاعل(١)

«النَّاسُ يَمْـدَحُـونَكَ لِمَـا يَظُنُّونَ فِـيْكَ.. فَكُنْ أَنْتَ ذَامٌّ لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا».

ذم العبد لنفسه واحتقارها لما يتحققه من عيوبها، وآفاتها مطلوب منه، لأن ذلك يؤديه إلى الحذر من غرورها وشرورها، فتصلح بسبب ذلك أعماله وتصدق أحواله وإلا فسدت عليه واعتلت لدخول الآفات عليها ولا يصدنه عن ذلك ثناء الناس عليه ومدحهم له، لأنه يعلم من عيوب نفسه مالا يعلمه غيره ثم إنهم لما قاموا بحق ما يجب عليهم من المدح له وحسن الظن به فينبغى أيضاً أن يقوم هو بحق ما يجب عليه من اتهام نفسه وسوء اعتقاده فيها.

قال بعضهم: «من فرح بمدح نفسه، فقد أمكن الشيطان أن يدخل فى بطنه».

وقال آخر: «إذا قيل لك نعم الرجل أنت، فكان أحب إليك من أن يقال بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل»، وقيل لبعض الصحابة - رضى الله تعالى عنهم -: «لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم، فغضب، وقال: إنى لأحسبك عراقياً» وقال بعضهم لما مدح: «اللهم إن عبدك تقرب إلىّ بمقتك فأشهدك على مقته» وقال آخر: «اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون واغفر لنا مالا يعلمون».

قال الإمام أبوحامد الغزالى - رضى الله تعالى عنه -: «وإنما كرهوا المدح، خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق» فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض إليهم مدح الخلائق، لأن الممدوح هو المقرب عند الله تعالى، والمذموم على الحقيقة هو المبعد عند الله تعالى، الملقى فى النار مع الأشرار.

---

(١) وزادت نسخ أخرى بعد ذلك:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
لقد خط فيها - لو تأملت خطها ألا كل شىء ما خلا الله باطل

فهذا الممدوح إن كان عند الله تعالى من أهل النار فما أعظم جهله إذ فرح بمدح غيره،وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغى أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق، ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم، وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه» انتهى كلام أبى حامد ـ رضى الله عنه.

«الْمُؤمِنُ إِذَا مُـدِحَ.. اسْـتَـحْـيَـا مِنَ الله أَنْ يُثْنَى عَلَيـهِ بِوَصْفٍ لاَ يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ».

المؤمن الحقيقى هو الذى لا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحق بها أن يمدح أو يثنى عليه، وإنما يشهد ذلك من ربه عز وجل، فإذا أثنى الناس عليه، وذكروا محاسنه استحيا من الله تعالى استحياء تعظيم وإجلال أن يثنى عليه بصفة ليست فيه فيزداد بذلك مقتاً لنفسه واستحقاراً لها ونفوراً عنها ويقوى عنده رؤية إحسان الله تعالى إليه، وشهود فضله فى إظهار المحاسن عليه، وهذا هو الشكر الذى ينال به المزيد مع سلامته مع السكون إلى ثناء العبيد.

«أَجْـهَلُ النَّسِ مَنْ تَرَكَ يَقِـينَ مَـا عِنده لِظَنِّ مَـا عِنْدَ النَّاسِ»!

الاغترار بمدح الناس وثنائهم غاية فى الجهل والغباوة، وذلك من علامات المقت، لأن المغتر بذلك ترك يقينه بنفسه لظن غيره به، وهو على كل حال أعلم بنفسه. وقد شبه الحارث المحاسبى ـ رضى الله عنه ـ الراضى بالمدح من الناس بالباطل بمن يهزأ به، ويقال له: إن العذرة(١) التى تخرج من جوفك لها رائحة المسك، وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية به!!

قلت: ولا شك أن الذنوب والعيوب التى يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التى تخرج من جوفه، ولا فرق بين الحالين، إلا أنه فى حال المدح يعلم أن المادح لم يشاركه فى معرفة ذنوبه وعيوبه مشاركة ذلك المستهزئ للمستهزأ به فى معرفة حال ما يخرج من جوفه، فهو بجهله وغباوته قد رضى بأن يكون له فى قلوب العباد الجاهلين بحاله قدر وجاه من غير مبالاته بسقوطه من عين مولاه الذى يعلم من حاله مالا يعلمه هو ولا غيره من حيث رضى بالمدحة وفرح بها ولم

(١) العذرة: الغائط.

يقابل ذلك بالإباء والكراهية، هذا إذا كان المادح من أهل العلم والدين، وأما إن كان جاهلاً أو فاسقاً فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به.

قال يحيى بن معاذ الرازى ـ رضى الله عنه ـ «تزكية الأشرار هجنة(١) بك، وحبهم لك عيب عليك».

وقيل لبعض الحكماء: إن العامة يثنون عليك، فأظهر الوحشة من ذلك وقال: لعلهم رأوا منى شيئا أعجبهم ولا خير فى شىء يسرهم ويعجبهم».

ويروى عن بعض الحكماء أنه مدحه بعض العوام، فبكى فقال له تلميذه: أتبكى وقد مدحك؟! فقال له: إنه لم يمدحنى حتى وافق بعض خلقى خلقه، فلذلك بكيت، فانظر هذا، فقد نبهك هذا الحكيم على العلة فى ذلك.

« إذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بأَهْلٍ، فَأَثْنِ عَلَيهِ بِمَا هو أهْلُه ».

المؤمن هو الذى لا يرى نفسه أهلاً لأن يمدح أو يثنى عليه، لأن موجبات ذلك ليس له منها شىء، كما تقدم.

فإذا أطلق الله تعالى ألسنة الناس بالثناء عليه، ولا أهليته فيه لذلك فينبغى أن يعرف الحق لأهله فيستعمل نفسه بالثناء على الله تعالى بما هو أهله، ليكون ذلك شكراً لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليه من غير استحقاق لذلك ولا لثبوت أهلية.

«الزُّهَّادُ إذَا مُدِحُوا..انْقَبَضُوا، لشُهُودِهِمُ الثَّنَاءَ مِنَ الخَلْقِ. وَالعَارِفُونَ إذَا مُدِحُوا.. انْبَسَطُوا، لِشُهُودِهِم ذَلِكَ مِنَ المَلِكِ الحَقِ».

تقدم أن الزهاد فى غيبة عن الله تعالى، فهم لا يشاهدون إلا الخلق، فإذا مدحوا وأثنى عليهم شهدوا ذلك من الخلق فانقبضوا عند ذلك لأنهم يخافون فوات نصيبهم من ربهم لأجل ما يتوقعون من الاغترار بذلك والعارفون حاضرون مع ربهم فهم لا يشاهدون معه غيره فإذا مدحوا شهدوا الثناء من ربهم فانبسطوا لذلك، وكان ذلك مزيداً فى حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم، كان بعضهم يمدح وهو ساكت، فقيل له فى ذلك، فقال: «وما علىّ من ذلك ولست أغلط فى

(١) الهجنة من الكلام: العيب والقبح.

نفسى، بل لست فى البين والمجزى والمثنى هو الله عز وجل».

وقيل:هذا المعنى فى الخبر المروى: «إذا مدح المؤمن فى وجهه ربا الإيمان فى قلبه» قال أبوطالب المكى - رضى الله تعالى عنه :- «وفيه طريق للعارفين بأن يعلو الإيمان العلى إلى المولى الأعلى، فيفرح بذلك لمولاه ويضيفه إلى سيده الذى تولاه فيرد الصنعة إلى صانعها، ويشهد من الفطرة فاطرها، فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفاً للفاطر لا ينظر إلى وصفه ولا يعجب بنفسه» انتهى.

قلت: وللمؤلف - رحمه الله تعالى - قصائد فى مدح شيخه أبى العباس المرسى - رضى الله تعالى عنه - وكان ينشدها كثيراً بين يديه ويقع ذلك منه موقعاً عظيماً، وكان يستعيد منه بعضها ويقول له فى بعضها: أيدك الله بروح القدس، نحو ما كان يقول رسول الله(ﷺ) لشاعره «حسان بن ثابت»(١) مع أن حب المدح عندهم من الرذائل التى تشبه الفضائل وبهذا النظر والشهود الجمعى استقام لهم من مدحهم لأنفسهم وثنائهم عليها ما لم يستقم لغيرهم، كما وقع لجماعة منهم، وقد روى فى ذلك عن سيدى عبدالقادر الجيلانى وسيدى أبى الحسن الشاذلى وسيدى أبى العباس المرسى - رضى الله عنهم - وغيرهم غير شىء مع أن ذلك معدود عندهم من الصدق القبيح، وما ذلك إلا لما ذكرناه ولا يتأول ما وقع لهم من ذلك بما تأول به علماء الظاهر مدح يوسف - عليه الصلاة والسلام - لنفسه وثناءه عليها بغاية الحفظ والعلم لعدم الحاجة إليه فى هذا المقام، والله تعالى أعلم.

وعلامة الصادق فى حب المدح وإن كان صاحب هذا المقام لا يحتاج إلى علامة أن لا يكره ذم الناس له من حيث نسبة ذلك إليهم لأنهم مصرفون فى قبضة القدرة فيسمح لهم ويصفح عنهم ولا يجد فى قلبه عليهم ولا يصل بشىء من الأذى إليهم كما قيل:

رب رام لى بأحجار الأذى
لم أجد بدا من العطف عليه
فعسى يطلع الله على
فرح(٢) القوم فيدنينى إليه

(١) هو: حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجى الأنصارى: الصحابى، شاعر النبى(ﷺ) وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة فى الجاهلية ومثلها فى الإسلام. وكان من سكان المدينة. وعمى قبيل سنة ٥٤هـ، قال أبوعبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى - عليه الصلاة والسلام - فى النبوة، وشاعر اليمانيين فى الإسلام. وكان شديد الهجاء قوى الشعر.

(٢) وفى نسخة: فعسى أن يطلع الله على ذلك الحال فيدنينى إليه.

«مَــتَى كنتَ إذا أُعْطِيتَ بسَطَكَ العَطَاءُ، وإذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ المنْعُ، فَاسْتَدِلَّ بذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فى عُبُودِيَّتِكَ».

القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ والعمل على نيله وهو مناقض للعبودية عند العارفين، فمن وجود ذلك فليعرف به عدم صدقه فى عبوديته وأنه طفيلى بين أهل الله تعالى فى ادعائه مقاماتهم، وهو لم يؤهل لها.

والطفيلى: هو الذى يأتى الولائم والضيافات فيدخل مع أهلها من غير دعوة، وهو منسوب إلى رجل من أهل الكوفة من بنى عبدالله بن غطفان كان يقال له «طفيل الأعراس» و«طفيل العرائس» وكان يأتى الولائم من غير أن يدعى إليها، فشبه صاحب الكتاب هذا به.

قال الشيخ عبدالرحمن السلمى ـ رضى الله عنه ـ «أكثر الخلق مع الله تعالى فى أحوالهم وإراداتهم على الظنون ما تحقق منهم له إلا القليل، ألا تراه تعالى يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا﴾(١). فمن تحقق فى حاله مع الله تعالى غاب عن كل ما منه وله من الأحوال والأقوال والأفعال، نظراً إلى ما إليه من رعاية الحق وحياطته وتوليه، وكان للحق من حيث الحق له لا من حيث هو للحق.

ولكن أكثر العبيد يشيرون إليه بالمعرفة، ويظهرون حالة المحبة، فإذا ورد عليهم وارد بلاء أو خلاف مراد رجعت نفوسهم إلى حد الإشفاق عليها والاهتمام بها ونسوا ما ادعوا به وما أشاروا إليه ولو كانوا للحق من حيث الاستحقاق لنسوا فى جنب ما أشار إليه جميع الموارد ساء أم سرّ لأن من حصل فى ميدان

(١) آية ٣٦ سورة يونس.

الوصول لا يعترض عليه عارض خلافه، وأذهله حاله عما سواه.

«إذَا وَقَعَ منْكَ ذَنْبٌ، فَلاَ يكُنْ سَبَباً ليأسك منْ حُصُول الاسْتَقامَة مَعَ رَبِّكَ.. فَقَدْ يَكونُ ذَلكَ آخرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ».

الاستقامة على العبودية لا ينقاضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة إذا جرى القدر عليه بذلك، وإنما يناقضها الإصرار عليه، فإذا وقع من العبد ذنب فينبغى له أن يبادر إلى التوبة منه ولا ييأس بسبب وقوعه فيه من الاستقامة مع ربه، ويرى أنه طرده وأبعده عن رؤية توجب له القنوط من رحمة الله تعالى واليأس من روح الله تعالى، لأنه قد يكون ذلك الذنب آخر ذنب قدر عليه، وقد وقع ذلك وفرغ منه.

«إذَا أَرَدْتَ أنْ يَفْتَح لَكَ بابَ الرَّجاء، فَاشْهَدْ مَا منْهُ إلَيْكَ، وإذَا أَرَدْتَ أنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الخَوف، فَاشْهَدْ مَا منْك إليه».

الرجاء والخوف حالان عن مشاهدتين، فمن أراد أن يفتح له باب الرجاء فليشهد ما من الله له من الفضل والكرم والإسعاف والألطاف فسيغلب عليه حينئذ حال الرجاء.

ومن أراد أن يفتح له باب الخوف، فليشهد ما منه إلى الله تعالى من المخالفة والعصيان وسوء الأدب بين يديه، فسيغلب عليه حينئذ حال الخوف.

«رُبَّمَا أفَادَكَ فى لَيل القَبْض مَا لَمْ تَسْتَفدْهُ فى إشْرَاق نَهَار البَسْط: «لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً!»».

تقدم أن القبض يؤثره العارفون على البسط، لما فيه من عدم حظ النفس

ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط، وقد ينفتح لهم فيه من أبواب المعارف مالا ينفتح لهم فى البسط، فينبغى للعبد أن يعرف نعمة الله تعالى عليه فى ليل القبض، كما يعرفها فى إشراق نهار البسط، لما يعلم أن فى الليل من المنافع ما ليس فى النهار فليكل علم ذلك إلى ربه وليحسن ظنه به، فإنه لا يدرى أيهما أقرب إليه نفعاً، كما أشار إليه بالآية الكريمة. وتشبيه القبض بالليل، والبسط بالنهار مجاز بديع وقد تقدم نحوه فى كلام الأستاذ سيدى أبى الحسن ـ رضى الله تعالى عنه.

«« مَطَالِعُ الأنْوَارِ: القُلُوبُ وَالأسْرَارُ ».

نجوم العلم، وأقمار المعرفة وشموس التوحيد مطالعها وموضع شروقها قلوب العارفين وأسرارهم وهذه هى الأنوار الحقيقية من المطالع الروحانية بخلاف الأنوار الحسية.

قال فى «لطائف المنن»: «واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا تولى ولياً صان قلبه من الأغيار وحرسه بدوام الأنوار حتى لقد قال بعض العارفين: «إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها فقلب المؤمن أولى بذلك.

يقول الله سبحانه فيما يحكيه عن رسول الله(ﷺ): «لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى ا لمؤمن» فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذى أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً» ولهذا قال الشيخ أبوالحسن ـ رضى الله عنه ـ «لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع».

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس - رضي الله عنه - يقول: «لو كشف عن حقيقة الولي لعبد، لأن أوصافه من أوصافه، ونعوته من نعوته».

قال: ولقد أخبرني بعض المريدين قال: صليت خلف شيخي صلاةً فشهدت ما بهر عقلي، وذلك أني شهدت بدن الشيخ وقد ملأته الأنوار، وانبثت الأنوار من وجوده حتى أني لم أستطيع النظر إليه».

قال: فلو كشف الحق تعالى عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لا نطوى نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من مشرقات أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب وأنوار قلوب أولياء الله تعالى لا كسوف لها ولا غروب، كذلك قال قائلهم:

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليس تغيب

«نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي القُلُوْبِ، مَدَدُهُ مِنَ النُّورِ الوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الغُيُوبِ».

نور اليقين المستودع في القلوب يستمد ويتزايد ضياؤه من النور الوارد من خزائن الغيوب وهو نور الأوصاف الأزلية، كما ذكرناه عن الشيخ أبي العباس المرسي - رضي الله عنه - قبل هذا. وقد تقدم من كلام المؤلف - رحمه الله -: «أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه».

««نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ، ونُورٌ يَنْكَشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ».

النور المدرك بالحواس يكشف لك به عن آثاره، وهي الأكوان المحدثة وليس لك إلى ذلك كبير حاجة إلا من حيث تستدل به على المؤثر.

والنور المستودع فى القلوب يكشف لك به عن أوصافه الأزلية حتى تراها عياناً. وفى هذا غاية بغيتك وبه شرف قدرك ومنزلتك إذ بذلك تتحقق فى المعرفة، وترتفع فى المشاهدة ولا تحتاج إلى دليل يدلك.

وهذا فرقان ما بين النورين، قال فى «لطائف المنن»: «نور الشمس تشهد به الآثار، ونور اليقين تشهد به المؤثر».

قال: ولنا فى هذا المعنى:

هذه الشمس قابلتنا بنور ولشمس اليقين أبهر نورا

فرأينا بهذه النور، لكن بهاتيك قد رأينا المنيرا

«رُبَّمَا وَقَفَتِ القُلُوبُ مَعَ الأنْوَارِ، كَمَا حُجِبَتِ النُفُوسُ بِكَثَائِفِ الأغْيَارِ».

القلوب نورانية، فتحتجب بوقوفها مع لطائف الأغيار النورانية من العلوم والمعارف.

والنفوس ظلمانية فتحتجب بمحبتها لكثائف الأغيار الظلمانية من العادات والشهوات.

فالقلوب محجوبة بالأنوار، كما أن النفوس محجوبة بالظلمات. والحق وراء ذلك كله.

قال أبوالحسن الششترى فى قصيدته:

تقيدت للأوهام لما تداخلت

عليك ونور العقل أورثك السجنا

وهمت بأنوار فهمنا أصولها

ومنبعها من أين كان فما همنا

وقد تحجب الأنوار للعبدمثل ما

تبعد من أظلام نفس حوت ضغنا

«سَتَرَ أَنَوارَ السَّرائر بكَثائف الظَّوَاهرِ إجْلاَلا لَها أنّ تُبتَذَلَ بِوُجوُد الإظهاَرِ وأنْ ينُادىَ عَلَيهَا بلسَانِ الاْشتَهارِ».

أنوار السرائر إنما خفيت عن العيان بما سترها به من كثائف الظواهر مع أن الظهور التام لا ينبغى أن يكون إلا لها، لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر، فأجلها عن الابتذال لها بوجود إظهارها.

وصانها من أن ينادى عليه بلسان الاشتهار بين الأغيار فيكون ذلك نوعاً من الإهانة بها.

وقد تقدم مثل هذا الستر فى قوله «سبحان من ستر سرّ الخصوصية بظهور البشرية».

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعل الدَّلِيلَ عَلَى أوْلِيَائه إلاَّ منْ حَيْثُ جعل الدَّليلُ عليه، ولَمْ يُوْصلْ إلَيْهم إلا مَنْ أرَادَ أن يُوصلَهُ إلَيْه!

لا دليل على الله سواه، ولا وصول إليه بغيره، وكذلك أولياؤه. ولما كان الوصول إلى الله تعالى، لا يكون إلا بالعناية والخصوصية، ويستحيل أن يكون بطلب أو بسبب كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه، كذلك لما خلع عليهم الخلع العظيمة، وتولاهم بمننه الجسيمة، فاصطفاهم، لنفسه واختصهم بمحبته وأنسه، وطهر أسرارهم من أنجاس الأغيار، وصان قلوبهم بما أودع فيها من الأنوار والأسرار، فكانوا لذلك صفوته فى عباده، وخبایاه فى بلاده، كما قال فى بعض الإشارات عنه سبحانه «أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم أحدُ غيرى» وهذا من غيرته عليهم؛ لأن الحق تعالى أغير على أوليائه من أن يظهرهم إلى من لا يعرفهم، فلم يجعل لأحد دليلا عليهم إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصّل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، لأنه يلبسهم لباس التلبيس بين الأنام، ويظهرهم بما يحقرهم فى أعين الخواص والعوام، فلم يكن لأحد دليلُ عليهم أو وصول(بسبب) إليهم.

قال فى «لطائف المنن»: «فأولياء الله أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم».

قال: وقد سمعته يقول(يعنى شيخه أبا العباس المرسى رضى الله عنه): «معرفة الوليّ أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب؟ » ثم قال له: وإذا أراد الله أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. وقال صاحب كتاب «أنوار القلوب»: «لله سبحانه وتعالى عباد ضَنّ بهم على العامة وأظهرهم للخاصة، فلا يعرفهم إلا شَكلٌ مثلهم، أو محب لهم، ولله تعالى عباد ضَن بهم على الخاصة والعامة وعباد أظهرهم للخاصة والعامة، ولله تعالى عباد يظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية، ولله عباد يظهرهم فى النهاية ويسترهم فى البداية، ولله عباد لا يظهر على حقيقة ما بينه وبينهم إلا الحفظة مما سواه حتى يلقونه بما أودعهم منه فى قلوبهم وهم «شهداء الملكوت الأعلى والصفح الأيمن من العرش الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدو عليها الثرى حتى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجعول

فيهم ببقاء الأبد مع الباقي الأحد عزّ وجلّ». انتهى.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: «أولياء الله عرائس، ولا يرى من العرائس إلا من كان مَحْرمًا لهم، وأما غيرهم فلا، وهم مخدرون عنده في حجال(١) الأنس لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة».

وقال الجوزجاني، رضي الله عنه: «الوليّ هو الفاني في حاله(٢)، الباقي في مشاهدة الحق، تولى الله سبحانه سياسته فتوالت عليه أنوار التوالي، لم يكن له عن نفسه إخبار(٣)، ولا مع غير الله عز وجل قرار».

وفي الإشارات عن الله سبحانه وتعالى: «إنما سميت الولي ولياً، لأنه يليني دون ما سواي»؛ فهم منزّهون بتنزيه الحق تعالى لهم من أن يوصل إليهم بغيره، ولذلك صدّر المؤلف كلامه بالتسبيح.

رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلى غَيْبِ مَلَكُوتِه، وَحَجَبَ عَنْكَ الاسْتِشْرَافَ عَلى أَسْرَارَ العِبَاد.

من لطف الله تعالى إخفاء أسرار الناس بعضهم عن بعض، لا سيما سرّ يقتضي وجود عيب. وهو ظاهر ما ذكره المؤلف هنا بدليل الكلام الذي عقّبه به، وقد يظهر لبعض الناس ما سوى ذلك من الأسرار الملكوتية، ووجه الفرق بينهما ما ذكره المؤلف الآن، ويحتمل أن يريد ما هو أعم مما ذكرناه، ويدخل في ذلك أسرا ر الولاية؛ إذا أختص الله بها بعض عباده ويكون في ذلك تنبيه على العلّة الموجبة لخفاء الولي حسبما ذكره المؤلف في المسألة التي فرغنا منها حتى يمتنع الوصول إليه بطلب أو سبب. وإخفاء ذلك أيضا عن عامة المؤمنين من النعم العظيمة؛ إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقا لا يقدر على القيام بها، فإن فرط في ذلك وترك القيام بتلك الحقوق رأسا وقع بسبب ذلك في محذورات لا يقوم لها شيء، وقد فهمت هذا المعنى من كلام سهل بن عبد الله، وقد سأله بعض تلاميذه: كيف تعرف أولياء الله تعالى؟. فقال: إن الله تعالى لا يُعرِّفهم إلا لأشكالهم أو من أراد أن ينفعه بهم، ولو أظهرهم حتى يعرفهم

(١) حجال جمع حجلة «بفتح الحاء «بفتح الحاء والجيم»، والحجلة: ستر يضرب للعروس، أو بيت يزين لها.
(٢) وفي نسخة في جلاله.
(٣) وفي نسخة اختيار.

الناس لكانوا حجة عليهم، ومن خالفهم بعد علمه بهم كفر، ومن قعد عنهم خرج(١)، ولكن الله تعالى جعل اختياره تغطية أمورهم؛ رحمة منه لخلقه ورأفة، ولكن الله تعالى قد اخبر بكرامتهم فقال عزّ وجلّ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢) ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) فأفردهم به، ولو أظهرهم حتى يبرزهم لكان فى النظر إليهم حجة، وكان الاستماع لحديثهم(فرضا) انتهى. والمعنى الذى ذكرته فى هذه المسألة فهمته من الكلام الذى ذكره الشيخ أبو طالب رضى الله عنه فى كتاب(الشكر» قال فيه: «ثم بعد ذلك من لطائف المنعم شمول ستره لهم، بعضهم من بعض، ونشرهم عند العلماء والصالحين منهم، ولولا ذلك ما نظروا إليهم، ثم حجب الصالحين عنهم، ولو أظهر عليهم آيات يُعرفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من دلالة الله تعالى لهم، وقربه منهم لبطل ثواب المحسنين إليهم، ولحرم قبول إحسانهم عليهم، ولحبطت أعمال المسيئين إليهم، ففى حجب ذلك وستره ما يحمل العاملين فى الخير والشر على الرجاء وحسن الظن من وراء حجاب اليقين، وتأخرت عقوبات المؤذين لهم عن المعاجلة لما ستر عليهم من عظيم شأنهم عند الله عز وجل وجليل قدرهم؛ ففى ستر هذا نعم عظيمة على الصالحين فى نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم، ونعم جليلة على المنتهكين لحرمتهم المصغّرين لشعائر الله من أجلهم، إذ كانوا أساءوا إليهم من وراء حجاب، فهذا هو لطف خفىّ من لطف المنعم الوهاب، كما جاء فى الخبر: «من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر لوليى».

فقد يكون مثل ذلك: من آذى نبياً، وهو لا يعلم بنبوته قبل أن يُخْبر أنه رسول الله، وأن الله عز وجل نبّأه، فلا يكون وزره وزر من انتهك حرمة من كان أعلمه أنه نبىّ لله عز وجل لعظيم حرمة النبى» انتهى ما ذكره الشيخ أبو طالب. والوجه الأول أولى فى تقرير معنى ما ذكره المؤلف. والله تعالى أعلم.

---

(١) قعد عنهم: أى تأخر عنهم، وفى نسخة: ومن قعد عنهم عنهم حرج

(٢) آية ٢٥٧: البقرة

(٣) آية ٦٨: آل عمران

مَن اطَّلَعَ عَلَى أسْرَارِ العبَادِ ، ولَمْ يَتَخَلَّقْ بالرَّحْمَةِ الإلهيَّة، كَانَ اطِّلاَعُهُ فتْنَةً عَلَيْه، وَسَبَبًا لجَرِّ الوَبَالِ إلَيْه.

المطلع على السرائر التى تقتضى وجود العيب(١) إذا لم يتخلق صاحبه بالرحمة الإلهية فيرحم المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين، ويحسن إلى المسيئين، ويرأف بعباد الله أجمعين؛ فإنه يكون ذلك الاطلاع فتنة عليه، لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها والعجب بعمله والتكبّر على غيره وهذا هو أعظم الفتنة، ويكون ذلك سبباً إلى جر الوبال إليه: من ادّعائه لصفات ربه، ومنازعته لكبريائه وعظمته، وهذا هو أعظم الوبال، وغاية الخزى والنكال.

وفى بعض الأخبار المروية عن رسول الله(ﷺ) أنه قال: «ما نُزعت الرحمة إلا من قلب شقى»(٢).

وفى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما، عن رسول الله(ﷺ) أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»(٣).

وفى الإشارتا عن الله تعالى أنه قال: «عبدى، إن استخلفتك شققت لك من الرحمة شقا فكنت أرحم بالمرء من نفسه».

وقد أدّب الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام فى بعض مواطنه العظيمة المقدار، وعلمه كيف يتخلق بهذا الخلق الكريم عند اطلاعه على الأسرار. روى عن قسامة بن زهير رضى الله عنه أنه قال: «بلغنى أن إبراهيم عليه السلام حدّث نفسه أنه أرحم الخلق، قال: فرفعه الله تعالى حتى أشرف على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون، فقال يا ربّ دمّرهم. فقال تعالى: أنا أرحم بعبادى منك يا إبراهيم، اهبط إلى الأرض فلعلهم يتوبون ويرجعون».

---

(١) وفى نسخة: وجود الغيب.

(٢) رواه أبوداود والترمذى والإمام أحمد عن أبى هريرة بإسناد حسن بلفظ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقى».

(٣) رواه أبوداود والترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما

وعن على رضى الله عنه، عن النبى(ﷺ) قال: «لما أرى الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل مُخْتلى بمعصية من معاصى الله عز وجل، فدعا الله عليه، فهلك، وكذلك على آخر.. وآخر.. فهلكوا، فأوحى الله إليه أن يا ابراهيم انك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعُ على عبادى، فأنهم منى على ثلاث خصال: إما أن يتوب العبد منهم فأتوب عليه، وإما أن أُخرج منه نسمة تسبح لى، وإما أن يُبعث إلىّ فإن شئت عفوت عنه، وإن شئت عاقبته».

وقيل إن سبب أمر الله له بذبح ولده هو هذا المعنى الذى ظهر منه غلظته على العصاة وقلة رحمته بهم.

وقد ذكر فى بعض التفاسير أنه عليه السلام كان يُعرج به كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(١) فعُرج به ذات ليلة فاطلع على مُذنب يفعل فاحشة، فقال: اللّهم أهلكه، يأكل رزقك ويمشى على أرضك ويخالف أمرك؟! فأهلكه الله تعالى: فاطلع على آخر فقال: اللّهم أهلكه، فنودى «كُف عن عبادى رويداً رويداً فإنى طالما رأيتهم عاصين» فلما هبط رأى فى المنام ما ذكره الله تعالى عنه حيث يقول: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾(٢) فلما تشمَّر لذلك وأخذ السكين بيده قال: اللّهم هذا ولدى وثمرة فؤادى وأحب الناس إلىّ، فسمع قائلاً يقول " أما تذكر الليلة التى سألت فيها إهلاك عبدى؟ ! أَوَمَا تعلم أنى رحيم بعبادى كما أنت شفيق بولدك، فإذا سألتنى إهلاك عبدى أسألك ذبح ولدك واحداً بواحد، والبادى أظلم...

حَظُّ النَّفْسِ فى المَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وحَظُّهَا فى الطَّاعَةِ باطِنٌ خَفِيٌّ.. ومُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صعْبٌ علاجُه!

النفس من شأنها أبداً طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فهى لا تسعى إلا فى ذلك. ولو فى عملها فى الطاعات فضلاً عن المعاصى، ومن حاسب نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا.

وقد تجد من النشاط اللذة فى نوع من العبادة ما لا تجده فى نوع آخر وإن

(١) آية ٧٥ من سورة: الأنعام

(٢) آية ١٠٢: من سورة الصافات

كان هذا النوع الآخر أتم فضيلة منه، وما ذاك إلا من أجل أن حظها فيه أكثر من الآخر، فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم إذا ألفت باباً من أبواب العبادات لمعرفتهم بخدعها ومكايدها، فيشوشون ذلك عليها وينتقلون منه.

وقد حكى عن أبى محمد المرتعش، رضى الله عنه، أنه قال: " حججت كذا وكذا حجة على التجريد فبان لى أن جميع ذلك مشوباً بحظى؛ وذلك أن والدتى سألتنى يوماً أن أستقى لها جرة ماء فثقل ذلك على نفسى، فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجَّات كانت بشوبٍ وحظ من نفسى؛ إذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها ما هو حق فى الشرع "، فهذا مما يبين أن حظ النفس فى الطاعة موجود، ولكنه خفى على العامل، فلذلك تعسر مداواته؛ لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ وإدراك، فليتطلب بذلك آفات نفسه، ولطائف خدعها، وخفايا حظوظها، فيعمل على تصفية عمله من ذلك. فلا جرم إذ كان ذلك متعذراً يجب عليه اتهام نفسه، ومخالفتها فى كل ما تدعو إليه كائناً ما كان.قال الشيخ أبو بكر الخفاف، رضى الله عنه: " سمعت بعض مشايخى يقول عن أحمد بن أرقم البلخى قال: حدثتنى نفسى بالخروج إلى " اسبيجاب" للغزو فقلت: سبحان الله، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(١) وهذه تأمرنى بالخير!! لا يكون هذا أبدا، ولكنها استوحشت، فتريد لقاء الناس فتستروح به، ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالبر والتعظيم والإكرام، فقلت لها: لا أسلك العمران ولا أنزل على معرفة. فأجابت، فأسأت ظنى بها وقلت: والله أصدق قولا. فقلت لها: أقاتل العدو حاسراً(٢) فتكونى أول قتيل فأجابت... وعد أشياء مما أرادها به، فأجابت إلى كل ذلك. فقلت: يا رب، نبهنى لها، فإنى لها متهم، ولقولك مصدق، فألهمت كأنها تقول لى: انك تقتلنى كلَّ يوم مرات، بمخالفتك إياى ومنع شهواتى ولا يشعر بى أحد فإن قاتلت فقُتلتُ كانت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقال: استشهد أحمد فيكون شرفا لى وذكرا فى الناس. قال: فقعدت ولم أخرج ذلك العام.

فهكذا خدع النفس وغدرها. أعاذنا الله من شرها، وسيأتى من كلام المؤلف «إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلها على النفس فأتبعه، فإن لا يثقل عليها إلا ما كان حقا»

---

(١) الآية ٥٣ من سورة يوسف.
(٢) أى بلا درع ولا أدوات قتال.

رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا يَنْظُرُ الخَلْقُ إِلَيكَ!

رياء العبد بالعمل حيث يكون بمرأى من الناس ظاهر، لا يحتاج إلى أمارة علية ورياؤه بعمله حيث لا يراه أحد أمر خفى لا يعرف إلا بالأمارات والعلامات، بل هو أخفى من دبيب النمل، ومن أمارته: أن يلتمس بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه فى المحافل والمجالس، ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه، وإذا قصر فى حقه الذى يستحقه عند نفسه استبعد منه ذلك واستنكره، ويجد تفرقه بين إكرامه وإكرام غيره، وإهانته وإهانة سواه، حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم، فيتوعدون من قصر فى حقهم بمعالجة الله له بالعقوبة، وأن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ بثأرهم، فإذا وجد العبد هذه الأمارات من نفسه فليعلم أنه مُراءٍ بعلمه وإن أخفاه عن أعين الناس!!.

وقد روى عن على بن طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة للفقراء: ألم تكونوا يرخص لكم فى السعر.. ألم تكونوا تبادرون بالسلام.. ألم تكن تقضى لكم الحوائج «وفى الحديث الآخر»: لا أجر لكم قد أستوفيتم أجوركم».

وقال عبد الله بن المبارك: روى وهب بن منبه أن رجلا من العباد قال لأصحابه: إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم، إن أحدنا إذا لقى أحبَّ أن يعظَّم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له، لمكان دينه، وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه، لمكان دينه فبلغ ذلك ملكُهم، فركب فى موكب من الناس، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس، فقال السائح: ما هذا؟ فقيل له: هذا الملك قد أتاك. فقال للغلام: ائتنى بطعام، فاتاه ببقل وزيت وقلوب(١) الشجرة، فأقبل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا... فقال الملك أين صاحبكم؟ قالوا: هذا. قال: كيف أنت؟ !! قال: كالناس «وفى حديث آخر: بخير» فقال الملك: ما عند هذا من خير !!فانصرف عنه، فقال السائح: الحمد لله الذى صرفك عنّى وأنت لى ذامٌّ. ومن هذا النوع من الرياء خوف الكبار، وعدوا أنفسهم بسببه من الأشرار كما روى عن الفضيل بن عياض، رضى الله تعالى

(١) القلب «بالضم»، والقلب «بالفتح»، والقلب «بالكسر» من الشجرة: ما رخص من أجوافها، والجمع أقلاب وقلوب وقلبة.

عنه، أنه قال: "من أراد أن ينظر إلي مراء فلينظر إليّ" وسمع مالك بن دينار، رضى الله عنه امرأة وهى تقول يا مُرائى!! فقال لها: يا هذه، وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة، ودخل رجل على دواد الطائى رضى الله عنه فقال: ما حاجتك؟ قال: أريد زيارتك، فقال: أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت، ولكن أنظر ماذا ينزل بى أنا إذا قيل لى: من أنت لتزار؟ أمن الزهاد أنت؟ لا، والله، أمن العباد أنت؟ لا، والله، أمن الصالحين أنت !! لا، والله. ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت فى الشبيبة فاسقا فلما كبرت صرت مُرائيا، والله، للمرائى شرٌ من الفاسق... إلى غير هذا مما روى عنهم فى هذا المعنى.

ولا يسلم من الرياء الخفى والجلى إلا العارفون الموحدون، لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك، وغيّب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرف على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجو منهم حصول منفعة، ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس وبمرأى منهم.

ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق، وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضارّ فهو مراء بعلمه، وإن عبد الله تعالى فى قنة(١) جبل بحيث لا يراه أحد ولا يسمع به أحد وقد تقدم من قول يوسف بن الحسين بن الرازى رضى الله عنه: «أعز شىء فى الدنيا: الإخلاص، وكم اجتهد فى اسقاط الرياء عن قلبى فكأنه ينبت فيه على لون آخر».

اسْتِشْرَافُكَ أنْ يَعْلَمَ الخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دليلُ عَلَى عَدَمِ صدْقِكَ فى عُبُوْدِيَّتِكَ.

الخَصوصَية هنا: مَا اَختص به الله تعالى بعض عباده من علم نافع أو عمل صالح وصدق العبودية فيه: أن يقنع بعلم الله تعالى فيه بحاله ولا يتطلع إلى أن يعرف بذلك أحد من الخلق فيشغله حينئذ الحياء من ربه والشكر له عن الأستشراف إلى معرفة الخلق بذلك ويغار على حاله من رؤية الأغيار له ولهذا فضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا كما ورد فى الخبر عن نبينا(ﷺ) .

---

(١) وفى نسخة: قلة جبل، وقلة الجبل أعلاه، والقنة: الجبل الصغير.

وقال عيسى عليه السلام: «إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه وليمسح شفتيه فإذا خرج إلى الناس رأوا أنه لم يصم وإذا أعطى أحدكم فليعط بيمينه وليخفها عن شماله وإذا صلى أحدكم فليسدل عليه ستر بابه فإن الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق»

وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة الصادق فقال: كتمان الطاعة وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه: «من أحب أن يعرف بشئ من الخير ويذكر به فقد أشرك فى عبادته لأن من عبد الله تعالى على المحبة لا يحب أن يرى خدمته سوى مخدومه»

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله تعالى عنه: «كل من لم يقنع فى أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة»

وقال بعضهم: «ما أخلص أحد قط إلا أحب أن يكون فى جبٍّ لا يعرف»

وقال سهل بن عبد الله التسترى: «من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل»

وقال أبو الخير الأقطع رضى الله عنه: «من أحب أن يطلع الناس على عمله فهوه مراء ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب»

وقال بعضهم لمن استوصاه: «لا تحب أن تعرف ولا تحب أن تعرف أنك ممن لا يحب أن يعرف»

فعلى العبد إخفاء حاله جهده وأن يبلغ فى كتمانه أقصى ما عنده قال الحسن رضى الله عنه: أدركت أقواما ما من أحد منهم يستطيع أن يسر شيئا من عمله إلا أسره وإن كان الرجل ليجلس مع القوم وإنه لفقيه وما يعلم به حتى يقوم.

ولقد أدركت أقواما يأتى أحدهم الزور(١) فيقوم فيصلى وما يشعر به الزَّوْر ولقد أدركت أقواما ما من عمل يقدرون أن يعلموه لله سرا فيكون علانية أبدا ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره ولقد أدركت أقواما يجتهدون فى الدعاء وما يسمعهم أحد» وقال محمد بن واسع رضى الله عنه: «أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس أمرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به أمرأته ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم فى

(١) الزوار والقاصدون. قال فى القاموس: زاره يزوره زيارة وزورا: قصده فهو زائر وزور «بسكون الواو»

الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذى إلى جنبه وفى رواية عنه: إن كان الرجل ليبكى عشرين سنة وأمرأته معه لا تعلم فإن وقع منه إعلان وإظهار فى وقت مّا فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصونه على أن يعلم فيه الفرح بأطلاع الناس على حاله ولينكر ذلك على نفسه وليكرهه ولا يرضه منها وليجاهد نفسه فى ذلك أشد المجاهدة فإن خالف هذا واستشرف إلى معرفة غير اللّه بحاله وغفل عن مجاهدة نفسه فى حال ظهور ذلك منه ولو لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح فى قلبه فيقع عند ذلك فى الفتنة فإن كان ضعيف الإرادة لم يسلم من الوقوع فى الرياء الجلى والخفى لأن سببه قد استتب له.

وإن كان قوى الإرادة وسالكا سبيل المعرفة لم يسلم من السكون والركون فيفقد حينئذ الغيرة على الحال وينحط بذلك من ذروة الكمال ولهذا كان إسقاط المنزلة عند الناس من ضروريات سالكى هذه الطريق كما تقدم عند قوله:

ادفن وجودك فى أرض الخمول«فإن تحقق العبد فى المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة جاز له الإخبار بأعماله والإظهار بمحاسن أحواله بناء منه على نفى الغير وأداء لواجب حق الشكر.

كان بعض السلف يصبح فيقول: صليت البارحة كذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة فيقال له: أما تخشى الرياء؟! فيقول: «ويحكم، وهل رأيتم من يرائى يفعل غيره». وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له لم لاتكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(١) وأنتم تقولون: لا تحدّث!!

فإن قصد من هذا حاله إلى هداية عباد اللّه ودعاهم إلى اللّه تعالى فأظهر أحواله وأعماله للاقتداء به والاهتداء بهديه فهو خارج عن النمط الأول كله وداخل فى هذا المنزع الثانى وعلانية هذا أفضل من سره لأنه سلم من الآفات التى تعرض لها غيره وحصلت منه الفوائد التى تضمنها إظهاره وجهره وقد جاء فى الخبر: «السر أفضل من العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الأقتداء» وهذا أرجح الوجوه عند العلماء فى قوله(ﷺ) للرجل الذى سأله عن فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله: «لك أجران: أجر السر وأجر العلانية» وقد فصَّل(٢) ما ذكرناه من إظهار الطاعة جماعة من الصحابة والتابعين منعنا من ذكر وقائعهم خشية

---

(١) آية ١١ من سورة الضحى

(٢) وفى نسخة فعل

الإطالة وكان ذلك منهم لأجل هذا الغرض ومقام هذا العبد مقام النصحاء لعباد الله والدعاة لهم إلى الله فلا جرم كان له الدرجات العلا عند الله تعالى لأنه من أئمة المتقين لله وقد أخبر الله تعالى بجزائهم وذكره عقب دعائهم بذلك فقال عزّ من قائل ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾(١).

قال في «لطائف المنن» اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاعتناء بشهوده قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٢) وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(٣) وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٥) فمبنى أمرهم في بدايتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكتمان الأحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم وحبا في إخلاص أعمالهم لسيدهم حتى إذا تمكّن اليقين وأيدوا في الرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء فهناك إن شاء الحق أظهرهم وإن شاء سترهم وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شئ إليه فظهور الولي ليس بإرادته لنفسه ولكن بإرادة الله تعالى له بل مطلبه - إن كان له مطلب - الخفاء لا الجلاء- كما قدمناه فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم تولاهم في ذلك بتأييده، ووارادت مزيده لقوله(ﷺ) لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وان أعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها» ومن تحقق منهم بالعبودية لله تعالى لم يطلب ظهورا ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده له.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه: «من أحبَّ الظهور فهو عبد الظهور ومن أحبَّ الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبدا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه»

---

(١) أيتا ٧٥، ٧٦ من سورة الفرقان
(٢) أية رقم ٣ من سورة الطلاق
(٣) أية رقم ٣٦ من سورة الزمر
(٤) أية رقم ١٤ سورة العلق
(٥) أية رقم ٥٣ من سورة فصلت

غَبْ عن نَظَرَ الخَلْقِ إلَيْكَ بِنَظَرِ اللّه إلَيْكَ، وَغِبْ عَنْ شهود إقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إقْبَالِه عَلَيْكَ.

هذا المعنى هو حقيقة صدق عبودية العبد لله تعالى الذى أشار إليه فى المسألة التى قبل هذه وهو ألا يكون له شعور بما من الخلق إليه من نظر وإقبال ولا تشوف إليه ولا طلب له وإنما يكون شعوره وتشوفه وطلبه مقصورا على ما من الله إليه من نظره إليه وإقباله عليه فيغيب أدنى الحالين بأعلاهما وذلك بأن يعلم أن ما من الخلق إليه أمر وهمى باطل ينقاد إليه كل ذى عقل قاصر يوجب له هذا الانقياد أنواعا من الكبائر والرذائل من الانحطاط فى أهواء الناس وتحسين موقع نظرهم من بالتصنع والتزين لهم وتربية الجاه والحشمة لديهم تكبرا وتعظما عليهم ومعاشرتهم بالنفاق والدهان وتخالف الإسرار والإعلان وهذا عذاب أليم استعجله فى دنياه إذ يفوته بذلك راحة قلبه وطيب عيشه ويسلبه أثواب الغنى والعزة ويلبسه لباس الطمع والذلة فتردى بذلك همته وتقل قيمته ولعذاب الآخرة أكبر قال الشاعر:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور(١)

ورأى سهل بن عبد الله رضى الله تعالى عنه رجلا من الفقراء بمكة فقال له شيئا فقال: يا أستاذ لا أقدر على هذا من أجل الناس فالتفت سهل إلى أصحابه فقال: لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى فى الدنيا إلا هو وخالقه فإن أحدا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه أو يُسقط نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه اهـ. ثم من له بحصول ما أراده منهم وأغراضهم مختلفة وطباعهم متباينة فربما استحسن من نفسه شيئا لم يستحسنه غيره وربما أرضى شخصا بمالا يرضى الآخر فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وهو ساع فيما يضره عندهم وعند الله تعالى مع مقاساة التعب والنصب فى نفسه .

وفى الحكاية المذكورة عن لقمان وابنه تنبيه على هذا المعنى: ذكر أن لقمان دخل ذات يوم السوق وهو راكب حمارا وابنه يسوقه فقال الناس حين رأوه: شيخ لم يشفق على صبى فأركبه خلفه فقالوا: اثنان على حمار هلا زادا ثالثا!! فنزل

(١) وروى: من راقب الناس ماتهنا وفاز بالراحة الجسور

لقمان وبقى الولد فقالوا: شيخ ماشى وصبى راكب!! فنزل الولد يمشى مع والده وساقا الحمار جميعا فقالوا: حمار فارغ وهذان يسوقانه!! وكان غرض لقمان بهذا أن يرى ابنه شأن الناس مع من يراعى نظرهم فأنه لا يسلم منهم على أى حالة يكون، فرضاء الناس غاية لا تدرك وأحمق الناس من طلب مالا يدرك فهذا حال من انقاد إلى الأوهام من ضعفاء العقول وسخفاء الأحلام وأما من كان له عقل وافر وحلم فاخر فلا يميل إلا إلى ماهو حق ووجوده صدق وهو مامن اللّه إليه من: نظر وإقبال وجزيل عطاء وعظيم نوال فهو يعمل فيما يؤديه إلى هذه المطالب من غير اكتراث بذم ذام أو عتب عاتب ويقول بلسان حاله:

إن الذى تكرهون منى ... هو الذى يشتهيه قلبى

ويقول أيضا ما قاله محمد بن أسلم رضى اللّه تعالى عنه: «مالى ولهذا الخلق، كنت فى صُلب أبى وحدى ثم صرت فى بطن أمى وحدى ثم دخلت الدنيا وحدى ثم تقبض روحى وحدى فأدخل قبرى وحدى ويأتينى منكر ونكير فيسألانى وحدى فإن صرت إلى خير صرت وحدى وإن صرت إلى شرّ صرتُ وحدى ثم أوقف بين يدى اللّه وحدى ثم يوضع عملى وذنوبى فى ميزانى وحدى فإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدى وإن بعثت إلى النار بعثت وحدى فمالى وللناس»

وقد سئل الحارث بن أسد المحاسبى رضى اللّه تعالى عنه عن علامة الصادق فقال: «الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصادقى».

مَنْ عَرَفَ الحَقَّ، شَهِدَهُ فِى كُلِّ شَىْ

فلا يستوحش من شئ ويستأنس به كلُّ شئ كما تقدم من نعت العارفين

وَمَنْ فَنِىَ بِهِ، غَابَ عَنْ كُلِّ شَىْ

فلا يكون منه على الأشياء اعتمادا ولا له إليها استناد

وَمَنْ أحَبَّهُ، لَمْ يُؤثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا

من مراداته وشهواته.

وهذه الأمور التى ذكرها المؤلف رحمه الله هى من علامات بلوغ هذه المقامات العلية وبها تصح وتكمل فمن لم يجدها فى نفسه فلا ينبغى له أن يدعى تلك المقامات وليعمل على مجاهدة نفسه فيما يصححها ويكملها.

إنَّمَا حَجَبَ الحَقَّ عَنْكَ شدَّةُ قُرْبه مَنْكَ!

شدة القرب حجاب كما أن شدة البعد حجاب لأن شدة قربه منك موجبة لاضمحلالك وذهابك والمضمحل الذاهب لا مناسبة بينه وبين الثابت الموجود فكيف يراه؟ قال فى «لطائف المنن» فعظيم القرب هو الذى غيب عن شهود القرب قال الشيخ أبو الحسن: حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب(١) كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو منها وكلما دنا منها تزاد ريحها فلما دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه وأنشد بعض العارفين:

كما ذا تموّه بالشعبين والعلم

والأمر أوضح من نار على علم

اراك تسأل عن نجد وأنت بها

وعن تهامة هذا فعل متهم

إنما احتجبَ، لِشدَّة ظُهُورِه، وخَفِيَ عَنِ الأبصَارِ، لعِظَمِ نُوره.

هذه عبارة تداولها الناس وضربوا لمعناها مثلا بالشمس وذلك أن الشمس نورها أقوى من سائر الأنوار المحسوسة وقوة نورها هى التى حجبت الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها فقد صار ظهورها الذى أوجبه وجود نورها حجابا لها وليس الحجاب [illegible] الحقيقة منها فإن الظاهر لذاته لا يحجب من ذاته وإنما الحجاب عليه من غيره.

والحجاب ها هنا: ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور فالحق تعالى احتجب عن الخلق بشدة ظهوره وخفى عن الأبصار لعظم نوره وأنشدوا فى هذا المعنى

---

(١) وفى نسخة: لعظم الرب.

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد
إلا على أكمه(١) لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا
وكيف نعرف من بالعزة استترا

وأنشدوا ايضا:

بالنور يظهر ما يرى من صورة
وبه وجود الكائنات بلا امترا
لكنه يخفى لفرط ظهوره
حسا ويدركه البصير من الورى
فإذا نظرت بعين قلبك لم تجد
شيئا سواه على الذوات مصورا
وإذا طلبت حقيقة من غيره
فبذيل جهلك لا تزال معثرا

لاَ يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّبًا إلى العَطَاء منْهُ، فَيَقلَّ فَهْمُكَ عَنْه. ولَيَكُنْ طَلَبُكَ لإظهَار العُبُوديَّة، وَقيَامًا بحُقُوق الرُّبُوبيَّة.

لم يأمر الله تعالى عباده بالطلب له والسؤال منه إلا ليظهر افتقارهم إليه ومثولهم بالتضرع والخضوع بين يديه ليكون ذلك إظهارا لعبوديتهم وقياما بحقوق ربوبيته لا لأن يتسببوا به إلى حصول ما طلبوه ونيل ما رغبوه مما لهم فيه منفعة(٢) وحظ هذا هو فهم العارفين عن الله ويدل على هذا المعنى ما يذكره المؤلف الآن قال أبو نصر السراج: سألت بعض المشايخ عن الدعاء ما وجهه(٣) لأهل التسليم والتفويض؟ فقال: تدعو الله على وجهين: أحدهما: تريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء لأن الدعاء ضرب من الخدمة يريد أن يزين جوارحه بهذه الخدمة.

والوجه الثاني: أن تدعوا ائتمارا لما أمر الله تعالى من الدعاء انتهى. وقد قيل:

(١) الأكمه: هو الذى يولد أعمى.
(٢) وفى نسخة: متعة
(٣) وزادت نسخة: عن الدعاء والتفويض لأهل التسلم ما وجهه فقال.. ألخ.

فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه وإلا فالرب يفعل ما يشاء.

ومقتضى هذا ألا ينقطع سؤاله ولا رغبته وإن أعطاه كلَّ ما طلبه وأنا له سؤاله وأربه وألا يفرق بين العدم والوجود والمنع والأعطاء فيما يرجع إلى إظهار الفاقة والفقر فيكون عبداً لله فى الأحوال كلها، كما أن ربه واسع الفضل فى الأحوال كلها. وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه قال سيدى أبو الحسن رضى الله تعالى عنه: «لا يكن همك بدعائك الظفربقضاء حوائجك فتكون محجوبا وليكن همك مناجاة مولاك»

قال الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه: «شر الناس من يبتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء وشدة التضرع والبكاء فإذا زالت شكايته ورفعت عنه آفته ضيع الوفاء ونسى البلاء وقابل الرفد(١) بنقص العهد وأبدل العقد(٢) برفض الود أولئك الذين أبعدهم الله فى سابق الحكم وخرطهم فى سلك أهل الرد وقد قيل: بلاء يلجئك إلى الانتصاب بين يدى معبودك خير من عطاء ينسيك إياه ويقصيك عنه.

كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللاحِقُ سَبَبًا فِى عَطَائه السَّابِقِ؟!

هذا دليل على نفى السببية المذكورة لأن ما طلبه العبد أمر سابق فى الأزل تقديره وطلبه أمر لاحق فيما لا يزال وكيف يكون اللاحق سببا فى وجود السابق وهل السبب أبدا إلا متقدم على المسبب .

جَلَّ حُكْمُ الأزَلِ أنْ يُضَافَ إلى العِلَلِ.

هذا دليل آخر على ما ذكره وهو:ان حصول ما طلبه الداعى حكم من الله تعالى فى الأزل فلا يكون سببه الدعاء والسؤال لأن احكام الله تعالى تجل عن ان تنضاف إلى عله أ وسبب من قبل أن له الاراده المطلقه والمشيئه النافذه لصنعه علة لكل شئ ولالا عله لصنعه كما قال العارفون المحققون.

---

(١) العطاء

(٢) وفى نسخة: العفو

عنَايَتُهُ فِيكَ لا لشَيْءٍ مِنْكَ.. وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عَنَايَتُه، وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُه؟!

لَمْ يَكُنْ فِى أزَلِه إخْلاَصُ أعْمَالٍ، وَلاَ وُجُودُ أحْوَالٍ.. بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إلاّ مَحْضُ الإفْضَالِ، وَعَظِيمُ النَّوَالِ!

عنايه الله تعالى بك فى الأزل حين لم تكن حين ولا حين غير معلله بشئ كائن منك من اخلاص أعمال أو وجود أحوال تتوسّل بجميع ذلك اليه وأين كنت اذ ذاك وانت عدم محض بل بل يكن هناك الا محض كرمه وافضاله وعظيم احسانه ونواله لا غير قال الواسطى: "أقسام قّسمت ونعوت واحكام أجريت كيف تستجلس بحركات او تنال بسعايات؟ ".

عَلِمَ أنَّ العِبَادَ يَتَشَوَّقُونَ إلى ظُهُورِ سِرِّ العِنايَةِ، فَقَالَ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِه مَن يَشَاءُ﴾.

وَعَلِمَ أنَّهُ لَوْ خَلاَّهُم وَذَلِكَ، لَتَرَكُوا العَمَلَ اعْتِمَاداً عَلَى الأزلِ، فَقَالَ: ﴿إنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ظهور سر العنايه التى مقتضاها الرحمة هو تخصيص المشيئه فى قوله عزّ من قائل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾(١) ولا علّة له من العبد والاحسان المنسوب اليه فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢) أمارة وعلامة على تلك العناية وليس بعلّة موجبة. وانما أسند الرحمة اليه وعلقها به،لئلا يتكل العباد على السابقة ويتركوا العمل الذى هو مقتضى العبودية الواجبة لله تعالى عليهم.

(١) الآية ١٠٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٥٦ من سورة الأعراف

إلى المَشيْئَة يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْ
لأن وقوعَ مَا لم يَشَأ الحق تعالى مُحَال .
ولا تَسْتَنِدُ هيَ إلى شَيْء

لاستحالة وجود النقص فيمايجب له من الكمال وهذه العبارات التى ذكرها المؤلف رحمه الله من اول الفصل إلى هنا بلغت الغايه فى الحسن واستغنت بترددها وتكرارها عن البيان الشرح وفيها إشاره إلى أحكام الأزل وفقد الأسباب والعلل فيجب على العبد أن يبنى عليها أعماله وأحواله، فيلتزم العبودية والافتقار ويدع التدبير والاختيار لمن بيده ذلك وهذا هو أ دب التوحيد جعلنا الله من اهله بمنه وفضله وكرمه.

قال ابو بكر محمد بن موسى الواسطى رضى الله عنه:"إن الله لا يقرب فقيرا لأجل فقره ولا يبعد غنيا لأجل غناه وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يصل وبها يقطع ولو بذلت له الدنيا والأخرة ما أوصلك إليه بهما ولو أخذ تهما كلهما ما قطعك بهما قرب من قرّب من غير علّه وقطع من قطع من غير علّة كما قال الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(١)

وقال أيضا رضى الله عنه:(ما خالفه أحد ولا وافقه وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته أنى يكون له الوفاق والخلاف وهو يقلب اليل والنهار بما فيهما وهو قائم على الأشياء وبالأشياء فى بقائها وفنائها لا يؤنسه وجد ولا يوحشه فقد بل لا فقد ولا وجد إنما هى رسوم تحت(٢) الرسوم.

رُبَّمَا دلَّهمُ الأدبُ عَلى تَرْك الطَّلَب، اعتمَاداً عَلى قسمَته، واشتغَالاً بذكره عَن مَسألَته.

قد يكون من الأدب ترك السؤال والطلب لمن هو مستغرق فى الأذكار راض بما يجرى عليه من تصاريف الأقدار وهو أحد مذاهب القوم قال: الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه: «واختلف الناس(٣) فى أى شئ أفضل: الدعاء أم السكوت والرضا فمنهم من قال الدعاء فى نفسه عبادة قال النبى(ﷺ):(الدعاء مخ العبادة)(٤)» فالإتيان بما هو عبادة أولى من تركها ثم هو حقّ الحقّ سبحانه وتعالى فإن لم يستجب للعبد ولم يصل(٥) إلى حظ نفسه

(١) الآية ٤٠ من سورة النور. (٢) وفى نسخة: محت.

(٣) انظر ص٥٢٧، ٥٢٨ من باب الدعاء جـ٢ من الرسالة القشيرية طبعة: دار الكتب الحديثة.

(٤) رواه الإمام الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه، وروى الإمام أحمد والترمذى وغيرهما عن النعمان بن بشير أن رسول الله(ﷺ) قال الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جنهم داخرين﴾.

(٥) أى العبد.

فلقد قام بحقّ الربوبية لأن الدعاء إظهار فاقة العبودية وقد قال أبو حزم الأعرج: «لأن أحرم الدعاء أشدُّ عليّ من أُحرم الأجابة».

وطائفة قالوا: السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتّم والرضا بما سبق من أختيار الحق أولى ولهذا قال الواسطى: «اختيار ما جرى لك فى الأزل خير لك من معارضة الوقت» وقد قال الرسول(ﷺ) خبرا عن الله تعالى: «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»

وقال قوم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه وصاحب رضا بقلبه ليأتى الأمرين جميعا قال الإمام أبو القاسم: «والأولى أن يقال أن الأوقات مختلفة ففى بعض الأحوال الدعاء أفضل من السكوت وهو الأدب وفى بعض الأحوال السكوت أفضل من الدعاء وهوالأدب وإنما يعرف ذلك فى الوقت لأن علم الوقت إنما يحصل فى الوقت فإذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء له أولى. وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أولى.

ويصح أن يقال: ينبغى للعبد ألا يكون ساهيا عن شهود ربه تعالى فى حال دعائه .

ثم يجب أن يراعى حاله فإذا وجد من الدعاء زيادة بَسُط فى وقته فالدعاء له أولى وإن عاد إلى قلبه فى وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض فالأولى له ترك الدعاء فى هذا الوقت وإن لم يجد فى قلبه لا زيادة بسط ولا حصول زجر فالدعاء وتركه سيّان وإن كان الغالب عليه فى هذا الوقت العلم فالدعاء أولى لكونه عبادة، وإن كان الغالب عليه فى هذا الوقت المعرفة والحال والسكوت فالسكوت أولى.

ويصحّ أن يقال: ما كان للمسلمين فيه نصيب أو للحقّ سبحانه وتعالى فيه حقّ فالدعاء أولى وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم وأولى، وفى الخبر المروى: «إن العبد ليدعو الله عز وجل وهو يحبه فيقول الله: يا جبريل أخر حاجة عبدى فإنى أحب أن أسمع صوته وإن العبد ليدعو الله وهو يبغضه فيقول الله: يا جبريل اقض حاجة لعبدى حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته» انتهى كلام الإمام أبى

القاسم القشيري وهوحسن بديع وهو أوفى مما ذكره المؤلف رحمه الله فلذلك أوردته هنا بكماله.

إنَّمَا يُذكَّرُ مَن يَجُوزُ عَلَيهِ الإغفَالُ، وإنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ منهُ الإهْمَالُ.

أورد هذا كالدليل على ما ذكره من أنّ ترك الطلب قد يكون من الأدب وذلك لأن في الطلب إشعارا بتجويز الإغفال عليه فيقع بذلك التذكير له وتلويحا باحتمال وجود الإهمال منه فيكون ذلك تنبيها له وجميع ذلك محال على الحقّ تعالى عن ذلك علواً كبيرا فلأجل هذه العلل كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبا.

وقد سئل الواسطي رضي الله تعالى عنه أن يدعو فقال: «أخشى إن دعوت أن يقال لي: إن سألتنا مالك عندنا فقد أتهمتنا وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا وإن رضيتنا أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور».

وروى عن عبد الله بن منازل أنه قال: «ما دعوت الله منذ خمسين سنة وما أريد أن يدعو لي أحد لأنه ماض عليّ ما سبق».

وَرُودُ الفَاقَات أعيَادُ المُريدينَ.

الأعياد عبارة عن الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح وهم مختلفون في ذلك فمنهم من مسرته وفرحه بوجود حظه ونيل شهواته وغرضه وهذا هو حال عامة المسلمين ومنهم من مسرته وفرحه بفقدان حظوظه وإعواز أمانيه وأغراضه وهذا هو حال الخاصة من المريدين لأن مدار أمرهم إنما هو على مراعاة قلوبهم وتصفية أسرارهم من كدورات الأغيار والآثار ولا يتأتى لهم ذلك إلا بوجدانهم لما يقهرهم من ضرورات(١) الفاقات وأنواع الحاجات والضرورات فتراهم يؤثرون الفقر على الغنى والشدةّ على الرخاء والذّل على العز والمرض على الصحة إذ يحصل لهم بذلك رقة وحلاوة لا يعرف قدرها إلاّ هم لأنها من وجودهم لقرب ربهم ورؤيتهم له في حال فقدان حظّهم وكلما ازدادوا فاقةً وبلاء زادهم ربهم قربةً وولاءً.

---

(١) وفي نسخة: من ضروب

كان بعضهم يطوف حول الكعبة الشريفة وهو يقول:

مؤتزر بشملتى(١) كما ترى
وصبيتى باكية كما ترى
وامرأتى عريانة كما ترى
يا من يرى الذى بنا ولا يُرى
أما ترى ما حل بى أما ترى
أما ترى الذى بنا أما ترى

فسمعه بعضهم فجمع له كسرا(٢) ودفعها إليه فقال له: إليك عنى لو كان معى شئ لما أمكننى أن أقول هذا القول.

قال فى التنوير: «وفى البلايا والفاقات من أسرار الألطاف مالا يفهمه إلا أولو البصائر ألم تر أن البلايا تخمد النفوس وتذهلها(٣) وتدهشها عن طلب حظوظها ويقع مع البلايا وجدان الذلة ومع الذلة تكون النصرة ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤).

قال أبو إسحق إبراهيم الهروى رضى الله عنه: «من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعا على سبع فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير: وهى أن يختار الفقر على الغنى والجوع على الشبع والدون على الرفع(٥) والذل على العز والتواضع على الكبر والحزن على الفرح والموت على الحياة وقد تقدم عند قول المؤلف «من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره» الشفاء فى هذا المعنى فواجب إذن أن يكون ورود الفاقات أعياد المريدين كما قال المؤلف فإذا فقدوا ذلك بمؤاتاة الأسباب استشعروا بذلك وجود الحجاب وبعدهم عن محل الأقتراب فحزنوا لذلك وتأسفوا وودوا لو عاد إليهم الحال الأول ومن هذا المعنى ما حكى عن «خير النساج» رضى الله تعالى عنه قال: «دخلت بعض المساجد فإذا فيه فقير فلما رآنى تعلق بى وقال: أيها الشيخ تعطف على فإن محنتى عظيمة فقلت: وما هى؟ قال فقدت البلاء وفزت(٦) بالعافية فنظرت فإذا هو قد فتح عليه شئ من الدنيا».

---

(١) الشملة: كساء يشتمل به.
(٢) وفى نسخة: نفقة.
(٣) وفى نسخة: وتذلها وفى أخرى. وتزيلها
(٤) آية ١٢٣ من سورة: آل عمران.
(٥) وفى نسخة: على المرتفع.
(٦) وفى نسخة: وقرنت

وقال بعضهم: «إنّ الفقير الصادق ليحترز من الفقر حذرًا أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره» كما أن الغنى يحترز من الفقر حذرًا أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه وقد تقدم من حكايات عطاء السلمى وفتح الموصلى والفضيل بن عياض والربيع بن خيثم رضى اللّه عنهم ما يوافق ما ذكرناه وأنشدوا فى ذكر أعياد المريدين والعارفين وقيل إنها لأبى علىّ الروزبارى رضى اللّه تعالى عنه:

قالوا غدًا العيد ماذا أنت لابسه
فقلت خلعت ساق حبُّه جرعا
فَقْرٌ وصبر هما ثوباى تحتهما
قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به
يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا
الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى
والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا

رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ المَزِيْدِ فِى الفَاقَاتِ مَا لا تَجِدُهُ فى الصَّوْمِ والصَّلاة.

وورود الفاقات يحصل بها للمريد مزيد كثير من صفاء القلب وطهارة السريرة وقد لا يحصل له ذلك بالصوم والصلاة لأن الصوم والصلاة قد يكون له فيهما شهوة وهوى – كما تقدم – وما كان هذا سبيله لا يؤمن عليه فيه من دخول الآفات فلا يفيده تحلية ولا تزكية بخلاف ورود الفاقات فإنها مباينة للّهوى والشهوة على كل حال وقد تقدَّم نحو من هذا المعنى عند قوله: «إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قَلّ عملك... إلخ».

الفَاقَاتُ بُسُطُ المَوَاهِب.

الفاقات تحضره مع الحقّ وتَجلسه على بساط الصدق وناهيك بما يكون فى تلك المحاضرة والمجالسة من المواهب الرَّبانية والنفحات الرحمانية.

إن أردتَ وُرُودَ المَوَاهب عَلَيكَ، صَحِّح الفَقرَ والفَاقَةَ لَدَيكَ.. ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾(١)

هذا مثل ما ذكره الآن وذكر الآية عقيبة إشارة بديعة وتصحيح الفاقة والفقر هو: التحقق بأوصاف العبودية المذكورة فى المسألة التى تأتى بإثر هذه ومما يتعلق بظاهرة الآية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ التى أستشهد بها المؤلف على طريقة القوم ما قال بعضهم: «صدق الفقير أخذه الصدقة ممن يعطيه لا ممن تقبل إليه على يديه»(٢) فالحق تعالى هو المعطى على الحقيقة لأنه جعلها لهم فإن قبلهامن الحق فهو الصادق فى فقره لعلو همته ومن قبلها من الوسايط فهو المتوسم بالفقر مع رداءة همته.

تَحَقَّقْ بأوصَافكَ، يُمدَّكَ بأوصَافه.
تَحَقَّقْ بذُلِّكَ، يُمدَّكَ بعزِّه.
تَحَقَّقْ بعجْزكَ، يُمدَّكَ بقُدرَته.
تَحَقَّقْ بضَعفَكَ، يُمدَّكَ بحَولَه وَقُوَّته.

هذا مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله:«كن بأوصاف ربوبيته متعلقًا، وبأوصاف عبوديتك متحققًا».

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه تعالى عنه بعد كلام ذكره: «وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذلّ للّه تعالى وأضدادها أوصاف الربوبية فما لك ولها فلازم أوصافك وتعلقّ بأوصافه وقل من بساط الفقر الحقيقى: يا غنىّ من للفقير غيرك؟ ومن بساط الضعف: يا قوى من للضعيف غيرك؟ ومن بساط العجز: يا قادر من للعاجز غيرك؟ ومن بساط الذل: يا عزيز من للذليل غيرك؟ تجد الأجابة كأنها طوع يداك ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣) انتهى كلام سيدى أبو الحسن وهو معنى ما ذكره المؤلف ها هنا وأكثر كلام المؤلف جار على منهاج كلام أبى الحسن رضى اللّه عنهما ونفع بهما.

(١) من آية ٦٠ من سورة التوبة.
(٢) وفى نسخة: «.. أخذه الصدقة ممن أعطاها له حكما وهو اللّه تعالى، لا من جاءت له على يديه».
(٣) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف.

رُبَّمَا رُزِقَ الكَرَامَةَ مَن لم تَكمُلْ لَهُ الاستقَامَةُ!

الكرامة الحقيقة إنما هى حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله عز وجل واتباع ما جاء به رسول الله(ﷺ) ظاهرا وباطنا.

فالواجب على العبد ألا يحرص إلا عليهما ولا تكون له همة إلا فى الوصول إليهما.

وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين إذ قد يرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة.

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه: «إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو مغتر كذاب ليس ذا حظ فى العلم والعمل بالصواب كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور وناقص أو هالك مثبور» وقال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه: «ليس الشأن من تُطوى له الأرض فإذا هو بمكة وغيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عبد عند ربه».

وذكر عند سهل بن عبد الله رضى الله عنه الكرامات فقال: «وما الأيات!! وما الكرامات!! هى شئ تنقضى لوقتها ولكن أكبر الكرامات أن تُبدلّ خُلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود».

وقال بعض المشايخ: «لا تعجبوا ممن لم يضع فى جيبه شيئا فيدخل يده فى جيبه فيخرج منه ما يريد ولكن تعجبوا ممن يضع فى جيبه شيئا فيدخل يده فى جيبه فلا يجده فلا يتغير».

وقيل لأبى محمد المرتعش رضى الله تعالى عنه: إن فلانا يمشى على الماء فقال: «عندى من مكّنه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى على الماء وفى الهواء»

وقال أبو يزيد رضى الله تعالى عنه: «لو أنَّ رجلا بسط مصلاه على الماء وتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى»

وقيل له: إن فلان يقال أنه يمر فى ليلة إلى مكة؟ ! فقال: «الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلى المغرب وهوفى لعنة الله»

وقيل له: أن فلان يمشى على الماء !! فقال: «الحيتان فى الماء والطير فى الهواء أعجب من ذلك»

وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه: «حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون إلى الكرامات» وقد تقدم مثل هذا عند قوله: «ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه».

مِن عَلاَمَات إقامَة الحَقِّ لَكَ فى الشَّىء: إدامَتُهُ إيَّاكَ فيه مَعَ حُصُولِ النَّتَائِج.

لا اعتبار بما يقوم فيه العبد بنفسه من عمل أو حال وإنما العبرة بما يقيمه فيه ربه.

وعلامات إقامة الله عبده فى الشئ أن يديمه عليه ويحصل له ثمرته ونتيجته وينبنى على هذا آداب ومعاملات وقد أشرنا إلى نحو من هذا عند قول المؤلف: «إرادتك التجريد مع إقامة الله إيّاك فى الأسباب... إلخ»

مَن عَبَّرَ مِن بِسَاطِ إحسَانه، أصمَتَتْه الإسَاءَةُ. وَمَن عَبَّرَ مِن بِسَاطِ إحسَانِ اللّه إلَيه، لَم يَصمُتْ إذَا أسَاءَ.

من شاهد إحسان نفسه وعمل بطاعة ربه انبسط لسانه بالنصيحة والموعظة لعباد الله فإن وقعت منه إساءة أو مخالفة انقبض عن ذلك وصمت لما يعتريه من الخجل والحياء وهذه طريقة أهل «التكليف» الذين ينظرون إلى ما منهم إلى الله تعالى من عمل صالح أو طالح. ومن شاهد إحسان الله إليه وغاب عن رؤية إحسانه هو انبسط لسانه فى الحالين من غير فرق لأن مشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته فى الحالين أوجبت جراءته على ذلك.

وقد قيل: «جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان» وهذه هى طريقة أهل «التعريف» الذين ينظرون إلى ما من الله تعالى إليهم.

قلت: وما ذكرته هنا من لفظى: التعريف والتكليف وما نبهت به عليهما من الكلام اللطيف أشرت به إلى مسألة عظيمة مهمة ينبنى عليها آداب وأحكام جمة وهى مسألة أختلاف الناس فى معاملاتهم لربهم بحسب نيّاتهم(١) فى مراتب قربهم ومن أحكامها مسألة «التعبير» التى اقتصر المؤلف عليها فى هذا الفصل ولم يذكر معها سواها مما ينبنى على ذلك الأصل وقد نبه عليها فى «لطائف المنن» وأتى فيها بكلام مستوعب حسن فرأينا أن ننقله هاهنا بكماله ليتبين به مقصدنا فى تفصيله وإجماله قال فيه:

« .. وقال شيخنا(يعنى شيخه أبا العباس): الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى اللّه وعبد هو بشهود ما من اللّه إليه وعبد هو بشهود ما من اللّه إلى اللّه»

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المعتذر بين يدى اللّه تعالى وتلازمه الأحزان وتحالفه الأشجان ويستولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من اللّه إليه من الفضل والأحسان والجود والأمتنان فهذا تلازمه المسرة باللّه والفرح بنعمة اللّه قال اللّه عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٢) فالأول حال العباد والزهاد والثانى حال أهل العناية والوداد الأول شأن أهل التكليف والثانى شأن أهل التعريف الأول حال أهل اليقظة والثانى حال أهل المعرفة فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه تعالى عنه:(العارف من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من اللّه عليه وعرف إساءته فى إحسان اللّه إليه ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣).

وقال رضى اللّه عنه: «قليل العمل مع شهود المنة «من اللّه»خير من كثرة العمل مع رؤية التقصير من النفس».

وقال بعض أهل المعرفة: «لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير» وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه: «قرأت ليلة من الليالى:(قل أعوذ برب الناس) إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى:(من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس

---

(١) وفى نسخة: تباينهم، وهو أولى لمناسبته للسياق، وفى نسخة أخرى: بحسب ثباتهم.
(٢) آية ٥٨ من سورة يونس
(٣) الآية ٦٩ من سورة الأعراف

فى صدور الناس من الجنة والناس) فقيل لى: شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ينسيك ألطافه الحسنة ويذكرك أفعالك السيئة ويقلل عندك ذات اليمين ويكثر عندك ذات الشمال ليعدل بك عن حسن الظنّ بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهّاد والعبّاد وأهل الجدّ والأجتهاد ولذلك قل أن تجد الزاهد والعابد إلا مكمودا حزينا لأنه علم أن الله تعالى طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(١) فعاين الزهّاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه فلذلك لزمهم الكمد واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمرا عظيما وعلموا ضعفهم عن حمله والقيام به متى وكلوا إلى نفوسهم قال الله عز وجل: "﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾(٢) وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله تعالى حمل عنهم ما حملهم قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٣) فرجعوا إليه بصدق اللجاء فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين فى محفات المنن تروح(٤) عليهم بنفحات اللطف والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف فتلازمهم المشقات وتطول بهم المسافات فإن شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايات.

وأما القسم الثالث: وهم الذين أمدهّم الذين أمدهم الله تعالى بشهود ما من الله إلى الله هؤلاء هم أهل التوحيد والداجلون فى ميدان التفريد.

وأما القسم الأول: وهم الذين غلب عليهم شهود ما منهم إلى الله لم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره لأنهم أقبلوا على أنفسهم موبخين لها شاهدين لتقصيرهم وإسائتهم فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا لها بالتوبيخ إذا قصرت فلذلك قال ذلك العارف الذى سبق قوله: «لا يخلوا شهود التقصير من الشرك فى التقدير».

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب

(٢) الآية ٢٨ من سورة النساء.

(٣) آية ٣ من سورة الطلاق

(٤) وفى نسخة: مروح عليهم «بتشديد الواو»، وفى أخرى: يروح.

فإن قلت: إذا كان توبيخ النفس وذمّها يستلزم دقيقة الشرك فكيف نصنع والله تعالى قد ذم النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك؟ فالجواب: أن ذمها لأن الله تعالى أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف إليها فعلا فلا تراها هى الفاعلة له.

وأما القسم الثانى: وهو الذى يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيرا من القسم الأول ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هداية الحق فلولا إثباته لنفسه ما شهد ذلك فلأجل هذين المعنيين آثر أهل الله تعالى القسم الثالث وهو أن يكون بشهود ما من الله إلى الله فافهم» انتهى كلامه رحمه الله ولأجل ما تضمنه من الفوائد الجليلة والمقاصد النبيلة دعانا قرب المناسبة إلى ذكره على ما هو عليه فى هذا الموضع والله الموفق ولا رب غيره.

تَسبِقُ أنوَارُ الحُكَمَاءِ أقوَالَهُم.. فَحَيثُ صَارَ التَّنوِيرُ، وَصَلَ التَّعبِيرُ.

٩ الحكماء: هم العارفون بالله تعالى العالمون به والأنوار المنسوبة إليهم هى: أنوار معرفتهم وهى قوة يقينهم فإن الأمور كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها فإن أرادوا إرشاد عباد الله تعالى ونصيحتهم بأذن من الله تعالى سبقت أنوار قلوبهم إلى الله تعالى باللجاء والافتقار إليه فى أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية وأستعدادا لقبول ما يريدون إيراده عليهم من كلام الحكمة فيجيبهم إلى ذلك فإذا تكلموا به تلقته قلوبهم التى وصل إليها أنوار أسرار الحكمة كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم أنتفاع وقد أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال: يابنى ما بلغت من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما لا يعنينى.

قال: يابنى إنه قد بقى شىء آخر: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء» وانما قلنا: ان الحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به لانهم خائفون من الله تعالى وفى بعض الآثار «رأس الحكمة مخافة الله».

والخوف من ثمرات العلم بالله وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١)، والعلم الموجب للخشية هو العلم بالله فقط فالحكماء هم العالمون بالله تعالى، وان كانوا ضعفاء فى سائر العلوم الرسمية، كليلة السنتهم فى البيان عنها.

كُلُّ كَلامٍ يَبرُزُ وَعَلَيه كسْوَةُ القَلْبِ الذى منهُ بَرَزَ.

اللسان ترجمان القلب فاذا صَفا من الاكدار، وتزكى من الاغيار، واشرقت فيه الأنوار، كانت ترجمانية لسانه على حسب ذلك، فيتكلم بالكلام النورانى الذى يلج اذان السامعين، فتفتح بسببه اذ ذاك اقفال قلوبهم ويستجيبون به لنداء الحق حبيبهم.

وروى الحافظ ابو نعيم رحمه الله تعالى عن سعيد بن عاصم قال: كان قاض يجلس قريبا من مجلس محمد بن واسع فقال له يوما وهو يوبخ جلساءه: مالى ارى القلوب لا تخشع ومالى أرى العيون لا تدمع ومالى ارى الجلود لا تقشعر !! فقال محمد بن واسع: ياعبد الله ما أرى القوم اوتوا الا من قبلك، ان الذكر اذا خرج من القلب وقع على القلب.

قلت: وقد حاز المؤلف قصب السبق فى هذا المعنى الذى ذكره ومن مارس كلامه فى هذا الكتاب وفى غيره وحصل له منه التاثير المحمود سلم بما قلناه، وكفى بشهادة شيخه ابى العباس المرسى على عظيم قدره ودعائه له برهانا على ذلك.

قال فى "لطائف المنن": وكنت قد قلت لبعض تلامذة الشيخ(يعنى ابا العباس): اريد لو نظر إلى الشيخ برعايته وجعلنى فى خاطره. فقال ذلك للشيخ. فلما دخلت على الشيخ قال: لا تطالبوا الشيخ بان تكونوا فى خاطره؛ بل طالبوه انفسكم ان يكون الشيخ فى خاطركم. فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده. ثم قال: اى شىء تريد ان تكون؟ والله ليكونن لك شأن عظيم. والله ليكونن لك كذا. والله ليكونن لك كذا. وكذا. لم اثبت منه الاقوله:" ليكونن لك شأن عظيم" قال: فكان من فضل الله سبحانه ما لا انكره.

---

(١) آية ٢٨ من سورة فاطر

قال: واخبرنى سيدى جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدِّروا ابن عطاء اللّه فى الفقة !! فقال الشيخ: هم يصدرونه فى الفقه وأنا أصدره فى التصوف. وقال: دخلت عليه فقال: إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يُجلسك فى موضع جدك. ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية وتتكلم إن شاء اللّه تعالى فى العلمين. فكان ما أخبر به رضى اللّه عنه.

قال: وسمعته يقول: أريد أن أستنسخ كتاب «التهذيب» لولدى جمال الدين فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ وأتيته بالجزء الأول فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب التهذيب استنسخته لكم فأخذه فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك الولىٍّ لا يتفضل عليه أحد. تجد هذا فى ميزانك إن شاء اللّه.

فلما أتيته بالجزء الثانى لقينى بعض أصحابه عند نزولى من عنده، قال:قال الشيخ عنك واللّه لأجعلنه عينا من عيون اللّه يُقتدى به فى علم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقينى بعض أصحابه وقال:طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء فقال هذا الكتاب استنسخه لى ابن عطاء اللّه، واللّه ما أرضى له بجلسة جده، ولكن بزيادة التصوف.

قال:وأخبرنى بعض أصحابه قال:قال لى الشيخ يوما إذا جاء ابن فقيه الإسكندرية فأعلمونى به فلما أتى الشيخ أُعلمنا الشيخ بذلك فقال: تقدم. فتقدمت بين يديه فقال:جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله (ﷺ) ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش فقال له:هذا ملك الجبال أمره اللّه أن يطيع امرك فى قريش، فسلم عليه ملك الجبال ثم قال: يامحمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين(١) فعلت فقال رسول اللّه (ﷺ) لا ولكن أرجوا أن يخرج اللّه من أصلابهم من يوحَد اللّه تعالى ولا يشرك به شيئا. فصبر عليهم رسول اللّه (ﷺ) رجاء أن يخرج الله من أصلابهم. كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

قال: وخرجت يوما من عند الفقيه"المكين الأسمر" وخرج معى "أبو الحسن الحريرى" وكان من أصحاب الشيخ إبى الحسن فسلّمت عليه وسلم على ببشاشة وإقبال فقلت له:من أين تعرفنى؟فقال:وكيف لا أعرفك كنت يوما جالسا عند الشيخ أبى العباس وكنت أنت عنده فلما نزلت قلت له يا سيدى إنه ليعجبنى هذا الشاب

(١) جبلين بمكة

انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم قال:فقال الشيخ:يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيا يدعو إلى الله فكان ما قال الشيخ رحمه الله تعالى.

قال: وكنت كثيرا ما يطرأ علىّ الوسواس فى الطهارة فبلغ ذلك الشيخ فقال: بلغنى أن بك وسواسا فى الوضوء !!قال نعم فقال رضى الله تعالى عنه:"هذه الطائفة تلعب بالشيطان لا الشيطان يلعب بها".ثم مكثت أياما فدخلت عليه فقال:ما حال ذلك الوسواس؟ قلت:على حاله!! فقال إن كنت لا تترك الوسوسة لا تعد تأتينا فشق ذلك علىّ وقطع الله ذلك الوسواس عنى.

«قال»: وكان رضى الله عنه يلقن للوسواس:سبحان الله الملك القدّوس الخلاق الفعال﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾(١).

«قال»: وعملت قصيدة أمدحه بها فقال حين أنشدتها أيدك الله بروح القدس.

قال: ثم عملت قصيدة أخرى باشارته جوابا لقصيدة مدحه بها إنسانا من بلاد إخميم فلما قرأت عليه قال:صحبنى هذا الفقيه وبه مرضان وقد عافاه الله منهما ولابد أن يجلس ويتحدث فى العلمين.يشير الشيخ إلى مرض الوسواس.

قال: فلما انقطع عنى ببركة الشيخ حتى صرت أخاف ان أكون لشدة التوسعة التى اجدها قد تساهلت فى بعض الأمر والمرض الاخر كان بى ألم برأسى فشكوت ذلك إليه فدعا لى فعافانى الله وشفانى.

قال:وبتّ ليلة من الليالى مهموما فرأيت الشيخ فى المنام فشكوت إليه ما أنا فيه فقال: اسكت والله لأعلمنك علما عظيما.

قال:فلما انتبهت جئت إلى الشيخ رضى الله عنه تعالى فقصصت عليه الرؤيا فقال: يكون هذا إن شاء الله تعالى.

قال: وجاء يوما من السفر فخرجنا للقائه فلما سلمت عليه قال لى: يا أحمد كان الله لك ولطف بك وسلك بك سبيل أوليائه وبهاك(٢) بين خلقه.

قال: فوجدت بركة هذا الدعاء وعلمت أنه لا يمكننى الانقطاع عن الخلق وأنى مراد بهم لقوله: وبهاك بين خلقه.

قال: وكنت أنا لأمره من المنكرين وعليه من المعترضين لا لشىء سمعته منه ولا لشىء صحّ نقله عنه حتى جرت مقاولة بينى وبين بعض أصحابه وذلك قبيل

---

(١) الآيتان ١٩، ٢٠ من سورة إبراهيم.

(٢) بهى «بكسر الهاء» بهاء: حسن وظرف فهو بهىء

صحبتي إيّاه وقلت لذلك الرجل: ليس إلا اهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أمورا عظاما وظاهر الشرع يأباها فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ: تدرى ما قال لى الشيخ يوم تخاصمنا؟ فقلت: لا.قال: دخلت عليه فأول ما قال لى: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا.

ولعمرى لقد صحبت الشيخ إثنى عشر عاما فما سمعت منه شيئا ينكره ظاهر الشرع من الذى كان ينقله عنه من يقصد الأذى.

قال: وكان سبب إجتماعى معه أن قلت فى نفسى بعد أن جرت المخاصمة بينى وبين ذلك الرجل"دعنى أذهب فأرى هذا الرجل "فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه.

قال: فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها فقال: إسلام والثانى إيمان والثالث: إحسان وإن شئت قلت: الأول عبادة والثانى عبودية والثالث عبودة وإن شئت قلت: الأول شريعة والثانى حقيقة والثالث تحقق.. ونحو هذا فما زال يقول وإن شئت قلت.. إلى أن بهر عقلى وعلمت أن الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى فأذهب اللّه ما كان عندى ثم اتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد شيئا منى يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى ووجدت معنى غريباما أدرى ما هو، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وكواكبها وما خلق اللّه فيها من عجائب قدرته فحملنى ذلك إلى العودة إليه مرة أخرى فأتيت فاستؤذن لى فلما دخلت عليه قام وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلا واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك فكان أول ما قلت له: يا سيدى أنا واللّه أحبك فقال: أحبك اللّه كما احببتنى ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال: أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية والطاعة والمعصية فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود المنة عليك وان كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.

«قال» : فقمت من عنده كانما كانت تلك الهموم والاحزان ثوبًا نزعته. ثم

سالنى بعد ذلك بمدة: كيف حالك؟ فقلت افتش على الهّم فلا اجده. فقال:

ليلى بوجهك مشرق

وظلامه فى الناس سارى

والناس فى سدف(١) الظلام

ونحن فى ضوء النهار

الزم فوالله ان لزمت لتكوين مفتيا فى المذهبين يريد: اهل الشريعة العلم الظاهر ومذهب اهل الحقيقة اهل العلم الباطن. انتهى ما نقلته من "لطائف المنن". انما اوردت ذلك هنا، على طوله ليعرف به قدر المؤلف، وليدفع بواضح برهانه طعن الطاعن وتعسف المتعسف، ولنتعرّض بذلك لنزول الرحمة من الله تعالى علينا وموالاة منحه وعطاياه لدينا.

فقد قيل: " عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة" مع ما فى ذلك من قرب المناسبة لمعنى ما اورده المؤلف من الكلام الحائز به قصب السبق بين معاصريه من الائمة الاعلام. واما شيخه ابو العباس وشيخ شيخه ابو الحسن فحالها اوضح من نار على علم. ولقد طرزّت بكلامهما الكتب والدفاتر، وزهيت بمآثرهما وعلومهما الألسنة الأقلام والصحف والمحابر، ولولا خشية الملامة، وكراهة الإطالة لذكرنا من ذلك ما يبهر عقول السامعين، ويرغم اناف الجاحدين والمعاندين.

كما قيل:

سيكلفك من ذاك المسمى اشارة

ودعه مصونا بالجمال محجباً

مَن أُذنَ لَهُ فِى التَّعبِيرِ، فُهِمَتْ فِى مَسَامِعِ الخَلقِ عِبَارَتُه، وَجُلِّيَتْ إلَيهِم إشَارَتُه.

المأذون له فى التعبير هو الذى يتكلم لله وبالله وفى الله، ولذلك كان كلامه صوابا.

قال الجنيد، رضى الله عنه: " الصواب كل نطق عن اذن " اشار بهذا -والله اعلم - إلى قوله تعالى: ﴿لاَ يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(٢). فاذا قرع اسماع السامعين كلامه فهمت فى مسامعهم عبارته. فلم يفتقروا إلى معاودة ولا

(١) ظلمة.

(٢) آية ٣٨: من سورة النبأ.

تكرار، وجليت اليهم اشارته فلم يحتاجوا معها إلى اطناب ولا اكثار بخلاف غير المأذون له فى ذلك. قيل لحمدون بن احمد بن عمارة القصّار رضى الله تعالى عنه: " ما بال كلام السلف انفع من كلامنا؟ " قال: لانهم تكلموا لعز الاسلام، ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعزّ النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق.

رُبَّمَا بَرَزَتِ الحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ الأنْوَارِ، إذاَ لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيْهَا بالإظْهَارِ.

من لم يستكمل الاوصاف المذكورة لم يؤذن له فى اظهار شىء من الحقائق الربانية، فإنه اظهرها برزت مكسوفة الانوار بما غشيها من ظلمة رؤية الاغيار، فمجتها اذان السامعين، وانكرتها قلوبهم.

وعلامة استكمال الاوصاف المذكورة ان يفتح له باب التعبير مع وجود السلامة من افات المنطق.

قال فى "لطائف المنن": " ان من أجل مواهب الله لاوليائه وجود العبارة. «قال»: وسمعت شيخنا ابا العباس يقول: الولى يكون مشحوناً بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة حتى اذا اعطى العبارة كان كالإذن من الله له فى الكلام. قال وسمعت شيخنا ابا العباس يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الانوار حتى ان الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من احدهما وترد على الاخر.

عبَاراتُهُم إمَّا لفَيَضَانِ وَجْدٍ، أوْ لقَصْدِ هدَايَة مُريد.. فَالأوَلُ: حَالُ السَّالكينَ، وَالثَّانِى: حَالُ أَربابِ المُكْنَة والمُتحَقِّقينَ.

انما يقع التعبير منهم عما يطالعون به من الامور الغيبية والعلوم الاشهادية لاحد معنيين: اما حال غلبة الوجد عليهم وفيضانه، وهم معذورون فى ذلك لوجود الغلبة، وهذا حال السالكين من اهل الهداية(١). واما لقصد هداية مريد فيلزمهم ذلك لما فيه من فائدة الارشاد والهداية، وهذا حال اهل التمكين والمحققين من اهل النهاية، فان عبّر السالك لا عن غلبة وجد كان فى ذلك نوع من الدعوى وإن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان فى ذلك افشاء سرٍّ لم يؤذن له فيه، وايضا فحاله يقتضى وجود الصمت وعدم النطق، لأنه فى حضرة الحق تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم فكيف يصدر منهم نطق او تعبير على غير الوجه المذكور. والصمت من اداب الحضرة، قال الله عز وجل: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾(٢)

العَبَارَاتُ قُوتُ العَائلَة المُستَمعينَ، ولَيْسَ لَكَ إلاَّ مَا أَنْتَ لَهُ آكلٌ!

المستمعون موسومون بالفقر والحاجة إلى معنى ما يستمعون اليه من المواعظ والحكم، وهو قوت قلوبهم، وغذاء ارواحهم، كما ان المستطعمين والسؤال موسومون بالفقر والحاجة إلى قوت ابدانهم، كما ان اقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما يصلح للاخر من الاطعمة والاشربة لاختلاف طبائعهم وامزجتهم فكذلك اقوات الاخرين مختلفة، فلا يصلح لواحد منهم من العبارات التى تتضمن وجود القوت المعنوى ما يصلح للاخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم، فاذا سمعت عبارة من عالم أو عارف أو أحد من أهل هذا الطريق ولم تحظ منها بشىء فاعلم أنها لا تصلح لقوتك وغذائك وهى صالحة لقوم اخرين، ومما ينتظم فى هذا السلك ان تقرع أسماع بعض الناس العبارة من بعض الاشخاص فيفهم منها معنى لم يقصده المتكلم ويتاثر باطنه بذلك تأثرا عجيبا، وقد يقع ذلك لجملة من الناس فيفهم كل واحد منهم ما لا يفهمه الاخر، ويحصل

(١) وفى نسخة: من أهل البداية.

(٢) أية رقم ١٠٨ من سورة طه.

لهم بذلك التاثر مع ان المتكلمّ لم يرد شيئا من ذلك مضادا له، وقد يسمع ارباب القلوب من الجمادات ويستعدون به لسنى الحالات قال فى" لطائف المنن": " وربما فهم من اللفظ ضدّ ما قصده واضعه كما اخبرنا الشيخ الامام مفتى الانام تقى الدين محمد بن على القشيرى، رحمه الله، قال: كان ببغداد فقيه يقال له" الجوزى" يقرا اثنى عشر علما فخرج يوما قاصدا المدرسة فسمع منشدا يقول:

اذا العشرون من شعبان ولّت

فواصل شُرب ليلك بالنهار

ولا تشرب باقداح صغار

فان الوقت ضاق عن الصغار(١)

فخرج هائما على وجهه إلى مكة ولم يزل مجاورا بها حتى مات، «قال» وقرىء على الشيخ" مكين الدين الاسمر"قول القائل:

لو كان لى مسعد بالروح يسعدنى

لما انتظرت لشرب الراح افطارا

الراح شىء شريف انت شاربه

فاشرب ولو حملتك الراح اوزارا

يا من يلوم على صهباء صافية

خذ الجنان ودعنى اسكن النارا

فقال إنسان: هناك لا تجوز قراءة هذه الابيات !! فقال الشيخ مكين الدين الاسمر للقارىء: اقرا هذا رجل محجوب !! والشيخ مكين الدين الاسمر هو الذى شهد له الشيخ ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنه بانه من السبعة الابدال «قال»: ويكفيك فى هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا ينادى" يا سعتر برى"ففهم كل واحد منهم مخاطبة عن الله خوطب بها فى سرّه؛ فسمع الواحد: اسع تر برّى"وسمع الاخر:" الساعة ترى برّى"وسمع الاخر:" ما اوسع برى" فالمسموع واحد واختلفت افهام السامعين، كما قال الله سبحانه: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾(٢) وقال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾(٣).

فاما الذى سمع: اسمع ترى برى فمريد دلّ على الله تعالى بالنهوض إلى الله بالأعمال، فيستقبل الطريق بالجدّ، فقيل له اسع الينا بصدق المعاملة تَر برّنا

(١) وفى نسخة: فقد ضاق الزمان على الصغار.
(٢) آية رقم ٤ من سورة الرعد.
(٣) آية رقم ٦٠ من سورة البقرة.

بوجود المواصلة.

وأما الثاني، فكان واصلا إلى الله تعالى، طاولته الاوقات فخاف ان تفوته أن تفوته المواصلة فقيل له ترويحا على قلبه لما أحرقته نار الشغف: الساعة تَرى برَى.

وأما الآخر، فعارف كشف له عن وسع الكرم، فخوطب من حيث أشهد، فسمع: ما اوسع برّى.

«قال» وقال الشيخ محى الدين بن العربى، رحمه الله تعالى: " دعانا بعض الفقراء إلى وليمة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقّدم الطعام وعمروا الأوعية وهناك وعاء زجاج قد اتخذ للبول ولم يستعمل فقرب فيه رب المنزل الطعام فالجماعة يأكلون، واذا الوعاء يقول: مذ اكرمنى الله بأكل هؤلاء السادة منى لا ارضى لنفسى ان أكون بعد ذلك اليوم محلا للأذى ثم انكسر نصفين. فقال الشيخ محيى الدين: فقلت للجميع: سمعتم ما قال الوعاء؟ فقالوا نعم «قال»: فقلت: ما سمعتم!! فاعادوا القول الذى تقّدم. قال. فقلت: قال قولا غير ذلك. قالوا وما هو؟ قلت: قال كذلك قلوبكم قد أكرمها الله بالإيمان، فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية وحب الدنيا". جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه والتلقن منه.

قلت: وهذه المنازع كلها مما يستملح ويستظرف وتتأثر بها القلوب السليمة وتنقاد لها النفوس الكريمة وقد جرت عادة ائمة هذا الطريق باستعمالها وايرادها فى محلها فلا حرج علينا إذن فى ذكر بعض ذلك اذا كانت لها مناسبة تامة ووجدت فيها فائدة خاصة او عامة وبالله التوفيق لا رب غيره.

رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ المَقَامِ مَنِ استَشْرَفَ عَلَيه، وَرُبَّمَا عَبَّر عَنهُ مَن وَصَلَ إليه.. وَذلكَ مُلْتَبسٌ إلاَّ عَلى صَاحبِ بَصيرَةٍ!

كما أنّ الواصلَ إلى ما قام من مَقامات اليقين يعبِّر عنَه كَذلك يَعبِّر عنه من استشرف عليه ولم يتحقق فيه بالمنازلة والمواصلة والتباس ذلك على من ليس له بصيرة ظاهرة واما ذو البصيرة فلا يخفى عليه ذلك لأنه يرى فى الكلام صورة المتكلم الباطنة وما هو عليه من كمال او نقص وقد قيل: " تكلموا تُعرفوا"

لاَ يَنْبَغى للسَّالك أنْ يُعَبِّرَ عَنْ وَارداته، فَإنَّ ذلكَ يُقلُّ عَمَلَها فى قَلبه، وَيَمْنَعُه وُجُودَ الصِّدْق مَعَ رَبِّه.

الواردات الإلهية لا ينبغى للسالك أن يعبر عنها اختيارا منه بل يخفيها ويصونها ولا يطلع أحداً عليها إلا شيخا مرشداً لأن نفسه تجد فى ذلك لذة وانشراحا فتقوى به صفاتها فيقل بسبب ذلك عمل الواردات فى قلبه من التأثير المحمود ولأجل غلبة أحكام نفسه وإيثار حظه يمنعه ذلك من وجود صدقة مع ربّه وقد تقدم هذا المعنى فى قوله «استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك»

لا تَمُدَنَّ يَدكَ إلى الأخْذ منَ الخَلائق.. إلا أنْ تَرى أنَّ المُعْطىَ فيهمْ مَولاكَ. فَإذَا كُنتَ، كذلك فَخُذْ.. مَا وَافَقَكَ العلْمُ.

هذه قاعدة عظيمة يحتاج إليها السالكون المتجردون ليبنوا عليها أحوالهم فيما يصل إليهم من الرفق(١) على أيدى الخلق وقد ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى بعبارات بديعة محمودة موجزة جمع فيها جملة المعانى التى يحتاج إليها من ذكرناه فلنبسط كلامه فى ذلك على حسب عادتنا معه وعلى الوجه الذى ذكرناه فى مقدمة هذا التنبيه وهذا قصدنا فى جميع ما تكلمنا عليه من مسائل كتابه.

ونقول على حسب ذلك: أرزاق العباد المعتادة لهم تنقسم إلى قسمين: أحدهما: رزق يصلون إليه بأسباب وأعمال وتصرفات كالتجارات والصناعات وغيرهما وهذا حال أهل الأسباب.

والثانى: رزق يصل إليهم على أيدى الخلق من غير عمل ولا سعى وهذا حال أرباب التجريد.

وكل واحد من القسمين له آداب وأحكام تخصه.

فأحكام القسم الأول وآدابه لم يتعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى وهى مذكورة فى فنّ «الفقه» وغيره فواجب على كلّ من دخل فى شئ من الأسباب تحصيل علمه وطلبُه من حيث هو .

وأحكام القسم الثانى وآدابه هى التى تعرض لها المصنف وأجمل - رحمه الله تعالى - جميع ذلك فى مراعاة شرطين وجعلهما من شروط صحة الأخذ:

(١) أى العطاء.

الشـرط الأول: ألا يرى العطاء إلا من مـولاه عـز وجل وهذا هو الأصـل وإنما أشـترطه على الأخذ لأنه مقتضى حاله من تحقيق التوحيد وتخليص التجريد وبه يصح له مـقام القناعـة والتوكل ويسـقط من قلبـه هم الرزق وتزول به عنه عـلاقات الخلق وإن لم يكن على هذا الوصف كان عبد للناس مولها قلبه إليهم فيكثر طمعه فيهم ورغبته فيما فى أيديهم واستشرافه إليهم فيقع بسبب ذلك فى كبائر الذنوب من مـعـاصى القلب والجـوارح مـثل المداهـنة والنفـاق والريـاء والتـصنع والتلبـيس والغش وعدم النصيحة وقلة الشفقة وغير ذلك من الصفات المذمومـة المناقضة للعبودية لله عزّ وجّل.

قـال يحيى بن مـعاذ رضـى الله تعـالى عنه: «من اسـتفتح باب المعاش من غير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين»

ولا يكفى فى تلك الرؤية المذكورة أن تكون علما وإيمانا فقط بل لابدّ أن تكون: حـالا وذوقا.

دعـا بـعض الناس شـقـيقـا البلخى رضى الله تعالى عنه وكان فى طـبقتـه من أصحابه نحو خمسين رجلا فوضع الرجل طعاما واسعا وأنفق نفقة كثيرة فلما قعدوا قال لهم شقيق: إن هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وأنى أقدّمه إليه فطعامى عليه حرام.

فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم فقال صاحب المنزل لشقيق: رحمك الله ما أردت بهذا!!

قـال: أردت أن أخـتـبـر توحـيـد أصـحـابـى: أى كلهم لا يرونـه فـيـمـا صـنـع ولا ينظرون إليه فيما قدم إلا ذلك الرجل وحده.

وإنما اشترطنا فى رؤية العطاء من الله تعالى أن يكون حالا وذوقا لأن ذلك هو اللائق بحال المتجرد كما ذكرناه لأن التجريد حال شريف لا يدخل فيه بالاختيار والتعمد لأن ذلك من اتباع هوى النفس وطلب الحظ والراحة.

وإنما يقيم الحقّ تعالى فيه من أراده به من أهل التقوى والمراقبة بعد كمال شغله بالله تعالى وجده فى الهرب عن كل ما يقطعه عن الله تعالى فحينئذ يسلبه الحق من تدبيره واختياره ويكاشفه بوحدانيته فى إيراده وإصداره ويكون تركه للأسباب بحكم الوقت وإشارة الحال.

كما روى أن أبا حـفص النيسابورى رضى الله عنه كان حدادا وكـان غلامه يوما ينفخ عليه الكير فـأدخل الشيخ يوما يده فى النار وأخرج الحديدة من النار

فغشي على غلامه وترك أبو حفص الحانوت وأقبل على أمره وكان يقول رضى الله عنه: «تركت العمل فرجعت إليه وتركنى العمل فلم أرجع إليه»

وقال إبراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه: لا ينبغى للصوفىّ أن يتعرض للقعود عن الكسب إلا أن يكون رجلا مغلوبا قد أغنته الحال عن المكاسب وأما من كانت الحاجات به قائمة ولم يقع له عزوف يحول بينه وبين التكلفّ فالعمل أولى به والكسب بسعى أحلّ له وأبلغ لأن القعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلف».

وقد قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله تعالى عنه: «ما دامت الأسباب قائمة بالنفس فالاكتساب أولى».

وقال بعض المنقطعين: كنت ذا صنعة جليلة فأريد منى تركها فحاك فى صدرى: من أين المعاش؟ فهتف بى هاتف: «لا أراه تنقطع إلىّ وتتهمنى فى رزقى على أن أخدمك وليا من أوليائى أو منافقا من أعدائى».

وقد أشترط رسول الله(ﷺ) فى صحة قبول العطاء عدم الأستشراف إلى الناس ولا يكاد يحصل هذا الشرط لمن ذكرناه من أهل التجريد إلا بهذه الرؤية المذكورة روى زيد عن خالدالجهنى رضى الله عنه قال قال رسول الله(ﷺ) أنه قال: «من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا استشراف نفس فليقبله فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه» وروى عن رسول الله(ﷺ) أنه قال: «من وجه إليه شيئامن هذا الرزق من غير مسألة ولا استشراف فليأخذه وليوسع فى رزقه فإن كان عنده غنى(١) فليدفعه إلى من هو أحوج منه» وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «كان رسول الله(ﷺ) يعطينى العطاء فأقول له: أعطه يا رسول الله من هو أفقر إليه منى فقال(ﷺ): خذه فتموّله أو تصدقّ به»

وما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف ولا سائل فخذه ومالا، فلا تتبعه نفسك قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه».

فالاستشراف إلى الناس مذموم قادح فى التوحيد فلا ينبغى أن يأخذ المريد

(١) وفى نسخة: فإن كان عنده شيء.

عطاء على هذا الوجه روى أن أحمد بن حنبل رضى الله عنه خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ولم يكن فى الموضع من يحمله فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع إليه أحمد أجرته فلما دخل الدار بعدإذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشفه فرآه أيوب وكان يصوم الدهر فقال أحمد لأبنه صالح: ادفع إلى أيوب من الخبز فدفع له رغيفين فردهما فقال أحمد: ضعهما ثم صبرا قليلا ثم قال خذهما والحقه بهما فأخذهما فرجع صالح متعجبا فقال له أحمد أعجبت من رده وأخذه؟ قال: هذا رجل صالح لما رأى الخبز استشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف ردّه ثم أيس فرددناه إليه بعد الإياس فقبله.

وأما الاستشراف إلى الرزق مع قطع نظره عن الخلق فلا يضرّه ذلك لأنه خلق ضعيف ذو فاقة ورزقه معلوم لابد منه فاستشرافه إلى الرزق فى الحقيقة استشراف إلى الرازق ولا ينافى ذلك حقيقة العبودية ولكن إن كثر منها الاستشراف إلى الرزق وشغلت صاحبها عن دوام المحاضرة والمناجاة مع الحق فليصرفها عن ذلك صرفا جميلا ولينهج لها من التعلقّ والتوثق بالله سبيلا قال الشيخ أبو عبد العزيز المهدوى رضى الله تعالى عنه: «كنت فى بدايتى واقفا بين العشاءين أصلى وأنا فارغ بلا سبب حتى جاءتنى النفس فقالت لى: السلام عليكم قلت لها: وعليك السلام قالت العشاء!! فأدهتنى بداهية فتوقفت ثم ألهمنى الله تعالى أن قلت لها: أتدرين له موضعا؟ قالت: لا قلت لها: أتدرى أى شئ هو ومتى هو؟ قالت لا قلت لها: أنا رب أو عبد؟ ! قالت: عبد قلت لها: فالعبد يقدر على شئ؟ ما هذا الكفر والشرك اللذان أتيتنى بهما اهربى إلى خالقك فاطلبى منه العشاء لأنه خالقك والقادر على كل شئ فيعطيك ويجيب لك ما طلبت فتطمعى وتأكلى فمالك وإياى وما هذه الحيرة؟ قال: فذهبت إلى خالقها فجاء عشاء متمكن كثير فأكلت قال: وكذلك يُحتج عليها ومن هنا تثبت الأقدام وذكر ايضا مسألة عظيمة مفيدة تتضمن كيف يكون الفقير بالنسبة إلى الرزق وما تحتاج بنيته من الرفق وجعلها من قواعد الفقر والإرادة فرأينا ذكرها فى هذا الموضع من الواجب المتيقن ليتحقق فى العمل بها كل ما يقف عليها من مريد مبتدئ قال رضى الله عنه: «اعلم أن الفقير لا يخلو إما أن يكون جالسا أو ماشيا أما قاعدة الجالس فإن جلسته موضع اليته وهو مكانه وزمانه طرف سجادته لا يتعداها ولا يكون التفاته لوقت ولا إلى سبب معلوم لأنه لا يدرى الأوقات ما هى ولا يجدها ولا يدرى

متى هى ولا وقتها ويعلم أن جميع الأشياء تطلبه وتحتاج إليه لأنها خلقت من أجله وهو خليفة فيها وقد فرغ من جمعها فالالتفات والأمل لماذا؟ ! بل يكون هدفا للأقدار تجرى عليه ولا كسب له ولا سبب فى التحصيل.

ثم قال: وأما الماشى من الفقير الذى يكون فى سفر أو غيره فلا تجاوز همَّتُه خطوته مثاله: أن يكون ماشياً فخطر له التغيّر والألتفات إليه من بلد أو شخَص أو مطعم أو مشرب فيهلك ويظفر به العدو وتزل قدمه فإن تمادى فى التعلّق بشئ من هذه القواطع والشواغل ومشى إلى شئ منها وفقده ومات مات قاتل نفسه وذلك أنه يكون فى يوم صائف ووهج وقد أصابه العطش الشديد فيعرض له خيال ماء فيجئ العدو فيروج عليه أن أسرع تلحق ذلك الماء فتشرب منه فيزول عطشك فإن مشى راكنا إلى هذا الخاطر يجئ للموضع فيجده سرابا فهناك يظفر به ويقول له: الآن تموت فيقتله من ساعته فيموت قاتل نفسه إذ كان جاهلا بربه وآياته ولم يعرف دواءه من دائه ولا تعلّم العلم ولا سأل العلماء لبقائه مع نفسه قال: فحكمه إذا جاءه هذا الخاطر بالترويح من العدو فى سفره من السرعة إلى الماء والركون إلى الأغيار من منازل أو أشخاص أو غير ذلك أن يعرض على العدو ويقول إن اللّه تعالى: يمكن أن يتوافانى قبل لحوقه فبالضرورة يطيعه فى ذلك ويسلمه ويقول له أيضا قال النبى(ﷺ): «من مشى إلى طمع فاليمش رويدا» وقال «من تأنّى أصاب أو كاد ومن تعجل أخطأ أو كاد والعجلة من الشيطان»(١)

ومن هذا كثير فلا يشك شاك أنه كما يحتج للنفس والشيطان بهذه القواعد من العلم أنهم ينقطعون ولا حجة عندهم بعد الاستعانة باللّه تعالى والتعلق به ثم يقول له أيضا: أتنكر أن اللّه تعالى قادر على أن يطعمنى ويسقينى إن شاء اللّه تعالى ينبع لى عينا الساعة قبل وصولى لذلك الماء؟ فيقول له الشيطان بالضرورة: نعم فإذا كان هذا كذلك فاللّه سبحانه أعلم بمصالحى ومنافعى من كل مخلوق.

---

(١) روى الطبرانى عن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه أن رسول اللّه(ﷺ): قال: «من تأنى أصاب أو كاد، ومن عجل أخطأ أو كاد» وهو حديث صحيح.

فإذا حصل هذا العلم رجع يمشى متأنيا همته مع خطرته(١) ناظرا لما يرد عليه من ربّه فإذا وصل إلى ما خطر له أوّلا أو رآه من بعد ولم يجد ما تعلّق به خاطره أولا من صاحب أو طعام بقى على أصله لا تغير عنده ولا تردّد فظفر بالعدو وقتله كما فعل أيضا الشيطان بغيره الشئ أو ضده» هذا ما أردنا ذكره من كلام هذا الإمام وهوعندى من أنفس الكلام المقرب غاية المرام لما تضمنه من المعانى البديعة والأنفاس الرفيعة ولما فيه من تجريد التوحيد والآداب المرضية من العبيد فهو جدير بأن يكتب ويرسم ويكمل به الغرض الذى تقدم والله تعالى أعلم

وحكم الشرط الثانى: أن لا يأخذ إلا ما يوافق العلم وهذا شرط لازم للمتجرد أيضا.

قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه: «وينبغ لمن لا معلوم عنده من الأسباب أن يتورّع فى أخذها ويتخير المعطى لها كما يتخير أهل المكاسب فى الأكتساب لأن لله تعالى فى كل شئ حكما والقعود عن المكاسب لا يُسقط أحكامها والقاعد عن الطلب لا يسقط أحكام المطالب ولأن ترك العمل عمل يحتاج إلى علم ولم تكن سيرة القرآء(٢) الصادقين أن يأخذوا من كل أحد ولا فى كل وقت ولا يأخذوا كل ما يعطون مما يزيد كفايتهم إلا أن يكونوا ممن يخرجونه إلى غيرهم» اهـ.

فموافقة العلم التى ذكرها المؤلف على قسمين: موافقة العلم الظاهر وموافقة العلم الباطن أمَّا موافقة العلم الظاهر فبأن لا يأخذ إلاّ من يد بالغ عاقل تقى وقد جاء فى الحديث: «لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى» فلا تأخذ من يد ظالم ولا عامل بالربا ولا جاهل بما يحل ويحرم من وجوه المكاسب ولا تأخذ من يد صبى ولا عبد غير مأذون له ولا معتوه.

وأما موافقة العلم الباطن فبأن لا يأخذ إلاّ ما كان على وجه الرفق والمعونة فلا يأخذ إلا ما هو مفتقر إليه فى الحال ولا غنى له عنه من ضرورياته وحاجاته من غير إسراف ولا إقتار ولا بأس أن يأخذ ما يزيد على ذلك بأن كان فى خلقه سخاء وبذل وإيثار وتخلق بمحاسن الأخلاق لا يتوصل به إلى حظ عاجل من جاه أو رئاسة أو قبول عند الناس ولا يأخذ ما يعطاه على جهة الابتلاء والاختيار أمّا

(١) وفى نسخة: مع حظوته وفى أخرى مع خطوته.

(٢) وفى نسخة الفقراء، ولعلها أصح.

الابتلاء فأن يأتيه قبل وقته أو زائدا على حاجته فإن أخذه فليخرجه فى السر ليأمن بذلك من آفة الإظهار.

واما الاختبار فألاّ ياخذ شيئا قد نوى تركه لله تعالى من شهوه كان مبتلى بها قد ملكته واسرته ومنعته القيام بحقوق ربه فليوف بعهد اللّه تعالى وليدفع ذلك عن نفسه إن خاف انحلال عزمه وفساد نيته فإن لم يخف على ذلك فليإخذه وليخرجه إلى غيره وهذا أشد شئ على النفس وهو من أعظم درجات الزهد ولا يأخذ من منان ولا فخور، ولا مظهر لعطيته ولا يأخذ ممن يثقل على قلبه قبول عطيته فقد قيل لا تاكل إلا طعام من يرى لك الفضل عليه فى أكله ولا تأكل إلا طعام من يرى أنه وديعة عنده ولا تأكل إلا طعام زاهد لأنه يُسِّر بأكلك ولا تأكل إلا طعاما يراك صاحبه أفضل من الطعام.

وقد روى أنه اهدى إلى رسول اللّه(ﷺ) سمن واقط(١) وكبش فقبل السمن والأقط وردّ الكبش وكان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال:" لقد هممت ألا اقبل ألا من قرشى أو أنصارى أو ثقفى أو دوسى" قال أبو طالب المكى:" وفعل هذا جماعة من التابعين" جاءت إلى" فتح الموصلى" رضى اللّه تعالى عنه صرة فيها خمسون دينارا فقال: حدثنى عطاء أن النبى(ﷺ) قال:" من آتاه اللّه رزقا من غير مسأله فرده فإنما يرده على اللّه عز وجل" ثم فتح الصرّة وأخذ منها درهماً وردّ سائرها وكان الحسن يروى هذا الحديث عن رسول اللّه (ﷺ) وحدثنا عنه: أن رجلا أهدى إليه كيسا فيه ألوف ورزمة(٢) فيها من رقيق" خرسان" فرد ذلك فقال له بعض اصحابه فى ذلك فقال له: من جلس مثل مجلسى هذا وقبل من الناس شيئا مثل هذا لقى اللّه تعالى يوم القيامه وما له عند اللّه من خلاق"(٣).

وكان الحسن رضى اللّه تعالى عنه: يقبل من أصحابه وكان إبراهيم التيمى

---

(١) الأقط: «بفتح الهمزة وكسر القاف»، والأقط: بفتح الهمزة وسكون القاف»، والإقط: «بكسر الهمزة وسكون القاف» = الجبن.

(٢) الرزمة «بكسر الراء» من الثياب وغيرها: ما جمع وشد معا

(٣) الخلاق: النصيب من الخير.

يسأل أصحابه الدرهم والدرهمين ويعرض عليه غيرهم المئتين فلا يأخذ وكان بعض العبّاد إذا دفع إليه بعض أهل الدنيا الشئ قال: ضعه عندك وأعرض على قلبك حالى كيف أنا عندك بعد الأخذ أفضل أو دون ذلك وأصدقنى فإن قال أنت عندى الآن أفضل منك قبل ذلك أو قال له أنت عندى بعد الأخذ مثل ما كنت قبل ذلك قبل منه. وإن أخبره بنقصانه فى قلبه لم يقبل منه.

وكان بعضهم يرد على أكثر الناس صلاتهم فعوتب فى ذلك فقال: ما أردّ عليهم إلا اشفاقا عليهم ونصحا لهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

ويروى عن الأعمش أنه قال:" جاء شاب من العرب إلى إبراهيم التيمى بألفى درهم فقال: يا أبا عمران خذ هذه الدراهم والله ما هى من ذى سلطان ولا من كذا ولا من كذا فقال له إبراهيم: بارك الله لك وجزاك خيرا فلما ولىّ قلت: يا أبا عمران ما منعك أن تأخذها والله ما لامرأتك قميص!! فقال: صدقت يا أبا سليمان ولكن هذا شاب من العرب لم يحنكه السن ولم تحنكه الآداب فكرهت أن يجلس فى حيّه فيقول أعطيت إبراهيم ألفى درهم فيحبط الله اجره وتذهب دراهمه" .

وممن ذهب إلى هذا سفيان الثورى رضى الله عنه كان يشترط على بعض من كان يأخذ منه الا يذكره لإشفاقه عليه لا من أجله بل من ذهاب أجره لأنه قيل فى معنى قوله تعالى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾(١) قال: المن: أن يذكره والأذى: أن يظهره وقال الجنيد للرجل الخراسانى الذى جاءه بالمال وسأله أن يأكله فقال الجنيد: أنفقه على الفقراء. فقال الرجل أنا أعلم بالفقراء منك ولم أختر هذا!! فقال له الجنيد: بل وأنا أؤمل أن أعيش حتى آكل هذا !!فقال: إنى لم أقل لك أنفقه فى الخلّ والبقل وإنما قلت أنفقه فى الطيبات وألوان الحلاوات وكلما نفد أسرع كان أحبّ إلىّ فقال الجنيد: ومثلك لا يحلّ أن يردّ عليه فقبله فقال الرجل ما ببغداد أحد أعظم منّة علىّ منك فقال الجنيد: وما ببغداد أحد ينبغى أن يقبل منه شىء إلاّ من كان مثلك".

وكان السرّى السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهما الشىء فيردّه فقال له سرىّ: يا أحمد احذر آفة الردّ فإنها أشدّ من آفة الأخذ!

---

(١) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة.

فقال أحمد: أعد عليّ ما قلت فأعاده فقال له أحمد:" ما رددت عليك إلا وعندى قوت شهرٍ فاحبسه لى عندك فإذا كان بعد شهر فانفذه إلىّ" .

وعلى الجملة فلا ينبغى أن يأخذ المريد إلا من يد زاهد عارف فبذلك يسلم من الآفات ويكفى من جميع المئونات.

وقال ابو بكر الدقاق: منذ اربعين سنة اصحب هؤلاء فما رأيت رفقا لاصحابنا إلاّ من بعضهم لبعض او ممن يحبّهم ومن لم تصحبه التقوى والورع فى هذا الامر أكل الحرام الصرف!! وان اراد ان يسأل أمثال هؤلاء فليفعل قال ابو طالب المكى رضى الله تعالى عنه: كان بشر بن الحارث رضى الله تعالى عنه لا يقبل من الناس شيئا وكان بعضهم يقول: احب ان اعلم من اين ياكل؟ فقال له من يخبره امره: انا ادرى من اين ياكل ! كان له صديق عاقل يعنى نظيره فى العقل والدين ! لان بعضهم كان لا يقبل الا من النظراء ولا يقبل من الاتباع.

وهذا الصديق الذى كان يقوم بكفايته ولم يكن يظهر امره ولا يلتقى معه هو السرى بن مغلّس السقطى رضى الله عنه قال بشر رضى الله عنه:" ما سألت احد قط شيئامن الدنيا الا سريا السقطى لأنه قد صح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون قد اعنته على ما يحب" .

وكان سرى رضى الله عنه يوجه إلى أحمد بن حنبل فى حاجاته فيقبل منه وكان اذا ذكر عند أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه يقول: ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء انه ليعجبنى امره.

وان بلغت به الحاجات كلّ مبلغ واشرف على الضعف وتحققت الضرورة وسأل مولاه فلم يقدر له بشيء ووقته يضيق عن الكسب لشغله بحاله فعند ذلك يقرع باب السبب ويسال من دون هؤلاء ممن جهل حاله.

جاء فى الاثر:" من جاع فلم يسأل فمات دخل النار".

وقد سال الناس عند الحاجة والفاقة نبى الله تعالى موسى والخضر عليهما السلام لقوله تعالى:﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾(١)

وكان ابو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رضى الله تعالى عنهما يسأل من باب او بابين بين العشاءين ويكون ذلك معلومة عند حاجته من يوم او يومين وكان له مقام فى الزهد والتوكل قال ابو طالب:" ولم يعب هذا عليه عموم ولا خصوص".

(١) من الآية ٧٧ من سورة الكهف

ونقل عن ابى سعيد الخراز رضى اللّه تعالى عنه أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول: ثمَّ شيء لله. .

ونقل عن إبراهيم ابن أدهم رضى اللّه تعالى عنه أنه كان معتكفا بجانب البصرة مدة وكان يفطر فى كل ثلاثة ايام ليلة وليلة افطاره يطلب من الابواب.

وكان الثورى يسأل فى البوادى من الحجاز إلى صنعاء اليمن قال: كنت اذكر لهم حديثا فى الضيافة قال: فيخرجون إلى طعاما فاتناول حاجتى وأترك ما يبقى.

وليجتنب المريد الأكل بالدين وارفاق النسوان فان قيل: كيف يّرد ما يعطاه فى الوجوه التى حكمتم عليه بعدم الاخذ فيها وهو إنما يأخذ من يد ربّه كما تقدمّ؟ وهل الرادّ لذلك الا رادٌ على اللّه تعالى فكيف يستقيم ذلك؟.

فالجواب: ان القيام بحق الشريعة والطريقة لا بدّ منه والتوحيد لا ينافى ذلك وقد قيل: " الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه" وكل باطن من العلم يخالف ظاهرا من الحكم فهو مردود. ووجه صحة الردّ للعطاء عند مشاهدة التوحيد ظاهر اذ لا فرق فى ذلك بين يد المعطى ويد الاخذ فكما يشهد الآخذ يد اللّه تعالى فى العطاء عند يد المعطى فياخذ ما يعطاه عند موافقة العلم اتباعا لاذن اللّه تعالى وأمره يشهد يد اللّه تعالى فى المنع عند يد نفسه بالرد عند مخالفة العلم فلا يأخذه ولا يقبله اتباعا لنهى اللّه تعالى عن ذلك وعدم اذنه «فيه» كما فعله رسول اللّه(ﷺ) فى الكبش الذى اهدى اليه مع السمن والاقط وكما فعله فتح الموصلى والحسن البصرى رضى اللّه عنهما مع روايتهما للحديث الذى ذكر فيه ان ردّ الهدية ردّ على اللّه تعالى، وقد تقدم ذكره بلفظه فبهذا يندفع ذلك الخيال، واللّه تعالى الموفق لصالح الأعمال.

وانما اطلت الكلام فى هذه المسالة لان الحاجة ماسة إليها وليعلم من ذلك أنّ جميع تفاريعها ومسائلها داخل فى كلام المؤلف رحمه اللّه تعالى على حكم الايجاز والاختصار وكلامه فيها من بديع الكلام ومستحسنه.

ولشيخه ابى العباس المرسى رضى اللّه عنه فى معنى ما ذكره كلام بديع مختصر منتزع من كتاب اللّه عز وجل نقله عنه فى" لطائف المنن"قال رضى اللّه عنه:" للناس اسباب وسببنا نحن: الايمان والتقوى قال اللّه سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(١) وقد جوَّد المؤلف ـ رحمه اللّه ـ صياغته واحسن سياقته فى مقصد الإرشاد والهداية واللّه اعلم.

(١)الآية ٩٦ من سورة الأعراف

رُبَّمَا اسْتَحْيَا العَارِفُ أنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إلى مَوْلاَهُ - اكتفاءً بمشيئته - .. فَكَيفَ لا يَستَحى أن يَرفَعها لخَليقَته؟!

قد تقدم ان من الادب ترك الطلب والسؤال من الله تعالى اكتفاء بمشيئته، ورضا بسابق قسمته، وأن العارفين المحققين يستحيون من الله تعالى فى ذلك. فكيف لا يستحيون من مولاهم عزّ وجلّ عند سؤالهم للمخلوقين؟ وهل أدبهم فى ذلك واستحياؤهم من ربهم إلا واجب عليهم، فلا يسألون منهم شيئا ولا يعرفون اليهم حاجة، لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغنى الحميد، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله:(لا تتعد نيَّة همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال).

قال سهل بن عبد الله التسترى - رضى الله عنه:" ما من نفس ولا قلب إلا والله مطلع عليه فى ساعات الليل والنيل، فأيما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه ابليس".

وقال الاستاذ أبو على الدقاق - رضى الله عنه :" من علامات المعرفة ألا تسأل حوائجك قلت أو كثرت إلا من الله سبحانه وتعالى، مثل موسى عليه السلام اشتاق إلى الرؤية فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(١) واحتاج مرة إلى رغيف فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢).

وذكر الامام أبو القاسم القشيرى - رضى الله عنه - أن بعض الفقراء كان يأتى كل يوم ويقف بحذاء الكعبة بعدما يطوف ما شاء الله تعالى ويخرج من خيبه رقعة ينظرفيها، فلما كان بعد أيام فعل مثل ذلك، ثم تباعد، ومات. فجاء بعض من يرمقه ونظر فى الرقعة فإذا فيها: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(٣) قال: فكان الرجل أصابته الفاقة، فصبر، ولم يظهر حاله لمخلوق حتى مات.

وقال أبو بكر الجوهرى رحمه الله تعالى: كنت بـ«عسقلان» برج على أحرس، فمر بى رجل عليه جبة صوف متخرقة فقمت اليه مسلما، وعانقته وأجلسته، وجاريت معه فى فنون من العلم، وكان قدماه حافيتين، فقلت له: لم لا تسأل أصحابك فى نعل تقيك من الحفاء؟! فقال: يا أخى، لردّ أمسى بالحبال، وحبس عين الشمس بالعقال، ونقل ماء البحر بالغربال أهون على من موقف السؤال،

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٢٤ من سورة القصص.
(٣) من الآية رقم ٤٨ من سورة الطور.

وارتجائى من المخلوق النوال، ثم أخرجنى من باب المدينة، فانتهى بى إلى صخرة منقورة فإذا عليها مكتوب:" كل من كد يمينك وعرق جبينك، فإن ضعف يقينك فاسأل المولى يعينك".

قال فى(التنوير): وأعلم -رحمك الله ـ أن رفع الهمة لسالكى طريق الآخرة عن الخلق، وعدم التعرض لهم أزين لهم من الحلى للعروس، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس، ومن خلعت عليه خلعة الملك فحفظها وصانها فحرى بأن تدام له ولا تسلب عنه، والمدنس لخلع المواهب حرىّ ألا تترك له. فلا تدّنس، أيها الأخ، ايمانك بطمعك فى المخلوقين، ولا تجعلن اعتمادك إلا على رب العالمين، وكن، ايها الأخ إبراهيميا فقد قال أبوك ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾(١) وما سوى الله آفل، إما وجودا وإما إمكانا، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾(٢) فواجب على المؤمن أن يتبع ملة ابراهيم ومن ملته رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به فى المنجنيق(٣) تعرَّض له جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة؟ فقال له: أمّا إليك، فلا، وأما إلى الله تعالى فبلى. قال فاسأله، قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى، فأنظر كيف رفع همته عن الخلق؛ ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتال على السؤال من ربه بل رأى ربه أقرب اليه من جبريل عليه السلام، ومن سؤاله، فلذلك سلمه من(نمروذ) ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله، وخصّه بوجود إقباله.

ومن ملة ابراهيم معاداة كلّ ما شغل عن الله وصرف الهمة بالرد إلى الله لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(٤) والغنى ـ إن أردت الدلالة عليه- فهو: اليأس من الناس.

ولقد قال الشيخ أبو الحسن- رضى الله عنه: يئست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أياس من نفع غيرى لنفسى، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى. وهذا هو الكيمياء والأكسير الذى من حصل له يحصل له غنى لا فاقة بعده، وعزّا لا ذل معه، وإنفاقا لا نفاد له، وهو كيمياء أهل الفهم عن الله.

قال الشيخ أبو الحسن ـ رضى الله عنه-" صحبنى انسان وكان ثقيلا على،

---

(١) أية رقم ٧٦ من سورة الأنعام.
(٢) من أية رقم ٧٨ من سورة الحج.
(٣) والمنجنيق فى الأصل: آلة حربية ترمى بها الحجارة
(٤) الآية ٧٧ من سورة الشعراء

فبسطته يوما، فانبسط، فقلت له يا ولدى ما حاجتك ولم صحبتنى؟ فقال: يا سيدى، قيل لى إنك تحسن الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك ذلك. فقلت له: صدقت وصدق من حدثك، ولكنى إخالك لا تقبل !! فقال: بل أقبل فقلت له: نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين: أعداء وأحبَّاء، فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكونى بشوكة لم يردنى الله بها. فقطعت نظرى عنهم، ثم تعلّقت بالأحبّاء فوجدتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشىء لم يردنى الله به، فقطعت نظرى عنهم وتعلقت بالله تعالى، فقيل لى: إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمناه لك فى الأزل".

وقال مرة أخرى لما سئل عن الكيمياء:" أخرج الخلق من قلبك، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك".

قال: وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على ورده، وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربّه، وانحياشه اليه بقلبه، وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال، وتزكو الأحوال، قال الله تعالى:﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(١) فحسن الأعمال أنما هو بالفهم عن الله، والفهم ما ذكرناه من الاغتناء بالله، والاكتفاء به، والاعتماد عليه، ورفع الحوائج اليه، والدوام بين يديه، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى" "أنتهى ما يتعلق بغرضنا من كلام صاحب التنوير وهو من الكلام النفيس الخطير، وأنت - رحمك الله - إذا تأملته بعين بصيرتك، ناصحا لربك فى علانيتك وسريرتك، علمت منه أن ما تضمنه عظيم الموقع، وأنه مستحسن منا إيراده فى هذا الموضع، إذا هو منوط بالإيمان والتوحيد، محتاج إليه كل سالك ومريد فمن رعاه حق رعايته، وصرف إلى العمل بمقتضاه عنان عنايته، فقد تحقق بمحاسن الإيمان، وكان من ولاية الله تعالى بمكان، ومن أهمله وضيعه، وجهل قدره وموضعه، خيف عليه من الوقوع فى الشرك الخفّى والجلىّ، واستحق بذلك أن يطردعن باب مولاه العلى، فيقوى طمعه فى الخلق ويضيق عليه متسعات أبواب الرزق كما قال بعض العارفين المكاشفين قيل لى فى نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم.

(١) آية ٧١ من سورة الكهف.

لاتبدينً فاقة إلى غيرى فاضاعفهاعليك مكافأة لسوء ادبك وخروجك عن حدك فى عبوديتك انما ابتليتك بالفاقة لتفزع منها إلىّ وتتضرّع بها لدىّ وتتوكل فيها علىّ ابتليتك بالفاقة لتصير ذهبا خالصا فلا تزيفن بعد السبك وسَمْتكُ بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى وان وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتى وحسمت اسبابك من أسبابى طردا لك عن بابى فمن وكلته إلى ملك ومن وكلته اليه هلك إنتهى. ومنهم من يانف من قبول الرفق على ايدى الخلق وترتفع همته عن ذلك وإن لم يكن سؤال ولا طلب، يحكى عن حماد بن سلمة رحمه الله تعالى انه قال: كان فى جوارى امراة أرملة لها أيتام. . وكانت ليلة ذات مطر فسمعت صوتها تقول: يارفيق ارفق. فخطر ببالى أنها أصابتها فاقة، فصبرت حتى احتبس المطر، فحملت معى عشرة دنانير، ودققت عليها الباب فقالت: حمادبن سلمة؟ فقلت نعم، كيف الحال؟ فقالت: بخير وعافية، احتبس المطر ودفىء الصبيان، فقلت: خذى هذه الدنانير وأصلحى بها بعض شأنك،(قال): فصاحت بنية لها خماسية(١): أتريد ياحماد أن تكون بيننا وبين معبودنا(واسطة)؟ ثم قالت لأمها: لما رفعت صوتك باظهار السر(٢) علمت أن الله يؤدبنا باظهار الرفق على يد مخلوق" وذكر الشيخ عبد الرحمن السلمي، عن ابن عباس بن دهقان قال: كنت عند بشر بن الحارس، رضى الله تعالى عنه، وهو يتكلم فى الرضا والتسليم فاذا هو برجل من المتصوفة، فقال له: يا أبانصر، انقطعت عن اخذ البر من أيدى الخلق لاقامة الجاه، فان كنت متحققا بالزهد منصرفا عن الدنيا فخذ من أيديهم لينمحى جاهك عندهم، واخرج بما يعطونك إلى الفقراء، وكن بعقد التوكل تأخذ قوتك من الغيب، فاشتد ذلك على أصحاب بشر، فقال بشر: اسمع ايها الرجل الجواب،: الفقراء ثلاثة، فقير لا يسأل وإن اعطى لا يأخذ فذلك من الروحانين إذا سأل الله تعالى أعطاه وإن أقسم على الله أبر قسمه، وفقير لا يسأل وإن أعطى قبل، فذلك من أوسط القوم عقده التوكل والسكون إلى الله تعالى فهو ممن توضع له الموائد فى حظيرة القدس، وفقير اعتقد الصبر وموافقة(٣) الوقت، فاذا طرقته الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال، فكفارة سؤاله صدقة. فقال الرجل: رضيت، رضى الله عنك.

---

(١) لعلها من خمس خمسًا أى كان الخامس. يقال: خمس خمسًا القوم: أى كان خامسهم
(٢) وفى نسخة لما رفعت صوتك بإظهار الرفق جاد على يد مخلوق.
(٣) وفى نسخة: ومدافعة.

إذا التبسَ عَلَيكَ أمرَان.. فَانظُر أثقَلَهُمَا عَلى النَّفسِ فَاتَّبعْهُ، فإنَّهُ لا يَثقُلُ عَلَيهَا إلاَّ مَا كَان حَقًّا!

هذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس، لأنها مجبولة على الجهل والشره، فشأنها أبدا انما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق كما تقدم عند قوله:" حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ وحظها فى الطاعة باطن خفّى".

فاذا وجد المريد من نفسه ميلا وخفّة عند بعض الأعمال دون البعض اتهمها، وترك ما مالت اليه وخف عليها، وعمل بما استثقلته.

قال بعض العارفين:" منذ عشرين سنة ما سكن قلبى إلى نفسى ساعة".

وسكون القلب إلى النفس، هو: اتباعه للأخف عليها دون الأثقل، وهومعدود عندهم من نفاق القلب، ومن بقى عليه شىء من دواعى الهوى، وإن قل، لا يؤمن عليه من مثل هذا، فخفه العمل على النفس إنما تكون لأجل موافقة هواها، وهواها لا يميل إلا إلى الباطل، فاذا التبس عليك أمران، واجبان أو مندوبان، ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتقدّمه على الآخر، فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به.

وانما قلنا" باعتبار غالب الأنفس"لأن النفس المطمئنة لا توصف بالجهل ولا بالشره، فقد يخف العمل عليها ولا يدل ذلك على أنه باطل فليكن نظر العبد حينئذ إلى ما هو أكثر فائدة وأعظم مزية فليقدمّه على غيره.

وقد ذكر الشيخ" أبو طالب المكى"رضى اللّه عنه، حكاية عجيبة فى شره النفس وكونها لا تميل إلا إلى الباطل قال: حدثنى بعض اخوانى عن بعض هذه الطائفة قال: قدم علينا بعض الفقراء فاشترينا من جار لنا حملا مشويا ودعوناه اليه فى جماعة من اصحابنا فلما مدّ يده أخذ لقمة وجعلها فى فيه، ثم لفظها، ثم أعتزل وقال: كلوا أنتم !! فإنه قد عرض لى عارض منعنى من الأكل. فقلنا لا نأكل إن لم تأكل فقال: انتم أعلم، أما انا فغير آكل !! ثم أنصرف." قال"فكرهنا أن نأكل دونه، فقلنا لو دعونا الشوَّاء فسألناه عن أصل هذا الحمل فلعل له سببا مكروها، فدعوناه، فلما نزل به نسأله حتى أقر أنه كان ميتة، وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصا على ثمنه، فشواه، ووافق أنكم اشتريتموه!!" قال"فرميناه للكلاب." قال"ثم أنى لقيت الرجل بعد وقت فسألته، لأى معنى تركت أكله؟ وبأىِّ عرض؟ فقال اخبرك: ما شرهت نفسى إلى طعام منذ عشرين سنة للرياضة التى ريضتها بها،

فلما قدَّمتم إلى هذا شرهت نفسى اليه شرها ما عهدته قبل ذلك، فعلمت أن فى الطعام علة، فكرهت أكله لأجل شدة شره النفس اليه" . قال الشيخ أبو طالب: فانظر- رحمك الله ـ كيف اتفقا فى شره النفس على قصة واحدة، ثم اختلفا بالتوفيق والخذلان فعصم العالم بالورع والمحاسبة، وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وترك المراقبة، أعنى: البائع للحمل، وعصم الاخرون للتوفيق بحسن الادب، وهو: قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم، ثم تدارك البائع بعد وقوعه بصدق المشترى وحسن نيته"(١) انتهى.

وثمَّ ميزانٍ أخر" اصلح" وأكثر تحقيقا من الأول، وهو أن يقدِّر نزول الموت به، فأى عمل سرِّه أن يكون مشغولا به إذا ذاك فهو حق وما عداه باطل.

قال فى" لطائف المنن" :" والموت ميزان على الأفعال والأحوال كما هو ميزان فى دائرة الوقت(٢)، أما الرتب فكما تقدم يعنى: أنه علامة صحة مرتبة الولاية، وأما الأفعال والاحوال فاذا التبس عليك أمر لا تدرى هل يرضى الله فعله أو تركه، أو حالة أنت بها لا تدرى هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى؟ فأورد الموت على ما انت فيه من أفعال وأحوال، فكلٍّ حالة وعمل تثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهى حقّ، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهى باطلة، إذ الموت حق، والحق يهزم الباطل ويدفعه لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(٣)، ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(٤)، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(٥).

وما كنت فيه قائما بحق لم يهزمه الموت، إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق.

قال: وتجاذبت الكلام انا وبعض من يشتغل بالعلم، فى أنه ينبغى إخلاص النية فيه، وأنه لا يشتغل به إلا لله تعالى فقلت له: الذى يقرأ العلم لله، هو الذي إذا قلت له تموت غدا، لا يضع الكتاب من يده» انتهى. قلت: وهذا هو فصل الخطاب، ونهاية الصواب فإن العبد فى هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النفس واتباع الهوى، فهذا هو المطلوب من العبد، ولا يستتم له ذلك إلا أن يتحقق بما يقدره من حلول الموت وحصول الفوت، وهذا هو معنى" قصر الأمل" الذى هو أصل حسن العمل، وهو

---

(١) وفى نسخة وحسن تنبيهه
(٢) وفى نسخة: فى دائرة المرتب.
(٣) من الآية ١٨ من سورة الأنبياء
(٤) من الآية ٤٨ من سورة سبأ.
(٥) من الآية ٨١ من سورة الإسراء

ألا يقدر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا، وعند ذلك يخلص عمله من الآفات، ويتطهر من أنواع الرعونات، لأن توقع الموت فى كل نفس ولحظة يهدم عليه جميع ذلك، كما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى وكل عمل استرسل فيه صاحبه غافلا عن تقدير وقوع ذلك إن لم يكن متحققا به، لم يسلم مما ذكرناه.

فإذن بعيد من الأخلاص من يأخذ فى علم غير متعين عليه الأخذ فيه، لا يجتنى ثمرته إلا فى ثانى حال، ويكون فى الحالة الراهنة متمكنا من إيقاع طاعة تزيد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم فيفوز بثوابها، وينتجز له حصول التقرب بها؛ لأن فى ذلك قوت نفسه، ووفارة حظه، وآية ذلك: أنه قد يعرض له فى أخذه فيه غرض دنيوى يكون احتظاء نفسه به أكثر فيقدّمه على ما كان آخذا فيه، ويتشاغل به من غير مبالاة بما يفوته من ذلك. وإنما عبرنا بلفظ "الأخذ" ليدخل فيه تعلم المتعلم، وتعليم المعلم؛ فإن الأمر فيهما واحد وكل عمل لا إخلاص فيه ليس بالله ولا لله مردود على صاحبه. مضروب به وجهه.

وبهذا يتبّين لك غرور أكثر الخلق فى علومهم وأعمالهم إلا من رحم الله تعالى.

ولهذا نشاهد أكثر الناس عند نزول الموت بهم يندمون على ما أسلفوه من عمل، ويودّون أن لو أنسىء لهم فى الأجل، وهيهات هيهات. !! فنعوذ بالله من الغفلة فى زمان المهلة؛ فإنها مبدأ كل عمل فاسد ومنشأ وجود الغرة والجهالة لكل عالم وعابد، وما ذكرنا من معرفة اختلاف درجات الصالح ليقدم الفاضل فيها على المفضول لا يصلح إلا لمن أيده الله بنور اليقين، وجبله(١) على النصيحة فى الدين، وكان له حظ وافر من الخوف والحذر، وموافقة مولاه فى كل ورد وصدر.

ولا شك أن هذه المرتبة عزيزة المنال، متعذر إدراكها إلا من الآحاد من الرجال، وسبيل من لم يصل اليها ممن ذكرناه إذا كان منصفا أن يستعين بنظر من هو أصح منه حالا، واصوب مقالا وفَعالا(٢)، ويفوض جميع أموره اليه ويعتمد إشارته فى كل ما يشير به عليه، وعلامة إنصافه: وجود اتهامه لنفسه وعدم اعتماده على عقله وحدسه، ومن لم يكن منصفا فالكلام معه هذيان فاسد، وضرب فى حديد بارد، وسيأتى مزيد تنبيه على غرور الآخذين فى العلم فى موضع أليق من هذا.

---

(١) جبله: خلقه وفطره

(٢) الفعال ـ بفتح الفاء ـ الفعل الحسن

منْ عَلامَات اتِّبَاع الهَوَى: المُسَارَعَةُ إلى نَوَافِلِ الخَيْرَات، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ القيَامِ بحُقُوق الوَاجبَات؛

هذه من الصور التى يتبين بها خِفَّةُ الباطل وثقل الحق على النفس وما ذكره هو حال أكثر الناس، فترى الواحد منهم إذا عقد التوبة لا همَّة له إلا فى نوافل الصيام والقيام، وتكرار المشى إلى بيت الله الحرام، وما أشبه ذلك من النوافل. وهو مع ذلك غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات، ولا متحمل(١) لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات، وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التى خدعتهم، ولم يحفلوا بمجاهدة أهوائهم التى استرقتهم وملكتهم، لو أخذوا فى ذلك لكان لهم فيه أعظم شغل ولم يجدوا فسحة لشىء من التطوعات والنقل قال بعض العلماء:" من كانت الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع".

وقال محمد بن ابى الورد، رضى الله عنه،:" هلاك الناس فى حرفتين:

اشتغال بنافلة وتضيع فريضة، وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه، وإنما حرموا الوصول بتضيعهم الأصول".

وقال الخواص، رضى الله عنه" انقطع الخلق عن الله بخصلتين؛

إحداهما: أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض، والثانية: أنهم عملوا أعمالا بالظاهر، ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها، وأبى الله أن يقبل من عامل عملا إلاّ بالصدق وإصابة الحق".

قال الشيخ أبو طالب المكى، رضى الله عنه:" فأفضل شىء للعبد معرفته بنفسه، ووقوفه على حدّه، وإحكامه لحالته التى أقيم فيها، وابتداؤه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه لما نهى عنه بعلم يرشده فى جميع ذلك، وَوَرَع يحجزه عن الهوى فى ذلك، ولا يشتغل بطلب نفل حتى يفرغ من فرض؛ لأن النفل لا يصح إلا بعد حوز السلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حوز رأس المال، فمتى تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد، والى الاغترار أقرب"ا هـ

(١) فى أغلب النسخ: متحلل

قَـيَّدَ الطَّاعَـات بأنواع الأوقَـات، كَيْ لا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وجُـودُ التَّـسْـويفِ. وَوَسَّعَ الوَقْتَ عَلَيْكَ، كَي تَبْـقَى لَكَ حِـصَّـةُ الاخْتيَار.

أنعم الله عليك فيما أمرك به من الطاعات المؤقتة بالأوقات بنعمتين عظمتين: إحداهما: تقييدها لك بأعيان الأوقات لتوقعها فيها فتفوز بثوابها ولو لم يفعل هذا لسوفّت بها ولم تعمل بها حتى تفوت فيفوتك ثوابها.

والنعمه الثانيه: توسيع أوقاتك عليك ليبقى لك نصيب من الاختيار حتى تأتى با لطاعات فى حال سكون وتمهّل من غير حرج ولا ضيق ولله الحمد على نعمه.

عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ العبَادِ إلى مُعَامَلَته، فأوْجَبَ عَلَيهِمُ وُجُودَ طاعـته.. فَسَاقَـهُمْ إليه بِسلاَسِلِ الإيجَاب: «عـجبَ رَبُّكَ من قومٍ يُساقُونَ إلى الجَنَّة بالسَّلاَسلِ!».

لما علم الله تعالى قله نهوض العباد إلى معاملته الواجبة له عليهم من: إقامة العبوديه لشاهدة الربوبية فى حال طواعيه منهم اذ فى ذلك قرّة اعينهم وغاية نعيمهم اوجب عليهم وجود طاعته على حال كراهية منهم لأجل ما خوفهم به ان لم يفعلوا فساقهم بسلاسل تخويفه وتحذيره إليه(١). واستدرجهم بذلك إلى ما فيه نعيمهم(٢) مما لا علم لهم به وفعل بهم ما يفعل با لصبى الا تراه كيف يؤدب ويضرب(٣) على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته ويلزم امورا شاقة عليه فيفعلها وهو كاره لذلك والغرض إنما هو حصوله على منافعه التى هو جاهل بها فاذا كبر وعقل عرف ذلك عيانا.

وقد عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل كما فعل بأسارى الكفار حين يراد منهم الدخول فى الاسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل فى رقابهم وهذا حديث يروى عن رسول الله(ﷺ) هكذا: "عجب الله من اقوام يقادون إلى الجنه بالسلاسل" (٤) قلت: وتعبير المؤلف رحمه الله بالسلاسل والسوق بها

(١) وفى نسخة: فساقهم بسلاسل إيجابه إليه، فى أخرى فساقهم بسلاسل إيجابه وتحذيره إليه
(٢) وفى نسخة: إلى ما فيه تعب لهم.
(٣) وفى نسخة: ويصرف عن استرساله.
(٤) حديث صحيح رواه البخارى والإمام أحمد وغيرهما رضى الله عنهم.

واستعماله ذلك فى التكاليف الواجبه التى ألزم العباد القيام بها من بديع الاستعارات كما قال الشاعر وهو ابو خراش الهذلى:

وليس كعهد الدار يا ام مالك   ولكن احاطت بالرقاب السلاسل

وكذلك تمثيله بالحديث المذكور فيه ذلك والاشارة به إلى مقصوده فى غايه الحسن.

قال بعض العلماء: يجوز ان يكون معنى التعجب المنسوب إلى اللّه تعالى فيه اظهار عجب هذا الامر لخلقه لأنه بديع الشأن وهو ان الجنة التى اخبر اللّه تعالى بما فيها من النعيم المقيم والعيش الدائم والخلود فيها الذى من حكم من سمع به من ذوى العقول ان يسارع اليها ويبذل مجهوده فى الوصول اليها ويتحمل المكاره والمشقات لينالها هؤلاء يمتنعون عنها ويرغبون عنها ويزهدون فيها حتى يقادوا اليها بالسلاسل كما يقاد إلى المكروه العظيم الذى تنفر منه الطباع وتالم منه الابدان وتكرهه النفوس وقد قرا جماعة من القراء" بل عجبت ويسخرون" بضم التاء وفى حديث رسول اللّه(ﷺ):" لقد عجب اللّه من فلان وفلانه فى قصة الانصارى الذى قال لامراته:" اكرمى ضيف رسول اللّه(ﷺ)(١) وهو حديث صحيح مشهور.

فالعجب منسوب إلى اللّه تعالى وقد ورد فى الكتاب والسنة فهو اذن من الصفات السمعية.

أَوْجَبَ عليكَ وُجُودَ خِدْمَتِه، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ فِي الحقيقَةِ إلا دُخُولَ جَنَّتِه.

هذه عبارة حسنة موافقة لمعنى ما تقدمّ والمقصود من هذا كله الاعلام بان اللّه تعالى غنى عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم وان التكاليف كلها إنما

(١) الحديث: هو عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: جاء رجل إلى النبى (ﷺ) فقال: إنى مجهول، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء! فقال: من يضيف هذه الليلة؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يارسول اللّه فانطلق به إلى رحلة فقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول اللّه(ﷺ). وفى رواية: قال لامرأته هل عندك شىء؟ قالت: لا إلا قوت صبيانى قال: فعلليهم بشىء، وإذا أرادوا العشاء فنوميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنا نأكل فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين، فلما أصبح غدا على النبى(ﷺ) فقال: لقد «عجب اللّه من صنعيكما بضيفكما الليلة» متفق عليه.

أوجبها عليهم لما يرجع اليهم من مصالحهم لا غير.

قلت: وما ذكره المؤلف رحمه الله هو حال عامة الناس الذين من شانهم التانى(١) وعدم الانقياد للاوامر والنواهى ولذلك احتاج إلى التخويف والتحذير والموالاة للحض والمبالغة فى النكير.

واما الخاصة منهم فلم يحتاجوا إلى شىء من ذلك لأن الله تعالى شرح صدورهم ونور بصائرهم وكتب فى قلوبهم الايمان وحبَّب اليهم الطاعة وبغض إليهم العصيان فلم يقتصروا على ما اقتصر عليه المذكورون من فعل الواجبات واجتناب المحظورات فقط بل اضافوا إلى ذلك المبادرة إلى أعمال الطاعات والمسارعة إلى نوافل الخيرات وبالجملة صارت أعمالهم كلها قربات وذلك لتمام حريتهم(٢) وصحة عبوديتهم" نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" .

قال فى" التنوير":" انما جعل الحق، سبحانه الإيجاب على العباد علما منه بما هم عليه من وجود الضعف وبما نفوسهم متصفة به من وجود الكسل فاوجب عليهم ما اوجبه لأنه لو خيرهم فيما أوجب عليهم لم يكونوا به قائمين الا قليلا" وقليل ما هم" فاوجب عليهم وجود طاعته.

وفى التحقيق ما اوجب عليهم الا دخول جنته فساقهم إلى الجنّة بسلاسل الايجاب: عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل(٣).

قال: واعلم رحمك الله انا تلمحنا الواجبات فرأينا الحق سبحانه جعل فى كل ما أوجبه تطّوعا من جنسه فى أىّ الأنواع كان ليكون ذلك التطوّع من ذلك الجنس جابرا لما عساه أن يقع من الخلل فى قيام العبد بالواجبات وكذلك جاء فى الحديث:" إنه ينظر فى مفروض صلاة العبد فإن نقص منها شىء كمل من

---

(١) وفى نسخة: التأبى.

(٢) وفى نسخة: خدمتهم

(٣) روى أحمد فى مسنده والبخارى وأبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله(ﷺ) : «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل».

النوافل" . فافهم رحمك الله هذا ولا تكن مقتصرا على ما فرض الله عليك بل لتكن فيك ناهضة حبّ توجب إكبابك على معاملو الله تعالى فيما لم يوجبه عليك ولو كان العباد لا يجدون فى موازينهم إلا فعل(١) الواجبات وثواب ترك المحرمات لفاتهم من الخير والمنة ما لا يحصره حاصر ولا يحرزه حارز(٢) فسبحان الله الفاتح للعباد باب المعاملة والمهيء لهم أسباب المواصلة.

قال: واعلم أن الحق سبحانه علم أن عباده ضعفاء وأقوياء فأوجب الواجبات وبين المحرمات فالضعفاء اقتصروا على القيام بما أوجب والترك لما حرم وليس فى قلوبهم من سلطان الحب ووجود الشغف ما يحملهم على المعاملة من غير ايجاب فمثلهم مثل العبد يعلم السيد منه أنه إن لم يخارجه(٣) لم يهد إليه شيئا فلذلك وقتّ سبحانه الأوراد ووظف وظائف العبودية وعرف ذلك بالطالع والغارب(٤) والزوال وصيرورة ظل كل شيء مثله فى الصلاة وبالحول فى الأموال النامية العين والماشية وبوقت حصول المنفعة فى الزرع ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(٥) وبعشر ذى الحجة فى الحج وبشهر رمضان فى الصيام فوظف الوظائف ووقتها وجعل للنفوس فيها فسحة الحظوظ والسعي في الأسباب.

وأهل الله هم أهل الفهم عنه جعلوا الأوقات كلها وقتا واحدا والعمر كله نهجا إلى الله تعالى قاصدا فعلموا أن الوقت كله له فلم يجعلوا شيئا منه لغيره ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله تعالى عنه" عليك بورد واحد وهو: اسقاط الهوى ومحبة المولى أبت المحبة أن تستعمل محبا إلا فيما يوافق محبوبه"وعلموا أن الأنفاس أمانات الحق عندهم وودائعه لديهم فعلموا أنهم مطالبون برعايتها فوجهوا هممهم لذلك وكما أن له الربوبية الدائمة فكذلك حقوق ربوبيته عليك «دائمة فربوبيته غير مؤقته بالأوقات فحقوق ربوبيته عليك»(٦) ينبغى أن تكون أيضا كذلك، لذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه" إن لكل وقت سهما يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية"أهـ.

---

(١) وفى نسخة: إلا فعال

(٢) وفى نسخة: ولا يحزره حازر.

(٣) تخارج الرجلان اقتسما فأخذ بعضهم الدار مثلا وبعضهم الأرض.

(٤) وفى نسخة: بالمطالع والمغارب.

(٥) آية ١٤١ من سورة الأنعام

(٦) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ

مَن استَغْرَبَ أنْ يُنقذَه اللّهُ منْ شَهْوَته، وأنْ يُخْرِجَهُ منْ وُجُود غَفلَته، فَقَد استَعْجَزَ القُدْرَةَ الإلهيَّةَ.. «وكان الله على كل شىء مقتدرا»

مَن استرقته الشهوة واستولت عليه الغفلة فلا ينبغى له أن يستغرب أن ينقذه اللّه من أسر شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته لما يشاهد من استحكام ذلك فيه فإن فى ذلك نسبة العجز إلى القدرة الالهية واللّه تعالى متصف بالاقتدار على كل شىء وهذا من الأشياء.

وليعلم العبد أن قلوب العباد ونواصيهم بيده فلا يقنط ولا ييأس وليقصد باب مولاه بالذلة والانكسار والافتقار فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغربه وما ذلك على اللّه بعزيز.

وليعتبر هذاالمعنى بالحكايات التى تروى عن الصالحين الذين تقدمت لهم فى بدايتهم الزلات ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات فتداركهم اللّه بلطفه واستنقذهم بجوده وعطفه فأصلح أعمالهم وصفّى أحوالهم وأبدل سيئاتهم حسنات ورفعهم من أسفل سافلين إلى أعلى الدرجات كل ذلك فى أقرب زمان وأقصر مدة وأوان.

والحكايات فى هذا المعنى عن الشيوخ مثل سيدى"الفضيل بن عياض"و"عبد اللّه بن المبارك"و"أبى عقال بن علوان"وغيرهم رضى اللّه تعالى عنهم معروفة مشهورة.

ومن أغرب ما رأيته فى هذا المعنى ما رواه عبد الصمد بن مغفل عن عمه وهب بن منبه رضى اللّه عنهما أن رجلا قتل نفسا فجاء إلى سائح من سائحى بنى إسرائيل فسأله عن ذلك قال: فرفع له السائح من الأرض عرجونا أبيض قديما حائلا ثم قال له: إذا اخضر هذا العرجون قبلت توبتك وأراد السائح بذلك أن يؤيسه من التوبة لعظم ذنبه.

فأخذ الرجل العرجون وهو يطمع فى التوبة ويعزم فتاب وجعل يعبد اللّه زمانا ويدعوا حتى اخضر ذلك العرجون بإذن اللّه تعالى وقدرته.

وأغرب من هذا وأعجب ما خرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه أن النبى(ﷺ) قال:" كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسئل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: قتلت تسعة وتسعين نفسا فهل لى من توبة؟ فقال: لا فقتله فكمل به المائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟

فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ إنطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله عز وجل فأعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا اتى نصف الطريق آتاه" ملك" الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي،

فجعلوه حكما بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فالى ايتهما كان ادنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة".

قال قتادة قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره.

وقال عيسى بن دينار:" كان يقال: ما وفق الله عبدا لعمل إلا وهو يريد أن يقبله منه ولا وفق الله عبدا لنزوع عن ذنب إلا وهو يريد أن يغفر له" .

وقد ذكر القاضي يونس بن عبد الله المعروف بـ"بن الصفار" رحمه الله في كتاب"التيسير لصالح العمل" : أنه اخبره ثقة من أهل العلم قال: كان رجل من أهل الأدب له اصحاب تجمعه بهم مجالس مكروهة فدعوه ذات يوم فلم يجبهم فقالوا له: ما يمنعك من إجابتنا؟ فقال دخلت البارحة في الاربعين وانا استحي من سني ثم لزم الخير والعبادة.

قال: وروى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال:" وجبت حجة الله على ابن الاربعين" .

وذكر فيه ايضا عن مغيث بن سمي قال: كان رجل من بني اسرائيل يعمل بالخطايا فبينما هو يسير ذات يوم ذكر ما سلف من عمله فقال: اللهم غفرانك فمات على ذلك الحال فغفر له.

وذكر فيه ايضا عن رجل من العلماء أنه رأى في منامه شيخا وجماعة من الشعراء قد أحدقوا به يسألونه قال: فقلت له: أيا الشيخ اخبرني بأحكم بيت قالته العرب فأنشدني:

صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه ... فلما علاه قال للباطل ابعد

قال: فوالله لقد نفعني الله عز وجل بهذا البيت ما ذكرته بعد ذلك عند شهوة أو خطيئة إلا ارتدعت عنها، وأرجوا أن لا يفارقني الانتفاع به ما بقيت إن شاء الله تعالى.

وفي الكتاب المذكور حكايات مستحسنات في هذا المعنى فطالع ذلك فيه والله المستعان لا رب غيره.

رُبَّمَا وَرَدَت الظُّلَمُ عَلَيْكَ، ليُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ به علَيْكَ!

الظلم: اضداد الأنوار فما من نور إلا وفى مقابلته ظلمة وكل ظلمة على قدر نورها والشىء يعرف بضده كما قيل:

وبضدها تتبين الاشياء

فما أورده عليك من ظلمات الحجبة والغيبة فى ليالى الهجر والفرقة فانما ذلك ليعرفك قدر ما من عليك من انوار التجلى والحضور فى نهاية القربة والوصلة فجميع ذلك نعم سابغة عليك من غير علم منك بذلك.

مَنْ لم يَعْرفْ قَدْرَ النِّعَم بوجْدَانهَا ، عَرَفَها بوُجُود فقْدَانهَا .

أكثر الناس لا يعرفون قدر النعم إلا إذا فقدوها وذلك لأجل غلبة الغفلة عليهم حين وجودها عندهم.

قال سرى السقطى رضى اللّه عنه" من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم" .

وقال الفضيل رضى اللّه عنه" عليك بمداومة الشكر على النعم فقَّل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم" .

وقال بعض البلغاء" إذا كانت النعمة وسيمة فأجعل الشكر لها تميمة"

وقال أخر" شكر النعمة عصمة من حول النقمة وفى معنى هذا قيل:

"انما يعرف قدر الماء من بلى بالعطش فى البادية لا من كان على شاطىء الانهار الجارية"وقيل ايضا" الولد العاق المصر على تأبيه انما يعرف قدر الاباء يوم وفاة ابيه" وقيل" نعم اللّه مجهولة، وتعرف إذا فقدت" ومن دعاء بعض الصالحين اللهم عرفنا نعمتك بدوامها ولا تعرفها لنا بزوالها".

قلت: ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد وتضيع الشكر عليها من العبد امرنا رسول اللّه(ﷺ) بالنظر إلى من هو أسفل منا لئلا نرى نعمة اللّه علينا والسعيد من وعظ بغيره قال رسول اللّه(ﷺ) فيما روى عنه أبو هريرة رضى اللّه عنه" انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة اللّه عليكم"(١).

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد والإمام مسلم وغيرهما عن أبى هريرة.

وروى عنه ايضا(ﷺ) انه قال إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو اسفل منه ممن فضل عليه"(١)

قال الشيخ أبو حامد رضى الله عنه"كان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى فيشاهدهم ويشاهد عللهم ومحنهم ويحضر حبس السلطان ويشاهد أرباب الجنايات ومحنهم فى التعرض لأقامة العقوبات ويحضر المقابر فيشاهد اصحاب العزاء وتأسفهم على ما لا ينفع مع إشتغال الموتى بما هم فيه وكان يعود إلى بيته ويشتغل بالشكر طول النهار على نعم الله عليه فى تخليصه من تلك البلايا"ا هـ.

وكان الربيع بن خيثم رضى الله عنه حفر فى داره قبرا وكان يضع فى عنقه غلا وينام فى لحده ثم يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾(٢) ثم يقوم ويقول يا ربيع قد أعطيت ما سألت فأعمل قبل ان تسال الرجوع فلا ترد. هذا كله موافق لأمر رسول الله(ﷺ) فى الحديثين المذكورين ولا طريق للعبد الغافل إلى تعرف النعم الموجودة لديه ابلغ منه فإذا عرف نعم الله عليه اشتغل بالشكر عليها من قبل أن تزال عنه فلا يكون له سبيل اليها وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله" من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها"

لا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ القِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ.

إذا ترادفت نعم الله عليك فلا ينبغى أن تدهشك عن القيام بشكرها من حيث ترى عجز نفسك عن توفية ذلك وألا قبل لك به فتتركه، فإن الله تعالى رفع قدرك وأعلى أمرك وجعل القليل منك كثيرا وأشهدك من حسن توليه لك، ونسبة افعالك اليه ما يؤذن بعظم سيادتك ورفعة قدرك فلم تبخس نفسك حقها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر والقيام بمقتضى الأمر، لا على وجه الأدب والإتيان(٣) من الشكر بما وجب كأن الأمر فى ذلك اليها.

---

(١) حديث صحيح متفق عليه، أخرجاه عن أبى هريرة.

(٢) الآية ٩٩، ١٠٠ من سورة المؤمنون.

(٣) وفى نسخة بمقتضى الأمر على وجه الأدب والتأدب من الشكر.. الخ

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه" ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها والنعمة التى الهم الله بها الحمد أفضل من الأولى، لأن بالشكر يستوجب المزيد"وفى اخبار داود عليه السلام:" إلهى، ابن ادم، ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة وفوقها نعمة فمن أين يكافئك؟! فأوحى الله تعالى اليه: يا داود إنى اعطى الكثير وأرضى باليسير، وان شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمنى"

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، إليه إنى بأرض قد كثرت فيها النعم حتى أشفقت علىّ(١) من قبل ضعف الشكر" فكتب اليه عمر: إنى كنت اراك أنك أعلم بالله مما أنت إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل، قال الله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾(٣) الآيات وأى نعمة أعظم من دخول الجنة؟

تَمَكُّنُ حَلاَوة الهَوَى منَ القَلْب هُوَ الدَّاءُ العُضَالُ!(٤)

القلبُ محل الايمان والمعرفة واليقين، وهذه هى الأدوية لأمراضه التى أوجبها وجود الهوى والشهوة؛ فإذا تمكن الداء من القلب لم يبق للدواء محل، فلذلك أعضل أمره وتعذر برؤه.

لاَ يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ منَ القَلْب إلاَّ خَوفٌ مُزْعجٌ أَوْ شَوقٌ مُقْلقٌ.

الشهوة المتمكنة من القلب لا يخرجها إلا وارد قوى قاهر غلاب يرد عليه وذلك: إما خوف مزعج أو شوق مقلق وما عدا هذين الأمرين لا استقلال له بذلك.

---

(١) وفى نسخة «على من قبلى».
(٢) الآية ١٥ من سورة النمل.
(٣) الآية ٧٣: ٧٤ من سورة الزمر.
(٤) الداء العضال هو الذى لا تزيده المداواة إلا تمكنا وقوة.

كما لاَ يُحبُّ العَمَلَ المُشْتَرك، كَذلكَ.. لا يُحبُّ القَلْبَ المُشْتَرَك العَمَلُ المُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُه، والقَلْبُ المُشترَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْه.

العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع والقلب المشترك هو الذى فيه محبة غير الله تعالى والسكون اليه والاعتماد عليه، فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه إلى الناس والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه إلى نفسه(١)، فالعمل المشترك لا يحبه، ولا يقبله، ولا يثيب عليه؛ لفقد الاخلاص منه والقلب المشترك لا يحبه ولا يقبل عليه ولا يرضى عنه، لعدم وجود الصدق فيه، فمن صحَّح أعماله بالاخلاص وأحواله بالصدق كان محبوبا لله تعالى، مثابا، مرضيا عنه، عنه؛ وإلا فلا(٢). وقال رضى الله عنه:

أنْوارٌ أُذنَ لَهَا فى الوُصُول.. وَأنْوَارٌ أُذنَ لَهَا. فى الدُّخُول!.

الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب تنقسم إلى قسمين: أنوار أذن لها فى الوصول إلى ظاهر القلب فقط.

وأنوار أذن لها فى الدخول إلى صميم القلب وسويدائه.

فالأنوار الواصلة إلى ظاهر القلب يشاهد العبد معها نفسه وربَّه، ودنياه وآخرته فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربه، وطورا يسعى فى العمل لآخرته وطورا يعمل فى أمور دنياه.

والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها إلا وجود الله عز وجل، فذلك لا يحب سواه ولا يعبد إلا اياه.

قال بعض العارفين:" إذا كان الايمان فى ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة والدنيا، وكان مرَّة مع الله تعالى ومرة مع نفسه، فإذا دخل الايمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه".

---

(١) وفى نسخة «الى الأغيار»

(٢) يقول الله سبحانه: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾، وعن الضحاك بن قيس فيما أخرجه البزار والبيهقى قال رسول الله(ﷺ): «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولا تقولوا هذه لله وللرحم، فإنها للرحم وليس لله منها شىء، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شىء».

وفى لفظ آخر:" إذا كان الايمان فى ظاهر القلب يعنى: أعلى الفؤاد، كان المؤمن يحب الله تعالى حبا متوسطا فإذا دخل الايمان فى باطن القلب وكان فى سويدائه أحبه الحب البالغ".

قال الشيخ أبو طالب المكى:" ومحبة العبد ذلك: أن ينظر فإن كان يؤثر الله تعالى على جميع هواه ويغلب محبته على هواه حتى تصير محبةُ الله هى محبة العبد من كل شىء فهو محب لله تعالى حقا، كما أنه مؤمن به حقا، وإن رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك.

وقال بعضُ العلماء:" ظاهر القلب محل الإسلام وباطنه مكان الايمان فمن هاهنا يتفاوت المحبون فى المحبة، لفضل الايمان على الإسلام وفضل الباطن على الظاهر.

رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأَنْوَارُ فَوَجَدَت القَلْبَ مَحْشُواً بصُورِ الآثَار.. فَارْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ! فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيَارِ، يَمْلؤهُ بالمَعَارِف وَالأَسْرَار.

الأنوار الإلهيةَ قد ترد على القلب فلا تجد فيه موضعا لاستقرارها، لما غلب عليه من رعونات البشرية واستحكم فيه من صور الآثار الكونية، فترتحل من حيث تنزل لأنها مقدسة مطهرة، فإذا أردت حلول الأنوار فيه وتجلّى المعارف والأسرار له ففرغه من الأغيار، وامح عنه صور الآثار، قال تعالى: ﴿ والَّذِّينَ جَاهَدوا فينا لنهدِّينَّهم سبِلَنَا وَإنَّ الله لَمَع المحسنين﴾(١).

وقد تقدم من كلام المؤلف، رحمه الله تعالى:" كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته".

فلا تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ النَّوَالَ، ولَكِنِ اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وَجُودَ الإقْبَال.

تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله:" لا تطالب ربك بتأخير مطلبك، ولكن

(١) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

طالب نفسك بتأخير أدبك"، والعبارتان متفقتان معنى وإن اختلفتا لفظا.

حُقُوقٌ فى الأوقَات يُمْكنُ قَضَاؤها، وَحُقُوقُ الأوقات لا يُمكنُ قضاؤُها، إذْ ما منْ وَقْت يَردُ إلا ولله عليكَ فيه حَقٌّ جديدٌ وأمْرٌ أكيدٌ.. فَكيفَ تَقْضى فيه حَقَّ غَيْره، وَأنْتَ لَمْ تَقْضى حَقَّ الله فيه؟!

الحقوق الكائنة فى الاوقات هى وظائف العبادات الظاهرة، من: صلاة وصيام وغيرهما؛ فمن فاته شىء منها فى وقته المعين أمكنه قضاؤه فى وقت آخر، إذ قد جعل له فى ذلك مجال رحب فيستدرك فيه ما يفوته من تلك الحقوق.

والحقوق المضافة إلى الاوقات هى المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه المتلونة عليه، ووقت كل عبد ما هو عليه من ذلك فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك عند وروده عليه؛ إذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به أو وارد يرد عليه حق جديد وأمر أكيد، ولا يسعه إلا أن يوفيه إذا ذاك، فإن فاته لم يجد مجالا لقضائه، ولم يمكنه ذلك.

فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التى لا يمكنه قضاؤها إن فاتت.

قال سيدى أبو العباس مرسى. رضى الله عنه:" أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية، والطاعة، والمعصية ولله تعالى فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم. ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله.

ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر والرضا رضا النفس عن الله، والصبر مشتق من الإصبار وهو نصب الغرض(١) للسهام وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر. والصبر ثبات القلب

---

(١) الغرض: الهدف.

بين يدى الرب، وفى الحديث عن رسـول الله(ﷺ): " من أعطى فـشكر وابُتلى فصبر وظلم فغفر وظلِم فـأستغفر، ثم سكت رسول الله(ﷺ) فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟ فقـال: " أولئك لهم الأمن وهم مـهـتـدون"أى لهم الأمن فى الاخـرة وهم المهتدون فى الدنيا.

مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ لا عِوَضَ لَه، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لاَ قِيْمَةَ لَه!

عمر العبد ميدان(١) لأعماله الصالحة المقربة له من الله تعالى والموجبة له جزيل الثواب فى الدار الآخرة.

وهذه هى السعادة التى لها يكدح العبد ويسعى من أجلهان وليس لها منها إلا ما سعى كما قال الله تعالى:﴿وأن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾(٢) فكلٌ جزء يفوته من العمر خاليا من عمل صالح يفوته من السعادة بقدره، ولا عوض له منه قال الجنيد رضى الله عنه: «الوقت اذا فات لا يستدرك وليس شىء أعزَّ من الوقت"وكل جزء يحصل له من العمرغير خال من ذلك يتوصل به إلى ملك كبير لا يفنى ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك، لأنه فى غاية الشرف والنفاسة ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضى الله عنهم لأنفسهم ولحظاتهم وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم فى البطالة والتقصير ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير».

(١) وفي نسخة: ميزان
(٢) الآية ٣٩ من سورة النجم

وقد قال امير المؤمنين عليّ بن ابى طالب رضى الله عنه: «بقية عمر المرء مالها ثمن يُدرك فيها ما فات ويحيى ما أمات».

وقد نظم بعض الشعراء فى المعنى، رحمه الله وأرضاه فقال:

بقية العمر عندى ما لها ثمن
وإنَّ غدا غيرُ محسوب من الزمن
يستدرك المرء فيها كل فائته
من الزمان ويمحو السوء بالحسن

وقال رجل لعامر بن عبد الله بن قيس رضى الله عنه وهو يريد «الجمعة»: «قف حتى أكلمك» فقال له: لولا أنى أبادر لوقفت لك. «قال له وما تبادر؟ قال: أبادر خروج روحى».

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه «أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم». يقول: كما لا يخرج احدكم دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه فكذلك لا يحبون أن تخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه.

وقال السرى السقطى رضى الله عنه: خرجت من «بغداد» أريد الرباط، إلى «عبادان» لصوم بها رجب وشعبان فاتفق لى فى طريقى «على الجرجانى» وكان من الزهاد الكبار فدنا وقت افطارى، وكان معى ملح مدقوق وأقراص. فقال: ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام لن تفلح ولن تدخل فى سنن المحبين!! فنظرت إلى مزود(١) كان معه فيه سويق الشعير فسف منه فقلت: ما دعاك إلى هذا؟قال إنى حسبت مابين المضغ والسف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

وفى الخبر «ما من ساعة تأتى على العبد لا يذكر الله تعالى فيها إلا كانت عليه حسرة»، ويقال «إن العبد تعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعا وعشرين خزانة فيرى فى كل خزانة نعيما ولذة وعطاء وجزاء؛لما كان أودع خزائنه من ساعاته فى الدنيا من الحسنات فيسرّه ذلك ويغتبط به، فإذا مرّت به فى الدنيا ساعاته التى لم يذكر الله فيها رآها فى الآخرة خزائن فارغة لا عطاء فيها ولا جزاء عليها فيسوؤه ذلك ويتحسر عليه كيف فاته حيث لم يدخر فيه شيئا فيرى جزاءه مدخورا ثم يلقى فى نفسه الرضا والسكون».

(١) المزود: ما يوضع فيه الزاد والطعام فى السفر.

وجاء فى الخبر: «إن اهل الجنة بينما هم فى نعيمهم اذ سطع لهم نور من فوق اضاءت منه منازلهم كما يضىء الشمس والقمر لأهل الدنيا فينظرون إلى رجال من فوقهم اهل علِّيين يرونهم كما يرون الكوكب الدرى فى أفق السماء وقد فضلوا عليهم فى الأنوار والجمال والنعيم المقيم كما فضل القمر على سائر النجوم فينظرون اليهم يطيرون على نجب(١) تسرح بهم فى الهواء يزورون ذا الجلال والاكرام فينادونهم هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا كنا نصلى كما تصلون ونصوم كما تصومون فما هذا الذى فضلتم به علينا فاذا النداء من قبل الله تعالى: انهم كانوا يجوعون حين تشبعون ويعطشون حين تُروون، ويعرون حين تكتسون، ويذكرون حين تسكتون(٢) ويبكون حين تضحكون ويقومون حين تنامون ويخافون حين تأمنون فلذلك فضلوا عليكم اليوم فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

وقال ابو علىّ الدقاق رضى الله عنه: «رؤى بعضهم مجتهدا فقيل له فى ذلك فقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(٤).

وفى معناها انشدوا:

السباق السباق قولا وفعلا

حذر النفس حسرة المسبوق

مـا أحْبَبْتَ شَيْئًا إلا كنْتَ لَهُ عَبْداً.. وهو لا يُحِبُّ أنْ تكونَ لغيره عَبْداً.

المحبة للشىء تقتضى الانقياد(٥) له وشدة العلاقة به، وألاَّ يبغى به بدلا كما قيل: « حبك للشىء يُعمى ويُصم».

وذلك معناه استعباده للمحب له فمن احبَّ غير الله عزّ وجلَّ فقد استعبدُه ذلك الغير كائنا ما كان والله لا يحب لغيره عبدا ولا يرضى بذلك: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم والخميصة(٦)، والقطيفة والزوجة».

---

(١) مطايا.

(٢) وفى نسخة: حين تكسلون

(٣) آية رقم ١٧ من سورة السجدة.

(٤) آية رقم ٢٦ من سورة المطففين

(٥)وفى نسخة: تقتضى الاستعباد له.

(٦) الخميصة: ثواب أسود مربع

وقال محمد بن السماك: «كتب إلىّ اخ: إن استطعت ألاَّ تكون لغير اللّه عبدا ما وجدت من العبودية بدا فافعل».

وقال الجنيد رضى اللّه عنه: «انك لن تكون على الحقيقة له عبدا وشىء مما دونه لك مسترق وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية».

وسئل عمن لم يبقى عليه من الدنيا الا مقدار مص نواة فقال: «المكاتب عبد ما بقى عليه درهم».

ومن الحكايات فى هذا المعنى ما ذكر عن عبد اللّه الرازى رضى اللّه عنه نزيل» نيسابور» قال: «كسانى ابن الانبارى صوفا ورأيت على رأس الشبلى قلنسوة ظريفة تليق بذلك الصوف فتمنيت فى نفسى ان يكون جميعا لى فلما قام الشبلى من مجلسه التفت إلىّ فتبعته، وكان من عاداته إذا أراد أن أتبعه أن يلتفت إلىّ فلما دخل داره دخلت فقال انزع الصوف فنزعته فلفه وطرح عليه القلنسوه ودعا بنار فاحرقهما».

ومثل هذا مما كان ينكره عليه من لم يعرف مقصوده فى ذلك شىء كثير ورد عنه.

لا تَنْفَعُه طَاعَتُكَ، وَلا تَضُرُّه مَعْصِيَتُكَ. وإنَّمَا أمَرَكَ بِهذه، وَنَهَاكَ عَنْ هَذه، لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ. الحق تعالى غنى عن أعمال العاملين لأنه منزه عن الأعواض والأغراض فلا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك، وإنما أمرك ونهاك لما يعود عليك من المصالح والمنافع فى الدارين لا غير وذلك على سبيل التفضل منه من غير إيجاب عليه وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل».

قال فى لطائف المنن: «اعلم رحمك اللّه أنَّ اللّه لم «يأمر العباد بشىء وجوبا أو يقتضيه منهم ندبا إلا والمصلحة لهم فى فعل ذلك الأمر ولم يقتض منهم ترك شىء تحريما أو كراهة إلا والمصلحة لهم فى ترك ما امرهم بتركه وجوبا أو ندبا ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى «إنه يجب على اللّه رعاية مصالح عباده (١)»، بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمر فعلها مع عباده على سبيل التفضل فليت شعرى إذا قالوا يجب على اللّه رعاية مصالح عباده فمن

(١) يقصد بهم فرقة المعتزلة ويرد عليهم ردا قويا.

الموجب عليه؟ ثم إذا نظرنا فرأينا كل ما هو واجب أو مندوب إليه يستلزم الجمع على الله وكل منهى عنه أو مكروه يتضمن التفرقة عنه فإذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه لكن الطاعات هى أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها والمعصية هى أسباب التفرقة فلذلك نهى عنها»أهـ

لا يَزيدُ فى عِزِّه إقْبَالُ مَنْ أقْبَلَ عَلَيه، ولا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّه إدْبَارُ مَنْ أدْبَرَ عَنْه.

عزة الله تعالى صفة من صفات ذاته وصفاته فى غاية الكمال والتمام فهى منزهة عن الزيادة والنقصان وسببية العلل.

وصُولُكَ إلى الله وصُولُكَ إلى العِلْمِ به، وإلاَّ.. فَجَلَّ رَبُّنَا أنْ يتَّصِلَ به شَىءٌ، أو يَتَّصِلَ هُوَ بشَىءٍ.

الوصول إلى الله تعالى الذى يشير إليه أهل هذه الطريق هو الوصول(١) إلى العلم الحقيقى بالله تعالى وهذا هو غاية السالكين ومنتهى سير السائرين وأما الوصول المفهوم بين الذوات فهو متعال عنه.

وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه: «متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير هيهات!! هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا احاطة إلا اشارة اليقين وتحقيق الايمان.

قال الشيخ أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهرودى صاحب كتاب «عوارف المعارف» رحمه الله تعالى: «واعلم أن الاتصال والمواصلة اشار إليهما الشيوخ وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو رتبة فى الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الافعال، وهو رتبة فى «التجلى» فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى ويخرج فى هذه الحالة عن التدبير والاختيار وهذه رتبة فى «الوصول» ومنهم من يقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشفه قلبه من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجل بطريق الصفات وهو رتبة فى الوصول ومنهم من يرتقى إلى مقام الفناء مشتملا باطنه انوار اليقين

---

(١) أى وصول القلب للعلم بجلال الله سبحانه وعظمته على وجه يباشر القلب ويجرى معناه فى الجوارح.

والمشاهدة معمى فى شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين. وهذه رتبة فى «الوصول» وفوق هذه رتبة «حق اليقين» ويكون من ذلك فى الدنيا «لمح» وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى تحظى بها روحه وقلبه، وهذا من «أعلى مراتب الوصول».

فاذا تحققت الحقائق بعلم العبد مع هذه الاحوال الشريفة أنه فى أول المنزل فأين الوصول؟ هيهات منازل طريق الوصول لا تنقطع ابد الآباد فى عمر الاخرة الابدى فكيف بالعمر القصير الدنيوى(١).

قُرْبُكَ مِنْهُ أنْ تَكُونَ مشَاهِداً لِقرْبِه، وإلاَّ.. فمن أين أنْتَ وجُودُ قُرْبِه؟!

القرب الحقيقى قرب الله منك قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾(٢)، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾(٣) وقال عز من قائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(٤) وحظك من ذلك إنما هو مشاهدتك لقربه فقط فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة وغلبة الهيبة والتأدب بآداب الحضرة وأمّا أنت فلا يليق بك الا وصف العبد وشهوده من نفسك كما يقول المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا «إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك».

الحَقَائقُ(٥) تَرِدُ فى حَالِ التَّجلِّى مُجْمَلَةً، وَبَعْدَ الوَعْى يَكُونُ البَيَانُ:

فاذا قرأناه فاتبع قرانه ثم ان علينا بيانه.

حقائق العلوم اللدنية يقذفها الحق تعالى فى اسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحررهم من رقّ الاشياء وتعرضهم باللجاء والافتقار لما يفتح عليهم المولى، يكرمهم الحق تعالى بها تحقيقا لوعده لهم من غير تعلم ولا دراسة.

---

(١) إن كلام المؤلف وكلام الشارح والكلام الذى أورده الشارح عن أئمة الصوفية نفى واضح لما يزعمه أعداء الصوفية من أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود أو بالحلول.

(٢) آية ١٨٦ من سورة البقرة.

(٣) آية ٨٥ من سورة الواقعة.

(٤) آية ١٦ من سورة ق.

(٥) الحقائق هى ما يجرى على لسان أهل الحقيقة من الفوائد الجامعة والنكات الحكيمة وهى لا ترد باستعمال ولا تتوقف على أسباب.

وعند ورودها عليهم وتجليها لهم تكون مجملة لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها.

فاذا وعوها وتصرفت فيها اذهانهم بالاعتبار والتامل تبين لهم معناها وظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية من غير مخالفة حتى أن بعضهم ربما يجرى على لسانه وبنانه كلام كثير من غير أن يلقى له بالا فاذا فرغ من ذكره أو رسمه يتصفحه ويتأمله فيجده صحيحا مستقيما وقد اخبرنى بنحو ذلك من له قدم صدق فى هذا الطريق عن نفسه قال الامام ابو القاسم القشيرى رضى اللّه عنه: «واصحاب الحقائق يجرى بحكم التصرف عليهم شىء لا علم لهم به على التفصيل وبعد ذلك يكشف لهم وجهه فربما يجرى على لسانهم شىء لا يَدْرون وجهه ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم اذ تحقيق ذلك بجريان الحال فى ثانى الوقت».

انتهى كلام الامام ابى القاسم وهو موافق لما ذكره المؤلف رحمه اللّه تعالى واللّه اعلم وكانهما اشارا بذلك إلى المسالة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة وقد عبروا عن ذلك بعبارات وقد سل عبد اللّه بن طاهر الابهرى رضى اللّه عنه عن الحقيقة فقال: الحقيقة كّها علم فسئل عن العلم فقال: العلم كله حقيقة.

وقال الشبلى رضى اللّه عنه: «الألسنة ثلاثة: لسان علم ولسان حقيقة ولسان حق.

فلسان العلم: ما تأدى الينا بالوسائط.

ولسان الحقيقة: ما أوصله اللّه إلى الأسرار بلا واسطة.

ولسان الحق: ليس له طريق.»

وقال: «رويم» رضى اللّه عنه» اصح الحقائق ما قارن العلم».

وقال ابو بكر الوراق رضى اللّه عنه: «كنت فى تيه بنى اسرائيل فوقع فى قلبى ان علم الحقيقة بخلاف علم الشريعة فاذا شخص تحت شجرة أم غيلان صاح بى وقال يا ابا بكر كل حقيقة تخالف الشريعة فهى كفر».

واشارة المؤلف رحمه اللّه بالآية التى ذكرها إلى هذه المعنى بينة.

مَتَى وَرَدَت الوَارِدَاتُ الإلهيةُ(١) إليكَ، هَدَمَت العَوَائدَ عَلَيْكَ.

وان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها.

الواردات الإلهية على العبد تمحو عنه جميع رعوناته، وتهدم عليه مستمر عاداته ولها سلطنة عظيمة على ذلك فاذا وردت على قلب مشجون بأنوا ع الخبائث والرزائل ازالت عنه ذلك بمره وانبتت عوضا عن ذلك احوالا علية، واوصافا مرضية، وانشد سيدى ابو العباس رضى الله عنه فى هذا المعنى:

لو عاينت عيناك حين تزلزلت
أرض النفوس ودكت الاجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها
حين التزلزل والرجال رجال

الارض: أرض النفوس والجبال جبال العقل والشمس شمس المعرفة والاشارة بالآية الكريمة إلى هذا المعنى بينة:

الوَارِدُ يأتى مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ. لأَجْلِ ذلكَ لا يُصادِمُهُ شىءٌ إلاَّ دَمغَهُ:

. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق.

الوارد مرسوم بسمة القهر والغلبة لوروده من حضرة القهار الغالب على امره، لاجل ذلك لا يصادمه شىء من روعانات البشرية إلاّ دمغه وأزاله وهو ايضا حق ورد على باطل والباطل لاثبات له مع الحق والاشارة بالآية الكريمة إلى هذا المعنى بينة.

كيف يَحْتَجِبُ الحَقُّ بشىءٍ، والذى يَحْتَجِبُ بهِ هُوَ فيه ظاهرٌ، وموجودٌ حاضرٌ؟!

قد أشبع المؤلف رحمه اله تعالى الكلام على هذا المعنى فى أول الكتاب وأتى فيه بالعجب العجاب وقد نبهنا عليه هناك.

(١) الواردات الإلهية هى ما يتجلى للقلوب من المعارف التى تبرز عنها الحقائق، فإذا وردت هذه الواردات على القلب لم يبق فيه متسع لغيرها فتأخذ بمجامعه.

لا تيأسْ منْ قَبول عَمَلٍ لَمْ تَجدْ فيه وجُودَ الحُضُور، فرُبَّمَا قَبلَ منَ العَمَل مَا لَمْ تُدْركْ ثَمرَتَهُ عَاجلاً.

العمل الذى لا يجد صاحبه حضورا فيه ينبغى له ألاّ ييأس من قبوله فإن ذلك إلى اللّه تعالى فقد يقبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا من وجدان حضور أو حلاوة أو غير ذلك ولو لم يكن الا قصد التقرب به وسقوطه عن نظره وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: «لا عمل ارجى للقلوب».

لا تُزكّـيَنَّ وارداً لا تَعلَمُ ثَمـرَتَه، فَلَيْس المُرَادُ منَ السَّحَـابَة الإمْطَارُ، وإنّمَا المُرَادُ منْهَا وَجُودُ الإثْمَار!

الوارد مراد لثمرته لا لوجدان حظ نفسك منه كما أن السحابة مرادة لوجدان الاثمار الذى اقتضاه وجود إمطارها لا لمجرد وجود إمطارها وثمرة الوارد انما هى تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما تقدم.

فان لم تعلم وجود هذا فيك فلا تزك(١) الوارد ولا تفرح به فان فى ذلك نوعا من الاغترار وانخداعا بلبسة الاظهار فكن على حذر منه.

لا تَطْلُبَنَّ بَقَـاء الوارِدَات بَعْـدَ أنْ بَسَطَتْ أنْوَارَها، وَأوْدَعَتْ أسْـرَارَهَا.. فَلَكَ فى اللّه غنَىً عَنْ كُلِّ شَىءٍ، ولَيْسَ يُغْنيكَ عَنْهُ شَىءٌ.

انوار الواردات المنبسطة على العبد هى تكيف ظاهره وباطنه بكيفيات العبودية واسرارها المودعة فيه بما لاح له من عظمة الربوبية فاذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبن بقاءه فى حال كونه ولا تأس على فقده إذا فقدته، فإن لك فى اللّه غنى عنه وعن غيره وليس لك غنى عن اللّه تعالى فى شىء من الاشياء كما قال الشاعر:

لكل شىء اذا فارقته عوضُ ... وليس للّه إن فارقتَ من عوض

قال أبو عبداللّه بن عطاء اللّه رضى اللّه عنه: «اياك أن تلاحظ مخلوقا وانت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا» ويدخل فى هذا المعنى الذى ذكره ابن عطاء اللّه

---

(١) وفى نسخة فلا تركن إلى الوارد

رضى الله عنه جميع الاغيار، والأنوار، والمقامات، والاحوال، والدنيا، والاخرة، والنعم الباطنة والظاهرة فلا تلاحظ شيئا من ذلك ولا تركن اليه ولا تعتمد عليه بقى أو ذهب فان ذلك قادح فى اخلاص التوحيد.

قال فى «التنوير»: «واعلم أن البارى سبحانه إنما يدخلك فى الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك، وإنما جاءت تحمل هدية التعريف من الله اليك فيها فتوَّجه اليها باسمه «المبدىء» فابداها وابقاها حتى اذا اوصلت اليك ما كان لك فيها فلما أدت الامانة توجه اليها باسمه» المعيد» فأرجعها وتوفاها فلا تطالبن بقاء رسول بعد ان بلَّغ رسالته ولا أمين بعد أن بلغ امانته وانما يفتضح المدعون بزوال الاحوال وبعزلهم عن مراتب الأنزال هناك يبدو العوار وتنهتك الاستار فكم من مدعى الغنى بالله وانما غناه بطاعته أو بنوره أو فتحه وكم من مُدّعى العز بالله وإنما اعتزازه بمنزلته وصولته على الخلق معتمدا على ما ثبت عندهم من معرفته فكن عبدا لله لا عبد العلل، وكما كان الله لك ربا ولا علة، فكن عبدا له ولا علة، لتكون له كما كان لك»ا. هـ.

وقال سيدى ابو العباس المرسى رضى الله عنه: «عبد هو فى الحال بالحال وعبد هو فى الحال بالمحول فالذى هو فى الحال عبد الحال والذى هو فى الحال بالمحول عبد المحول وامارة من هو فى الحال بالحال أن يأسى عليها اذا فقدها ويفرح بها اذا وجدها والذى هو فى الحال بالمحول لا يفرح بها اذا وجُدت ولا يحزن عليها اذا فقدت وفى الاشارات عن الله سبحانه» لا تركن إلى شىء دوننا فانه وبال عليك وقاتل لك فان ركنت إلى العلم تتبعناه عليك وان أويت إلى العمل رددناه عليك وان وقفت بالحال وقفناك معه وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه وإن لحظت إلى الخلق وكلناك اليهم وان اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك فأى حيلة لك واى قوة معك فارضنا لك ربا حتى نرضاك لنا عبدا».

تَطَلُّعُكَ إلى بَقَاءِ غَيْرِه.. دَلِيلُ عَلَى عَدَمِ وِجْدَانِكَ لَه. واسْتِيْحَاشُكَ لِفقْدَانِ مَا سِوَاه. دَلِيْلُ عَلَى عَدَمِ وُصْلَتِكَ بِه.

وجدان العبد لربه ووصوله اليه هو غاية مطالبه ومنتهى اماله ومآربه وبه يفوز بالنعيم ويحظى بالملك العظيم وعند ذلك ينسى كلَّ محبوب ويلهى به عن كل مفروح به ومرغوب، وهذه صفة اهل» التفريد» الذين استتروا فى ذكر الله المجيد، كما روى عن ابى عبد الله اليسرى، رضى الله عنه قال: سالت رجلا «باللكام» ما الذى اجلسك فى هذا الموضع؟ فقال لى: وما سؤالك عن شىء ان طلبته لم تدركه، وان

لحقته لم تقع عليه؟! قلت: تخبرني ما هو، قال: علمي بان مجالسة الله تستغرق نعيم الجنان، ثم قال: اواه!! قد كنت اظن ان نفسي ظفرت ومن الخلق هربت فاذا انا كذاب في مقالتي، لو كنت محبا لله صادقا ما اطلع على احد!! فقلت: اما علمت ان المحبين خلفاء الله في ارضه، مستانسين بخلقه يبعثونهم على طاعته!!فصاح صيحة وقال لي: يامخدوع، لو شممت رائحة الحب وعاين قلبك ما وراء ذلك من القرب ما احتجت ان ترى فوق ما رايت، ثم قال يا سماء ويا أرض اشهدا أني ما خطر على قلبي ذكر الجنة والنار قط، وان كنت صادقا فامتني، فوالله ما سمعت له كلاما بعدها، وخفت ان يسبق إليّ الظنّ من الناس من قتله فتركته ومضيت فبينما انا على ذلك، واذا انا بجماعة، فقالواما فعل الفتى؟ فكنيت عن ذلك فقالوا: ارجع فان الله قد قبضه، فصليت معهم عليه، فقلت لهم من هذا الرجل؟ ومن انتم؟ قالوا: ويحك!! هذا رجل به كان يمطر المطر، وقلبه على قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، اما رايته يخبر عن نفسه أنّ ذكر الجنة والنار ما خطر على قلبه فهل كان احد كذا الا إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؟ فقلت: من انتم؟ قالوا: نحن السبعة المخصوصون من الابدال.

قلت: علموني شيئا، قالوا: لا تحب ان تعرف ولا تحب ان يعرف انك ممن يحب الاّ يُعرف وفي مثل هذا الحال انشدوا:

كانت لقلبي اهواء مفرقة
فاستجمعت إذ راتك العين اهوائي
فصار يحسدني من كنت احسده
وصرت مولى الورى مُذْ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم
شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

وقد سئل ابو سليمان الداراني رضي اله عنه عن اقرب ما يتقرب به العبد إلى الله تبارك وتعالى فقال: «اقرب ما يتقرب به اليه ان يطلع الله على قلبه وهو لا يريد من الدنيا والاخرة غيره».

فهذه هي العلامة الصادقة الدلالة القاطعة على التحقق بهذا المقام العظيم فان كان له شعور بشيء من الاغيار المحبوبة فتطلّع إلى بقائها أو استوحش لفقدانها فذلك دليل على عدم تحققه بذلك فليعرف منزلته وحده وليعمل في تصحيح هذا المقام جهده وقال رضي الله عنه:

النَّعِيمُ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُه، إِنَّمَا هُوَ لشُهُودِه وَاقْتِرَابِه. وَالعَذَابُ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ، إِنَّمَا هُوَ لوجُود حجابه. فَسَبَبُ العَذَاب وجُودُ الحجَاب، وَإِتْمَامُ النَّعِيم بالنَّظَرِ إلى وَجْهِه الكَرِيم.

مظاهر النعيم المتنوعة هي ما ورد من انواع الثواب في الدار الاخرة من الحور والقصور والولدان والغلمان والمآكل والمشارب والملابس إلى غير ذلك من انواع المسرات والملذات.

ومظاهر العذاب المتنوعة هي: ما ورد من انواع العقاب فيها من: الجحيم والحميم والزقوم والحيات والعقارب والسلاسل والاغلال والانكال وغير ذلك من انواع الآلام والعقوبات.

وليس وجود النعيم والعذاب بسبب وجود هذه الاشياء ومباشرتها للمُنعم والمعذب وإنما ذلك لما تضمنته وظهر فيها من وجود قرب الله تعالى وشهوده للمنعم أو وجود حجابه وإعراضه من المعذب فهذان الامران بهما يقع النعيم والعذاب على التحقيق.

مَا تَجِدُهُ القُلُوبُ مِنَ الهُمُومِ وَالأَحْزَانِ، فَلأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ وَجُودِ العِيَانِ.

وجود الهموم والاحزان الدنيوية والاخروية من نتائج رؤية النفس واعتبارها وبقاء حظها، وهو الذى منع العبد من وجود العيان فلو قد فنى عن رؤية نفسه وذهب عن مراعاة حظه، لظفر بوجود العيان ولم يكن له هم ولا حزن البتة بل يكون متصل الحبور دائم الفرح والسرور كما قال تعالى: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(١) فالمعية المذكورة لا يجتمع معها حزن وهمّ وهى ما قلناه من وجود العيان والعيان والله اعلم درجة فوق درجة اليقين كما قال الشاعر:

كبر العيان عليّ حتى انه ... صار اليقين من العيان توهما

قال الشبلى رضى الله عنه: «من عرف الله لا يكون له غم ابدا».

وقيل: اوحى الله سبحانه إلى داوود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: «يا داوود ان محبتي في خلقي ان يكونوا روحانيين وللروحانيين علم وهو ان لا يغتموا وأنا مصباح قلوبهم يا داوود لا يمزج(٢) الهم قلبك فينقص ميراث حلاوة

(١) من الآية: ٤٠ من سورة التوبة (٢) وفي نسخة: لا تلزم الهم قلبك

الروحانيين» وسيأتى فى كلام المؤلف رحمه الله «أوحى الله إلى داود عليه السلام: بى فافرح وبذكرى فتنعم».

فباستنارة القلوب بنور المعرفة واحتظائه بوجود العيان والرؤية يخرج منه الهم ويحل محله الروحانية. على أنّ فى وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام إذ لم يقدر على دفعها عن نفسه فوائد جزيلة لا ينبغى أن تستحضر من قبل إنها موجبة لخمود النفس وصفاء القلب وزوال الأشر، والبطر، والفرح بالدنيا.

ثم هى كفارات إن كانت فى الأمور الدنيوية ودرجات إن كانت فى الامور الأخروية.

والهمّ متعلق بما يكون فى المستقبل

والحزن متعلق بما كان فى الماضى

مِنْ تَمَامِ النِّعْمةِ عَلَيْكَ: أنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ، ويَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ.

وجدان الكفاية من الرزق وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة على العبد لما له فى ذلك من حصول جميع المصالح الدينية والدنيوية أما مصالح الدين فى عدم الزيادة على الكفاية فظاهر إذ لو وجدها ربما أوجب له ذلك طغيانا كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾(١).

فالاستغناء هو وجود الزيادة على الكفاية وهو سبب لطغيان أصل كل معصية لله عز وجل.

(١) الآيتان ٦، ٧ من سورة العلق.

وقصة ثعلبة بن حاطب حين طلب الدعاء من النبى (ﷺ) أن يرزقه مالا وما آل إليه أمره أمرا «مشهور»(١)

وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: «سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى.»

---

(١) نذكر هنا هذه القصة بطولها لما فيها من عظة بالغة، وعبرة يحسن بكل إنسان أن يتدبرها.
عن أبى امامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله (ﷺ): ادع الله أن يرزقنى مالا. قال فقال رسول الله (ﷺ) : «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبى الله؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تصير الجبال معي ذهبا وفضة لصارت». قال. والذى بعثك بالحق، لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه، فقال رسول الله (ﷺ): «اللّهم ارزق ثعلبة مالا». قال: فأتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله (ﷺ): «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يارسول الله! اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة، فأخبروه بأمره، فقال: «ياويح ثعلبة، ياويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة». وأنزل الله جل ثناؤه: {خُذ من أموالهم صدقة} الآية ونزلت فرائض الصدقة، فبعث رسول الله (ﷺ)، رجلين على الصدقة من المسلمين، وقال لهما: مرا بثعلبة وبذلان - رجلا من بنى سليم - فخذا صدقاتهما، فخرجا حتى آتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله (ﷺ)، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدرى ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الى، فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. فقال. بلى، فخذوها فان نفسى بذلك طيبة وإنما هى له، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أرونى كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى، فانطلقا حتى أتيا النبى (ﷺ)، فلما رآهما قال: «ياويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذى صنع ثعلبة، والذى صنع السلمي، فأنزل الله عز وجل: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن» الآية، قال: وعند رسول الله (ﷺ)، رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى (ﷺ)، فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: «إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله (ﷺ): هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى» فلما أبى رسول الله (ﷺ)، أن يقبل صدقته رجع إلى منزله فقُبض رسول الله (ﷺ) ولم يقبل منه شيئا، ثم أتى أبابكر رضى الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتى من رسول الله وموضعى من الأنصار فأقبل صدقتى فقال أبوبكر لم يقبلها منك رسول الله (ﷺ)، وأبى أن يقبلها، فقُبض أبوبكر ولم يقبلها. فلما وُلى عمر رضى الله عنه أتاه فقال: ياأمير المؤمنين أقبل صدقتى فقال لم يقبلها رسوله الله (ﷺ)، ولا أبوبكر وأنا أقبلها منك؟ فقُبض ولم يقبلها، فلمَا ولى عثمان رضى الله عنه أتاه فقال: اقبل صدقتى. فقال: لم يقبلها رسول الله (ﷺ)، ولا أبوبكر، ولا عمر، وأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه، فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان» أ. هـ.

وفى حديث أبى الدرداء عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «ما طلعت شمس ولا غربت إلا بجنبها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الثقلين: يأيها الناس هلموا إلى ربكم فان ما قلّ وكفى خير مما كثر والهى».

وأمّا مصالح الدنيا فى ذلك فسيأتى التنبيه عليها فى قول المؤلف رحمه الله تعالى: «ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه».

وأما مصالح الدين عند وجود الكفاية وعدم النقصان منها فمن أجل توصُّله بذلك إلى الاستعانة بها على طاعة الله تعالى ولأجل ذلك عظمت النعمة بها على العبد قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(١) أى: لا تنس نصيبك فى الآخرة أن تتوصل إليه بما آتاك الله من الدنيا.

وأما مصالح الدنيا فى ذلك فظاهر لا يحتاج إلى التنبيه عليه إذ بذلك يحصل طيب العيش وراحة القلب والبدن وصيانة الوجه عن ذل المسألة عند وجود الحاجة والفاقة. فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة ويقنع بما أباح له من هذه المنّة الجسيمة، فيستعجل بذلك راحة نفسه، والاستغناء عن بنى جنسه، ويحصل له بذلك حلاوة الزهد فى الأمور العاجلة وتجافى القلب عن زهراتها فان طلب من الدنيا ولم يقنع بما قسم له منها خيف من اقتحام المهالك، إذ يجره الحرص والطمع إلى ذلك.

قال بعض العارفين: «كل من لا يعرف قدر ما زوى عنه من الدنيا ابتلى بأحد وجهين: إما بحرص مع فقر يتقطع به حسرات، أو رغبة فى غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه».

وقد ثبت عن النبى (ﷺ): «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس»(٢)

وغنى النفس عن الدنيا شرف الأولياء المختارين وعز أهل التقوى من المؤمنين المحسنين ولقد صدق الشاعر فى قوله:

غنى النفس ما يكفيك من سد خلة(٣) فان زدت شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

يحكى عن بنان الحمال رضى الله عنه انه قال: «كنت مطروحا طاويا على باب

---

(١) آية رقم ٧٧ من سورة القصص

(٢) حديث صحيح رواه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) الخلة «بفتح الخاء»: الفقر والحاجة.

«بنى شيبة» سبعة ايام لم أذق شيئا فناديت فى سرى إنّ من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عينى قلبه».

وقال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه: «ذكر لى أنّ فى خراب«الأبلّة» جارية مجنونة تنطق بالحكمة فلم أزل أطلبها حتى وجدتها خربة جالسة على حجر وعليها جبة صوف، وهى محلوقة الراس، فلما نظرت إلىّ قالت من غير ان اكلمها: مرحبا بك يا عبد الواحد، فقلت لها: رحب الله بك، وعجبت من معرفتها بى، ولم ترنى قبل ذلك فقالت: ما الذى جاء بك ها هنا؟ قلت: جئت لتعظينى. قالت: واعجبا لواعظ يوعظ ثم قالت يا عبد الواحد اعلم انّ العبد اذا كان فى كفاية ثم مال إلى الدنيا سلبه الله سبحانه وتعالى حلاوة الزهد فيظل حيران والهاً، فإن كان له عند الله نصيب عاتبه وحيا فى سره فقال: عبدى اردت ان ارفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى واجعلك دليلا لاوليائى واهل طاعتى فى ارضى فملت إلى عرض من اعراض الدنيا وتركتنى فورثتك بذلك الوحشة بعد الانس والذل بعد العز والفقر بعد الغنى عبدى ارجع إلى ما كنت عليه ارجع عليك ما كنت تعرفه من نفسك». ثم قال تركتنى وولت عنى فانصرفت وبقلبى حسرة منها.

وفى بعض الكتب: إن أهون ما اصنع بالعالم إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتى.

وذكر ابو إبراهيم اسحق بن إبراهيم النجيبى القرطبى المالكى رحمه الله فى كتاب «النصائح» له عن ابن عبد ربه الشامى ثم الدمشقى انه كان من اكثر أهل دمشق مالا فخرج مسافرا فأمسى إلى جانب نهر ومرعى فنزل به قال: فسمعت صوتا يكثر حمد الله تعالى فى ناحية «المرج» فاتبعته فوافيت رجلا ملفوفا فى حصير فسلمت عليه فقلت: من أنت يا عبد الله فقال: رجل من المسلمين فقلت: فما حالك هذه؟ قال: حال نعمة يجب علىّ حمد الله عليها فقلت: وكيف وإنما أنت فى حصير قال: ومالى لا أحمد الله تعالى وقد خلقنى فاحسن خلقى وجعل منشىء ومولدى فى الإسلام والبسنى العافية فى اركانى وستر على ما اكره ذكره ونشره فمن أعظم نعمة ممن أمسى فى مثل ما انا فيه؟ فقلت له: إن رأيت - رحمك الله - ان تقوم معى إلى المنزل فانا «نزول» على النهر هناك قال: ولم؟ قلت: لتصيب من الطعام ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير!! قال: مالى حاجة فراودته على ان يتبعنى فابى فانصرفت وقد تقاصرت فى نفسى ومقتها اذ لم اخلف بدمشق رجلا يكاثرنى فى غنى وانا التمس الزيادة!! فقلت: اللّهم انى اتوب اليك من سوء ما انا فيه فبت لا يعلم اخوانى ما اجمعت عليه فلما كان من السحر

رحلوا كنحو رحلتهم فيما مضى وقدموا إلىَّ دابتى فصرفتها إلى دمشق وقلت: ما انا بصادق فى التوبة ان مضيت إلى متجرى. فسألنى القوم فاخبرتهم وعاتبونى على المضى فابيت فلما قدم دمشق وضع يده يتصدق بماله فما زال يفرقه فى سبيل الخيرات حتى احتضر فما وجدوا عنده الا قدر ثمن الكفن.

وزاد غير ابى إبراهيم وكان يقول - يعنى ابن عبد ربه المذكور - والله، لو أنَّ نهركم - يعنى نهر دمشق - سال ذهبا ما خرجت اليه ولا اخذت شيئا منه ولو قيل لى من مس هذا العمود مات لقمت اليه وعانقته شوقا إلى الله ورسوله.

لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ به، يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيه.

درءُ المفاسد عند العقلاء أهَّم من جلب المصالح، فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضى بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه لانه دفع عن نفسه وجود الحزن بتركه لما يفيد حصول مصلحة الفرح الذى يزول عن قرب، واعتاض من ذلك الرائحة الدائمة كما قيل:

ومن سره ان لا يرى ما يسوؤه
فلايتخذ شيئا يخاف له فقدا
فان صلاح المرء يرجع كله
فسادا اذا الانسان جاز له الحدا

وقيل لبعضهم: لم لا تغتم؟ فقال: لانى لا أقتنى ما يغمنى فقده، فالمفروح به هو المحزون عليه ان قليلا فقليل، وإن كثيرا فكثير كما قيل:

على قدر ما اولعت بالشىء حزنه
ويصعب نزع السهم مهما تمكنا

يحكى ان رجلا حمل إلى بعض الملوك قدحا من «فيروزج»(١) مرصعا بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك به فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة وفقرا قال: وكيف ذلك؟ قال: ان انكسر كان مصيبة لا جبر لها وان سرق صرت فقيرا اليه ولم تجد مثله وكنت قبل ان يحمل اليك فى أمْنٍ من المصيبة والفقر فاتفق ان انكسر القدح يوما فعظمت مصيبة الملك فيه وقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل الينا.

وامثال هذه المصيبة واعظم منها نازلة بكل من له علاقة بشىء من أسباب

(١) فيروزج: حجر كريم

الدنيا فإنها ان لم تؤخذ منه بغصب أو سرقه أو جائحة نازلة فلابد له ان يؤخذ هو عنها بالموت الهازم للذات المنغص للشهوات فان كان له ألف محبوب مثلا نزل به عند الموت ألف مصيبة فى وقت واحد لانه كان يحبها كلها وقد سلبت منه فى كرة واحدة ولذلك كان الزهد فى الدنيا من قضايا العقل.

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه: للعقل ألف اسم ولكل اسم منها ألف اسم وأول كل اسم منها «ترك الدنيا».

قال الحسن رضى اله عنه: كيف يسمى عاقلا من يمسى ويصبح فى الدنيا ومباهاة أهلها فى المطاعم والمشارب والملابس والمراكب «أولئك هم الخاسرون» و«أولئك هم الغافلون» و«أولئك هم الجاهلون»

وأنشدوا:

أيها المرء إنّ دنياك بحر

طافح موجه فلا تأمننها

وسبيل النجاة فيها بيِّن

وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وقال أبو على الثقفى رضى الله عنه: «أفّ من أشغال الدنيا إذا أقبلت وأف من حسرتها إذا أدبرت والعاقل من لا يركن إلى شىء إذا أقبل كان شغلا وإذا أدبر كان حسرة وقد قيل معناه:

ومن يحمد الدنيا لشىء يسره

فسوف لعمرى عن قليل يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة

وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقيل لأبى القاسم الجنيد رضى الله عنه: «متى يكون الرجل موصوفا بالعقل؟ فقال: إذا كان للأمور مميزا، ولها متصفحا، وعما يوجبه عليه العقل باحثا، يلتمس بذلك طلب الذى هو أولى ليعمل به ويؤثره على ما سواه.

فإذا كان كذلك فمن صفته ركوب الفضل فى كل أحواله بعد إحكام العمل بما فرض الله عليه وليس من صفة العقلاء إغفال النظر عما هو أحق وأولى، ولا من صفتهم الرضا بالنقص والتقصير، فمن كانت هذه صفته بعد أحكامه لما يجب عليه من عمله، وترك التشاغل بما يزول وترك العمل بما يفنى وينقضى وذلك صفة لكل ما احتوت عليه الدنيا كذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل يصده التشاغل به والعمل له عن أمور الآخرة التى يدوم نعيمها ونفعها،

ويتأبد سررها، ويتصل بقاؤها، وذلك أن الدين يدوم نفعه، ويبقى على العامل له حظُّه، وما سوى ذلك زائل متروك ومفارق موروث يخاف مع تركه سوء العاقبة فيه، ومحاسبة الله عليه، وكذلك صفة العاقل لتصفحه الأمور بعقله والأخذ منها بأوفرها.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(١)بذلك وصفهم الله تعالى وذوو الألباب هم ذوو العقول وإنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها.

وأحسن الأمور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعا فى العاجل والآجل وإلى ذلك ندب الله عز وجل من عقل فى كتابه انتهى كلام الجنيد رضى الله عنه وهو فى غاية الحسن ونهاية التحقيق وبه مناسبة لما كنا بصدده من التنبيه على كلام المؤلف رحمه الله تعالى فرأيت ذكره ها هنا لائقا والله تعالى الموفق للعمل بمنه وكرمه.

إنْ أَرَدْتَ أن ألاَّ تُعْزَلَ، فَلا تَتَوَلَّ ولاَيَةً لاَ تَدُومُ لَكَ!

هذه من أمثلة ما تقدم لأن الولاية مآلها إلى الحزن بسبب وقوع العزل عنها ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا يقع فى العزل المحزون به.

إنْ رَغَّبَتْكَ البِدَايَاتُ، زَهَّدَتْكَ النِّهَايَاتُ، إنْ دَعَاكَ إليهَا ظَاهِرٌ، نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ.

بدايات الأمور وظواهرها ترغب الجاهل فيها وتدعوه إليها لأنها رائقة الحسن مليحة الظاهر فيغتر الجاهل بذلك فتقوده إلى ما فيه ضرره وهلاكه ونهايات الأمور وبواطنها تزهد العاقل وتنهاه عنها بما أشهدته من سماجتها وقبح باطنها فيعتبر العاقل بذلك فيهرب منها ويسلم من شرها وقد تقدم هذا المعنى عند قوله «الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة».

قال وهب بن مُنبِّه رضى الله عنه: «صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيئا فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ثم التفت له فى اليوم السابع فقال: يا هذا قد علمت ما تريد: حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة والزهد فيها رأس كل خير والتوفيق نجاح كل بر فاحذر رأس كل خطيئة وارغب

(١) آية رقم ١٨ من سورة الزمر.

فى رأس كل خير وتضرع إلى ربك أن يهب لك نجاح كل بر. قال: وكيف أعرف ذلك؟قال: كان جدى رجلا من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء: شبهها بالماء المالح يغُر ولا يروى ويضر ولا ينفع وبظل الغمام يغر ويخذل وبالبرق الخُلَّب يغر ولا ينفع وبسحاب الصيف يغر ولا ينفع وبزهر الربيع يغر بنضرته ثم يصفر فتراه هشيما وبأحلام النائم يرى السرور فى منامه فإذا استيقظ لم يجد فى يده شيئا إلا الحسرة وبالعسل المشوب بالسُّم الزُعاف يغر ويقتل. فتدبرت هذه الأحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت فيها حرفا واحدا فشبهتها بالغول التى تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها.

فرأيت جدى فى المنام فقال لى: يا بنى أنت منى وأنا منك فقلت له: فبأىّ شىء يكون الزهد فى الدنيا قال: باليقين، واليقين بالصبر، والصبر بالعبر، والعبر بالفكر.ثم وقف الراهب وقال خذها ولا أراك خلفى إلا متجردا بفعل دون قول فكان ذلك آخر العهد به.

وقال محمد بن على الترمذى رضى الله عنه: «لم تزل الدنيا مذمومة فى الأمم السابقة عند العقلاء منهم وطالبوها مهانون عند الحكماء الماضين وما قام داع فى امة إلا وقد حذر من متابعة الدنيا وجمعها والحب لها ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(١)، وقال: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾(٢)، أى: لن تصل إلى سبيل الرشاد وفى قلبك محبة الدنيا وطلبُ لها؟

والحكايات والآثار فى أحوال الدنيا وغرورها وشرورها أكثر من أن تحصى ولا شىء أبين فى ذلك من قول الله تعالى فى صفتها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٣).

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة غافر.
(٢) من الآية ٣٩ من سورة غافر.
(٣) من الآية ٢٠ من سورة الحديد.

إنَّمَا جَعَلَها مَحلاً للأغْيَارِ، وَمَعْدِنًا لوجُودِ الأكْدَارِ.. تَزْهِيداً لَكَ فيهَا.

ورود الأغيار والأكدار الدنيوية على العبد نعم من اللّه تعالى عليه، لأن ذلك ـ لا محالة ـ يدعوه إلى الزهادة فى الدنيا والتجافى عنها، ويصرف عنه وجود الغباوة والجهالة لأجل تمسكه بالخيال، وما يستضّر به فى الحال والمآل، لأن الموجب لرغبته فيها وحرصه على نيلها إنما هو ما يتوهمه فيها من الحصول على منيته وبغيته وقضاء غرضه من شهوته ونهمته من غير مكدر ولا منغص، ولو تصور له حصوله على هذه الأشياء على حسب ما يحبه ويهواه كان ينبغى له أن يرغب عنها عوضا عن الرغبة فيها إن كان عاقلاً، لأن مآل أمرها إلى الفناء والزوال والافتقار والانقضاء والارتحال، وقد قالوا: «شر لا يدوم خير من خير لايدوم». وقال الشاعر:

أشد الغم عندى فى سرور
تيقن عنه صاحبه ارتحالا
أرى الدنيا على ما كان فيها
تدور فلا تديم عليها حالا

ثم هى مانعة له من سعادة الآخرة، والقرب من اللّه عز وجل، الذى هو غاية طلب الطالبين ونهاية رغبة الراغبين، فكيف وهو معرض فيها لأنواع المصائب والفجائع، ووقوع الأغيار والأكدار، فما من أحد فيها إلا وهو فى كل حال ووقت غرض لأسهم ثلاثة: سهم بلية، وسهم رزية، وسهم منية، فإذا نزل به ذلك عادت النعمة نقمة، وانقلبت الحبرة(١) عبرة وصارت الفرحة ترحة، وهكذا شأن الدنيا أبدا، فلا يفى مرجوها بمخوفها، ولا يقوم خيرها بشرها، ولقد صدق الشاعر فى قوله:

إن الليالى لم تحسن إلى أحد
إلا أساءت إليه بعد إحسان

وصدق أيضا من قال:

ما قام خيرك يا زمان بشره
أولى بنا من قل منك وما كفى
زمن إذا أعطى استرد عطاءه
وإذا استقام بدا له فتحرّفا

(١) الحبرة «بفتح الحاء وسكون الباء»: السرور والبهجة.

وقد كتب على بن أبى طالب إلى سلمان، رضى الله عنهما: «إنما مثل الدنيا كمثل الحية لين ملمسها، قاتل سمها، فأعرض عنها وعما يعجبك منها، لقلّة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون منها، فان صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص(١) منها إلى مكروه».

وقال بعض البلغاء، «دار الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل الغمام وأحداثها كصوائب السهام، وشهواتها كشرب السمام، وفتنتها كالأمواج الطوام».

وقال أبو العتاهية:

هى الدار دار الأذى والقذى
ودار الفناء ودار الغير
ولو نلتهـــا بحذافيرهـــــا
لمت ولم تقضى منها الوطر
أيا من يؤَمل طول البقـــاء
وطول الخلود عليه ضرر
إذا ما كبرت وفات الشبــاب
فلا خير فى العيش بعد الكبر.

وأنشد أبو منصور الثعالبى، رحمه الله، فى ذم الدنيا:

تنح عن الدنيا فلا تخطبنها
ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس يفى مرجوها بمخوفها
ومكروها إن تأملت راجح
لقد قال فيها الواصفون وأكثروا
وعندى لها وصف لعمرى صالح
سلاف(٢) قصارها زعاف ومركب
شهى إذا استلذذته فهو جامح
وشخص جميل يؤنس الناس حسنه
ولكن له أسرار سوء قبائح

فإذا علم العبد هذا كله علم اليقين، وتمكن من قلبه غاية التمكين، لم يتصور منه مع ذلك وجود رغبة ألبتة، لأنه إذ ذاك يجمع بين خيبتين وخسارتين، ويأتيه الموت وهو صفر(٣) اليدين من منافع الدارين وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) أشخصه المكروه: أزعجه.

(٢) السلاف والسلافة: ما سال قبل العصر، وهو أفضل العصير، وسلافة الشيء المعصور أوله.
والقصارى: الجهد والغاية، يقال: قصاراك أن تفعل كذا، أى غاية جهدك وآخر أمرك وكل مستطاعك أن تفعل كذا.
الزعاف: السم القاتل.

(٣) صفر اليدين: خالى اليدين

قال أبو هشام الزاهد، رضى الله عنه: «إن الله وسم الدنيا بالوحشية، ليكون أنس المريدين به دونها، وليقبل المطيعون إليه بالإعراض عنها، وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون وإلى الآخرة مشتاقون» وقيل: أوحى الله تعالى إلى الدنيا تضيقى وتشددى على أوليائى، وترفهى وتوسعى على أعدائى: تضيقى على أوليائى حتى لا يتعرفوا بك عنى، وتوسعى على أعدائى حتى يشتغلوا بك عنى، فلا يتفرغوا لذكرى.

عَلِمَ أنَّكَ لا تَقْبَلُ النُّصْحَ المُجَرَّدَ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا.

النصح المجرد لا يقبله إلا من لم يستحكم فيه حب العاجلة والأنس بلذاتها الفانية، وكان كريم الطبع سهل القياد وأما من رسخت فيه تلك الخبائث، وتمكنت من باطنه، وكان لئيم السجية صعب المقادة، فلابد فى قصد هدايته وإرشاده من زيادة على النصح والوعظ ، وهو: وجود ما يقهره ويجبره، وليس ذلك إلا ما ذكرناه، فاعرف قدر النعمة عليك بذلك، واعمل بمقتضاه، وسلم لربك فى حكمته وقدرته وحسن ظنك به، وقد تقدم هذا عند قوله «من لم يقبل على الله بملاطفة الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان»

العِلْمُ النَّافِعُ هُوَ الّذِى يَنْبَسِطُ فِى الصَّدْرِ شُعَاعُه، ويُكْشَفُ بِه عَنِ القَلْبِ قِنَاعُه.

العلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه فهذا هو العلم الذى ينبسط فى الصدر شعاعه فيتسع وينشرح للإسلام ويكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام وفى حكمة داود، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، «العلم فى الصدر كالمصباح فى البيت». وقال محمد بن على الترمذى، رضى الله عنه: «العلم النافع هو الذى تمكن فى الصدور وتصور، وذلك أن النور إذا أشرق فى الصدور تصورّت الأمور حسنها وسيئها، ووقع بذلك ظل فى الصدور فهو صورة الأمور فيأتى حسنها ويجتنب سيئها، فذلك العلم النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم إلى الصدور، وهى علامات الهدى، والعلم الذى قد تعلمه، فذلك علم اللسان، إنما هو شئ قد استودع الحفظ، والشهوة غالبة عليه قد أطاحت به وأذهبت بظلمتها ضوءه.

وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوى، رضى الله عنه: «والعلم النافع هو: علم الوقت، وصفاء القلب، والزهد فى الدنيا، وما يقرب من الجنة وما يبعد عن النار، والخوف من الله والرجاء فيه، وآفات النفوس، وطهارتها، وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء دون علم اللسان والمنقول والمعقول.

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يقذفه الله تعالى فى القلوب».

وإنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه، ويبعده عن رؤية نفسه، وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه وإرادته، قال الجنيد، رضى الله تعالى عنه: «العلم: أن تعرف ربك، ولا تعدو قدرك».

وهذه عبارة مختصرة وجيزة، جمع فيها ـ رحمه الله ـ مقصود علوم الصوفية، وهى: معرفة الله تعالى، وحسن الأدب بين يديه، وهذه هى العلوم التى ينبغى للإنسان أن يستغرق فيها عمره الطويل، ولا يقنع منها بكثير ولا قليل.

وقد قال سيدى أبو الحسن الشاذلى – رضى الله عنه –: من لم يتغلغل فى هذه العلوم – يعنى علوم الصوفية – مات مصرا على الكبائر وهو لا يعلم. وما سوى هذه العلوم قد لا يحتاج إليها، وربما أضرَّ بصاحبها مداومته عليها، وقد استعاذ رسول الله (ﷺ) فى الخبر المشهور عنه «من علم لا ينفع». ثم ذكر المؤلف، رحمه الله تعالى، عبارة أخرى فى بيان العلم النافع وتعريفه يلازمه فقال:

خَيْرُ عِلْمٍ ما كَانَت الخَشْيَةُ مَعَه.

خير العلوم ما يلزم وجود خشية لله تعالى، لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك، فقال، عز من قائل ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١) فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه، بل لا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة.

قال الربيع بن أنس رحمه الله، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾: من لم يخش الله فليس بعالم، ألا ترى أن داود – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – قال: ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك والحكمة والإيمان بك فما علم من لم يخشك، ولا حكمة لمن لم يؤمن بك».

قال فى «لطائف المنن»: «فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية لله تعالى، وشاهد الخشية موافقة الأمر أما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا والتملق لأربابها،

---

(١) آية رقم ٢٨ من سورة فاطر.

وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع والادخار والمباهاة والاستكثار وطول الأمل ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء: وهل ينتقل الشىء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه؟

ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء مثل الشمعة تضئ على غيرها وهى تحرق نفسها. جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه حجة عليه وسببا فى تكثير العقوبة لديه» ا هـ

وكان سهل بن عبد الله، رضى الله عنه، يقول: «لا تقطعوا أمرا من أمور الدنيا والدين، إلا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله تعالى: قيل يا أبا محمد: من العلماء؟ قال: الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم».

وقد قال عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، فى وصيته: «وشاور فى أمرك الذين يخشون الله تعالى».

وقال الواسطى، رضى الله تعالى عنه: «أرحم الناسِ العلماء، لخشيتهم من الله تعالى وإشفاقهم مما علمهم الله عز وجل».

وقال فى التنوير، فى قوله (ﷺ)، (طالب العلم تكفل الله له برزقه): اعلم أن العلم حيث ما تكرر فى الكتاب العزيز أو فى السنة إنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية وتكتنفه المخافة قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١)فبين أن الخشية تلازم العلم. وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية، وكذلك قول الله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾(٢)، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(٣)، ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(٤)، وقوله (ﷺ) (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم)(٥) وقوله (ﷺ) (العلماء ورثة الأنبياء)(٦) وقوله هنا (طالب العلم تكفل الله برزقه) إنما المراد بالعلم فى هذه المواطن: العلم النافع القاهر للهوى، القامع للشهوة، وذلك متعين بالضرورة، لأن كلام الله وكلام رسوله (ﷺ) أجل من أن يحمل على غير هذا - وقد بينا ذلك فى غير هذا الكتاب - والعلم النافع

(١) الآية ٢٨ من سورة فاطر. (٢) الآية ٨٠ من سورة سورة القصص.
(٣) من آية ١١٤ من سورة طه.
(٤) آية ٧ من سورة آل عمران.
(٥) «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل»، جزء من حديث رواه الترمذى
(٦) «وإن العلماء ورثة الأنبياء» جزء من حديث فى مدح العلم أخرجه أبوداود والترمذى

هو الذى يستعان به على طاعة الله عز وجل، ويلزمك المخافة من الله تعالى، والوقوف على حدود الله، وهو علم المعرفة بالله، ويشمل العلم النافع العلم بالله والعلم بما أمر الله به إذا كان تعلمه لله تعالى». ا هـ

وقد تقدم المعيار الصادق على صحة دعوة التعلم والتعليم لله عند قوله «إذا التبس عليك أمران».

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى، رضى الله تعالى عنه: «كل علم لا يورث صاحبه الخشية والتواضع والنصيحة للخلق والشفقة عليهم، ولا يحمله على حسن معاملة الله تعالى ودوام مراقبته وطلب الحلال وحفظ الجوارح وأداء الأمانة ومخالفة النفس ومباينة الشهوات فذلك العلم الذى لا ينفع، وهو الذى استعاذ منه النبى (ﷺ) فقال (أعوذ بك من علم لا ينفع) ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقال رجل للشعبى: أيها العالم. فقال: اسكت، العالم من يخشى الله تعالى. وقال بعض السلف: «من ازداد علمًا فليزدد خشوعًا».

وقال رجل للجنيد رضى الله عنه: أىٌ العلم أنفع؟ قال،«ما دلك على الله تعالى، وأبعدك عن نفسك».

قال: والعلم النافع: ما يدل صاحبه على التواضع، ودوام المجاهدة، ورعاية السر، ومراقبة الظاهر، والخوف من الله، والإعراض عن الدنيا وعن طالبيها، والتقلل منها، ومجانبة أربابها، وترك ما فيها على من فيها من أهلها، والنصيحة للخلق، وحسن الخلق معهم ، ومجالسة الفقراء، وتعظيم أولياء الله تعالى، والإقبال على ما يعنيه، فإن العالم إذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله تعالى بقدر ذلك، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(١) وقال النبى (ﷺ): «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحبَّ آخرته أضر بدنياه، ألا فآثروا ما يبقى على ما يفنى»(٢).

وقال الفضيل بن عياض، رضى الله تعالى عنه: «العالم طبيب الدين وحب الدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يبرىء غيره».

فإذا وفق الله العالم من العلماء للإقبال على الله وعلى أوامره، والإعراض عن الدنيا وما فيها ومن فيها:

---

(١) الآية٧ من سورة الروم.

(٢) حديث صحيح رواه الإمام أحمد فى مسنده والحاكم فى مستدركه عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه.

فأول ما يلزمه أن يعرف نعم الله عليه فى ذلك ويقوم بواجب الشكر، ويزيد تواضعا واجتهادا، ويعلم أنه محمول على ذلك، وأن ذلك بتوفيق من الله تعالى، لا بمجاهدة منه، فإن مجاهدته أيضا ومعرفته لنعم الله عليه بزيادة توفيق الله.فإذا كان العامل بهذا المحل من الدين كان إمام يقتدى به فى أحكام الظاهر وأحوال الباطن، يهتدى بنوره كلٌّ من صحبه، ويستضئ بعلمه كل من اتَّبعه ويكون حجة الله على عباده، وبركة فى بلاده.

ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا وطلب العلو فيها، وطلب اتباع الرياسة واستتباع الخلق فهو العلم الذى هو غير النافع، وهو المغتر به ولا حسرة أعظم من أن يهلك العالم بما يرجو به نجاته. ونحن نعوذ بالله من الخذلان» انتهى. ثم عبر المؤلف، رحمه الله تعالى، بعبارة أخرى من معنى ما تقدم فقال:

العلمُ إنْ قَارَنَتْهُ الخَشْيَةُ.. فَلَكَ(١)، وإلاَّ.. فَعَلَيْكَ.

العلم الذى تلازمه الخشية لك، لأنك تنتفع به فى دنياك وآخرتك. وليس ذلك إلا ما ذكرناه.

والعلم الذى لا خشية فيه عليك، لأنك تستضر به فيهما.

وهذا هو الفرق بين علماء الأخرة وعلماء الدنيا، من حيث أنَّ علماء الأخرة موصوفون بالخشية والرهبة، وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والغرة. وقد بين علماؤنا، رضى الله عنهم، حال الفريقين وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات، وأطالوا فى ذلك النفس، لما شاهدوا من انتشار الفساد فى الأرض بسبب جهل الناس بالعلم النافع أىِّ شىء هو!!

فمن أراد الشفاء فى ذلك واستيفاء الكلام عليه، وما فى ذلك من الأخبار والآثار فعليه بالنظر فى كتاب «العلم» من كتاب«إحياء علوم الدين» لأبى حامد الغزالى، رضى الله تعالى عنه، ولباب ذلك ما ذكره المؤلف، رحمه الله، ها هنا.

وقد قال الفضيل بن عياض، رضى الله عنه: «كان العلماء ربيع الناس: إذا نظر إليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنيا، وقد صاروا اليوم فتنة على الناس».

قال هذا فى زمانه الصالح، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟ فإنا لله وإنا إليه

(١) فلك، أى فلك أجره وثوابه، وإلا فعليك وزره وعقابه، أو فلك محجة، وإلا فعليك حجة، قال رسول الله (ﷺ): «كل الناس يغدو مبايع نفسه فمعتقها أو موبقها».

راجعون.

واعلم أنه قد ورد فى الكتاب والسنة من فضل العلم والعلماء ما لا يحصى كثرة، ولا يرجى حصول ذلك إلا لمن صحَّت فيه نيَّته وصحَّة نِّيته فى ذلك أن يكون غرضه فيه طلب مرضاة اللّه تعالى واستعماله فيما ينفع عنده وإيثاره الخروج عن ظلمة الجهل إلى نور العلم فهذه هى النية الصحيحة التى تحمد عاقبتها أجلا وتجتنى ثمرتها فى طاعة اللّه عاجلا. وقد روى عن رسول اللّه – صلى اللّه عليه و سلم – أنه قال: «كل يوم لا أذداد فيه علما يقربنى من اللّه عزَّ وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم» وقال الحسن: – رضى اللّه تعالى عنه –» كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك فى تخشعه ولباسه وبصره ولسانه وصلاته وهديه وزهده وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيرا له من الدنيا بما فيها لو كانت له ليضعفها فى الآخرة وليأتين على الناس زمان يشتبه فيه الحق والباطل فإذا كان ذلك لم ينفع فيه إلا دعاء كدعاء الغريق".

وقال سفيان الثورى رضى اللّه عنه إنما يتعلم العلم ليتقى به اللّه وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى اللّه به.

فإن اختل هذا المقصد وفسدت نية طالبه بان يستشعر به التوصل إلى منال دنيوى من مال أو جاه فقد بطل أجره وحبط عمله وخسر خسراناً مبيناً. قال اللّه عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(١)»

وقال رسول اللّه (ﷺ) فيما روى عنه أبو هريرة – رضى اللّه عنه» من تعلم علما مما يبتغى به وجه اللّه تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعنى: ريحها.

وكان الحسن، رضى اللّه تعالى عنه، يقول: «واللّه ما طلب هذا العلم أحد إلا كان حظه منه ما أراد به» وقال الحسن: «عقوبة العالم موت القلب. فقيل له: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة». فإذا إنضاف إلى هذا الغرض أن يتصدى به إلى تولى الاعمال السلطانية كائنة ما كانت، أو يتوصل به إلى إكتساب مال من حرام أو شبهة فقد تعرض لغضب اللّه تعالى وسخطه وباء بإثمه

(١) من الآية ٢٠ سورة الشورى.

وآثام المقتدين به وكان الجهل إذ ذاك خيراً له من العلم وأحمد عاقبة. وقال أبو عمر ابن عبد البر، رحمه الله تعالى: «... وروينا عن الأوزاعي، رضي الله عنه، قال: شكت النواويس(١) إلى الله عز وجل ما تجد من نتن جيف الكفار، فأوحى الله تعالى إليها: «بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه» قال: وروينا عن الفضيل بن عياض، وأسد بن الفرات، قال: بلغني أن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان، قال الفيضل بان عياض، رضي الله عنه: لأن من علم ليس كمن لم يعلم». قلت: والغالب على طلبة العلم في هذه الأعصار هذا الوصف المذموم، لأن حب الدنيا قد إستولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدم والترؤس قد ملكهم فأصمهم وأعماهم، ولذلك أمارات وعلامات لا تحصى ولا تخفى، وفي الحديث عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «يخرج في أخر الزمان رجال يختلسون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: أَبي تغترون، أم علي تجترئون، فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيران» رواه أبو هريرة -رضي الله عنه.

وروى أبو الدرداء، رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «أنزل الله تعالى في بعض الكتب - أو أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك(٢) الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر إياي يخادعون وبي يستهزئون لأتيحن لهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران.

وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله (ﷺ): «يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه ولا من الإسلام إلا اسمه قلوبهم خربة من الهدى ومساجدهم عامرة من أبدانهم، شر من تظل السماء يومئذ علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود».

(١) قال المنجد: الناووس، والناوس: مقبرة النصارى، والجمع نواويس، ويطلق على حجر منقود تجعل فيه جثة الميت.

(٢) المسك ـ بالميم المفتوحة وسكون السين: الجلد، والجمع: مسك ومسوك، بضم الميم والسين، ولعل المراد به هنا: القناع.

وأعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف إنما هو العلم الذى يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية وملازمة التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الإيمان وتوافق الإسرار والإعلان إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها وإيثار الآخرة عليها والموالاة فى الله والمعاداة فيه، والحرص على التفطن للأسباب الباعثة له على الاستقامة ولزوم الأدب بين يدى الله تعالى فيراعيها حفظا وطلبا ومعرفة الأسباب المضادة له عن غير ذلك فيرفضها رفضا وهربا إلى غير ذلك من الصفات العلية والمناجى السنية فبهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية.

فإذا خلا طالب العلم عنها أو عن بعضها فإن كان ما يطلبه علما حقيقيا كان حجة عليه وإن كان رسميا كان وبالا واصلا إليه والعياذ بالله من ذلك.

قال فى لطائف المنن: ربما غرّ الغافل من طلبة العلم من قال: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله وليس فى قول هذا القائل ما يستروح إليه من طلب العلم للرياسة والمنافسة به وإنما أخبر هذا القائل عن أمر مُنَّ به عليه وفتنه سلمه الله منها لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك بمثابة من به مرض مزمن فى المعى أعيا علاجه الأطباء وضاق عليه خُلُقه فأخذ خنجرا وضرب به مراق(١) بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعى فقطعه فخرج الداء منه فهذا لا يستصوب العقلاء فعله وأنه نجحت عاقبته وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة:

● ليس المخاطر محمودا وإن سلما ●

وقال فى موضع آخر: «ولا يغرنك أن يكون به انتفاع للبادى والحاضر فقد قال (ﷺ): «إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(٢).

ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من رفع العذرة(٣) بملعقة من الياقوت فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه ومثل

---

(١) وفى نسخة: مزق بطنه: والمزَق، بميم مسكورة وزاى مفتوحة، جمع مزقة وهى القطعة والمرق، بكسر الميم وفتحا: الجلد، والجمع أمراق.

(٢) حديث صحيح، ورواه الإمام أحمد وغيره براوية أخرى: «إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم».

(٣) العذرة: الغائط.

من قطع الأوقات فى طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة فلم يصلى صلاة واحدة!!

إذ مقصود العلم العمل كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة.

ولقد سأل رجل الحسن البصرى عن مسألة فأفتاه فيها فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء ! !فزجره الحسن وقال: ويحك!!وهل رأيت فقيها؟! إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه، قال: وسمعت شيخنا أب العباس يقول: «الفقيه من انفتق الحجاب عن عين قلبه» والرجل الذى سال الحسن البصرى هو «فرقد السنجي"والله اعلم. وقد رُوى عنه فى صفة الفقهاء كلام أتمّ مما ذكر صاحب كتاب «لطائف المنن».

قال فرقد السنجي: «سألت الحسن عن مسالة فأجابنى عنها فقلت له: إنّ الفقهاء يخالفونك!!فقال لى: ثكلتك أمك فريقد !!وهل رأيت فقيها بعينك؟!إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه والورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم المجتهد فى العبادة المقيم على سنة المصطفى (ﷺ) الذى لا ينبُذ ُمن فوقه ولا يسخر ممن هو دونه ولا يأخذ على علم علمه الله له حطاما».

قلت: وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه فلا يبل علمه إلا لمن يتوسم فيه الخير والصلاح إذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد التى ذكرناها ولا يبذله لمن هذا ممن علم حاله أو جهله.

قال رجل لسفيان الثورى رضى الله عنه: «إنك إن نشرت ما معك من العلم رجوت أن ينفع الله به بعض عباده وتؤجر على ذلك، فقال سفيان الثورى: والله لو أعلم بالذى يطلب هذا العلم لا يريد به إلا مــا عند الله لكنت أنا الذى آتيــه فى منزله فأحدثه بما عندى ممن أرجو أن ينفعه الله به».

وقد سئل بعض العلماء عن شىء فلم يجب فقال له السائل: أما سمعت رسول الله صلى اله عليه وسلم قال: «من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من النار(١)؟!

(١) رواه ابن عدى فى الامل بسند ضعيف.

فقال له: اترك اللجام واذهب فإن جاء من يستحقه وكتمته فليلجمنى به».

وفى قوله عز من قائل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾(١) تنبيه على أن حفظ العلم ممن يفسده ويستضر به أولى كما قيل:

ومن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد حكى عن بعض الأمم السابقة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة فى أخلاقه فإن وجدوا فيه خلقا رديئا منعوه من العلم أشد المنع وقالوا: إنه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردىء فيصير العلم آلة شر فى حقه.

وقد قالت الحكماء: «زيادة العلم فى الرجل السوء كزيادة الماء فى أصول الحنظل كلما ازداد ريا ازداد مرارة».

وهذا كله صحيح مجرب فينبغى إذا للعالم ألا يهمله بل يراعيه ويمتثله ولا اعتبار بما يتوهمه فى تعليمهم من وجود المصالح على تقدير حصول توفيق الله تعالى لهم بأن يعملوا ببعض ما يتعلمونه من العلم الصحيح إن كانت لهم ولاية حكم أو غير ذلك فإن المفاسد التى تقع بسبب ذلك لهم فى خاصة أنفسهم والمفاسد التى تتعدى منهم إلى غيرهم أكثر ودرء المفاسد أهم عند العقلاء من جلب المصالح.أمّا المفاسد التى تختص بهم فهى تقوية صفاتهم الذميمة وأخلاقهم اللئيمة بما يطلبونه من العلم لأنهم يستشعرون بذلك التوصل إلى جميع مطالبهم الدنيوية على غاية الكمال والتمام فإذا استشعروا بذلك توجهوا بهممهم إليه وعكفوا بالجد والاجتهاد عليه ولولا هذا الاستشعار لم يتصور منهم ذلك فإذا حصلوا على شىء من ذلك وظهرت لهم مخايل وصولهم إلى أغراضهم المذكورة فرحوا بذلك واغتبطوا به وكلما ازدادوا علما ازدادوا فرحا واغتباطا بما هم فيه وهذا الفرح والاغتباط فى غاية الذم منهم لأن ذلك متعلق بأسباب الدنيا وهى بمنزلة السم القاتل الذى يوجب موت قلوبهم وقسوتها وبعدها عن التأثر بالمواعظ والحكم كما قيل:

إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة
كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر

وعند ذلك تنتعش نفوسهم وتتقوى صفاتهم وتظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا والركون إلى من هى عنده من أبنائها المترفين وليس لهم ما يتوسلون به إليهم سوى علمهم فيحتالون على تحصيل إقبالهم عليهم وصرف

---

(١) الآية ٥ من سورة النساء.

وجوههم إليهم بالتفنن عندهم بأنواع من الحيل ولا يسلمون فى ذلك من الرياء والتصنع والنفاق والدهان ويجرهم ذلك إلى أنواع من المحظورات وضروب من العصيان مع ما يحل بهم فى ذلك من الذل والهوان فإن نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم وتمكنوا من جميع حظوظهم فخرجوا من الحرية إلى استبعاد الأغيار واستبدلوا بالجهل النافع العلم الضار.

وقد قال الفضيل بن عياض: «لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحوا على دينهم وأعزو العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعا وعز الإسلام وأهله ولكنهم أذلوا أنفسهم ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذ سلمت لهم دنياهم فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك ما فى أيدى الناس فبذلوا وهانوا على الناس»

انتهى ولله در الشاعر رحمه الله حيث يقول:

يقولون لى فيك انقباض وإنما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
إذا قيل لهم هذا مورد قلت قد أرى
ولكن نفس الحرّ تحتمل الظما
وما كل برق لاح لى يستفزنى
وما كل أهل الأرض أرضاه مُنعما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى
لأخدم من لاقيت إلا لأخدما
أأغرسه عزا وأجنيه ذِلة إذن
فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أنَّ أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى نفوسهم لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهّما

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه لعطاء الخرسانى: «كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة فى علمهم فأصبح أهل العلم فيها اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة فى دنياهم فأصبح أهل لدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم."

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه: «كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبا ولها طلبا وكان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب الرجل اليوم بعلمه مالا وكان يرى على طالب العلم زيادة فى باطنة وظاهرة فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد فى الباطن والظاهر».

فانظر يرحمك الله إلى ما ذكره هؤلاء الفضلاء تجده لازما لطلبة العلم هذا الزمان"وليس الخبر كالعيان».

ثم بعد وقوع هذه المفاسد بهم وتوغلهم بها فى سوء أدبهم يتعذر عليهم بعد ذلك سلوك طريق الحق لمَا استحكم فى قلوبهم من علامات سوء الخلق فقد قيل: التعمق فى الباطل قطع لآمال الرجوع عنه فكلما كان بُعد المسافة من الحق أتم كان اليأس من الرجعة أوجب وأعظم الوبال عليهم اغترارهم بحالهم واستحسانهم لسىء أعمالهم واعتقادهم أنهم سالكون سبيل النجاة فى الدار الآخرة ونيل الثواب فيها وأنهم هم الذين حازوا الرتب الشريفة والمناقب المنيفة التى أختص بنيلها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وليس عندهم من المعرفة وعلوم التحقيق ما يخرجون به من هذا الغرور لأنهم لم يسلكوا طريق ذلك ولم يهتدوا لما هنالك فهذا هو الفساد الذى يختص بهم ولا يشاركون غيرهم فيه.

أما الفساد الذى يتعدى إلى غيرهم فأظهر من كل ظاهر وناهيك بمن ملكته نفسه أشد ملك واستعبدته أشد استعباد هل يبقى عليه من الشر أو نوع من أنواع الفساد إلا ويقع فيه إذا تمكن منه.

ومن دقيق ما يسرى عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك وقوع الاغترار للجهلة والأغمار بمشاهدة حالهم فإنهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ما أرادوه ويتوهمون أنهم نالوا شرف الآخرة بما أفادوه واستفادوه فيحملهم ذلك على الإقتداء بهم فى طلب العلم إن كانوا ممن فيه قابلية لذلك فيقعوا فيما وقعوا فيه من المهالك أو يؤديهم ذلك إلى محبتهم وموالاتهم واتخاذهم أربابا يسمعون منهم ويطيعونهم فى أوامرهم ونواهيهم ثم يخرج بهم استحسان حالهم إلى الداء الدفين وهو مسارقة طباعهم الدنيئة وأخلاقهم الرديئة لأن نفوس العامة قابلة لذلك ومهيأة له بمنزلة الصبى الذى ترسخ فيه أخلاق آبائه ومنازعهم ومذاهبهم وعند

ذلك يبطل فى حقهم ما هو مقصود من بعثة الرسل من التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة وحب الفقر والمسكنة وإيثار التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الإيمان والإسلام وشدة الحذر من ارتكاب المناهى والآثام ثم يئول بهم ذلك إلى الشرك الخفى والجلى ثم يحيق بهم المكر السيئ والعياذ بالله تعالى ويكون وبال ذلك راجعا إلى العالم لتيسير أسباب ذلك على يديه ولقد صدق ابن المبارك رحمه الله تعالى حيث يقول:

وهل أفسد الدين إلا الملوك

وأحبار سوء ورهبانها

فباعوا النفوس ولم يربحوا

ولم تغل فى البيع أثمانها

لقد رتع القوم فى جيف

يبين لذى العقل أنتانها

وروى عن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه: «أنه أخذ حصاه بيضاء فوضعها فى كفه، ثم قال: إن الدين قد أستضاء إضاءة هذه، ثم أخذ كفا من تراب، فجعل يذره على الحصاه حتى واراها، ثم قال: والذى نفسى بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا كما دفنت هذه الحصاه، ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدم بالقدم والنعل بالنعل».

قلت: ومنشأ وجود هذه المفاسد خراب بواطنهم وظلمة قلوبهم بسبب فقد اليقين منها، وانكشاف أنوار الإيمان فيها، وإفلاسهم من حقائق ذلك، وعدم إختصاصهم بشيء منه، فصاروا بذلك مأسورين لأهوائهم، منقادين لأغراضهم وأرائهم، ففسدت بذلك نياتهم ومقاصدهم،» والأعمال بالنيات»(١)، فإذا كانت النيات صالحة كانت الاعمال صالحة، وترتب عليها أثار الصلاح، وإنعطف من ذلك على القلوب مزيد إشراق وحميد أخلاق يؤذن ذلك بوجود القرب من الله ونيل درجة الحب منه وإذا كانت النيات فاسدة كانت الاعمال ايضا فاسدة وترتب عليها أثار فاسدة وإنعطف من ذلك على القلوب زيادة ظلمة ورداءة همة تقتضى البعد من الله تعالى وحصول المقت منه وطلب العلم عمل من الاعمال معرض للصحة والاعتلال وليت شعرى: هؤلاء الذين استغرقوا أعمارهم فى طلب العلم والأثر وأتعبوا أنفسهم بالدراسة والنظر وقطعوا أيامهم ولياليهم بالجوع والسهر

(١) إشارة إلى الحديث الشريف الذى صدر به الإمام البخارى كتابه «وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى».

وسمحت نفوسهم بفراق ملذوذاتها والبعد عن جميع مألوفاتها، هل بعثهم على ذلك باعث الدين أو باعث الهوى، ولا شك أن باعث الدين غير متصور منهم بل هو محال في حقهم، لما قدمناه من خراب البواطن وظلمة القلوب، وكيف يتصور ذلك منهم وهم لم يعملوا على تخلصهم من التكاليف الواجبة عليهم في ظواهرهم وبواطنهم بل لم يعرفوا ذلك ألبتة، وإن ادعوا أنهم على أحوال لا يجب عليهم فيهم حكم يحتاجون إلى تعرفه والقيام به فهم مخدوعون، ومن أين لهم ذلك، والعلم به لا يحصل ضرورة فلابد لهم من استفادته ولا عناية لهم بهذا ايضا وإنما كان يتصور منهم باعث الدين لو توفرت أغراضهم كلها عليه ووصلوا إلى ما يمكنهم الوصول اليه من شهواتهم ولذاتهم بسبب ما من أسباب الدنيا ثم يصرفون ما فضل من أوقاتهم عن محاولة هذه المطالب ونيلها إلى طلب العلم عوضا عن البطالة التي يتبرم بها صاحبها ويدعوه فراغه من إشغال دنياه إلى قطع ذلك الوقت بلهو ولعب أو ارتكاب معصية وذنب لا البطالة التي يكون فيها استراحة لنفسه واستجمام لعقله وحسه ففي هذه الحال قد يصح باعث الدين من أمثال هؤلاء وأما الحال التي وصفناها فلا يتصور عليها باعث إلا الدنيا المجردة المجاوزة للحد في الذم والمقت بمنزلة من هو حريص على الاتساع في الدنيا والحصول على غاية ملاذها فإنه يعمل فيما يوصله إلى ذلك وإن كان فيه هلاكه فتراه يرتكب الاخطار ويخوض لجج البحار ويجوب البراري والقفار ويهون عليه في جنب ما يأمله كل مشقة تصيبه وبلية تنزل به. ولو ولم يفعل هذا لم يحصل إلا على سد الرمق (١) والاقتصار على التبليغ (٢) والعلق (٣) فكذلك هؤلاء الذين كلامنا فيهم لو لم يتصوروا في خواطرهم الحصول على كليات أغراضهم: من اتساع مالهم، وجاههم في دنياهم، ووصولهم مع ذلك إلى رفيع الدرجات في عقباهم، لم يبلغوا ذلك المبلغ في الاجتهاد ولا اقتصروا على بعضه.

وهذه كلها أمور بينة لا إشكال فيها عند من له ادني تمييز وفهم، وليس المانع لأكثر من ينتسب إلى العلم من العمل بمقتضى ما ذكرناه خفاءه عليهم، كيف، وهم يعتقدون صحته ويسلمون حاصله وحقيقته في الاحايين عندما ينجلي عن قلوبهم بعض ظلماتهما، وتتزحزح عن عظيم غمراتها إما بتذكير مذكر من الخلق،

---

(١) أي: ما يمسك قوته ويحفظها والرمق «بفتح الراء والميم» بقية الحياة.

(٢) التبلغ: ما يكفي من العيش.

(٣) العلق «بضم العين وفتح اللام» جمع علقة مثل غرفة وغرف وهو ما تتبلغ به الماشية ويقال: فلان لا يأكل إلا علقة، أي: ما يمسك نفسه.

أو وعظ واعظ فى قلوبهم من قبل الحق، ثم يرجعون فى سائر أوقاتهم إلى مألوفاتهم ومعتاداتهم، وإنما المانع لهم من ذلك انفراد الله تعالى بالمشيئة والقدرة واستئثاره بالخذلان والنصرة، فإذا أراد الله تعالى أن يضل عبدا من عباده لم ينصره عقل، ولم ينفعه علم، قال الله تعالى عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾(١).

وفى مثل هذا الموطن تبطل أحكام الأسباب، ويتحقق أرباب الحقائق العظمة والجلال، والعزة والكمال لرب الأرباب، فليعتبر بما ذكرناه أرباب الأبصار، وليسلموا أحكام الواحد القهار لعلهم بذلك يهتدون إلى منهج التحقيق حين يضل غيرهم عن سواء الطريق:

● مصائب قوم عند قوم فوائد ●

وليقل العبد المؤمن إذا نظر إليهم، واعتبر بما جرى من سوء القضاء عليهم: «الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاهم به وفضلنى عليهم تفضيلا» فقد ورد عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «من رأى مُبتلى فقال: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به هذا، وفضلنى عليه وعلى كثير ممن خلق تفضيلا عافاه الله من ذلك البلاء كائنا ما كان(٢)»

فعلى المعلم الناصح لنفسه، السالم فى عقله وحدسه(٣)، العامل على تصحيح أعماله وهممه، المشفق على دينه الذى هو منوط بلحمه ودمه، أن يتأمل هذه المفاسد ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه، ويدقق النظر فى ذلك كما يدققه فى أكثر المسائل التى لا يحتاج إليها، ولا يقدم على التعليم فى هذه الأزمنة ذوات العلل المزمنة حتى يقطع بوجوب ذلك عليه من غير تردد ولا تجويز وقوع خطأ فى نظر ولا سبيل له إلى هذا ولا يسعه خلاف ذلك إن كان منصفا قال بعضهم: «رأيت سفيان الثورى حزينا فسألته عن ذلك فقال وهو برم ما صرنا إلا متجرا لأبناء الدنيا» !! قلت وكيف ذلك؟ قال يلزمنا احدهم حتى إذا عرف بنا وحمل عنا وجعل عاملا أو حاجبا أو قهرمانا(٤) أو جابيا(٥) يقول حدثنا سفيان الثورى!!

---

(١) آية ٤١ من سورة المائدة

(٢) حديث حسن رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) الحدس «بفتح الحاء وإسكان الدال» النطق والقول بالرأى.

(٤) القهرمان: الوكيل أو أمين الدخل والخرج.

(٥) الجابى: جامع الضرائب والخراج.

وعليه ايضا أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه اليه من التعليم لأن كل ما تستحليه النفس ويوافق غرضها مصحوب بالآفات والعلل التى تقدح فى إخلاص الأعمال وإخلاص الاعمال شرط فى وجوب القبول وعند ذلك يذهب عمله باطلا ولا ينال بسعيه طائلا وقد تقدم من كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه « كونوا لقبول العمل اشد من اهتماما منكم للعمل» عند قوله» ما قل عمل برز من قلب زاهد» وتقدم ايضا الكلام على اتهام النفس فى دعائها إلى ما ظاهره خيرا عند قوله «إذا التبس عليك أمران». وليتعلم الجزم فى ذلك من بشر بن الحارث الحافى، رضى الله عنه كان يقول: «أنا اشتهى أن أحدث ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت».

وكان سبب تركه طلب الحديث أنه سمع أبا داود الطيالسى يحدث عن شعبه أنه كان يقول الاكثار من الحديث يصدكم من ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون !! فلما سمعه منه قال: انتهينا انتهينا ثم ترك الرحلة فى طلب الحديث وأقبل على العبادة. وروى ايضا مثل هذا الكلام عن مسعر بن كدام، فإذا كان الأكثار فى طلب الحديث بهذه المثابة عند إمامى المحدثين فى زمانيهما مع ما فيه من الفوائد الاخروية فما ظنك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها؟! ولقد ذكر الشيخ الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله بإسناده إلى عبد الله بن مسلمة القعنبى، رحمه الله قال دخلت على مالك بن أنس، رضى الله عنه فوجدته باكيا، فسلمت عليه فرد السلام ثم سكت عنى يبكى فقلت له يا أبا عبد الله ما الذى أبكاك؟ فقال لى: يا ابن قعنب ابكى على ما فرط منى ليتنى جلدت بكل كلمة تكلمت بها فى هذا الأمر بسوط ولم يكن فرط منى ما فرط من هذا الرأى وهذه المسائل ولقد كان لى سعة فى ما سبقت إليه» قال هذا فى ما كان آخذا فيه من المسائل المحققة المبنية على أصول صحيحة غير ملفقة فما الظن بما انتشر بعده من الهذيان الذى صار بحكم العادة واقتضاء العصبية وتمالؤ الناس على الضلال وتقليد الرؤساء الجهال دينا قويما وصراطا مستقيما؟! وعلى كل واحد من العالم والمتعلم أن يشتغل بما هو عليه مما هو مأمور به ومسئول عنه من مراقبة ربه واصلاح نفسه وقلبه، فله فى ذلك شغل شاغل عمّا يفرّق همّه، ويقسى، قلبه، وينسيه ذكر ربه عز وجل.

قال وهب بن منبه،» ذُكر طلب العلم عند مالك بن أنس فقال: إن طلبه لحسن إذا صحت فيه النية، ولكن أنظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى،

ومن حين تمسى إلى حين تصبح، فلا تؤثرن عليه شيئا».

وكان سفيان الثورى يقول لأهل العلم الظاهر: «طلب هذا ليس من زاد الآخرة» وكان يقول: «ليس طلب الحديث من عدة الموت، لكنه علّة يتشاغل به الرجل» وكان يقول: «لولا أن للشيطان فيه حظا ما أزدحمتم عليه يعنى العلم فهذه نبذه قصدت إلى بثها فى الموضع اللائق بها من هذا التنبيه ليتنبه بها من سبق له من الله زوال العمى عن بصره.

ومراجعة خوفه وحذره من المعلمين والمتعلمين وليتبين بها كلام المؤلف رحمه الله غاية التبيين وبالله الذى لا اله سواه نستعين.

مَتَى آلَمَكَ عَدَمُ إقْبَالِ الناسِ عَليكَ، أوْ توجُّهُهُمْ بالذَّمِّ إلَيْكَ، فَارْجعْ إلى علْم الله فيكَ.. فإنْ كَانَ لا يُقْنعُكَ علْمُهُ فيكَ، فَمُصيبَتُكَ بعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بعلْمه أشَدُّ منْ مُصيبَتكَ بوجُود الأذَى منْهُم!

العبد لا ينبغى أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه فلا يفرح إلا باقباله عليه ولا يحزن إلا لإعراضه عنه ولا ينظر إلى المخلوقين فى إقبال ولا إعراض ولا مدح ولا ذم فإنهم لا يغنون عنه من الله شيئا وقد تقدّم مثل هذا المعنى فى قوله رحمه الله: «غب عن نظر الخلق اليك ينظر الله اليك وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك»، فمتى آله عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه فليرجع إلى ما بينه وبين ربه، فإن كان قانعا بعلمه، راضيا بقسمته كان له فى ذلك أعظم سلوان عما يفوته من جهة المخلوقين، بل لا يجد وقعا فى قلبه لما عسى أن يكون منهم من إقبال أو إعراض، وإن لم يكن راضيا ولا قانعا، فمصيبته بذلك أعظم من مصيبته بأذى الناس له، بل لا مصيبة له فى أذى الناس ألبتة عند من عرف سر ذلك على ما يذكره المؤلف الآن رحمه الله تعالى.

قال إبراهيم التيمى، رضى الله تعالى عنه، لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيّ؟ فقالوا: يقولون إنك مُراء. فقال: الآن طاب العمل. فقال بشر رضى الله عنه: اكتفى والله بعلم الله، فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره. وقال بشر الحافى: «سكون النفس إلى قبول المدح لها أشد عليها من المعاصى».

إنَّمَا أجْرَى الأذَى عَلَيكَ منْهُم كى لا تَكُونَ سَاكنًا إلَيْهم.
أرَادَ أنْ يُزْعجَكَ عَنْ كُلِّ شَىء، حَتَّى لاَ يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَىءٌ.

وجود أذى الناس للعبد نعمة عظيمة عليه، سيما ممن اعتاد منه الملاطفة والإكرام، والمبرة والاحترام، لأن ذلك يفيده عدم السكون إليهم، وترك الاعتماد عليهم، وفقد الأنس بهم، فيتحقق بذلك عبوديته لربه عز وجل. قال سيدى أبو الحسن الشاذلى، رضى الله تعالى عنه: «آذانى إنسان مرة، فضقت ذرعا بذلك، فنمت فرأيت كأننى يقال لى: من علامات الصدِّيقية كثرة أعدائها ثم لا يبالى بهم».

وقال بعض العارفين: «الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره، ولولا ذلك لرقد القلب فى ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم».

وقال سيدى أبو محمد عبد السلام شيخ سيدى أبى الحسن الشاذلى، رضى الله تعالى عنهما، فى دعائه: اللّهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللّهم إنى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك».

وقال أبو الحسن الوراق النيسابورى، رضى الله عنه: «الأنس بالخلق وحشة، والطمأنينة إليهم حمق، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهن، والثقة بهم ضياع، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل أنسه به وبذكره وتوكله عليه، وصان سره عن النظر إليهم وظاهره عن الاعتماد عليهم».

وقد قالوا: «الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقربا إلى الله تعالى، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا لله عز وجل».

قال فى» لطائف المنن»» اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، وكيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم استناد ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد أسترقك بوجود امتنانه،

ولذلك قال (ﷺ): «من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له» كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخَلق، وليتعلق بالملك الحق، قال: وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: «اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من

شرهم، فإن خيرهم يصيبك فى قلبك، وشرَّهم يصيبك فى بدنك، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك، ولعدو تصل به إلى الله خير لك من حبيب يقطعك عن الله، وعدَّ إقبالهم عليك ليلا وإعراضهم عنك نهارا، ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا» قال: وتسليط الخلق على أولياء الله فى مبدأ طرقهم (١) سنة الله فى أحبائه وأصفيائه، قال الشيخ أبو الحسن، رضى الله تعالى عنه: «اللّهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك، وكل وَجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار معرفتك» قال: ومما يدل على أن ذلك سنة فى أحبابه وأصفيائه قوله تعالى» ﴿وَزُلْزِلُوا﴾(٢)..... الآية وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾(٣)... الآية وقوله تعالى﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾(٤) الآيتين وقوله﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾(٥)... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى» انتهى.

وكذلك من استحلى حالا أو ساكن مقاما فمن سنة الله تعالى مع أوليائه تشويش ذلك عليهم، وهو من غيرته على قلوبهم لئلا تستأنس بغيره، ولئلا تتقيد بسواه، قال الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله عنه: «ومن المقاطع المشكلة السكون إلى استحلاء ما يلاقيك به من فنون تقريبك، وكأنه فى خلال ما يناجيك يعاتبك، فإنه بكل لطيفة يصفيك ويطربك وتحتها خدع خافية، ومن أدركته السعادة كاشفة بشهود جلاله وجماله، لا بإثباته فى لطيف أحواله، وما يخصه من أفضاله وإقباله وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدود عندهم من الشهوة الخفية» ومن هذا المعنى ما ذكر عن سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه، لما دخل على شيخه أبى محمد عبد السلام فى أول ما لقيه وسأله عن حاله، فقال له: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار. فقال له الشيخ أبو الحسن: أما شكواى من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلم أفهمه؟ فقال: أخاف

---

(١) وفى نسخة: فى مبدأ ظهورهم.

(٢) ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ سورة البقرة الآية ٢١٤.

(٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ سورة يوسف الآية ١١٠

(٤) آية ٥ من سورة القصص

(٥) آية رقم ٣٩ من سورة الحج

أن تشغلنى حلاوتها عن الله سبحانه وتعالى"وقال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه: اللطف حجابب عن اللطيف"يعنى السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به وكذلك قال سرى السقطى رضى الله عنه لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار عليها من جميع ما خلق الله من الأطيار فخاطبه كل طائر منها بلغته وقال: السلام عليك يا ولى الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان فى أيديها أسيرا».

وقال بعضهم: «لا يكون الصوفى صوفيا حتى لا تقله أرض ولا تظله سماء ولا يكون له قبول عند الخلق ويكون مرجعه فى جميع أموره إلى الحق».

وقيل: «الفقير: من لا دنيا له ولا آخرة فإن عُرض على مالك قال: ليس من رجالى وإن سلُم إلى رضوان قال: لا أهتدى إليه وليس من رجالى وإن قلت من هو؟ وما الذى يدعى به قال: ليس ممن يدعى بشىء. وقال محمد بن الحسن رضى الله عنه بينما أنا أدور فى جبل لبنان إذ خرج شاب قد أحرقه السّموم(١) والرياح فلما نظر إلىّ ولى هارب فتبعته وقلت له عظنى بكلمة فقال: احذره.لأنه غيور لا يحب أن يرى فى قلب عبد سواه".

وكتب الجنيد رضى الله عنه إلى بعض إخوانه من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع ممن اسكن اليه ورجع إلى ما أشار اليه كشف الله ما به من المحن والبلوى، وان دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق والرحمة عليه، البس والبس لباس الطمع فتزداد رغبته فيهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم فتصير حياته عجزا وموته كمدا ومعاده أسفا ونحن نعوذ بالله من السكون لغيره.

إذَا عَلمتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلاَ تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصيتُكَ بيَده.

الشَيطان عَدوَ مسلط على الإنسان ومقتضى ذلك ألا يوجد منه غفلة ولا فترة عن التزين والإغواء والإضلال قيل لبعضهم اينام إبليس؟ فقال: لو نام لوجدنا راحة.

(١) السموم «بفتح السين» الريح الحارة بالنهار.

فإذا علمت انه لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده وهو الله عز وجل وذلك بتحقيق عبوديتك له وتوكلك عليه وافتقارك في كل أحوالك إليه واستعاذتك به من شر عدوك وعدوه فبذلك تخرج من سلطنته وتنجو من غائلته قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(١). وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢).

فمن تحقق به هذه الصفات العليّة ومن: الإيمان بالله تعالى والعبودية له والتوكل عليه واللجاء والافتقار إليه والاستعاذة والاستجارة به كيف يكون لعدو الله عليه سلطان؟! والله حبيبه ووليّ حفظه ونصره ولولا ما أمرهم الله تعالى بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه ومن هو حتى يستعاذ بالله منه.

قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(٣): قوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونهم.

وقال أبو حازم رضى الله تعالى عنه: ومن الشيطان حتى يهاب؟ ! والله لقد أطيع فما نفع ولقد عصى فما ضر !!

وقال بعضهم: الشيطان منديل هذه الدار يعني: يمسح به أقذار النسب وهى نسبة الشرور وأنواع المعاصي والفساد اليه أدبا مع الله عز وجل وهذا سر إيجاده كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾(٤) وقوله تعالى: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾(٥) وأما أن له حولا وقوة يضر بها أو ينفع فلا.

قال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه ما خلق الله عز وجل خلقا أهون عليه من إبليس ولولا أن الله أمرنى أن أتعوذ به منه ما تعوذت منه أبدا.

وقيل لبعض العارفين: كيف مجاهدتك للشيطان؟ فقال: «وما الشيطان؟!! نحن قوم صرفنا هممنا إليه فكفانا من دونه».

---

(١) آية رقم ٦٥ من سورة الإسراء
(٢) آية رقم ٩٩ من سورة النحل.
(٣) آية رقم ٦ من سورة فاطر
(٤) آية رقم ٦٣ من سورة الكهف
(٥) من آية رقم ١٥ من سورة القصص

وسُئل بعضهم: بم تدفع إبليس؟ فقال: لا أدفع من لا أعرف.

فأما إن أهملت ذلك وغفلت عنه ولم تعبأ به غلبك لا محالة لثبوت سلطنته عليك ووصوله بالوسوسة إليك.

قال أهل العلم: إن لكل أحد من الناس وسواسا موكلا به مستبطنا قلبه واضعا رأسه «أو قال: خرطومه» فإذا غفل العبد وسوس وإذا ذكر الله خنس: أي تأخر واستتر.

وقال يحيى بن معاذ رضى الله تعالى عنه: «الشيطان قديم وأنت حديث والشيطان كسير وأنت سليم الناحية والشيطان لا ينساك وأنت لا تزال تنساه وله من نفسك عليك عون».

وقيل: صدر ابن آدم مسكن له ومجراه من ابن آدم مجرى الدم وأنت لا تقاومه إلا بعون الله تعالى.

وقال مالك بن دينار رضى الله عنه: «إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله» وفيه يقول القائل:

أشكو عدوا كيده برانى

ولا أراه حيثما يرانى

وعندما أنساه لا ينسانى

يا سيدى إن لم تغث سبانى

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه: «إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه.

وعن أبى سعيد الخضرى رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «قال إبليس لربه عز وجل بعزتك وجلالك لأبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم قال له ربّه: وعزتى وجلالى لأبرح أغفر لهم ما استغفرونى"

جَعَلَه لَكَ عَدُواً ، لِيَحُوشَكَ(١) به إلَيه. وَحَرَّكَ عَلَيكَ النَّفْسَ، لِيَدُومَ إقبالُكَ عَلَيه.

عداوة الشيطان لك نعمة عظيمة من الله عليك إذ من مقتضاها -كما قلناه- ألا يغفل عنك وأن يبذل جهده فى محاربتك ومقاتلتك بنفسه وبجنده وبخيله وبرجله ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك لأنك فى غاية الضعف والعجز فيضطرك الحال لا

(١) حاش الصيد جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة، وبابه قال

محالة إلى الاستعانة عليه بمولاك القوى المتين فيوجد منك حينئذ الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه فى دفعه عنك.

فعداوة الشيطان هى التى ردك الحمد تعالى بها إليه وجمعك بها عليه وهذا هو غاية المقصود.

وكذلك حركة النفس عليك بالحمل على متابعة الهوى والشهوة بما جعل فيها من الطبع والجبلة نعمة عظيمة أيضا وإن كانت أعدى الأعداء لك إذ بواسطتها يتوصلون إليك وبأمرها يعملون فيما يعود بالضرر عليك من قبل أنك لا تقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلا بمن هو أقوى منك وليس ذلك إلا مولاك فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال عليه والعكوف بالهم عليه.

وكأن المؤلف رحمه الله تعالى ـ قصد فى هذه الكلمات إلى ذكر الأعداء الأربعة المذكورين فى قول الشاعر:

إنى بليت بأربع يرميننى
بالنبل عن قوس لها توتير
إبليس والدنيا ونفسى والهوى
يا رب أنت على الخلاص قدير

وبين فى كلامه وجود عداوتهم ووجوه الاحتراز منها وتمم ذلك ببيان أن تلك العداوات وإن عظمت من أعظم الوسائل إلى أسنى المطالب لمن أريد بذلك ووفق له وأتى بجميع ذلك فى ألفاظ بديعة مختصرة وجيزة محررة فاعرف قدر هذا الفصل واعترف لوضعه بكمال النبل والفضل وقال رضى الله عنه:

مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً، فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا.. إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُعُ إلاَّ عن رِفْعَةٍ، فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تواضُعًا، فأَنْتَ المتُكَبِّرُ حَقًّا!

إثبات التواضع يقتضى وجود الرفعة لامحالة: إذ لو كانت معدومة لكان ضدها، وهو الضعة، ثابتا موجوداً ولا ينتفى عن العبد التكبر إلا بوجود الضعة، ووجود الضعة لا يحتاج إلى إثبات من العبد، لأنه ثابت فى نفسه، فالتواضع الذى أثبته العبد لنفسه لا ينفى عنه وجود التكبر بالضرورة.

وأيضا، فإن لفظة «التواضع» تؤذن بذلك، فإن التواضع تفاعل من«الضعة» وأكثر باب التفاعل موضوع لإظهار الضعة، وليست كذلك كالتناوم، والتناكر،

والتفارح، والتماوت، وغير ذلك.

فصيغة التواضع لا تقتضى حقيقة الضعة وعدم الرفعة، ولا يلزم من وجودها ذلك.

والمطلوب من العبد إنما هو أن يتصف بذلك حقيقة لا إظهاراً فقط، بأن ينتفى عنه وجود الرفعة بالكلية، وحينئذ يبرأ العبد من التكبر ولا يكون له وجود ألبتة.

لَيْس الْمُتَــواضِعُ الَّذى إذاَ تَوَاضَعَ رَأى أنَّهُ فَــوْقَ مَــا صَنَعَ. وَلَكنَّ الْمُتَوَاضِعَ: الَّذى إذاَ تَوَاضَعَ رَأى أنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ.

هذا بيان آخر لما ذكره من أن العبد المتواضع حقيقة لا يثبت التواضع لنفسه حقيقة، لأنه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته ما يمنعه من ذلك، وهذا هو التواضع الحقيقى، وهو: شهوده لذلك، ووجده به وظهور آثاره على ظاهره، بل شهوده لذلك ووجده به مما يقدح فى حقيقة تواضعه، كما قال الشيخ أبو عبد الله القرشى، رضى الله عنه: «من وجد ذوق ذله فى ذله فهو متعزز وفيه بقيه».

فهذا العبد المتصف بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعا، لأنه يرى نفسه دون ما صنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود والوجد عليه، فإن أثبته لنفسه ورأى أن نفسه فوق ما صنع مما يقتضى وجود صفة التواضع له بزعمه فهو متكبر حقيقة، ولذلك قال الشبلى، رضى الله تعالى عنه، يوماً فى بعض كلامه: «... ذلِّى عطَّل ذلَّ اليهود».

وقال: «من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب».

وقال أبو سليمان الدارانى، رضى الله تعلى عنه: «لا يتواضع العبد لله حتى يعرف نفسه».

وقال أبو زيد، رضى الله تعالى عنه: «مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر، قيل: فمتى يكون متواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً وتواضع كل أحد على قدر معرفته بربه وبنفسه».

وقال أبو سليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه: «لو أجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ماقدروا عليه».

وقال أبو يونس بن عبيد الله، رضى الله تعالى عنه، وقد انصرف من عرفات: «لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت فيهم».

وقيل لمحمد بن مقاتل: «ادع الله لنا، فبكى، وقال: يا ليتنى لم أكن أنا سبب هلاككم ».

ومن علامات التحقق بهذا الخلق ألا يغضب إذا عيب أو تنقص، ولا يكره أن يذم ويقذف بالكبائر.

ومن علامات تحققه به أيضاً أن يشتد حرصه على ألا يكون له جاه وقدر عند الناس ويلتزم الصدق في حاله ألا يرى لنفسه موضعا في قلوبهم، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله «أدفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه».

وحكى عن أبي الحسن بن الكرابيسي أستاذ الجنيد، رضي الله عنهما: أن رجلا دعاه ثلاث مرات إلى طعامه وهو يطرده، ثم يرده فيرجع إليه بعد ذلك، حتى أدخله داره في المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك، فقال: قد ربضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد، ثم يدعى فيعود، ويرمى له عظم فيجيب ولو رددتني خمسين مرة ثمَّ دعوتني بعد ذلك لأجبتك».

قال أبو طالب المكي، رضي الله تعالى عنه: وحدثت عن بعض الصوفية، أنه وقف على رجل وهو يأكل، فمد يده وقال: إن كان ثم شئ لله تعالى؟ فقال: اجلس فكل. فقال: اعطني في كفي. فأعطاه في كفه. فقعد في مكانه يأكل، فسأله عن امتناعه من الجلوس معه. فقال: إن حالي مع الله الذل فكرهت أن أفارق حالي. قال وكان هذا ربما مد يده إلى الهراس فيجعل فيها هريسته.

ومن أغرب ما رأيت في التواضع ماذكره صاحب كتاب «عوارف المعارف» قال: «رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب، وكنت معه في سفره إلى الشام، وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رءوس الأسارى من الإفرنج وهم في قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ، قال للخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم، وأقعدهم على السفرة صفا واحدا، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، وأكل وأكلوا، وظهر لنا على وجهه مانازل باطنه من التواضع لله تعالى والانكسار في نفسه، وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله».

وأغرب من هذا ماذكره صاحب كتاب «بغية الطالب ومنية الراغب» أبو الحسن على بن عتيق بن يوسف القرطبي، رحمه الله تعالى، عن أبيه أنه رأى الشيخ الفقيه أبا محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن مفيد، وكان من الفقهاء العلماء، وهو يمشي في يوم شات كثير الطين، فاستقبله كلب يمشي على الطريق التي كان عليها. قال: فرأيته قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقا ووقف ينتظره ليجوز وحينئذ يمشي هو، فلما قرب منه الكلب قال: فرأيته قد ترك مكانه الذي كان فيه

ونزل أسفل، وترك الكلب يمشي فوقه. قال: فلما جاوزه الكلب وصلت اليه فوجدته وعليه كآبة، فقلة له: ياسيدى،إنى رأيتك صنعت الآن شيئا استغربته، كيف رميت بنفسك فى الطين وتركت الكلب يمشى فى الموضع النقى؟ فقال لى: بعد أن عملت له طريقا تحتى تفكرت، فقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسى أرفع منه، بل وهو الله أرفع منى وأولى بالكرامة، لأنى عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لاذنب له فنزلت له عن موضعى وتركته يمشى عليه، وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عنى، لأنى رفعت نفسى على من هو خير منى.

التَّوَاضُعُ الحَقِيقِيُّ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا مِنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ، وَتَجَلِّي صِفَتِهِ.

شهود عظَمةَ الله تعالى، وتجلى صفته هو الذى يوجب للعبد وجود التواضع الذى ذكرناه، لأن ذلك هو الذى يخمد النفس ويذيبها ويبطل أمنيتها، فما تجلى الله تعالى لشئ إلا خضع له، فلا تنقلع من القلب شجرة حبّ الرياسة والكبر إلا به، لا بما يتكلفه العبد ويتعاطه بنفسه من أعمال وأحوال. قال الجنيد رضى الله عنه: «التواضع عند أهل التوحيد تكبر».

وقال الشيخ أبو حامد الغزالى، رضى الله تعالى عنه: «ولعل مراده: أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها أو يرفعها».

وقال ذو النون المصرى، رضى الله تعالى عنه«من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله، فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى».

وفى كتاب «عوارف المعارف»..«واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها.

لا يُخْرِجُكَ عن الوَصْفِ إلاَّ شُهُودُ الوَصْفِ.

هذه عبارة مليحة موافقة لمعنى ما تقدم الآن، فالوَصف المذكور أولا وصف العبد، والوصف المذكور ثانيا وصف الرب تبارك وتعالى.

المُؤمنُ يَشْغَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى الله عَنْ أنْ يَكُون لنَفْسه شَاكراً، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللّه عَنْ أن يَكُونَ لحُظُوظه ذَاكراً.

شكر النفس رؤية نسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، وذلك ثناء عليها، وهو مضاد للثناء على اللّه تعالى وذكر حظها من اعتقاد أن لها حقا على ما يفعله من الطاعات، وهو مضاد للقيام بحقوق اللّه تعالى. فالمؤمن الحقيقي لا يلتفت إلى نفسه في نسبة شئ من المحاسن إليها، وفي طلب حظ عليه لها، بل يشغله الثناء على اللّه تعالى والحرص على توفية حقوقه عن جميع ذلك.

لَيْس المُحبُّ الذى يَرْجو مِنْ محبوبه عوَضًا، أو يَطْلُبُ منه غَرَضًا.. فإنَّ المُحبَّ من يبذل لَكَ، لَيْسَ المُحبُّ من تَبْذُلُ له!

المحبة تقتضى من المحب بذل كلياته وجزئياته في مرضاة محبوبه من غير طلب حظ يناله منه، فهذا مما يلزم وجود المحبة، كما قيل:

إنَّ المحبّ إذا أحب حبيبه
تلقاه يبذل فيه مالا يبذل

بل يرى ما فعل من ذلك غاية الحظ، وموافقة رضا محبوبه نهاية السعادة والبخت، كما قال أبو حفص عمر بن الفارض، رحمه اللّه تعالى:

مالى سوى روحى وباذل روحه
فى حبّ من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى
ياخيبة المسعى إذا لم تسعف

ولذلك قيل: المحبة: الإيثار، وهو ألاّ يدع لمحبوبه ميسورا إلا بذله، ولا ممكنا إلا استعمله، ولا يبقى لنفسه ولا لحظة نفسا ولا سمة، ولا يستثنى من كل ما بذله له سمسمة، وأنشدوا:

لئن بقيت فى العين منى قطرة
فإنى إذن فى العاشقين ذليل (١)

وقال أبو عبد اللّه القرشي، رضى اللّه تعالى عنه: «حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منك شئ».

(١) وفى نسخة: دخيل، وفى أخرى: بخيل..

وقال أبو يعقوب السوسى، رضى الله تعالى عنه: «حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله تعالى وينسى حوائجه إليه».

وقيل لبعض المحبين، وكان قد بلغ المجهود فى بذل ماله ونفسه حتى لم يبق من بقية: ما كان سبب حالك هذه فى المحبة؟ فقال: كلمة سمعتها من خلق لخلق عملت فى هذا البلاء. قيل: وما هى؟ قال: سمعت محبا خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبى وكله وأنت تعرض عنى بوجهك كله.

فقال له المحبوب: إن كنت تحبنى فأى شئ تنفق على؟ فقال: ياسيدى، أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى أهلك، فقلت: هذا خلق لخلق، وعبد لعبد، فكيف بخلق لخلق، وعبد لمعبود؟ فكان هذا سببه، فهذا الذى ذكرناه من لوازم المحبة الحقيقية.

وأما رجاء العوض وطلب الغرض، فهذا حال من مقامه الرجاء، وليس من مقام المحبة المخصوصة فى شئ. **قال الشاعر:**

من لم يكن بك فانيا عن حظه
وعن الهوى وعن الأنس بالأحباب

فلأنه بين المراتب واقف
لمنال حظ أو لحسن مآب

قال آخر:

وما أنا بالباغى على الحب رشوة
ضعيف الهوى يرجو عليه ثوابا

قال أبو محمد رويم: «من أحبّ العوض بغّض العوض إليه محبوبه»وقيل: أوحى الله عز وجل إلى عيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام: «إنى إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبى».

وقال بعض المحبين: «كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين فى الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخشن ويتثنين، إليهن نظرة، فعوقبت أربعين يوما، قال: ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال. وقيل لى: انظر إليهن. قال: فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر إليهن، وقلت: أعوذ بك مما سواك لا حاجة لى بهنّ فلم أزل أتضرع إلى الله تعالى حتى صرفهنّ عنى».

وذكر الشيخ الحافظ أبو نعيم رضى الله عنه قال: «قال ميسرة» الخادم غزونا فى بعض الغزوات فإذا فتى إلى جانبى، وإذا هو مقنع بالحديد، فحمل على الميمنة حتى ثناها، وعلى الميسرة حتى ثناها، وحمل على القلب حتى ثناه، ثم **أنشد يقول:**

أحسن بمولاك سعيد ظنا

هذا الذى كنت له أتمنى

تنح يا حور الجنان عنا

مالك قاتلنا ولا قتلنا

لكن إلى سيدكن اشتقنا

قد علم السر وما أعلَّنا

قال: فحمل، فقتل منهم عددًا كثيرًا، ثم رجع إلى مصافة فتكالب عليه العدو فإذا هو قد حمل على الناس، **وأنشأ يقول:**

قد كنت أرجو ورجائى لم يخب

أن لا يضيع اليوم كدى والطلب

يامن ملا تلك القصور باللعب

لولاك ماطابت وطاب الطرب

فحمل وقاتل فقتل منهم عددًا كثيرًا، ثم رجع إلى مصافةً فتكالب عليه العدو فحمل الثالثة على الناس، **ثم أنشأ يقول:**

ياكعبة الخلد قفى ثم اسمعى

مالك قاتلنا فكفى وارجعى

ثم ارجعى إلى الجنان واسرعى

لاتطمعى، لاتطمعى، لاتطمعى

فقاتل حتى قتل، رحمه الله تعالى.

ولأجل ما ذكرناه من اقتضاء مقام المحبة بذل كلية البذل من المحب لزم وقوع الابتلاءات والمطالبات به حتى يحصل له توفية حقوق هذا المقام على التمام، ولهذا قال بعضهم: «أول مايقول الله عز وجل للعبد: اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك، فإن قال: لا ما أريد إلا أنت، قال له: من دخل معى فى هذا إنما يدخل بإسقاط الحظوظ ، ورفع الحدوث، وثبوت القدم، وذلك يوجب له العدم.

وقال بعض العلماء: «إذا رأيتك تحبه، ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك».

وقال بعض المريدين لأستاذه: طولعت بشيء من المحبة، فقال له«يابني، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرته عليه؟ فقال: لا قال: تطمع نفسك في المحبة، فإنه لا يعطيها أحدا حتى يبلوه».

وقال بعض علمائنا، رضي الله عنهم: «كل أهل المقامات يرجون أن يعفو عنهم ويسمح لهم، إلا من ادعى المعرفة والمحبة، فإنهم يطلبون بكل شعرة مطالبة، وفي كل حركة وسكون ونظرة وخطوة لله، ومع الله».

وقال إبراهيم بن أدهم، رضي الله تعالى عنه، وكان له مقامات في المحبة رفيعة: «قلت ذات يوم: يارب، إن كنت أعطيت أحد من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطني ذلك، فقد أضر بي القلق. قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه فقال: يا إبراهيم، أما استحييت مني أن تسألني ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن المشتاق دون لقاء حبيبه أم هل يستريح المحب إلى غير معشوقة. قال: يارب تهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمني كيف أقول. فقال: قل اللّهم أرضني بقضائك، وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك» انتهى فللمحبين دقائق خطرات، ولطائف ملاحظات يظهر لهم بذلك الشوق في صفاء حبهم، والبعد في مواطن قربهم، فهم يفرون منها، ويخرجون عنها مخافة أن تسترق بشيء من ذلك قلوبهم بأدنى ميل أو مساكنة، فيوجب لهم ذلك السقوط من مقامهم الرفيع الذي أهل لهم وأهلوا له، ولذلك قال محمد بن سهل بن عبد الله، رضي الله عنه: «جناية المحب عند الله تعالى أشد من معصية العامي» وهو أن يسكن إلى غير الله أو يستأنس بسواه.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود على نبينا (ﷺ): يا داود، إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي مع حب غيري».

ويحكى أن الله تعالى قال لموسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: «نعم العبد «برخ» هو لي إلا أن فيه عيبا. قال: يا رب، وما عيبه، قال: يعجبه نسيم الأسحار، فيسكن إليه، ومن أحبني لم يسكن إلى شئ».

ويروى أن عابداً عبد الله في غيضة(١) دهراً طويلاً، فنظر إلى طائر قد عشعش في شجرة يأوي إليها، ويصفر عندها فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت ذلك !! قال: ففعل، فأوحي إلى الله نبي ذلك الزمان، قل لفلان العابد استأنست بمخلوق، لأحطنّك درجة لا تنالها مني بشئ من عملك أبداً.

(١) الغيضة: الأجمة. مجتمع الشجر في مغيض الماء.

لَوْلاَ مَيَادِينُ النُّفُوسِ، مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائرينَ.. إذْ لاَ مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَها رِحْلَتُكَ، وَلاَ قُطْعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حتى تَمحُوَهَا وُصْلَتُكَ!

السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثارها ودواعيها، وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك، وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى، وتصل إلى سعادة لقائه، ولولا معاناة هذه الأشياء لم يتحقق السير والسلوك كيف، والحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه، فالعبد الحسى وهو المسافة التى تطويها رحلته، والبعد المعنوى وهى القطيعة التى تمحوها وصلته محالان فى حقه تعالى، لنفى المثلية فى الأول، وعدم العندية فى الثانى.

هذه الألفاظ التى عبر المؤلف رحمه الله تعالى من: السير، والميادين، والرحلة، والوصلة، وفى معناها: السير والسلوك، والذهاب والرجوع هى عبارات استعملتها الصوفية فى أمور معنوية تجوزوا بها عن أمور حسية، ومرجع جميع ذلك كله إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير.

وهذا الكلام الذى ذكره المؤلف ها هنا وما تقدم له، ولنا، غير ما مرة، من أن النفس هى الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى، وأن بمجاهدتها وقمعها، وموتها، تنال سعادة لقاء الله تعالى صحيح المعنى.

قال بعضهم: ما الحياة إلا فى الموت، أى: ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس.

وقيل: النعمة العظمى الخروج عن النفس، لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى.

وقال سيدى أبو مدين، رضى الله تعالى عنه: «من لم يمت لم ير الحق».

وقال سيدى أبو العباس، رضى الله تعالى عنه: «لا يدخل على الله إلا من بابين: من باب الفناء الأكبر ، وهو الموت الطبيعى، ومن باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة».

وعن حاتم الأصم، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت: موت أحمر، وموت أسود، وموت أبيض، وموت أخضر، فالموت الأبيض الجوع، والموت الأسود احتمال أذى الناس، والموت الأحمر مخالفة النفس، والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض.

وقال سهل بن عبد الله، رضى الله تعالى عنه: «للنفس سر ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون فقال: أنا ربكم الأعلى، ولها سبعة حجب سماوية، وسبعة حجب أرضية، فكلما يدفن العبد نفسه أرضًا أرضًا سما قلبه سماءً سماءً، فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش، يعنى: إذا خالفتها وفارقتها.

وسبيل المريد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة إلى مولاه فى أن يعينه ويقويه على أمر نفسه، ويسهل عليه طريق سلوكه، ويستعمل هذا فى كل حال ووقت، وليجعله عمدته فيما هو بسبيله.

وقد تقدم من كلام المؤلف، رحمه الله «ما توقف مطلب أنت طالبه بربك».

وقال بعض العارفين: لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما يكون الخروج من النفس بالله، ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة فى ظاهره وباطنه، والتزام آدابها.

ولكل عبد عمل مخصوص يقتضى لا محالة حكمًا مخصوصًا يقوم بحقه، وذلك مختلف باختلاف أحوال الناس، فحركات العبد وسكناته هى أعماله الظاهرة (١)، ومقصودة، وهمه وإرادته هى أعماله الباطنة. وكل واحد من القسمين ينبغى أن يأخذ فيه بعزائم الأمور ويجتنب الرخص التى هى من شأن العامة والجمهور، حسبما تقدم عند قوله «من جهل المريد أن يسئ الأدب فتؤخر العقوبة عنه».

فعمل الظاهر إن كان واجبا فليبادر إلى فعله، ولا يتوان عنه. ولْيقُم بجميع آدابه اللازمة له، ويلتحق بذلك ما كان مندوبا إليه إذا علم فى أى مرتبة هو، وإنما اشترطنا هذا الشرط، لأن المندوبات التى تعترضه يحتاج فيها إلى تقديم الأولى فالأولى، والأهم فالأهم منها، فإن لم يعمل على هذا وقدم ما ليس بأهم كان متبعا للهوى، لا لموجب العلم وليأخذ فى ذلك بالقصد من غير إفراط ولا غلو ولا تقصير، وفى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: قال رسول الله (ﷺ) «أكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا وإن أفضل العمل أدومه وإن قل» (٢).

---

(١) وفى نسخة: وتصوره.

(٢) حديث صحيح رواه الإمام أحمد فى مسنده والنسائى عن عائشة رضى الله عنها.



وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله (ﷺ): «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا» (١).

وإن كان حراما فليبادر إلى تركه واجتنابه، وليقطع عن نفسه جميع أسبابه ويلتحق بذلك ما يكون مكروها.

وإن كان مباحا فهذا هو محل نظر المريد، فعليه أن يأخذ بالعزيمة فيه، وليقف على حدود الضرورة منه، وليكن اجتنابه لما يشتد ميل النفس إليه، ويعظم حرصها عليه أكثر من اجتنابه لما فقد منه ذلك، ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص، فربّ شخص تميل نفسه الى ما لا تميل إليه نفس شخص آخر ، فليشتغل المريد بقطع ذلك وزوال علاقته من قلبه بالرياضة والمجاهدة، وليستمر على ذلك حتى يكون وقوفه على مالا بد منه على وجه الطاعة والقربة، لا على سبيل الهوى والشهوة.

وفيما يشتد ميل نفوس أكثر الناس إليه ما يكون سبب تناوله واستعماله مراعاة نظر الخلق، والجرى على عوائدهم السيئة ومراسمهم المذمومة، ومجاهدة النفس فى مثل هذا عسيرة جداً، لا سيما على من ابتلى بحب الجاه والرياسة وقبول الخلق فى ولاية حكم، أو نشر علم، أو غير ذلك فإنها أشد الشهوات علاقة بالقلب وأضرها بالمريد، فيجب عليه أن يعتنى بذلك، ويبالغ فى تطهير ظاهره وباطنه مما يتعاطاه من أعمال وأحوال، وقد نبهنا على هذا المعنى فى أول الكتاب عند قول المؤلف رحمه الله تعالى: «ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه».

ويتعين على المريد فى رياضته ومجاهدته أن يمنع حواسه ويكّف جوارحه عن التطلع والجولان فى مظان وجدان شهواته وسيئ عاداته، وأن لا يجامعها ولا يتفق معها، فإن ذلك منشأ كل شر، ومنبع كل فساد وضر، كما قيل:

إن السلامة من سلمى وجارتها
أن لا تمر ـ على حال – بواديها

فليراقب ربه، وليحفظ جوارحه وقلبه، فإن الإنسان قد يتحرك مثلاً فى طلب الخير والعمل من أعمال البر فيتفق أن يقع بصره على شئ له فيه هوى وشهوة، فتميل نفسه إليه بالشره والمحبة، فيتكدر عليه وقته، ويظلم قلبه، ويختل عليه فى لحظة ما كابد أمره فى سنة مثلا، وكذلك سائر حواسه. وقد شبه العلماء – رضى

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى وغيره وتكملة الحديث «واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة».

الله عنهم - النفس فى مثل هذا بداية استعارها رجل من ربها ومالكها ليتصرف بها فى حاجاتها، وكانت دابة جموحة صعبة المراس، فجاز بها المستعير فى بعض تصرفاته على دار مولاها فنزعت إلى دار سيدها، فإنه لا محالة - يحتاج إلى صرف عنانها(١)، فإن تقاعست(٢) ضربها بالسوط والعصا حتى يصرفها بذلك عما نزعت إليه، وقد يكون عليه فى ذلك تعب ومؤونة، وسبب ذلك إنما هو خطوره بها على دار مولاها الذى ألفته واعتادته، ولو لم يمر بها عليه لسلم، ولم يحتج إلى معاناة ولا مكابدة فإن تغافل عنها حتى أدخلت يدها فى عتبة الباب واستمكنت منها، ثم أراد منعها من الدخول لم تطعه بوجه، بل اقتحمت به الدار كرها، وربما جرحت رأسه وآلمته، وسبب ذلك إنما هو تمكينها من العمل بمقتضى طبيعتها، وموافقة جبلتها، فكذلك حال النفس، **قال:**

فالنفس إن أعطيتها هواها

فاغرة نحو هواها فاها

فلذلك كانت الخلوة والعزلة من أوجب الواجبات على المريد، فإن نفسه إذ ذاك تكون ساكنة هادئة قد نسيت عوائدها وفترت دواعيها، وبمداومته على ذلك يحصل له من: التزكية، والتخلية، والاستقامة، والطمأنينة ما هو المقصود بالرياضة والمجاهدة، فإن اعتراه شئ مما ذكرناه اختل عليه حاله واحتاج من أجل ذلك إلى المجاهدة الشاقة والرياضة الصعبة، وأنى له مع ذلك تلافى ما فاته!! وقد قالوا «وقفة المريد شر من فترته».

قال الإمام أبو القاسم القشيرى(٣) ، رضى الله تعالى عنه: والفرق بين الوقفة والفترة أن الفترة رجوع عن الإرادة، وخروج منها، والوقفةخروج(٤) عن السير باستحلاء حالات الكسل، وكل مريد وقف فى ابتداء إرادته لا يجىء من شيئ» انتهى كلامه رحمه الله.

فبدايات الأمور هى التى يجب أن يراعيها المريد، والله ولى التوفيق والتسديد.

ولا غنى للمريد فى هذا القسم عن تحصيل ما يحتاج إليه من العلوم الشرعية على ما ينبغى.

---

(١) لجامها وقيادها

(٢) تبطأت

(٣) انظر الرسالة القشيرية ج٢ ص٧٣٧ نشر دار الكتب الحديثة.

(٤) وفى القشيرية: «والوقفة سكون السير.. ألخ».

وعمل الباطن يرجع حاصله إلى أمر واحد وهو إخلاص التوحيد لله عز وجل باعتقاد العبودية له، وذلك بأن يحمل نفسه على الاستسلام لأحكام الله تعالى، وترك المنازعة والتدبير والاختيار بين يديه.

وهذا المعنى هو الذى ضمنه المؤلف رحمه الله تعالى فى كتابه «التنوير فى إسقاط التدبير» فليستعن المريد على ذلك به ولا يقصد برياضته ومجاهدته التوصل إلى شئ من الكرامات وخرق العوائد وأنوا ع الإجابات، فإن ذلك فتنة وبلية قاطعة عليه طريق العبودية.

قال أبو عثمان المغربى، رضى الله عنه: «من اختار الخلوة على الصحبة ينبغى أن يكون خاليا من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، وخاليا من جميع الإردات إلا رضا ربه، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب، وإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية».

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى، رضى الله عنه: «من عمل ليجد أو يرى لم يفتح له بشئ حتى يكون قصده تحقيق العبودية والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية».

قال صاحب كتاب «عوارف المعارف»: «من دخل الخلوة معتلا فى دخوله دخل عليه الشيطان وسوّل له أنوا ع الطغيان وامتلأ من الغرور والمحال(١) وظن أنه حصل على حسن الحال». قال: وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلق، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهاب، والبراهمة، والفلاسفة والوحدة فى جمع الهم لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقًا، فكل ما كان من ذلك بحسن سياسة الشر ع وصدق المتابعة لرسول الله (ﷺ) أنتج تنوير القلب والزهد فى الدنيا وحلاوة الذكر، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك.

وما كان من ذلك من غير سياسة الشر ع ومتابعة رسول الله (ﷺ) ينتج صفاء فى النفس يستعان به على اكتساب علوم رياضية مما يعتنى به الفلاسفة والدهريون، وكلما أكثر من ذلك كثر البعد من الله تعالى. ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أو بما قد يترا ءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون ويظن أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة

(١) المحال «بكسر الميم» العذاب والعقاب.

وليست هي المقصودة من الخلوة، لقول بعضهم «الحق يطلب منك الاستقامة وأنت تطالبه بالكرامة».

وقد يفتح على الصادقين بشئ من خرق العادات وصدق الفراسة وتبين ما سيحدث في المستقبل، وقد لا يفتح عليهم ذلك، ولا يقدح في حالهم عدم ذلك، وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة.

وما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سبب مزيد انتفاعهم والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده، وغروره، وحماقته، واستطالته على الناس، وازدرائه بالخلق، ولا يزال به حتى يخلع ربقة(١) الإسلام من عنقه، وينكر الحدود والأحكام، والحلال والحرام، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى وترك متابعة الرسول، ثم يتدرج من ذلك إلى الإلحاد والزندقة، نعوذ بالله من الضلال.

وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ويسمونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك» انتهى كلامه رحمه الله وهو في غاية الحسن ونهاية التحقيق، فبمداومة العبد على مثل هذه الأساليب التي ذكرناها، مشاهداً لتوفيق ربه عز وجل وتأييده له يحصل له من الله مزيد كثير، وعند ذلك يتطهر باطنه من جميع الآفات وخبائث الصفات، وتستنير سريرته بأنوار المكاشفات والملاطفات، وقد عبر الإمام أبو القاسم القشيري، رضي الله عنه، عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة فقال: «قتل النفس في الحقيقة: التبري من حولها وقوتها، أو شهود شئ منها ورد دواعيها إليها، وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها، وانمحاء آثار بشريتها عنها، فأما بقاء الرسوم والهياكل فلا خطر لها، ولا عبرة» انتهى.

فهذه هي السبيل إلى موت النفس المفضي إلى حضرة القدس، لكونه جارياً على مقتضى الشريعة والحقيقة اللتين بأنوارهما يهتدي كل سالك ومريد.

ولابد للمريد في هذه الطريقة من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تهذيب نفسه، وتخلص من هواه، فليسلم نفسه إليه وليلتزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه، من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردد، فقد قالو: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه.

---

(١) الربقة: العروة في الحبل، والمراد بالربقة هنا عقد الإسلام.

وقد قال أبو على الثقفى، رضى اللّه تعالى عنه: لو أن رجلا جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام، أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من أمر له وناه يرويه عيوب نفسه ورعونات أعماله لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات».

وقال سيدى أبو مدين، رضى اللّه تعالى عنه: « من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه».

وقال المؤلف - رحمه اللّه - فى «لطائف المنن»: «إنما يكون الاقتداء بولى دلك اللّه عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد. فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك فى كمائنها ودقائقها، ويدلك على الجمع على اللّه، ويعلمك الفرار عما سوى اللّه، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى اللّه، يوفقك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان اللّه إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب عنها، وعدم الركون إليه، ويفيدك العلم بإحسان اللّه إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه. قال: فإن قلت: فأين من هذا وصفه؟ لقد دللتنى على أغرب من عنقاء مغرب (١) فاعلم أنه لا يُعْوزك وجدان الدالين، وإنما يعوزك وجدان الصدق فى طلبهم. جد صدقا تجد مرشدا، وتجد ذلك فى آيتين من كتاب اللّه تعالى قال اللّه سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(٢) وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٣) فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى اللّه اضطرار الظمآن إلى الماء، والخائف إلى الأمن لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطرت إلى اللّه اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريباً، ولك مجيبا، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك» انتهى.

وفى كلامه رحمه اللّه تنبيه على أن الشيخ من منح اللّه وهداياه للعبد المريد الصادق إذا صدق فى إرادته، وبذل فى مناصحة مولاه جهد استطاعته لا على ما قد يتوهمه من لا علم عنده، وعند ذلك يوفقه اللّه تعالى لأستعمال الأدب معه لما أشهده من عالى مرتبته ورفيع درجته.

قال سيدى أبو مدين: «الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالتعظيم، الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه، الشيخ من جمعك

(١) عنقاء مغرب: طائر مجهول الجسم لم يوجد.
(٢) آية ٦٢ من سورة النمل.
(٣) من آية ٢١ من سورة: محمد.

فى حضوره وحفظك فى مغيبه».

وقال المؤلف رحمه الله، فى «لطائف المنن»: «وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذى أثرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك الذى نهض بك حاله، شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى، شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولازال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه فزج بك فى أنوار الحضرة وقال: ها أنت وربك». انتهى.

وآداب المريد مع الشيخ، والشيخ مع المريد كثيرة مذكورة فى كتب الأئمة الصوفية رضى الله عنهم، ومن أبلغ ذلك وأوجزه ما ذكره الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنهم، قال: «فشروط المريد ألا يتنفس نفساً إلا بإذن شيخه، ومن خالف شيخه فى نفسه سرا أو جهرا فسوف يرى غبه من غير ما يحبه سريعاً، ومخالفة الشيوخ فيما يسرونه منهم أشد مما يكابدونه بالجهر وأكثر، لأن هذا يلتحق بالخيانة، ومن خالف شيخه لم يشم رائحة الصدق، فإن برز منه شئ من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة ليهديه شيخه إلى ما فيه كفّارة جرمه، ويلتزم فى الغرامة ما يحكم به عليه، فإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته، فإن المريدين عيال على شيوخهم، فرض عليهم أن ينفقوا من قوت أحوالهم ما يكون جبرانا لتقصيرهم» انتهى.

وقال الشيخ العارف محيى أبوالدين العباس البونى، رحمه الله تعالى، إياك أن تحقر فعلا يخطر لك ألا تلقيه إلى الشيخ طاعة كان أو معصية على أى نوع برز لك، ولو اختلف عليك ألف مرة فى ساعة اختلف إليه ألف ساعة فى الخاطر ليعلمك الدواء الذى تزعجه به، ويحمل عنك همَّه، قال «ولقد رأيت تلميذا من أصحاب شيخنا الإمام تاج العارفين أبى محمد عبد العزيز بن أبى بكر القرشى المهدوى، رحمه الله تعالى، وكنت جالسا عنده فدخل عليه فقير وفى يده «باقلاة»(١)، فقال له: ياسيدى، إنى وجدت هذه الباقلاة، فما أصنع بها قال له:

(١) الباقلاء: الفول

اتركها حتى نفطر عليها. فقلت ياسيدى حتى الباقلاة يعلم بها !! قال له: يا ولدى، لو خالفنى فى لحظة من خطراته لم يفلح أبدا».

فإذا جوهدت النفس بهذه المجاهدات وقوتلت بهذه المقاتلات(١) رجعت عن جميع مألوفاتها الدنيئة وعاداتها الرديئة، وزال عنها النفور والاستكبار، ودانت لمولاها بالعبودية والافتقار، وتزكت أعمالها وصفت أحوالها، وهذه هى خاصيتها التى خلقت لأجلها، ومزيتها التى شرفت من قبلها، وإنما ألفت سوى هذه لمرض أصابها من الركون إلى هذا العالم الأدنى، والأنس بالشهوات التى تزول وتفنى، حتى امتنع عليها ما خلقت لأجله من موجب سعادتها وغاية شرفها وإفادتها، فلما تعالجت بما ذكرناه عادت إلى الصحة وإلى طبعها الأصلى فألفت العبودية والتزمتها وصارت بذلك مطمئنة صالحة لأن يقال لها﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(٢)

قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله تعالى عنه: «النفس المطمئنة هى التى تخلصت من السوء ولم يبق بينها وبين السوء نسبة، وكانت مبادئها فى الاكتساب: الإيمان، والرضا المكتسب، فلما صفت وتطهرت من جهة المخلوقات وزال عنها الحجاب الذى هو صفة الخلق سمعت النداء من مكان قريب فأجابت لعدم الحجاب، فخرجت للمواهب والرضا الوضعى الوهبى الذى قال الله فيه ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٣) فدخلت فى رضا الله المطلوب الموهوب، وفى عباده، وجنته، لا فى جنّتها بوصف كسبها وأعمالها» انتهى.

وعلامة وصول المريد إلى هذا المقام الحميد أن تستوى عنده الأحوال، ويتأثر باطنه بما يواجه من قبيح الأفعال والأقوال، لا استغراق قلبه فى مطالعة حضرة الكمال.

قال أبو عثمان الحيرى، رضى الله تعالى عنه:«لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء، فى المنع والعطاء، والعز والذلّ» وقال محمد بن حنيف، رضى الله عنه، «قدم علينا بعض أصحابنا فاعتل، وكان به علة بالبطن» فكنت أخدمه، وآخذ منه الطشت منه طول مرضه. فغفوت مرة، فقال لى: نمت، لعنك الله. فقيل لى: كيف وجدت نفسك عند قوله «لعنك الله» فقلت: كقوله: «رحمك الله».

---

(١) وفى نسخة: وقوبلت بهذه المقابلات

(٢) من آية ٢٧: ٣٠ من سورة الفجر.

(٣) من آية ١١٩ سورة: المائدة

وحكى عن إبراهيم بن أدهم، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «ما سررت فى الإسلام إلا مرات معدودات، كنت فى مركب يوما، وكان به رجل يحكى الحكايات المضحكة، فيضحك منه الناس، وكان يقول: رأيت وقتا فى معركة الترك «علجاً(١)» فقلت هكذا وكان يأخذ بلحيتى ويمر يده على حلقى هكذا، والناس يضحكون منه، ولم يكن فى ذلك المركب عنده أحد أصغر منى ولا أحقر، فسررت بذلك، وكان يوم آخر كنت جالسا، فجاء إنسان وصفعنى من غير سبب ويوم آخر كنت جالسا فجاء إنسان «وبال على» وكان فى وقت حاتم الأصم، رضى الله عنه، رجل يسئ القول فيه، وفى أصحابه، ويواجههم كل يوم بالقبيح، فوقع عليه جذع من السقف فى بعض الأيام فى حال مواجهته القوم بالسبّ والشتم فمات، فقال حاتم: الحمد لله. فقيل له: هذا خلاف ما تأمرنا به! فقال: ما حمدت الله شماته بموته، بل حمدت الله إذ لم أسرّ بنكبته».

هذا وأشباهه من أحوالهم معلوم ضرورة. وأبلغ من هذا كله محبة الموت وكراهية البقاء فى الدنيا، شوقا إلى لقاء المولى، قال بعضهم: «حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله تعالى فى كلّ نفس من غير اختيار حالة يكون المرء عليها فإذا وجد المريد هذه العلامات فى نفسه فقد خرج من عالم حِسه ووصل إلى حضرة قدسه وكان كما **قال الشاعر:**

لك الدهر طوع والأنام عبيد
فعش كل يوم من زمانك عيد

وكما قال سيدى أبو العباس العريف، رضى الله تعالى عنه فى هذا المعنى:

بد لك سر طال عنك اكتتامه
ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سر عيبه
ولولاك لم يطلب عليه ختامه
فإن غبت عنه حل فيه وطنبت (٢)
على موكب الكشف المصون خيامه

(١) العلج بكسر العين، حمار الوحش القوى، والرجل الضخم القوى من كفار العجم، ولعل المراد معنا هنا هو المعنى الأول.
(٢) الطنب. «بضمتين» الحبل تشد به الخيمة ونحوها. وطنبت خيامه. شدت حبال الخيام.

وجاء حديث لا يمل سماعه

شهى إلينا نثره ونظامه

إذا سمعته النفس طاب نعيمها

وزال عن القلب المعنى غرامه

وأنشدوا فى معناه أيضا رضى الله تعالى عنهم أجمعين:

قولى لآمالى ألا فابعدى

قد أنجز الأحباب لى موعدى

قد كنت قبل اليوم مستأنسا

منك بخل مشفق مسعد

إذا نسيم الوصل من نحوهم

هبّ فلى عندك ظل ندى

وحيث إن لاحت لى أعلامهم

فليس لى فقر إلى مرشدى

وإن لم يجدها فى نفسه فليستمر على سلوكه ومجاهداته، ولا يغتر بما قد يتراءى له من سنى حالته، فإنه لم يصل بعد، ولم يحصل له من هوى نفسه فقد، وليس طريق موت النفس يقطع جميع الأرفاق(١) عنها، وردها إلى الاجتزاء بالخشن والنخالة والمبالغة فى التقشف، والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب، وهممه، وقصوره وإرادته، وترك الالتفات إلى ما يحمد منها وما يذم فذلك كله غلو وبدعة، وقد غلط فى ذلك طوائف من الناس عملوا عليه فى رياضاتهم ومجاهداتهم، ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم، فأداهم ذلك إلى اختلال عقولهم، وانحلال قوى أبدانهم ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة، ذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة.

(١) الاعطيات والمنافع. يقال أرفقه أى نفعه، وارتفقت بالشىء انتفعت به.

جَعَلَكَ فى العَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بين مُلْكِه ومَلَكوته، ليُعْلِمَكَ جَلالَةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقاته، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطوى عَلَيكَ أصْدَافُ مُكَوَّنَاته.

خلق الله تعالى الإنسان فى أحسن تقويم، وأتم تسوية وتعديل، وجعل بنيته متضمنة أسرار جميع الموجودات علويها، وسفليها، لطفيها وكثفيها، فصار لذلك روحانيا جسمانيا أرضيا سماويا، ولذلك يقال له«العالم الأصغر» وهذا هو الذى يظهر لى فى معنى جعله فى العالم المتوسط بين عالم الملك وعالم الملكوت.

وعالم الملك هو عالم الشهادة. وعالم الملكوت هو عالم الغيب. فلا جرم لما كان الإنسان بهذه المثابة من كونه نخبة جميع الموجودات الجسمانيات والروحنيات كانت الأكوان كلها له باعتبار إحاطتها به وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذى يحفظ الشئ ويصونه، وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التى تحويها الصدفة.

والمقصود من هذا أن يعرف الإنسان جلالة قدره، وفخامة أمره فيعلو بهمته إلى المراتب السامية اللائقة به، وذلك بإخلاص العبودية لربه عز وجل، وقطع النظر عن كل ما سواه وينظر فى هذا المعنى إلى ما **قاله الشاعر**:

إذا كنت كرسيًا وعرشًا وجنَّة
وناراً وأفلاكاً وأحلاكاً
وكنت من السر المصون سريرة
وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا
ففيم التأبى فى الحضيض تثبطا
مقيما مع الأسرى أما حان إسراكا

كان الشيخ أبو العباس المرسى، رضى عنه، يقول: «الأكوان كلها عبيد مسخرة لك، وأنت عبد الحضرة». وقد ورد فى بعض الكتب المنزلة: «يا ابن آدم أنا بدك فالزم بدك» وفى بعض الآثار المروية عن الله عز وجل: «يا ابن أدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلى، فلا تشتغل بما هو لك عن ما أنت له».

وقال الواسطى، رحمه الله تعالى، فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾(١) قال: بأن سخرنا لهم الكون وما فيه، لئلا يكونوا فى تسخير شئ، ويتفرغوا إلى عبادة ربهم».

إنما وسعَكَ الكَونُ مِنْ حَيثُ جَسْمَانِيَّتُكَ، ولَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ رُوحَانَيَّتُكَ.

إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك لوجود المناسبة والمجانسة، ووسعه لك، باعتبار ما ذكرناه، إنما هو باكتفائك به، وقضاء أوطارك منه، ووقوف أملك فى نيل حاجاتك عليه. ولا خاصية لك فى ذلك أيها الإنسان، لأن مرتبتك أجل من ذلك.

وإنما لم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك، لعدم المناسبة، فلا يسعك حينئذ ولا يناسبك إلا بالتعلق بالمكون، وهذه هى خاصيتك التى فيها سموك وعلوك ورفعة قدرك، فلم تهملها وتنحط منها إلى أسفل سافلين!!

قال أبو عبد الله بن الجلاء، رضى الله تعالى عنه: «من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكونها، ومن وقف بهمته على شئ سوى الحق فاته الحق لأنه أعز من أن يرضى معه شريكا».

وسئل أحمد بن خضروية عن أى الأعمال أفضل؟ فقال: رعاية السر عن الالتفات إلى شئ سوى الله».

الكَائِنُ فى الكَونِ ولَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الغُيوبِ مَسْجُونٌ بمُحيطاته، وَمَحْصُورٌ فى هَيْكَل ذَاته!

فمَن لازَم الكون، وبقى معه، وقصر همَته عَليه، ولم تفتح له ميادين الغيوب الملكوتية، ولاخلص سيره (٢) إلى فضاء مشاهدة الوحدانية فهو مسجون بمحيطاته، ومحصور فى هيكل ذاته، وهذه هى صفات أصحاب النار كما قال الله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾(٣) وليس فى جهنم عذاب أعظم من السجن والحصر والضيق والقهر، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾(٤) وما ذكرناه هو حال من بقى مع نفسه، وعمل على نيل حظه كائنا ما كان.

---

(١) من آية ٧٠ من سورة الإسراء

(٢) وفى نسخة: بسره.

(٣) من آية ٢٩ سورة الكهف.

(٤) من آية ١٣ سورة الفرقان

وفى بعض الآثار المروية عن الله عز وجل: (عبدى: اجعلنى مكان همك أكفك كل هم. ما كنت بك فأنت فى محل البعد، وما كنت بى فأنت فى محل القرب، فاختر لنفسك).

أنتَ مع الأكوانِ ما لم تَشْهَدِ المكوِّنَ. فإذا شهدتَهُ، كانت الأكوانُ مَعَك!

فرق بين كونك مع الأكوان وكون الأكوان معك، فإن كونك مع الأكوان يقتضى تقييدك بها، وحاجتك إليها، فأنت بذلك عبد لها، ثم هى خاذلتك، ومسلمتك أحوج ما تكون إليها. وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون، وكون الأكوان معك يقتضى ملكك لها، واستغناءك عنها، فأنت حينئذ حر عنها، وهى محتاجة إليك، وخادمة لك ، ومتبركة بك، حتى الجمادات والحيوانات.

وقال الشبلى، رضى الله عنه: «ليس يخطر الكون ببال من عرف المكون». وهذه حالة نفسية يقتضيها شهودك للمكِّون.

قال بعض المشايخ، رضى الله عنهم: «أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إلىّ، وأنا عن جميعها حرّ».

وعن المزينّ الكبير، رضى الله تعالى عنه، قال: كنت مع إبراهيم الخواص فى بعض أسفاره فإذا عقرب تسعى على فخذه، فقمت لأقتلها، فمنعنى، وقال: دعها كل شئ مفتقر إلينا، ولسنا مفتقرين إلى شئ».

وقال محمد بن المبارك الصوفى، رحمه الله تعالى: «كنت مع إبراهيم بن أدهم فى طريق بيت المقدس، فنزلنا فى وقت القائلة تحت شجرة رمان، فصلينا ركعتين، فسمعت صوت من أصل شجرة الرمان: يا أبا إسحاق أكرمنا بأن تأكل منا شيئا. فطأطأ إبراهيم رأسه. فقال ذلك ثلاث مرات، ثم قال: يا محمد كن شفيعاً إليه، ليتناول منا شيئا. فقلت: يا أبا اسحق لقد سمعت.. فقام، فأخذ منها رمانتين، فأكل واحدة وناولنى الأخرى، فأكلتها.

وفى غير هذه الحكاية أن الشجرة كانت قصيرة، ورمانها حامض، وأنها تطعم فى كل عام مرة، فعلت، وارتفعت وحلا رمانها، وصارت تطعم فى كل عام مرتين».

وكانت السباع تجئ إلى سهل بن عبد الله رضى الله تعالى عنه، فيدخلهم بيتا عنده، ويضيفهم ويطعمهم اللحم.

وقال إبراهيم الخواص، رضى الله تعالى عنه: «كنت فى البداية مرة، فسرت فى وسط النهار، فوصلت إلى شجرة، بالقرب منها ماء فنزلت، فإذا أنا بسبع عظيم قد أقبل، فلما قرب منى إذا هو يعرج، فحمحم، وبرك بين يدى، ووضع يده فى حجرى، فنظرت فإذا يده منتفخة فيها قيح ودم، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح، ومسحته، وشددت على يده خرقة فمضى، فإذا أنا به ساعة جاء ومعه شبلان يبصبصان(١) لى، وحمل إلى رغيفا».

وقال بعضهم: أشرفت على إبراهيم بن أدهم وهو فى بستان يحفظه، وقد أخذه النوم، وإذا حية فى فمها طاقة نرجس تروحه بها.

وحكى عن أبى اسحق الصعلوكى، رحمه الله تعالى، قال: خرجت مرّة إلى الحج، فبينما أنا فى البداية إذ تهت، فلما جنّ الليل علىّ وكانت ليلة قمراء، فسمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحق، قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه، فإذا هو شاب نحيف أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة، منها ما عرفته، ومنها ما لم أعرفه، فقلت: من أين أنت؟ فقال: من مدينة «سميساط» كنت فى عز وثروة، فطالبتنى نفسى بالعزلة، فخرجت وقد أشرفت على الموت فسألت الله تعالى أن يقيض لى وليا من أوليائه، فأرجو أنك هو، قال: فقلت له: ألك والدان؟ قال: نعم، وإخوة وأخوات، قلت: هل اشتقت إليهم، وإلى ذكرهم؟ فقالا، إلا اليوم أردت أن أشتم ريحهم فاحتوشتنى (٢) السباع والبهائم وبكين معى وحملن إلى هذه الرياحين، قال: فبينما أنا فى تلك الحالة يرقّ قلبى له إذا بحية أقبلت فى فمها طاقة نرجس فقالت: دع شرّك عنه فإن الله تبارك وتعالى يغار على أوليائه قال: فغشى على فما أفقت حتى خرجت نفسه رحمة الله تعالى ورضوانه ثم وقع على سنات من النوم فانتبهت وأنا على الجادة قال: فدخلت مدينة"سيمساط"بعدما حججت فاستقبلتنى إمرأة فما رأيت أشبه بالشاب منها فلما رأتنى قالت: يا ابا إسحق كيف رأيت الشاب فإنى أنتظرك منذ ثلاث فذكرت لها القصة إلى أن قلت: أردت أن أشم ريحهم فصاحت وقالت: آه بلغ الشُّم الشمَّ وخرجت نفسها أتراب لها عليهن المرقعات والفوط فتكفلن أمرها وتولين شأنها رضى الله عنهم أجمعين». فهكذا حال من يكون عظيم الهمة شريف الإرادة والنية لا يساكن أحدا من المخلوقات ولايوطن نفسه على شىء من المصنوعات فيتكفل الله تعالى بأمره ويجعل الكون خادما له بأسره رزقنا الله تعالى وإياكم ما رزقهم ووفقنا كما وفقهم بجوده وكرمه.

(١) يحركان ذنبهما.
(٢) اجتمعن حولى.

لاَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبوت الخُصُوصيَّة عَدَمُ وَصْفِ البَشَرِيَّة. إنَّمَا مَثَلُ الخُصُوصيَّة كَإِشْرَاق شَمْس النَّهَار..
ظَهَرَتْ فى الأفق، وَلَيْسَتْ منْه!
تَارَةً تُشْرِق شُمُوسُ أوصَافه عَلَى لَيل وُجُودكَ، وَتَارَةً يَقبضُ ذلك عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إلى حُدُودكَ.. فَالنَّهَارُ لَيْسَ منْكَ وَإلَيْكَ، وَلَكنَّهُ وَاردٌ وَرَدَ عَلَيْكَ..

ثبوت الخصوصية للعبد لا يلزم منه عدم وصف البشرية، لأن الوصف البشرى أمر ذاتى، لازم للعبد والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها وأنقلابها وإنما اللازم من ذلك عدم غلبة أحكام ذلك الوصف على العبد فقط لأجل الوارد الغالب فإن قدر ذهاب هذا الوارد الغالب بقى وصف البشرية غالبا قاهراً وكان العبد فى يده أسيرا.

ومثال ذلك من المحسوسات إشراق شمس النهار على الآفاق المظلمة لتزيل آثار ظلمانيتها فتستنير بذلك وتشرق فإذا غابت الشمس رجعت إلى حالها من الظلمة لأن النور ليس بذاتى لها وهو معنى قوله (وليست منه) ومعنى الخصوصية المذكورة هو ما يخص الحق تعالى به أولياءه من ظهور أوصافه العلية ونعوته القدسية عليهم ليغطى بذلك أوصاف نفوسهم الدنيئة الرديئة عنهم لئلا تظهر آثار كدوراتها فى صفاء أوقاتهم كما تقدم من قوله (إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه وغطى نعتك بنعته فإذا أشرقت أنوار ذلك الوارد على ليل وجودهم ذهبت بظلمات نفوسهم وبقوا فى نهار الوصلة والقربة من غير حول منهم ولا قوة) وهو معنى قوله (فالنهار ليس منك إليك) وإن غابت عنهم تلك الأنوار المشرقة رجعوا إلى أصلهم ولزموا الوقوف على حدهم وكانوا فى ليل القطيعة والحجبة كما كانوا قبل ذلك.

والغرض من هذا: الرد على طوائف غلطت فى هذا الأمر وتغالت وزعمت أن القرب من الله تعالى والوصول إليه إنما يكون بعدم أوصاف البشرية وزوالها بالكلية واتصافه بصفات الربوبية بدلا منها وفسرت بهذا ما عبر به المشايخ من «الفناء» و«البقاء» فوقعوا من ذلك فى ضلال وتزندق نعوذ بالله من ذلك والمعنى الصحيح من ذلك إما هو ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ورضى عنه ها هنا.

دَلَّ بوجُود آثَاره عَلَى وجُود أسْمَائه، وبوجُود أسْمَائه عَلَى ثُبُوت أوصافه، وبثُبوت أوصَافه عَلَى وجُود ذَاته.. إذْ مُحَالٌ أنْ يَقُومَ الوصْفُ بنَفْسه.

فَأهلُ الجَذْب يَكْشفُ لَهُمْ عَنْ كَمَال ذاته، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إلى شُهُود صفَاته، ثُمَّ يَرْجِعُهُمُ إلى التَّعَلُّق بأسْمَائه، ثمَّ يَرُدُّهُمْ إلى شُهُود آثَاره.

والسَّالكُونَ عَلَى عَكْس هَذَا.

فبدَايَةُ المَجْذُوبينَ، نهَايَةُ السَّالكينَ. وَبدَايَةُ السَّالكين، نهَايَةُ المَجْذُوبينَ. لَكنْ لا بمَعْنًى وَاحد.. فَرُبَّمَا الْتَقَيَا فى الطَّريق: هَذَا فى تَرَقِّيه وهذا فى تدليه

عباد الله المخصوصون بالقرب منه والوصول إليه ينقسمون إلى قسمين سالكين ومجذوبين.

فشأن السالكين الاستدلال بالأشياء عليه وهم الذين يقولون ما رأينا شيئا إلا ورأينا الله بعده.

وشأن المجذوبين الأستدلال به على الأشياء وهم الذين يقولون ما رأينا شيئا إلا رأينا الله قبله.

ولا شك أن الدليل أبداً أظهر من المدلول فأول ما ظهر للسالكين الآثار وهى الأفعال فاستدلوا بها على الأسماء وبالأسماء على الصفات وبالصفات على وجود الذات فكان حالهم الترقى والصعود من أسفل إلى أعلى.

وأول ما ظهر للمجذوبين حقيقة كمال الذات المقدسة ثم ردوا منها إلى مشاهدة الصفات ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء ثم أنزلوا إلى شهود الآثار فكان حالهم التدلى والتنزل من أعلى إلى أسفل.

فما بدأ به السالكون من شهود الآثار إليه انتهاء المجذوبين وما ابتدأ به المجذوبون من كشف حقيقة الذات إليه انتهاء السالكين. لكن لا بمعنى واحد فإن مراد السالكين شهود الأشياء لله ومراد المجذوبين شهود الأشياء بالله فالسالكون

عاملون على طريق الفناء والمحو والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصحو ولما كان شأن الفريقين النزول فى تلك المنازل المذكورة لزم التقاؤهما فى طريق سفرهما: السالك مترق والمجذوب متدل.

لا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ القُلُوبِ وَالأَسْرَارِ إلاَّ فى غَيْبِ المَلَكُوتِ.. كَمَا لا تَظْهَرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إلاَّ فى شَهَادَةِ المُلْكِ!

أنوار القلوب والأسرار المشرقة عليها على سماء التوحيد والمعرفة لا يعرف قدرها إلا فى غيب الملكوت وهو عالم الآخرة وهناك يحصل لهم تمام هذه الأنوار فمن آمن بالغيب كان له من ذلك الحظ الأوفر كما أن أنوار السماء المشرقة على ظواهر الأجرام لا تظهر إلا فى شهادة الملك وهو عالم الدنيا وذلك لحصول المناسبة بين هذه الأشياء.

وِجْدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلاً، بَشَائِرُ للعَامِلِينَ بِوُجُودِ الجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً.

ما يجده العاملون بطاعة الله تعالى فى أعمالهم عاجلا من مزيد الإيمان واليقين وتنسم روح الأنس، ولذيذ القرب ولطيف الوصل بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها فى الدار الآخرة، لأنها مقبولة عند الله تعالى، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: «من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول».

كَيْفَ تَطْلُبُ العِوَضَ عَلَى عَمَلٍ.. هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِه عَلَيْكَ؟! أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ.. هُوَ مُهْدِيه إِلَيكَ؟!

العمل الذى يصح طلب العوض والجزاء عليه هو: ما عملته لينتفع به غيرك ولم يحصل لك بذلك منفعة ولم يندفع عنك بسببه مضرة.

والأعمال الدينية المطلوبة منك ظاهرا وباطنا بخلاف هذا كله إذ هى مسلوبة عنك منسوبة إلى ربك خلقها واختراعها عائد ثمرة ذلك ومنفعته عليك فى ظاهرك وباطنك وهو غنى عنك وعنها ولذلك عبر عنها بالتصدق والإهداء تنبيها على أن ذلك لم يكن إلا لمنفعتك.

فطلب العوض والجزاء إذن على عمل هذا صفته فى غاية القبح ولذلك صدر المؤلف رضى الله تعالى عنه كلامه بـ «كيف» ليعجبك من ذلك الوصف قال الواسطى رضى الله تعالى عنه «مطالبة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل» وسئل أبو العباس بن عطاء الله رضى الله تعالى عنه عن أقرب شئ إلى مقت الله تعالى فقال: «رؤية النفس وأفعالها وأشد من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها»

واستعمال المؤلف رحمه الله تعالى لفظ«الصدقة» فى الأعمال الظاهرة ولفظ «الهدية» فى الصدقة وعليه مدار الأعمال الباطنة إشعار بتباينهما فى الشرف كتباين الهدية والصدقة.

قومٌ تَسْبِقُ أنوار أذكارهُم. وقومٌ تسبِقُ أذكارُهُم أنوارَهُم. وقومٌ تتساوى أذكارُهم أنوارُهم. وقومٌ لا أنوارَ لهم ولا أذكارَ.. نَعوذُ باللَّه منْ ذلك.

ذَاكِرٌ ذكَرَ لِيَسْتَنِيرَ قَلْبُه. وَذَاكِرٌ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً. والذى استوتْ أذكارُه وأنوارُه.. فبِذكْرِه يُهتدَى، وبنورِه يُقتدَى.

سبقية الأذكار للأنوار هو حال المريدين السالكين وذلك لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة فهم يأتون بالأذكار فى حال تكلف منهم وتعمل ليحصل لهم بذلك زوائد الأنوار وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١).

وسبقية الأنوار للأذكار هو حال المريدين المجذوبين لأنهم مقامون فى السهولة والخفة فهم لما وجهوا بالأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمل قال فى«لطائف المنن» حاكيا على شيخه أبى العباس المرسى: «.. وقال رضى الله تعالى عنه الناس على قسمين قوم وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٢) قال: ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله

(١) آية رقم ٦٩ من سورة العنكبوت

(٢) من آية رقم ١٣ من سورة الشورى.

همَّته لطلب الوصول إليه فسار يطوى مهامه نفسه وبيداء طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾(١) فالأول حال السالكين والثانى حال المجذوبين فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة ولا تظن أن المجذوب لا طريق له بل له طريق طوتها عناية الله تعالى فسلكها مسرعا إلى الله تعالى عاجلا وكثيرا ما تسمع عند مراجعة المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب لأن السالك عرف طريقا بها توصل إليه والمجذوب ليس كذلك وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له **وليس الأمر كما زعموا** فإن المجذوب طويت الطريق له ولم تطو عنه ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه وإنما فاته متاعبها وطول أمدها.

والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة والسالك كالسائر إليها على أكوار(٢) المطايا» انتهى ما ذكره فى حال الجذب والسلوك وهو حسن قلّ أن يوجد لغيره فلذلك أوردته ها هنا بكماله.

ما كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ إلاَّ عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ وَفِكْرٍ.

أعمال الظاهر تكون تبعا لما يكون فى الباطن وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (ما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر) فالذكر الظاهر لا محالة ثمرة باطن الشهود والفكر ثم بين هذا المعنى بقوله:

أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهِدَكَ.. فَنَطَقَتْ بِإِلهِيَّتِهِ الظَّوَاهِرُ، وَتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ القُلُوبُ وَالسَّرَائِرُ.

كاشف الله تعالى القلوب والأسرار فى غيب الغيب بحقائق وحدانيته وإحاطة قيوميته فلما أشهدها ذلك اضمحلت وتدكدكت وتلاشت فتحققت بذلك الأحدية فلما أظهرها ملتبسة بالأجسام والهياكل طلب منها الشهادة له بالإلهية فشهدت بلسان حالها ومقالها فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعا لشهودها لما أشهدت فالعبد من حيث سره وقلبه بوصف الجمع ومن حيث ظاهره وجسمه بنعت الفرق ولابد فى هذا الطريق من وجود الجمع والفرق وقد قالوا «كل جمع بلا تفرقه زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل».

(١) سورة آل عمران الآية ٧٤.
(٢) الكور رحل البعير والجمع أكوار

وقال الجنيد رضى الله عنه فى معنى الجمع والتفرقة

فتحققتك فى سرى فناجاك لسانى

فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان

إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى

فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

وذهب الجنيد رضى الله عنه إلى أن قربه بالوجد جمع وغيبه فى البشرية تفرقة

أَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلاثٍ:

ـ جَعَلَكَ ذَاكِراً لَه،. وَلَولاَ فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْك.

ـ وجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِه.. إذ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْك.

ـ وجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَه.. فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْك.

أكرم الله تعالى عبده المؤمن بثلاث كرامات جمع له فيها كل المفاخر والمحامد أولها: كونه ذاكرا له بأن أجرى ذكره على قلبه ولسانه ومن أين له ذلك؟ وبأى وسيلة ناله لولا فضل الله تعالى وكرمه.

وثانيها: كونه مذكورا به فيقال: هذا عبد الله ووليه وصفيه ومختاره وذلك بما أكرمه الله به من تحقيق النسبة إليه وهى إثبات الخصوصية له وقد تقدم معنى الخصوصية.

وثالثها: كونه مذكورا عنده وهذه هى غاية الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١) قيل معناه: ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله وفى حديث أبّى بن كعب رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: أمرت أن أقرأ عليك القرآن قال قلت يا رسول الله سمانى لك ربك؟ قال نعم فقرأ على ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٢)

---

(١) من آية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) آية ٥٨ من سورة يونس

وفى حديث أبى حيَّة البدرى رضى الله تعالى عنه قال لما نزلت سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... إلى آخرها﴾ قال جبريل عليه السلام إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيا فقال النبى(ﷺ)لأبىّ: إن جبريل عليه السلام أمرنى أن أقرئك هذه السورة، فقال أبىّ: أو ذكرت ثمّ يارسول الله؟ قال: نعم. فبكى أبىّ وفى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه وإن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا وإن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا وإن أتانى يمشى آتيته هرولة»(١)

وفى حديث أبى هريرة وأبى سعيد يشهدان به على النبى(ﷺ)أنه قال: «ما جلس قوم مسلمون مجلسا يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»(٢)

قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه: «يا غفول يا جهول لو سمعت صرير القلم حين يجرى فى اللوح المحفوظ بذكرك لمت طربا»

رُبَّ عُمُرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُه، وقلت أمداده ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده.

الإمدادات الإلهية التى يمد الحقُّ تعالى بها عباده المؤمنين زيادة فى إيمانهم وتقوية لإيقانهم لا أثر فيها طول العمر ولا قصره فلا تنقص بذلك ولا تزيد به ولا تقل ولا تكثر وإنما ترد عليهم من خزائن الفضل والكرم بحسب قوة استعدادهم وكمال قابليتهم ويختلف هذا باختلاف تراكيب خلقهم ومجبول فطرهم ولا مدخل للزمان فى هذا إلا بالعرض وبهذا فضلت هذه الأمة على سائر الأمم على قصر أعمارهم وطول أعمار غيرهم.

قال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله تعالى عنه: «قلت لأبى سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه: قد غبطت بنى إسرائيل قال: بأى شئ؟ قلت بثمانمئة سنة حتى يصيروا كالشنان(٣) البالية والحنايا والأوتار قال ما ظننت إلا وقد جئت

(١) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة.

(٢) اخرج الإمام مسلم والترمذى وغيرهما بسندهم عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما. أنهما شهدا على رسول الله (ﷺ)أنه قال «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة... إلى آخر الحديث».

(٣) الشنان ـ بكسر الشين: الجلد البالى.

بشئ لا والله ما يريد الله لنا أن تيبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده، هذا إذا صدق فى عشرة أيام نال ما نال ذلك فى عمره».

من بورك له فى عمره أدْرَكَ فى يَسيرٍ مِنَ الزَّمَن مِنْ مِنَنِ اللّه تعالى مَا لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِر العَبَارَة، وَلاَ تَلْحَقُهُ الإشَارَةُ!

البركة فى العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته وأنتهاز فرصة إمكانه خشية فواته فيبادر إلى الأعمال القلبيه والبدنية ويستفرغ فى ذلك مجهوده بالكلية وفى أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلهية ويشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه ولا تنتهى الإشارة إليه وكل ذلك فى عمر قصير وزمن يسير فيرتفع له فى شهر - مثلا - ما لا يرتفع لغيره فى ألف شهر بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها خير من العمل فى ألف شهر.

قال بعض العلماء: «كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر».

كان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه قال «أوقاتنا والحمد لله كلها ليلة القدر فهذا هو البركة فى العمر لا تطويله وزيادة مدته»

وقيل هذا المعنى فى تأويل ما روى فى الخبر «البر يزيد فى العمر»(١)

الخذْلانُ - كُلُّ الخذْلان - فى أنْ تَتَفَرَّغَ من الشَّواغلِ ثم لا تتوجَّهَ إليه، وتَقلَّ عَوَائقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إلَيْه.

من الخذلان أن تصدك العوائق والشواغل عن التوجه إلى الله تعالى والرحيل إليه بل الواجب عليك أن تبادر إلى ذلك وترمى بالعوائق والشواغل خلف ظهرك

وقد قيل: «سيروا إلى الله عز وجل عرجا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة قال الله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالاً﴾(٢) وقد تقدم هذا المعنى عند قوله «إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس»فإن زالت شواغلك وقلت عوائقك ثم قعدت عن التوجه والرحيل فهذا هو الخذلان كل الخذلان أعاذنا الله منه.

---

(١) أخرج الإمام أحمد والإمام البخارى بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنهم جميعا أن رسول الله قال: «من أحب أن يبسط له فى رزقه أو ينسأ له فى أثره فليصل رحمه».

(٢) آية رقم ٤١ من سورة التوبة

قال الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه: «فراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة فإذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى وانجر فى قياد الشهوات شوش الله عليه نعمة قلبه وسلبه ما كان يجد من صفاء لبه»

الفكْرَةُ: سَيْرُ القَلْب فى مَيَادين الأغْيَار

الفكرة التى ألزمها العبد وحض عليها هى: سير القلب فى ميادين الأغيار فقط وهى(١): مخلوقات الله ومصنوعاته.

وأما الفكرة فى ذات الله تعالى فلا سبيل إليها يعتبر المتفكرون فى آياته ولا يتفكرون فى ماهية ذاته.

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما «أن رسول الله (ﷺ) أبصر قوما فقال: ما لكم؟ فقالوا: نتفكر فى الخالق قال تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره»

قال الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه «التفكر نعت كل طالب وثمرته: الوصول بشرط العلم فإذا سلم الفكر من الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها: فيزدادون بالفكر زهدا فيها وفكر العابدين فى جميل الثواب فيزدادون نشاطا عليه ورغبة فيه وفكر العارفين فى الآلاء والنعماء فيزدادون محبة للخالق سبحانه وتعالى»

وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه: «أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد»

وفى بعض النسخ: الفكرة: سير القلب فى ميادين الاعتبار ومعناه ظاهر.

الفكْرَةُ: سرَاجُ القَلْب، فإذَا ذَهَبَتْ، فَلاَ إضَاءَةَ لَه.

القلب الخالى من الفكرة خال من النور مظلم بوجود الجهل والغرور وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: «ما نفع القلب شئ مثل عزلة يدخل بها فى ميادين فكرة».

(١) أي: الأغيار

الفكْرَةُ فكْرَتَان: فكْرَةُ تَصْديق وَإيمَانٍ، وَفكْرَةُ شُهُودٍ وَعيَانٍ. فَالأُولى لأرْبابِ الاعْتبَار، وَالثَّانيَةُ لأرْبابِ الشُّهُود والاسْتبْصَار.

تقدمَ الآن أن الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار وسيره على وجهين: صعود ونزول فالصعود لأرباب الاعتبار وهى فكرة ناشئة عن التصديق والإيمان وهذا للسالكين وهو حال ترقيهم وهو نعت المستدلين بالآثار على المؤثر والنزول لأرباب الشهود والاستبصار وفكرتهم ناشئة عن الشهود والعيان وهذا للمجذوبين وهو حال تدليهم وهو وصف المستدلين بالمؤثر على الآثار وقد تقدم هذا المعنى عند ذكر المجذوب والسالك.

وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه:

هذا كتاب يتضمن ذكر حال السالك من أول ابتداء سيره إلى أنتهائه وحصوله فى مستقره وذكر آداب السلوك والوصول.

وقد أتى - رحمة الله تعالى - فى ذلك بعبارات صحيحة فصيحة واستعارات حسنة مليحة على طريقة وعظية إذا سمعها السامع طرب لها قلبه وهام فيها عقله ولبه وما ذاك إلا لما علق بها من أنوار قلب المتكلم وقد قال فيما تقدم: «كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز».

أما بعد..

فإنَّ البدايات مَجَلاَّتُ(١) النِّهايات.

المجلات: محَل التجلى والظهور فالسالك فى ابتداء سلوكه يتجلى له أمر نهايته.

وإنَّ مَنْ كانت بالله بدايتُه، كانتْ إليه نهايتُه.

هذا بيان ما ذكره ومعنى كون بدايته بالله أن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضته مصحوبة بالإستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه والانقطاع إليه فبذلك يصح له وينفذ فى توجهه وسلوكه كما تقدم عند قوله: «ما توقف مطلب أنت

---

(١) مجلات: بفتح الميم والجيم وتشديد اللام. جمع مجلة، أى محل التجلى والظهور. والمجالى: المظاهر التى تتجلى فيها الأمور. وضبطتها بعض النسخ «مجلات» بسكون الجيم على اعتبار أنه اسم مكان من جلا يجلو.

طالبه بربك».

ومعنى كون أنتهائه إلى الله أن يكشف له انفراد الله تعالى بالقيومية وتوحده بالديمومية وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن انكشافا يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه وتدكدكه واضمحلاله قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(١).

فإذا صحت للمريد تلك البداية بما ذكرناه وصل إلى هذه النهاية وقد تقدّم هذا المعنى فى قوله: (من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله فى البدايات)

والمُشْتَغَلُ به هُوَ الَّذى أحْبَبْتَهُ وَسَارَعْتَ إلَيْه.

والمُشْتَغَلَ عَنْهُ هَوَ المُؤْثَرُ عَلَيْه.

المشتغل به أيها المريد السالك إنما هو عملك على التّقرب من ربك عز وجل والتوسل إليه بالطاعة والعبودية له وهو الذى أحببته وسارعت إلى إجابة دعوته فيحق عليك ألا تستقل ذلك الشغل بل تكون به قرير العين.

والمشتغل عنه: إنما هو متابعة حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة وهو الذى يستحق الإيثار عليه إذ هو فانٍ مضمحل، لا حقيقة له فلتطب عنه نفسا ولا تعمل فيه عقلا ولا حسبا.

وهذا الكلام تهييج للسالك وإنعاش لقوته وإنهاض لهمته، قال الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلى رضى الله عنه: «سمعت عبد الله بن إسحاق الغافقى يقول: ما أنتفعت إلا بدعاء رجل بمكة مررت إلى المسجد الحرام بالسحر فإذا رجل يسف التراب فقلت: مجهود أو مجنون؟ ! ثم قلت له يا هذا أتسف التراب؟ !قال: فقال لى: أو تراب هو ثم ناولنى.قال: فما شككت أنه سويق أو قَنْد(٢) أنا أشك أيهما قال: فقلت: ولىٌّ للّه وجثوت على ركبتى وقلت: ادع الله لى. فقال لى: عرفك الله قدر ما تطلب حتى يهون عليك ما تترك».

ومن أيْقن أن اللّه يَطلبُـه، صـدَقَ الطَّلَبَ إليـه. ومَن عَلِمَ أنَّ الأُمورَ بيد اللّه. انْجَمَعَ إليه بالتوكُّل عليه.

العبد مطلوب لربه عزّ وجل بإقامة وظائف العبودية له وذلك بما اختصه الله به

(١) من آية ١٨ من سورة الأنبياء.

(٢) قَنْد - بفتح القاف وسكون النون: عسل قصب السكر إذا جمد.

عزّ وجلّ من العقل والفهم وما رزقه من المعرفة والعلم فثمرة ذلك الطلب عائدة إلى العبد فَلِمَ لا يصدق العبد فى طلبه واجتهاده إذا أيقن بذلك؟والأمور كلها بيد الله تعالى ومن ذلك سعيه وكدحه فَلِمَ لا يتوكل عليه فى ذلك فيجتمع همه ويتيسر أمره؟إذا علم بذلك فالقسم الأول قيام بمقتضى الشريعة والقسم الثانى فاء بحق الحقيقة.

وإنه لابد لبناءِ هذا الوجودِ أن تَنْهدمَ دعائمُه، وأن تُسْلَبَ كرائمُه.

ذكر هذا المعنى تسلية للعبد عما يفوته فى حال سلوكه من حظوظه وشهواته لأنه إذا علم أن هذه الأشياء لابد أن تزال عنه ولو بعد حين وكل ما هو آتٍ قريب لم يغتبط بما يكون مآل أمره إلى ذلك ويكون طيب النفس بتركه وتهديم الدعائم وسلب الكرائم من الأستعارات البديعة.

فالعَاقِلُ مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أبْقَى أفْرحَ منْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَى. قد أشْرَقَ نُورُه، وظَهَرَتْ تباشيرهُ..

فرحُ العبد بالأشياء الفانية هو موجب للزيادة فى همه وغمه إذا فقدها. قال سيدى سهل بن عبد الله رضى الله عنه «من فرح بغير مفروح به استجلب حزنا لا انقضاء له»

وقد تقدم هذا المعنى عند قوله «ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه «فالعاقل لا يفرح بذلك ولا يحبه بل يكرهه ويبغضه وإنما يكون فرحه بالأمور الباقية التى لا تنفى قد أشرق نور ذلك فى قلبه وظهرت تباشيره على وجهه وإشراق النور وظهور التباشير نتائج تحققه فى مقام الزهد.

فَصَدَفَ عن هذه الدار مُغْضيًا، وأعرضَ عنها مولِّيًا، فلم يَتَّخذْها وَطَنًا، ولا جعلها سَكَنًا.

فلما كان العبد على هذا الوصف صدف عن هذه الدار الدنيوية أى: مال عنها مغضيا جفنه عن أقذائها من غير مبالاة بذلك معرضا عنها بوجه قلبه قد ولاها

دبره من غير التفات إليها وهذا مبالغة فى نبذها واطراحها فلم يتوطنها بظاهره على سبيل التمتع والاستبشار ولم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها والإيثار بل نزلها منزلة السجن والمضيق ووطن نفسه فيها على تحمل ما يطيق وما لا يطيق.

وهذه علامات على تحققه بالزهد فى الأمور الفانية التى هى بغيضة له، فلما وصل إلى ذلك حصل له من طهارة قلبه، وصفاء لبه ما حمله على التعلق بمولاه الباقى الدائم فجعل دنياه معبرا يعبره إليه كما سيقوله المؤلف الآن.

بل أَنَهضَ الهِمَّةَ فيها إلى الله تعالى، وسار فيها مستعيناً به فى القدومِ عليه.

هذا ابتداء سفره بقلبه إلى الحضرة العلية وبدأ بإنهاض الهمة إلى ربه والاستعانة به فى القدوم عليه وهو أساس أمره كما تقدم قال الشاعر:

إذا لم يعينك الله فيما تريده
فليس لمخلوق إليه سبيل
وإن هو لم يرشدك فى كل مسلك
ضللت ولو أن السماك(١) دليل

قال أبو محمد الجريرى رضى الله تعالى عنه «من توهم أن عملا من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى فقد ضل عن طريقه لأن النبى(ﷺ)قال «لن ينجى أحدا منكم عمله» فما لا ينجى من المخوف كيف يوصل إلى المأمول؟ ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذى يرجى له الوصول»

(١) السماك: كوكب منير.

فما زالت مَطيَّةُ عَزْمه لا يَقَرُّ قرارُها، دائمًا تَسْيَارُها، إلى أَنْ أناخَتْ بحَضْرة القُدْس، وبِساط الأُنس.. محلِّ المفاتَحة والمواجَهة، والمجالَسة والمحادَثَة، والمشاهَدة والمطالَعة.

فصارت الحَضْرةُ مُعَشَّشَ قلوبِهم.. إليها يَأْوون، وفيها يُسكنون.

هذه استعارات مليحة استعملها فى سفر القلب إلى حضرة الرب وقد تقدم معنى ذلك عند قوله «لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين».

وحضرة القدس وبساط الأنس هما موضع محط الرحال وبلوغ الأوطار والآمال من قبل أن السالك تمحى عنه رسوم بشريته وتبطل أحكام إنيته وتنكشف له إذ ذاك أوصاف معروفة كرأى العين ويكون سره مع الله تعالى بلا أين فلما وصل إلى هذه الحضرة العلية ونال هذه المنقبة السنية قوبل بأنواع من الكرامات والألطاف وفنون من تحف السادات والأشراف وهى معانى هذه الألطاف الستة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى ولا تعرف إلا بالذوق وكذلك التفرقة بين معانيها.

فحينئذ ألقى السائرون عصا سيرهم وحمدوا عاقبة أمرهم وصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم ومستوطنهم فى ذهابهم وإيابهم إلى ظلها يأوون إذا صلى غيرهم بنيران هواه وفى دار المقامة يسكنون حين يزعج سواهم عن متعة دنياه وهاهنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو وهذا هو أنتهاء سفرهم بمعنى الصعود والترقى.

فإنْ نزلوا إلى سماءِ الحقوق وأرضِ الحُظوظ.. فبالإذن والتمكين، والرُّسوخِ فى اليقين. فلم ينزلوا إلى الحقوق بسُوءِ الأدَبِ الغَفْلة، ولا إلى الحُظوظ بالشَّهْوة والمُتْعة. بل دخلوا فى ذلك كلِّه باللّه، وللّه، ومن اللّه، وإلى اللّه..

هذا هو سفر التدلى والنزول وبه يتحققون بمقام البقاء والصحو فإذا نزلوا من سدرة منتهاهم إلى سماء الحقوق وهى حقوق الله عليهم مما أمرهم به أو نهاهم

عنه ليقوموا بذلك فعلا أو تركا أو إلى أرض الحظوظ وهى: حظوظ نفوسهم التى تلابسهم ويحصل لهم الارتفاع بها فإنما يكون نزلهم إلى ذلك بالإذان والتمكين والرسوخ فى اليقين.

ومعنى ذلك: أن يدخلوا فى الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد أنفسهم ويجدون الأذان من الله تعالى لهم بما يشرق فى قلوبهم من النور الذى يجعله الله علما على ذلك.

وقد ذكره سيدى أبو الحسن فى بعض كلامه قال رضى الله عنه: «ومعنى الأذان للولى: نور ينبسط على القلب يخلقه الله فيه وعليه فيمتد ذلك النور على الشئ الذى يريده فيدركه نور مع نور أو ظلمة تحت ذلك النور ينبئك أن تأخذ إن شئت أو تترك أو تختار أو تدبر أو تعطى أو تمنع أو تقوم أو تجلس أو تسافر أو تقيم هذا باب المباح المأذون فيه بالتخير فإذا قارنه القول تأكد الفعل المباح بمراد الله تعالى فإن قارنته نية صحيحة لفعل بر زال عنه حكم المباح وصار مندوبا

وإن ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب فلا يخلو أن يلوح عليه لائح الغضب بانقباض القلب فاحذر ذلك وتجنبه فإنه المحظور أو يكاد ولا تقطع بذلك إلا ببينة من كتاب الله تعالى أوسنّة أو إجماع أو خلاف لمقلد قلدته كمالك والشافعى أو غيرهم من العلماء الراسخين فاحكم إذن على أصل صحيح.

وإن تكن الظلمة شبه غيم لا يتصدع معه القلب ولا يتفزع به الذهن(١) فتتباعد عنه فإنه يكاد يكون مكروها ولا تحكم بعقلك ورأيك فقد ضل من ها هنا خلق كثير ولا تفت أحدا وإن استفتاك وأعط الورع حقه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(٢) فإن تأدبت ها هنا فعن قريب تأتيك البينة من ربك والشاهد يتلوها منه». أنتهى كلام سيدى أبو الحسن وهو مناسب لما ذكره المؤلف إلا أن ما فيه من التفصيل لم يتعرض له المؤلف بل بقى الأمر فى ذلك مجملا كما تراه وتقديره «فإذا نزلوا إلى الحقوق واستعملوا فيها لم ينزلوا إليها بسوء أدب ولا غفلة وهو ألا يشهدوا قيامهم بها من أنفسهم أو يطلبوا ثوابا عليها من ربهم وإن نزلوا إلى الحظوظ لم ينزلوا إليها بشهوة غالبة قاهرة لهم ولا منفعة يقصدون إلى نيلها فى دنياهم بل دخلوا فى ذلك بالله مستعينين ولله عابدين ومن الله آخذين وإلى الله متوسلين قد تولى الله تعالى إدخالهم فى الأشياء وإخراجهم منها وأوجدهم ذلك وعزل عنهم ملكية نفوسهم لهم وصاروا أحرارا كراما.

(١) وفى نسخة: «لا يصدع معه القلب، ولا يتفرغ معه الذهن» وهذا أقرب.
(٢) من آية رقم ٣٦ من سورة الإسراء.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾(١)، ليكون نظرى إلى حَوْلِكَ وقُوَّتِك إذا أدخلتَنى، واستسلامى وانقيادى إليك إذا أخرَجتَنى.

المدخل والمخرج: الإدخال والإخرج وقد عبر بهاتين العبارتين عن السفرين المذكورين فالمدخل هو سفر الترقى لأنه دخول على الله عز وجل فى حالة فنائه عن رؤية غيره والمخرج: هو سفر التدلى لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتى الأرشاد والهداية فى حالة بقائه بربه وتحققه فى هذين المقامين أعنى: مقام الفناء والبقاء هو معنى «صدقية» مدخله ومخرجه.

وإنما طلب هذا ليحصل له به ذهابه عن رؤية نفسه في النسبة والوقوف مع الحظ ففى المدخل يشاهد حول الله تعالى وقوته فينتفى عنه بذلك النسبة إلى نفسه وفى المخرج يستسلم لربه وينقاد إليه فينتفى عنه بذلك مراعاة حظه.

﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾(٢).. يَنصرُنى ويَنصُر بى، ولا يَنْصُرُ علىَّ. يَنصُرنى على شُهودِ نَفْسى، ويُفْنِينى عن دائرة حِسىٍّ.

طلب من الله تعالى النصرة له ليستقيم أمره وطلب منه النصرة به ليكمل حاله فالنصرة له هى ملاك أرباب البدايات من السالكين إذ بذلك يتيسر عليهم قطع عقبات النفس ومحو دواعى الهوى والحس.

والنصرة به هى مقتضى حال أرباب النهايات من المحققين لأن بذلك يحصل لهم مرتبة الأمانة ومقام الإرشاد والهداية وكلّ واحد من القسمين نصرة على شهود النفس وفناء عن دائرة حسه.

وإخراج النصرة عليه من السؤال والطلب لأن ذلك من الخذلان وعدم التوفيق وهو غلبة أحكام نفسه وبقاؤه مع دائرة حسه.

(١) «سورة الإسراء ٨٠».
(٢) «سورة الإسراء ٨٠».

وقال رضى الله تعالى عنه مما كتب به لبعض إخوانه:

إن كانت عَيْنُ القلب تنظر إلى أن اللّهَ واحدٌ فى مِنَّتِه، فالشريعةُ تقتضى أنه لابد من شكر خليقَته.

إذا أوصل الحق تعالى إليك نعمة على يد إنسان سواء كانت دينية أو دنيوية فعليك فى ذلك وظيفتان:

إحداهما: أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك فلا ترينَّ النعمة إلا منه وحده وترى من سواه ممن أجراها على يديه مقهورا مجبورا على ذلك مسلطا عليه الدواعى والبواعث حتى لم يجد انفكاكا عنه وهذا هو حق التوحيد.

والثانية: أن تشكر من وصلت إليك على يده بأن تدعو له وتثنى عليه امتثالا لأمر الله تعالى وعملا بما جاءت به الشريعة قال الله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾(١).

وفى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله»(٢) وفى حديث أسامة بن زياد رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم«أشكر الناس لله أشكرهم للناس»(٣)

ولأن الله تعالى اختصه بأن أقامة فى ذلك وأهلّه له ومن أسمائه تعالى «الشكور» فليتخلق العبد بذلك وهذا هو حق الشرع.

وإن الناس فى ذلك على أقسامٍ ثلاثة: غَافلٌ مُنْهَمِكٌ فى غَفْلتِه، قَويتْ دائرةُ حِسِّه، وانطمستْ حَضْرةُ قُدْسِه.. فنظَرَ الإحسانَ من المخلوقين، ولم يَشْهَدْه من رَبِّ العالمين - إمَّا اعتقاداً.. فشركُه جَلِيٌّ، وإما استناداً.. فشركُه خَفِيٌّ.

هذا هو بيان أحوال الناس بالنسبة إلى مشاهدة التوحيد ورؤية الوسائط والعبيد

(١) آية رقم ١٤ من سورة القمان.

(٢) روى الإمام أحمد فى مسنده والترمذى عن أبى سعيد أن رسول الله(ﷺ)قال: «من لم يشكر الناس لم يشكره الله» حديث صحيح.

(٣) حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن الأشعث بن قيس، وأخرجه غيره بأسانيد مختلفة.

فبدأ بذكر عامة الناس وهم الغافلون المنهمكون فى غفلتهم أصحاب الظواهر والرسوم الذين قويت دائرة حسهم فقيدتهم ووقفوا معها وانطمست حضرة قدسهم(١) فأبعدتهم ولم يجلوا بها فنظروا الإحسان من المخلوقين فتعبدوا لهم وطمعوا فيهم ولم يشهدوه من رب العالمين فكفروا نعمته واستوجبوا سخطه ونقمته.

ثم هم فى ذلك على قسمين:

أحدهما: أن يعتقدوا ذلك بقلوبهم أنه منهم ومن قبلهم وهذا هو الشرك الجلى الذى يخرج صاحبه من دائرة الإسلام ويوقعه فى الكفر والعياذ بالله.

والثانى: أن يحصل ذلك منهم استنادا أى اعتمادا على غير الله وسكونا إلى سواه مع سلامة عقدهم وصدورهم وهذا هو الشرك الخفى الذى يخرج صاحبه عن حقائق الإيمان ويدخله أبواب النفاق ونعوذ بالله من الشرك جليه وخفِّيه.

وصاحبُ حقيقه، غاب عن الخلق بشهود الملك الحقِّ، وفَنِىَ عن الأسباب بشهود مُسبِّب الأسباب. فهذا عبدٌ مواجَهٌ بالحقيقة.. ظاهرٌ عليه سَناها، سالكٌ للطريقة.. قد استولَى على مَداها. غيرَ أنه غريقُ الأنوار، مَطْموسُ الآثار.. قد غَلَبَ سُكْرُه على صَحْوِه، وجَمْعُه على فرقِه، وفَناؤه على بقائه، وغَيْبَتُه على حضوره.

هذا هو حال الخاصة من أرباب الحقائق وهم الذين غابوا عن «شهود»الخلق بشهود الملك الحق فلم يقع لهم شعور ربهم ولا التفات إليهم وفنوا عن الأسباب برؤية مسبب الأسباب فلم يروا لها فعلا ولا جعلا فهم مواجهون بحقيقة الحق ظاهر عليهم سناها أى: نورها وضياؤها سالكون طريق الحق قد استولوا على مداها أى: وصلوا إلى غايتها ومنتهاها إلا أنهم غرقوا فى بحار أنوار التوحيد مطموس عليهم أثار الوسايط والعبيد أى مغلق عليهم رؤية ذلك والشعور به قد غلب سكرهم وهو: إحساسهم بالأغيار على صحوهم وهو: وجود إحساسهم بها

(١) حضرة قدسهم، أى: حضرة التنزيه، والمراد بها: بصيرته التى هى منبع تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق.

وجمعهم وهوثبوت وجود الحق فردا على فرقهم وهوثبوت وجود الخلق وفناؤهم وهم: استهلاكهم فى شهود الحق على بقائهم وهو شعورهم بالخلق وغيبتهم وهو ذهاب أحوال الخلق عن نظرهم على حضورهم مع الخلق

ومعنى هذ الألفاظ كما تراها متقاربة وهى ألفاظ تدأولها الصوفية المحققون بينهم وعبروا بها فى كتبهم ووضعوها على معانى اختصوا بفهمها ليتعرف بعضهم من بعض ما يتخاطبون به ولهم ألفاظ كثيرة غيرها وكأن المؤلف رحمه الله تعالى أراد ألا يخلوا كتابه عن ذكر شئ منها.

وأكملُ منه: عبدٌ شَرِبَ.. فازداد صَحْواً، وغاب.. فازداد حضوراً. فلا جَمعُه يَحْجُبُه عن فَرْقِه، ولا فَرْقُه يَحْجُبُه عن جَمْعِه، ولا فناؤُه يَصُدُّه عن بقائه، ولا بقاؤه يَصْرِفُه عن فَنَائه.. يُعطى كلَّ ذى حقٍّ حقَّه، ويُوفى كلَّ ذى قسطٍ قسْطَه.

هذا هو حال خاصة الخاصة الذين حازوا رتب الأكملية وهم قومٌ شربوا كؤوس التوحيد فازداد صحوهم، وغابوا عن الأغيار فازداد حضورهم وقد ملكوا الأحوال وتمكنوا فى مقامات الرجال فلم يغلبهم محو عن طى(١) ولم يحجبهم شئ عن شئ بل وفوا حقوق جميع المراتب وأعطوها مالها من قسط واجب وذلك لاتساع نظرهم ونفوذ بصرهم وهذه هى صفة الصديق رضى الله تعالى عنه فى القصة التى يذكرها الآن.

(١) وفى نسخة: فلم يغيبهم محو ولا طى؟

وقد قال أبوبكرٍ الصِّدِّيقُ - رضى اللّه عنه - لعائشةَ - رضى اللّه عنها - لَمّا نزلت براءتُها من الإفك على لسان رسول اللّه (ﷺ). ياعائشةُ.. اشكرى رسولَ الله (ﷺ). فقالت: لا واللّه.. لا أشكر إلاَّ اللّه. وقد قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾(١)، وقال - صلوات اللّه وسلامه عليه -: «لا يَشْكُرُ اللّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ الناسَ». وكانت هى فى ذلك الوقت مُصْطَلِمةً عن شاهدها، غائبةً عن الآثار.. فلم تَشْهَدْ إلاَّ الواحدَ القَهَّار!

هذا مثال هذين القسمين وقد أشبع المؤلف - رحمه اللّه تعالى- الكلام فيه والمعنى فى ذلك بين لا حاجة بنا إلى مزيد تنبيه عليه إلا قوله (وكانت فى ذلك الوقت مصطلمة) أى: منقطعة عن شاهدها وهو حكم بشريتها متوفاة عن إحساسها بالكلية والاصطلام نعت الحيرة ومحل القهر وصفة الدهشة وفى قوله (وكانت هى فى ذلك الوقت) إشعار بأن ذلك لم يكن حالا لازما لها فى جميع أوقاتها بل كان ذلك فى وقت مخصوص وواقعة مخصوصة وذلك صحيح إذ حالها رضى اللّه عنها وهو حال الكمال فى حياة رسول اللّه ﷺ، وبعد وفاته كنحو حال أبيها رضى اللّه عنهما، وذلك معلوم من أخبارها وسيرها رضى اللّه تعالى عنها

وقال - رضى اللّه عنه - لما سُئل عن قوله - صلوات اللّه وسلامه عليه -: «وجُعلتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاة»(٢).. هل ذلك خاصٌ بالنبى (ﷺ)، أم لغيره منه شِرْبٌ ونصيب؟

---

(١) سورة لقمان الآية ١٤.

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده وغيره بإسناد حسن عن أنس رضى اللّه عنه: «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عنى فى الصلاة».

فأجاب:

إن قُرَّةَ(١) العين بالشهُود(٢) على قَدْرِ المعرفة بالمشهود(٣)، والنبى (ﷺ) ليست معرفةُ غيره كمعرفتِه، وليست قُرَّةُ عينٍ كقُرَّته.

وإنما قلنا: إن قُرَّةَ عينه فى الصلاة بشهوده جلالَ مَشهوده، لأنه ـ عليه السلام ـ أشار إلى ذلك بقوله: «فى الصلاة»، ولم يقل: «بالصلاة». إذْ هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا تَقَرُّ عينُه بغير ربَّه(٤). وكيف(٥).. وهو يَدلُّ على هذا المَقام ويأمرُ به منْ سواه بقوله: «اعبدِ اللّهَ كَأنكَ تراه»؟!(٦)

ومحال أن يراه ويشهدَ معه سِواه!

---

(١) قرة العين: غاية الفرح والسرور.

(٢) الشهود: شهود جلال الحق سبحانه وجماله.

(٣) المشهود هو المولى تبارك وتعالى.

(٤) ومن الغير: الصلاة.

(٥) أى: كيف تقر عينه بغير ربه.

(٦) ورد فى ذلك أحاديث عدة منها الحديث الصحيح الذى يعتبر أساسا فى ذلك وهو ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ، بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: ما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبى(ﷺ)«إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام» الآية. ثم أدبر فقال: ردوه فلم يروا شيئا، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم، قال أبوعبد الله جعل ذلك كله من الإيمان.

ومنها ما رواه الطبرانى عن أبوالدرداء بدرجة حسن: «أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك فى الموتى، وإياك ودعوات المظلوم فإنهن مجابات وعليك بصلاة الغداة وصلاة العشاء فاشهدهما فلو تعلمن ما فيهما لأتيتهما ولو حبوا». ومنها ما رواه أبونعيم فى الحلية بدرجة حسن: «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك واحسب نفسك مع الموتى واتق دعوة المظلوم فإنها مستجابة».

فإن قال قائلٌ: قد تكون قُرَّةُ العين بالصلاة، لأنها فضلٌ من اللّه، وبارزةُ من عين منَّة اللّه.. فكيف لا يُفرَحُ بها؟ وكيف لا تكونُ قُرَّةُ العين بها وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِه فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا.....؟ ﴾(١).

فاعلمْ أن الآيةَ قد أومأتْ إلى الجواب لمن تدبَّر سرَّ هذا الخطاب.. إذ قال: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، وما قال: بذلك فافرحْ!

قل لهم - يا محمد: ليَفرحوا بالإحسانِ والتفضُّل، وليكن فَرحُكَ أنت بالمتفضِّل.. كما قال اللّه فى الآية الأُخرى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(٢).

الصلاة هى اجّل ما يتحف اللّه تعالى به عباده ويهديه إليهم وفى الحديث عن رسول اللّه(ﷺ)أنه قال: ما أوتى عبد فى الدنيا خيرا من أن يؤذن له فى ركعتين يصليهما»(٣) ففيهما يحصل له الخلوة معه والأنفراد والمجالسة له والانقطاع إليه وفيها يرتفع عن قلوبهم الحجب والأستار ويتجلى فيها حقائق الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار وفيها تكون المناجاة والمصافاة كما تقدم وهى صلة بين العبد وبين ربه عز وجل قال محمد بن على الترمذى رحمه اللّه"الصلاة عماد الدين وأول

(١) سورة يونس: الآية ٥٨.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٩١.
(٣) رواه الطبراني فى الكبير بإسناد حسن عن أبى أمامة.

شىء فرضه الله على المسلمين وفى الصلاة إقبال الله على العبد ليقبلوا إليه فى صورة العبيد تذللا وتسليما وتبتلا وتخضعا وترغيبا وتملقا فالوقوف تذلل والتكبير تسليم والثناء والتلاوة تبتل والركوع تخضع والسجود تخشع والجلوس ترغب والتشهد تملق فاقبل العبيد إلى الله بهذه الصورة ليقبل الله عليهم بالترحم والتعطف والتقبل والتكرم والتقرب فليس شىء من امر الدين اعظم من هذه ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين»(١) وقال فى حديث آخر: «الصلاة نور»(٢) وقال: (لا يزال الله مقبلا بوجهه على العبد ما دام فى صلاته وإن الله لينصب إلى أحدكم وجهه ما دام مقبلا عليه) ولأجل هذه الفوائد كانت الصلاة مفزع ذوى الفاقات والضرورات من ارباب القلوب فيغنيهم وجودها عن كل مرغوب ويتسلون بها على كل محبوب قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾(٣).

فواجب اذن ان تكون قرة اعين عباد الله فيها وبها.

وقرة العين عبارة عن الروح والراحة وكمال النعيم واللذة التى تحصل من غاية الموافقة والملائمة الا انها تختلف باختلاف احوال الناس فى مراتبهم ومقاماتهم فمن عظمت منزلته وعلت مرتبته كانت ملائمته وموافقته فى شهود التوحيد وكمال التجريد المشار اليه فى قوله ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه) اذ محال ان يراه او يشهد معه سواه كما قال المؤلف رحمه الله تعالى وفيما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى قوله لعروة بن الزبير رضى الله عنهما: (انا كنا نتراءى الله بين اعيننا) وكان هذا لما خطب اليه عروة بن الزبير ابنته وهو فى الطواف فلم يكلمه ابن عمر ولم يرجع اليه بشىء ثم اعتذر له بعد ذلك بهذا الكلام فصاحب هذه الحال تكون قرة عينه فى الصلاة لا بها لما تتضمنه من التجلى التام والشهود الحقيقى.

ومن كانت منزلته دون ذلك كانت ملاءمته وموافقته فى شهود النعم ووجود الفضل الكرم وكانت قرة عينه بها لا فيها لأنها فضل من الله وبارزة من منه الله كما قال المولف رحمه الله تعالى.

---

(١) البيهقى فى شعب الإيمان بإسناد ضعيف، وأخرج أبونعيم بإسناد حسن «الصلاة عمود الدين».

(٢ أخرجه القضاعى وابن عساكر عن أنس رضى الله عنه بإسناد ضعيف بلفظ «الصلاة نور المؤمن». ورواه مسلم فى حديث «الطهور شطر الإيمان بإسناد صحيح».

(٣) آية ١٣٢ من سورة طه.

فلا شك ان معنى قرة العين في الوجة الأول وبه انسب واليق لان صاحبه فان عن نفعه باق بربه ومن كان على هذا الوصف فهو من المخلصين الذين لا سلطنة عليهم للعدو اللعين.

ومن زالت سلطنته عنه في صلاته لم يحتج إلى مدافعته ومراجعته وكانت صلاته ملزومة بالحضور والخضوع والدوام والخشوع وعند فقدان العبد لحديث نفسه ووسوسة عدوه يحصل له غاية النعيم واللذة ويتحقق في حقه معنى قرة العين بخلاف الوجة الاخر فان صاحبه لم يغن عن نفسه فضلا عن ان يرتقي إلى درجة البقاء بربه فلم ينقطع عنه حديث النفس ولا وسواس العدو فيحتاج لا محالة إلى مجاهدة ومدافعة فيتشوش نعيمه وتتكدر لذته فيضعف معنى قرة العين في حقه قال الشيخ العارف ابو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: (وقرة العين لا تكون لمجاهد ولا لمن يدفع الشيطان عنه بل هي لمن استراح من المجاهدة والدفع).

ولما كانت منزلة نبينا محمد(ﷺ) عند ربه عز وجل أشرف المنازل ومرتبته في المعرفة به ارفع الرتب بحيث لا يتصور ان يشاركه في ذلك غيره او يحل به سواه كانت قرة عينه في صلاته على حسب ذلك فمن قال ان ذلك خاص به لانفراده بالمرتبة العليا والخاصية الكبرى فقوله صحيح وعليه يدل ظاهر قوله ﷺ : (وجعلت قرة عيني في الصلاة) بعد قوله: (انما حبب إلي من الدنيا الطيب والنساء) ولا شك ان حبه لهذين الامرين ليس على قياس حب غيره لهما وإنما ذلك لوجود الخاصية التي اقتضت منه ذلك الا ترى انه ابيح له ما لم يبح لغيره من عدد الحرائر وأمن لأجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب اجتماع الضرائر واستعماله (ﷺ) الطيب وحبه له انما هو للقائه الملائكة التي تناجيه والا فهو في ذاته غني عن الطيب واستعماله كما قال انس ابن مالك رضي الله عنه: (ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت رائحة قط مسكا ولا عنبرا اطيب من رائحة رسول الله ﷺ).

فاذا كان حاله في هذين الامرين على ما ذكرناه مع أنه لم يذكر فيهما سوى لفظ «الحب» وهما من لذات الدنيا فكيف يكون حاله في الامر الثالث مع أنه عبر فيه بقرة العين وهي غاية المحبة وهو من أعمال الاخرة.

وقيل معنى قوله (من الدنيا) اي: (في الدنيا) ومن قال ان لغيرة منه شربا ونصيبا على المعنى الذي يليق بهذا الغير فلقوله وجه وجواب المؤلف رحمه الله تعالى محتمل لهذين الوجهين والله اعلم بما اراد منهما او من غيرهما.

فصل

وقال المؤلف رضى الله تعالى عنه فيما كتب لبعض اخوانه:

الناس فى ورود المنن على ثلاثة اقسام:

فَرِحٌ بالمِنَن لا من حيث مُهديها ومُنشئُها، ولكن بوجود مُتْعته فيها.. فهذا من الغافلين، يَصْدُقُ عليه قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾(١).

وفَرِحٌ بالمِنَ من حيث إنه شَهِدَها مِنَّة ممن أرسلها، ونعمةً ممن أوصلها، يَصْدُقُ عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢).

وفَرِحٌ بالله.. ما شَغَلَه من النِّعَم ظاهرُ مُتعتها، ولا باطنُ منَّتها. بل شَغَلَه النَّظَرُ إلى الله عمَّا سواه، والجمعَ عليه.. فلا يَشهدُ إلاَّ إيَّاه. يَصْدُقُ عليه قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(٣).

تضمن هذا الفصل بيان ما يحمد من احوال الناس وما يذم عند ورود النعم عليهم وحصول الفرح اذ ذاك لهم وينبنى عليه ما يكون شكرا لها وما لا يكون.

لقد قسمه المؤلف ثلاثة أقسام وجعلهم طرفين وواسطة، قسم فى غاية الدناءة والخسة وهم الذين فرحوا بالنعم من حيث أن فيها قضاء أوطارنفوسهم ونيل أغراضهم والتمتع بشهواتهم ولذاتهم فأحوال هؤلاء مذمومة جدا أشبه شىء بهم

(١) من الآية ٤٤ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٥٨ من سورة يونس.
(٣) من الآية ٩١ سورة الأنعام.

الأنعام والبهائم وهذه أحوال أهل الطرد والبعد والاستدراج والمكر حسبما أشار إليه فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى فى هذا القسم وهذه الأحوال بعيدة من الشكر منافية له.

وقسم فى غاية الشرف والجلالة وهم الذين فرحوا بالمنعم فقط ولم يلتفتوا إلى ظواهر النعم لأجل أن فيها متعتهم ولذاتهم ولا إلى بواطنها من كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث مَنَّ بها عليهم فأحوال هؤلاء محمودة جدا لأنهم غابوا عن الأغيار العدمية وتحققوا بحقائق الوحدانية كما أشار إليه فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى فى هذا القسم وحال هؤلاء هى الشكر الحقيقى الخالص الخالى من المزج والشوب لأن المشاهد للمنعم فان عن حظوظ نفسه فهو يرى الأشياء كلها نعما فلا تفرقة عنده بين وجود ولا عدم ولا عطاء ولا منع ولا يخاف عليه من التغير والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب ما يخاف على غيره لبقاء حظه، قال أبو محمد الجريرى رضى الله تعالى عنه: «من رأى النعم ولم يرى المنعم فقد حُجب عن الشكر ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكر».

قال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله تعالى عنه: «كل من لم يشاهد المنعم فى النعمة كانت النعمة فى حقه استدراجا لأنه يؤديه إلى أن يسكن إليها فإذا نزعت منه لزمه أن يتغير عليها».

ومنهم من حصل له نصيب من الشرف والجلالة وحظ من الدناءة والرذالة وهم الذين فرحوا بالنعم لكونها منة من الله تعالى عليهم،فمن حيث شهودهم للمنة من ربهم شرفوا وجلّت أقدارهم وكانت أحوالهم محمودة وهى شكر منهم لائق بهم ومن حيث نظرهم لأنفسهم وبقائهم مع حظوظهم كان لهم نصيب من الدناءة والخسة فانحطوا بهذا الوصف عن مراتب الأعلين وارتقوا بالوصف الأول عن أحوال الأدنين فخوطبوا بما خوطب به عامة المؤمنين وأواسطهم فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى فى هذا القسم.

وقد ضرب ابو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه فى كتاب «الشكر»(١) لهذه الاقسام الثلاثة مثلا فقال: «الملك الذى يريد الخروج إلى سفر فانعم بفرس على انسان يتصور ان يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة اوجه:

احدهما: ان يفرح بالفرس من حيث انه فرس وانه مال ينتفع به وانه مركوب

(١) انظر ص ٢٢٠٦ من كتاب الإحياء طبعة دار الشعب.

يوافق غرضه وأنه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له فى الملك بل غرضه فى الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فاخذه لكان فرحه به مثل هذا الفرح.

الوجة الثانى: ان يفرح به، لا من حيث انه فرس بل من جهة ما يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء او اعطاه له غير الملك لكان لا يفرح به اصلا لاستغنائه عن الفرس اصلا ولاستحقاره له بالاضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك.

الوجه الثالث: ان يفرح به ليركبه فيخرج به فى خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ويرتقى إلى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بان يكون محله فى قلب الملك محل من يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لان لا ينعم الملك بشىء من ماله على احد إلا بواسطته ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة نفسها، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب.

فهذه ثلاث درجات: فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر اصلا لان نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى وهذه حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر.

والثانى داخل فى معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الانعام فى المستقبل وهذه حال الصالحين الذين يعبدون اللّه تعالى ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه.

وانما الشكر التام فى الفرح الثالث: وهو ان يكون فرح العبد بنعم اللّه عز وجل من حيث انه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذه هى المرتبة العليا.

واماراته: الايفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة للاخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر اللّه تعالى وتصده عن سبيله لانه ليس يريد النعمة لانها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس «الفرس» لانه جواد ومهملج(١)، بل من حيث انه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلى رضى اللّه عنه: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة» ولذلك قال الخواص رضى اللّه عنه: «شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب وشكر الخاصة على واردات القلوب». وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات

(١) هملج الجواد: مشى مشية فيها سرعة وتبختر.

الحواس من الالوان والاصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ فى حالة الصحة الابذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وانما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس ياكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة ويستحلى الاشياء المرة كما قيل:

ومن يك ذا فم مر مريض

يجد مرا به الماء الزلالا(١)

فاذن هذا هو شرط الفرح بنعمة الله عز وجل فان لم تكن له ابل فمعزى فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية.

اما الأولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله عز وجل لينعم عليه وبين من لا يريد نعم الله تعالى ليصل بها اليه» أنتهى كلام الامام ابى حامد الغزالى وهو فى غاية البيان والوضوح وهو كالتفسير لما ذكره المؤلف رحمه اله تعالى ولذلك اوردته ها هنا بكماله.

وقد أوحى الله إلى داود ـ عليه السلام: «يا داودُ.. قل للصِّدِّيقين: بى فَلْيَفْرحوا، وبذكْرى فَلْيَتنعموا».

بهذا تحققت صديقيتهم وعلا ارتفاع رتبتهم على من دونهم قيل: ان عتبة الغلام دخل فى بعض الايام على رابعة العدوية رضى الله عنها وعليه قميص جديد وهويتبختر فى مشيته بخلاف ما سبق من عاداته فقالت له: يا عتبة ما هذا التيه والعجب الذى لم أره فى شمائلك قبل اليوم؟ فقال: يارابعة ومن أولى بهذا التية منى وقد اصبح لى مولى واصبحت له عبدا.

وقال بعضهم: كنت مسافرا إلى مكة فبينما انا امشى اذ رايت شيخا بيده مصحف وهو ينظر فيه ويرقص فتقدمت اليه فقلت: ياشيخ ما هذا الرقص؟ فقال: دعنى عنك قلت فى نفسى عبد من انا وكلام من اتلو وبيت من انا قاصد فاستفزنى الوجد فرقصت وانشد فى هذا المعنى:

قوم تخللّهم زهو بسيدهم

والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهو رؤيته عما سواه له

---

(١) العذب

ياحسن رؤيتهم فى حسن ما تاهوا

ويجوز ان يكون المراد بقوله (وبذكرى فليتنعموا) اى: بذكرى اياهم فى الازل حيث لا وجود لهم والا فان الذكر المنسوب اليهم محل الافات والعلل وهم اجل رتبة من ان يكون نعيمهم بشىء ملتبس(١) بهم.

واللّهُ يجعلُ فَرَحَنا وإياكم به وبالرِّضا منه، ويجعلُنا من أهل الفَـهْم عنه، ولا يجعلُنا من الغـافلين، ويَسْلُكُ بنا مسـالكَ المتقين.. بِمَنِّه وكَرمِه.

هذا دعاء حسن موفق لمعنى ما تقدم وهو بين لا يحتاج إلى تبيين ولا تنبيه عليه فالله تعالى يحقق لنا ذلك بفضله وإحسانه انه ارحم الراحمين.

(١) وفى نسخة متلبس

فصل

وقال رضى اللّه عنه:

إلهى.. أنا الفقيرُ فى غِناى..

فكيف لا أكونُ فقيراً فى فَقْرى؟!

إلهى.. أنا الجاهلُ فى علِمى..

فكيف لا أكونُ جَهولاً فى جَهْلى؟!

العبد موصوف بصفات النقص وهى ذاتية له.

والكمال العارض له والمنسوب إليه نقصان على التحقيق.

ومن ثم كان ما ذكره المؤلف - رحمه اللّه تعالى - من كونه: فقيرا فى غناه وجاهلا فى علمه صحيحا مستقيما وكأنه قصد - رضى اللّه عنه - بهذا الأعتراف بدوام الأضطرار ولزوم الفاقة والافتقار وأنه لا استغناء له عن مولاه عز وجل ولا ينفك من الاحتياج إليه والتعلق به والسؤال والطلب منه فى كل حال من أحواله كما **قال بعضهم:**

إنى إليك مدى الأنفس محتاج

لو كان فى مفرقى الإكليل والتاج

وهذا منه دليل على تحققه فى مقام العبودية التى اقتضتها عظمة الربوبية.

وتقديمه لهذه المعانى بين يدى دعائه ومناجاته فى غاية الحسن قال سيدى أبو الحسن رضى اللّه عنه: «ما طلبت من اللّه شيئا إلا وقدّمت إساءتى أمامى» يريد رضى اللّه عنه: لا يطلب من اللّه شيئا بوصف يستحق به العطاء بل لا يكون طلبه وجود فضله إلا بفضله.

وقال أبو عثمان رضى اللّه تعالى عنه فى قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(١) التضرع فى الدعاء: ألا تقدم إليه أفعالك وصلواتك وصيامك وقيامك وقراءتك ثم تدعوا على أثره إنما التضرع أن تقدم إليه افتقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلة حيلتك ثم تدعوا بلا علاقة ولا سبب فيرفع دعاؤك.

---

(١) الآية ٥٥: الأعراف.

وقال الواسطى رضى الله تعالى عنه: «تضرعا بذل العبودية وخلع الاستطالة».

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه: «ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى فى وقت الدعاء فى شئ يحل به إلا قال الله لملائكته: «لولا أنه لا يحتمل كلامى لأجبته: لبيك».

إلهى.. إنَّ اختلافَ تدبيرك، وسرعةَ حُلول مقاديرك، مَنَعَا عبادَكَ العارفين بكَ عن السُّكون إلى عَطاء، واليأس منك فى بَلاء.

تلوين الأحكام على العباد يقتضى ألا يساكنوا حالا سارة يكونون عليها ولا ييأسوا فى حال ضارة تنزل بهم من وجود الفرح والراحة وهذا محض تعلق بالله عز وجل وهو نعت العارفين.

إلهى.. منِّى ما يَليقُ بلُؤْمى، ومنكَ ما يَليقُ بكَرمك.

لؤم العبدَ الذى ركب عليه يقتضى منه مبارزة مولاه بالعظائمَ والكبائر، وكرمُ المولى الذى هو مُتصَّف به يقتضى منه التجاوز والعفو عن عبده وقبول عذره

وهذا الكلام من ألطف وجوه السؤال والرغبة وهو من آداب الدعاء.

يحكى أن رجلا قال لبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: قل له: كم أخالفه وأعصيه وهو لا يعاقبنى!! فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبى: قل لفلان: لتعلم أنى أنا وأنت أنت.

إلهى.. وصفتَ نفسَكَ باللطْف والرَّأفْة بى قبل وجود ضَعْفى.. أفَتمنَعُنى منهما بعد وجود ضَعفى؟!

اللطف والرأفة وصفان الله عز وجل اتصف بهما فى الأزل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته وهما مقتضيان لوجود آثارهما فيما لا يزال بعد وجود ذات العبد وصفاته وهى إسباغ نعمه عليه وإيصال أفضاله إليه فكيف يتصورإذ ذاك منعه إياهما.

إلهى.. إنْ ظهرت المحاسنُ منِّى، فبفضْلكَ.. ولكَ المنَّةُ علىَّ.
وإن ظهرتِ المساوِئُ منِّى، فَبِعَدْلكَ.. ولكَ الحُجَّةُ علىَّ.

ظهور المحاسن على العبد وهى أنواع الطاعات والحسنات والصفات المحمودات فضل من الله تعالي والمنة له عليه لعدم استحقاقه لذلك.

وظهور المساوئ منه وهى ضروب المعاصى والسيئات والأوصاف المذمومات عدل من الله تعالى إذ له أن يفعل ما يشاء بعبده والحجة له عليه لأنه رب وهو عبد

ومناجاة العبد لمولاه بهذا الكلام من أحسن المناجاة وهى مقتضية لوجود إسعافه له وموالاة ألطافه عليه لما فيها من الثناء على الله تعالى على بساط قربه وذكر صفاته العلية والتعلق بها والأعتراف له بالنعم الظاهرة والباطنة لما فيها من رؤية ضعف النفس والإقرار عليها بالنقص والقصور وإنزالها منزلتها من الذّلة والمهانة.

وقد قال بعضهم: تعلق شاب بأستار الكعبة وقال: إلهى لا لك شريك فيؤتى ولا وزير لك فيرشى إن أطعتك فبفضلك ولك المنة على وإن عصيتك فبعدلك(١) ولك الحجة على فبإثبات حجتك على وانقطاع حجتى لديك إلا ما غفرت لى فسمع هاتفا يقول: «الفتى عتيق من النار»

إلهى.. كيف تَكلُنى إلى نفسى، وقد تَوكَّلْتَ عليك؟!
وكيف أُضَامُ، وأَنت النَّاصرُ لى؟!
أم كيف أخَيبُ، وأنتَ الحَفِىُّ بى؟!

الوكيل والناصر والحفي: أسماء الله عز وجل وهى مقتضية لوجود آثارها من وجود الكفاية والمنعة والظفر بغاية المقصود والبغية فكيف يتصور انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته كما تقدم فى اللطف والرأفة.

(١) وفى نسخة: وإن عصيتك فبجهلى.

والضيم فى اللغة معناه: أنتقاض الحق والحفى هو: اللطيف ولطفه بعبده: علمه بدقائق مصالحه وخفيات مآربه وإيصال ذلك إليه برفق قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾(١)

ها أنا أتوسلُ إليكَ.. بفقرى إليك.

التوسل: التقرب والوسيلة: ما يتقرب به وأعظم وسائل العبد إلى مولاه هو تحققه بما توجبه عبوديته وهو فقره إليه فى كل حال من أحواله فلا يرى لنفسه حسنة يقتضى بها ثوابا ولا يدلى بحجة يستدفع بها عن نفسه عقابا قال أبو زيد رضى الله تعالى عنه: «نوديت فى سرى فقيل لى: خزائننا مملوءة من الخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلة والأفتقار وسئل أبو حفص رضى الله عنه: «بماذا يقدم الفقير على ربه؟ فقال: وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره».

وكيف أتوسَّلُ إليكَ بما هو محالٌ أن يصلَ إليك؟!

بين المتوسل به والمتوسل إليه نسبة تامة ووصلة حقيقة وهى التى اقتضت له وجود التوسل ولا نسبة ولا صلة بين الفقر الذى هو نعت العبد وبين الرب الذى له الغنى الأكبر وايضا توسل العبد بفقره يقتضى شهوده له واعتداده به واعتماده عليه ورؤية العبد لأحواله وسكونه اليها عله فيها والأحوال المعلومه لا تليق بالحضره الألهيه ولا تصل إلى الله تعالى بمعنى انه لا يرضاها ولا يقبلها فالفقر لايصح التوسل به من هذا الوجه ايضا وإلى هذا المعنى يشير ما يحكى عن سيدى ابى الحسن الشاذلى حين دخل على شيخه ابى محمد عبد السلام رضى الله تعالى عنهما فقال له يا ابا الحسن بماذا تلقى الله تعالى؟ قال له: بفقرى قال له الشيخ والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصنم الأعظم ولا تصح حقيقه الفقر الا بالغيبة عن الفقر والا كنت غنيا بفقرك أنتهى فإذن لا وسيلة إلى الله بسواه:

أم كيف أشكو إليكَ حالى، وهو لا يَخفَى عليك؟!

شكوى الحال لا تصح إلا لمن هى غائبة عنه وهو غير عالم بها والله تعالى لا يخفى عليه شئ وقد قال إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: «حسبى من سؤالى علمه بحالى»

(١) الآية ١٩ من سورة: الشورى.

أم كيف أُتْرجِمُ لكَ بمَقالى، وهو منكَ بَرَزَ إليك؟!

الترجمة بالمَقال هي: التعبير باللسان عما في الضمير ليقع التفهيم بذلك للمترجم له والله تعالى هو الذى أنطق اللسان وأطلقه بذلك فالترجمة من الله تعالى برزت وإليه مآل أمرها والعبد لا مدخل له في ذلك فكيف ينسب إليه الترجمة؟ ونسبة ذلك إلى الله تعالى دليل على إحاطة علمه بأحوال العبد فكيف يصح في حقه معنى الترجمة؟

أم كيف تَخيبُ آمالى، وهى قد وَفَدتْ إليك؟!

الآمال الوافدة إلى الله تعالى لا يخيبها من قبل أنها فارة إليه ومتعلقة به ومنقطعة عما سواه والله سبحانه وتعالى كريم جواد متفضل منعم فليثق العبد بذلك وليكن على يقين منه وإن لم يسأل ولم يطلب.

أم كيف لا تَحْسُنُ أحوالى، وبكَ قامت وإليك؟!

من تحقق بالمعرفة رأى أحواله كلها حسنة لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها إليه وهذه كلها أنواع من التعجب عجب بها المؤلف رحمه الله تعالى نفسه من نفسه فيما هو بصدده من سؤاله وطلبه بسبب ترقية في المعرفة التى أوجبت له رؤية نقصه وتصوره في أحواله الأولى.

إلهى.. ما أَلْطفكَ بى معَ عظيم جَهلى!
وما أرحمَكَ بى معَ قبيحِ فعْلى!

شهود العبد لهذا المعنى مزيد عظيم يوجب له الحياء والانكسار فيستحسن منه حينئذ الاعتراف بالنعم فقط.

إلهى.. ما أقرَبَكَ منِّى.. وما أبعدَنى عنك!

شهود المؤلف رحمه الله تعالى شدة قرب الله تعالى منه لما رأى من بعد الأغيار عنه ودفعها له إليه كما سيأتى في قوله: (قد دفعتنى العوالم إليك) وشهوده لبعده من الله عز وجل من حيث أقيم في الطلب له والطلب للشئ دليل على فقد الطالب له وبعده عنه فالمشاهدة الأولى أوجبت له ملازمة باب مولاه وانقطاع طمعه عن كلّ ما سواه.

والمشاهدة الثانية أوجبت له التلطّف في سؤاله «التقريب» والاستغناء عن طلب «القرب».

ومن دعاء سيدى أبى العباس المرسى رضى الله تعالى عنه: «يا قريب أنت القريب وأنا البعيد قربك آيسنى من غيرك وبعدى منك ردنى للطلب لك فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبى بطلبك يا قوى يا عزيز».

إلهى.. ما أرأفَكَ بى.. فما الذى يَحْجُبُنِى عنك؟!

الرأفة أشد من الرحمة ولمّا شاهد رأفة ربه به غاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفتها فلذلك لم يظهر له سبب لوجود حجابه عنه.

إلهى.. قد علمتُ ـ باختلاف الآثار، وتنقُّلات الأطْوار ـ أنَّ مُرادَك أن تتعرَّفَ إلىَّ فى كلِّ شىء، حتى لا أجهلَكَ فى شىء.

كأن المؤلف رحمه الله تعالى يقول: اختلاف الآثار على وتنقلات الأطوار بى من: الصحة والمرض والغنى والفقر والعزّ والذل والقبض والبسط والطاعة والعصيان والفقد والوجد وغير ذلك من مختلفات أحوالى التى هى من شئونك التى تنزلها بى علمت منها أن إرادتك بى أن تتعرف إلى فى كل شئ تعرفا خاصا فى حالة خاصة حتى أشاهد وحدانيتك وعظمتك وجمالك وكمالك وجلالك بحيث لا يتصور منى جهل بما أنا فيه قابل لمعرفته من جميع ذلك ولو كان الأمر على خلاف هذا وألزمتنى حالة واحدة أرتضيها لنفسى وأختارها لكانت معرفتى ناقصة ومشاهدتى قاصرة فأنا الآن أتقلب فى جنة معجّلة أتبوأ منها حيث أشاء فقد استغرقنى ما أنا فيه من عظيم النوال وشغلنى ذلك عن الدعاء والسؤال وطلب الكون على ما أرتضيه من الأحوال فلك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة والخفّية والجلية.

قال بعضهم: «فى الدنيا جنة معجلة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى شئ ولم يستوحش من شئ قيل: وما هى؟ قال: معرفة الله تعالى.

وقال مالك بن دينار: رضى الله تعالى عنه: «خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب الأشياء!! قيل: وما هو؟ قال: المعرفة **ثم قال:**

إن عرفان ذا الجلال لعز
وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضا بهاء
وعليهم من المحبّة نور

فهنيئا لمن عرفك إلهى

هو والله دهره مسرور

وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتعبدين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها مكتوب: «إذا أحسنت كل شئ فلا تظن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله عز وجل» وفى يد الآخر» كنت قبل أن أعرف الله عز وجل أشرب وأظمأ حتى اذا عرفته رويت بلا شرب» قال فى«التنوير» بعد كلام ذكره.. (وإنما قلنا أن الحالة زائلة عنك لا محالة فإن مراده أن ينقلك فى الأطوار ويخالف عليك الآثار ليتعرف إليك فى كل حالة خاصة بتعرف خاص فإذا أردت أن يديمك على حالة واحدة فقد أردت أن يسلك بك غير الكمال فكأنه يقول لك لا تطلب منى أن أقيمك فى حالة واحدة لأنى لا أفعل ذلك معك أتريد أن تبقى ربوبيتى معطلة الآثار ولكن سلنى أن أشعرك لطفى حيثما أردتك وحيثما أقمتك حتى تكون بى ولى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(١) أى: يمنع ويعطى ويضع ويعلى ويقبض ويبسط ويعز ويذل.. إلى غير ذلك من مختلف آثاره فكأنه سبحانه وتعالى يقول لك: يا عبدى، لا تأس على شىء ما دمت لك، ولا تفرح بشىء وأنا لست لك، فأنا المعوّض لك عما سواى وما سواى لا يغنيك عنى ولا تكون ممن يعبدنى بالعلل فتكون من عبيد الحروف بل اعبدنى لى فإنى بكمال الغنى موصوف وبدوام الأفضال معروف قال الله عز وجل:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(٢)لأن الذى طلبه عزلناه عنه فما دام له وهو ما طلبنا حتى نكون له ومن عبده لما سواه فهو عبد ما سواه ومن عبده لاجل جوده ونعمائه فهو عبد جوده ونعمائه لأنّ من احب شيئا فهو عبد ما احبه قال رسول الله ﷺ «: تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة(٣) تعس وأنتكس واذا شيك فلا أنتقش»(٤).

فكن عبد الله فى كل شى عطاء ومنعا وعِزًّا وذلا وغنى وفقرا وقبضا وبسطا وفقدا ووجدا وشدة ورجاء وفناء وبقاء إلى غير ذلك من مختلفات الآثار وتنقلات

(١) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

(٢) آية رقم ١١ من سورة الحج.

(٣) الخميصة مؤنث خميص: ثوب أسود مربع. أى معلم الطرفين

(٤) شيك: دخلت الشوكة فى جسمه، وأنتقش الشوكة استخرجها، وهذا دعاء على عبدالدينار وعبدالدرهم وعبدالخميصة بأنه أذا أصابه أذى فلا نجاه الله منه.

الآغيار أنتهى كلامه رحمه الله تعالى وقد احسن فيه غايه الإحسان كله فجزاه الله تعالى خيرا.

إلهى.. كلّما أخرَسنى لُؤْمى، أنْطَقَنى كَرَمُك!

وكلما أيْأستْنى أوصافى، أطمعتْنى منَّتُك!

لؤم العبد ومخالفته وعصيانه يخرس لسانه عن السؤال والطلب. وكرُم المولى وفضله وإحسانه ينطقه بذلك واوصاف العبد الذميمه التى اقتضتها طبيعته وجبلته تؤيسه من حصول الأستقامه على طريق الحق ومنن الله تعالى التى شملت البر والفاجر تطمعه فى ذلك.

إلهى.. من كانت محاسنُه مساوئ.. فكيف لا تكونُ مساويه مساوىَ؟!

ومن كانت حقائقُه دعاوىَ.. فكيف لا تكون دعاويه دعاوىَ؟!

هذا مثال ما تقدم من: أن الكمال المنسوب إلى العبد نقصان على التحقيق فما ظنك بنقصانه.

إلهى.. حُكمُكَ النافذُ ومشيئَتُكَ القاهِرةُ لم يَتْرُكا لذى مَقالٍ مَقالاً، ولا لذى حالٍ حالاً.

شهود هذا المعنى يوجب للعبد مقام الخوف والتحقيق فيه فاذا كان ذا قول سديد وحال حميد لم يقطع ببقاء ذلك ولم يغتر بما هنا لك لنفوذ حكم الحق تعالى وقهر مشيئته.

إلهى.. كم من طاعةٍ بَنَيْتُها وحالةٍ شَيَّدتُها، هَدَمَ اعتمادى عليها عَدْلُكَ.. بل أقالنى منها فَضْلُكَ!

الطاعه: صفة ظاهر العبد والحاله: صفة باطنه وبناؤه للطاعه هو: اقامتها على الوجه المأمور به من الوفاء بجميع اركانها وشرائطها وما يتعلّق بها من حقوق وآداب وتشييده للحاله هو: تزيينها وتطهيرها وصيانتها عمّا يكّدر صفاءها

ويكسف ضياءها وكأنه لما فعل هذين الامرين رأى أنه تحصّن بحصن حصين وأوى إلى ركن متين لكن لما شاهد عدل الله تعالى هدم عليه ذلك لآن مقتضاه ان يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يبالى بأعمال العاملين فلما. شاهد فضله وكرمه أقاله من ذلك بأن جعل له من التعلّق به والاعتماد عليه بدلا منه وعوضا عنه ونعم البدل والعوض فسبحان المتفضل المنان.

إلهى.. إنكَ تعلمُ وإنْ لم تَدُمِ الطاعةُ منى فِعلاً جَزْمًا.. فقد دامت مَحبَّةً وعَزْمًا.

جعل عزمه على الطاعه ومحبته لها و ان لم يدم عليها فعلا احدى وسائله وذلك صحيح وكم من شخص قد طرد وابعد لم يكن عنده عزم ولا فعل جزم.

إلهى.. كيف أعزِمُ وأنتَ القاهِر؟!

وكيف لا أعزِمُ وأنت الآمر؟!

استبعد من نفسه وقوع العزم وجعل مستند ذلك شهود القهر لآن من شهد قهره بطل عزمه لأنه الغالب واستبعد ايضا عدم العزم وجعل مستند ذلك شهود الأمر لأن من شهد امره بادر إلى امتثاله وتحرز من اغفاله واهماله.

إلهى.. تَردُّدى إليكَ فى الآثار يُوجِبُ بُعْدَ المَزار.. فاجمعْنى عليك بخدمةٍ تُوصِلُنى إليك.

شكى إلى مولاة عز وجل طول تردده فى الآثار وهى: الأكوان واخبر انه يوجب له بعد المزار وهى البعد عن شهود التوحيد وكمال المعرفه وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: «لا ترحل من كون إلى كون» ثم ساله وطلب منه ان يختصر له طريق سلوكه ويقربه عليه ويجمعه من مفترقات الآثار بخدمه تظهر فيها عبوديته ويصل بها إلى مولاه من غير تردد ولا طول.

إلهى.. كيف يُسْتَدَلُّ بما هو فى وجوده مفتَقِرٌ إليك؟!

أيكونُ لغيرِكَ من الظُّهور ما ليس لك، حتى يكونَ هو المُظهِرَ لك؟!

متى غِبْتَ.. حتى تحتاجَ إلى دليلٍ يَدلُّ عليك؟!
ومتى بَعُدْتَ.. حتى تكونَ الآثارُ هى التى تُوصلُ إليك؟!

هذا تقبيح لأحوال المستدلين على ربهم وهم أصحاب النظر والاستدلال بالنسبة إلى أهل المقام الآخر وهم أرباب الشهود والعيان.

قال أبو بكر محمد بن على الكتانى رضى الله تعالى عنه: «وجود العطاء من الحق شهود الخلق بالحق لأن الحق دليل على كل شيء ولا يكون شيء دونه دليل عليه».

قال فى «لطائف المنن»: «وأرباب الدليل والبرهان عوام عند أهل الشهود والعيان قدسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل عليه وكيف يحتاج إلى دليل من نصب الدليل وكيف يكون معرفا به وهو المعرّف له».

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله تعالى عنه: «كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء».

وقال مريد لشيخه: يا أستاذ أين الله؟فقال له: «ويحك! أيطلب مع العين أين!!»وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: «شتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه».

إلهى.. عَميتْ عَينٌ لا تراكَ عليها رَقيبًا.

الرقيب: الحفيظ فمن رأى الله تعالى رقيبا عليه يعلم جميع أحواله ولا يخفى عليه منها شيء استحيا منه وهابه أن يراه على ما يكرهه منه.

وقد قيل: «إذا عصيت مولاك فاعصه بموضع لا يراك».

ومن لم يكن على هذا الوصف وغفل عن نظر الله تعالى إليه عميت عين بصيرته فبارز الله تعالى بأنواع القبائح والفضائح من غير اكتراس ولا مبالاة.

وقد سئل بعضهم: «بم يستعين الرجل على حفظ بصره من المحظورات؟

قال: بعلمه بأن رؤية الحق سبحانه له تسبق نظره إلى تلك المحظورات». وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾(١)..

قال الامام ابو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه: «خوفهم بما عرفهم من اطلاعه عليهم فى جميع احوالهم، ورؤيته لما يسلفونه من فنون أعمالهم، والعلم

(١) اية رقم ٦١ من سورة يونس

بانه يراهم يوجب استحياءهم منه».

وهذا هو حال المراقبة، فالعبد اذا علم بان مولاه يراه استحيا منه، وترك متابعة هواه، ولا يحوم حوله ما نهاه عنه.

وفى حديث عبادة بن الصامت رضى اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أفضل إيمان المرء أن يعلم أن اللّه معه حيث كان»

وخَسرتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لم تَجعلْ له من حُبِّكَ نَصيبًا.

حب اللّه تعالى لعبده هو: رحمته له وثناؤه عليه وإحسانه إليه وحب العبد لربه عز وجل: طاعته وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته والحب المضاف إلى الكاف فى قوله «من حبك» يحتمل أن يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول والظاهر كونه مضافا إلى الفاعل إنه أبلغ وأمدح ولأن محبة اللّه لعبده أصل محبة العبد له قال اللّه تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(١).

فمن أعطاه اللّه تعالى من الحب المذكور نصيبا فقد حاز ربح الدارين وفاز بقرة العين.

ومن حرمه ذلك فقد خسرت صفقته وبان عيبته وخيبته وفى بعض الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: «يا عبدى أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبا»

حكي عن بعضهم أنه قال: «اشتريت جارية فسمعتها فى شطر اليل وهى تقول: إلهى بحبك إياى إلا ما غفرت لى فقلت لها: لا تقولى هكذا ولكن قولى: بحبى إياك.

فقالت: ياسيدى بمحبته إياى منَّ علىَّ بالإسلام وأيقظنى لعبادته وكثير من عباده نيام».

قال زيد بن أسلم رضى اللّه عنه: «إن اللّه عز وجل ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له: اصنع ما شئت فقد غفرت لك».

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٤.

إلهى.. أمَرْتَ بالرُّجوعِ إلى الآثار.. فارجعنى إليها بكسْوة الأنوارِ وهدايةِ الاستبصار، حتى أرْجِعَ إليكَ منها كما دخلتُ إليكَ منها: مَصُونَ السرِّ عن النْظَرِ إليها، ومرفوعَ الهمَّة عن الاعتمادِ عليها.. إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَديرٌ.

الآثار التى أمر العبد بالرجوع إليها بعد وصوله إلى صريح المعرفة وخالص التوحيد هى: المكونات التى يلزمه إذا تلبس بها حق أو يكون له فيها منفعة أو حظ فسأل الله تعالى أن يرجعه إليها على حالة شريفة مضادة للحالة التى كان عليها قبل السلوك وهو كونه مكسوا بكسوة الأنوار وهى أنوار اليقين ومؤيدة بهداية الاستبصار وهى العلم الراسخ المتين.

فإذا رجع العبد إلى الآثار على هذا الأسلوب والمعيار لم تؤثر فيه ولم تأخذ منه لكمال حريته عنها وكان رجوعه إلى مولاه فى مآل أمره فى مثل دخوله فيها عليه فى ابتداء أمر سلوكه مصون السر عن النظر إليها بعين الاستحسان. مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها فى نوال أو إحسان وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: «فإن نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ... الخ»

الفصل الثانى

إلهى.. هذا ذُلِّى ظاهرٌ بين يديك، وهذا حالى لا يَخفَى عليك.

هذا تطارح منه على مولاه ومبالغة فى بث شكواه وتلطف فى سؤال رحماه. وبمثل هذا يرجى إجابة الدعاء واستحقاق جزيل العطاء وقد قالوا: أبواب الملوك لا تقرع بالأيدى بل بنفس المحتاج.

وقال بعضهم: قلت للنهر جورى: أجد فى قلبى قسوة وقد شاورت فلانا فأشار على بالصوم فلم تزل وشاورت آخر فأشار علىّ بالسهر فلم تزل فقال النهر جورى رضى الله عنه: خلطا بك أحضر الملتزم(١) إذا نام الناس وتضرع وقل: تحيرت فى أمرى فخذ بيدى ففعل فزالت القسوة **وقال الشاعر:**

وما رمت الدخول عليه حتى
حللت محل العبد الذليل
وأغضيت الجفون على قذاها
وصنت النفس عن قال وقيل
وذل العبد للمولى غناه
وغايته إلى العِزِّ الطويل

فذل العبد لمولاه غاية العز والفخر

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه: «ما أعز الله عبدا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبدا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه».

منكَ أطلبُ الوصولَ إليك.

هذه صفة العارفين المحققين: لا يسبق نظرهم إلا إلى الله، ولا يطلبون إلا منه ولا يكون مطلبهم إلا الوصول إليه لا غير.

وبكَ أستَدلُّ عليك.

أى: لا بغيرك لأنك الظاهر قبل وجود كل شئ ظاهر بل بظهورك خفيت المظاهر.

(١) مكان بالحرم المكى.

وقيل لبعض العارفين: «بم عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى».

وقال أبو القاسم النصر أباذى رضى اللّه عنه: «الأشياء أدلة منه ولا دليل عليه سواه».

وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى اللّه عنه: «لا دليل على اللّه سواه وإنما العلم يطلب لآداب الخدمة».

فاهدنى بنورِكَ إليك.

وهو نور الإيمان واليقين

وأقمْنى بصدْق العبودية بين يديك.

حتى أكون ممتثلا لأمرك مستسلما لقهرك.

إلهى.. علِّمْنى من علْمكَ المَخزون.

إضافة العلم إلى اللّه هنا إضافة تشريف والعلم المخزون هو العلم اللدنى الذى اختزنه عنده فلم يؤته إلا للمخصوصين من الأولياء كما قال اللّه تعالى فى شأن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾(١).

وفى حديث أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه عن رسول اللّه ﷺأنه قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء باللّه تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغِرَّة باللّه».

قال بعضهم: «هى أسرار اللّه تعالى يبديها إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهى من الأسرار التى لم يطلع عليها أحد إلا الخواص.

وقال أبو بكر الواسطى رضى اللّه تعالى عنه فى قوله تعالى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(٢): هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب وفى سِّر السرِّ فعرَّفهم ما عرَّفهم وخاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادة فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النظر بحارا فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة.

(١) من الآية: ٦٥ من سورة الكهف.
(٢) آية ٧ من سورة آل عمران.

وصُنِّى بسرِّ اسمكَ المَصُون.

الصون المطلوب: هو صيانته عن رؤية الأغيار بما يتجلى لقلبه من سر الأسرار.

إلهى.. حقِّقْنى بحقائق أهل القُرْب.

حقائق أهل القرب هى: الفناء فى التوحيد والتحقّق بالتجريد فتبطل فى حقهم رؤية الأسباب ويزول عن مطمح نظرهم كل ستر وحجاب كما قال سيدى أبو الحسن رضى اللّه عنه فى «حزبه الكبير»: وأقرب منى بقدرتك قربا تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك ولا لسؤاله منك وحجبته بذلك عن نار عدوك وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحياء كلاّ إنى أسألك أن تغيبنى بقدرتك منى حتى لا أرى ولا أحسَّ بقرب شىء ولا ببعده عنِّى إنك على كل شىء قدير..

واسلُكْ بى مسالكَ أهل الجَذْب.

أهل الجذب هم المَحبوبون ومسالكهم فى غاية السهولة لا تعب عليهم فيها ولا مشقّة بل يجدون اللذة والحلاوة فى أعمالهم وذلك من قبل أنه أخرجهم من أسر نفوسهم وتولاّهم بكلاءته ورعايته من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة.

إلهى.. أغْننى بتدبيركَ عن تدبيرى، وباختياركَ عن اختيارى، وأَوْقفْنى على مَراكز اضطرارى.

المنفرد بالتدبير والاختيار والمشيئة والاقتدار هو اللّه عز وجل فمن كان له دعوى فى شىء من ذلك فقد نازع اللّه فى ربوبيته وخلع عن عنقه ربقة عبوديته فلذلك سأله وطلب منه أن يغنيه عن تدبيره واختياره وأن يوقفه على مراكز اضطراره ليكون متحققا بصفاته ومتعلقا بصفات مولاه وقد تقدم هذا المعنى فى غير مرّة. والمراكز: مواضع الاستقرار والثبوت وهى استعارة حسنة.

إلهى.. أَخْرجْنى من ذُلِّ نفسى.

ذلّ النفس الذى طلب الإخراج منه هو ذلها لغير اللّه تعالى بالطمع والحرص وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله «ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع».

وطَهِّرْنى من شَكِّى وشِركى قَبْلَ حُلولِ رَمْسى.

الشك والشرك هما سبب وجود الطمع والحرص الموجبين لوقوع الذل والهوان وهذه الأوصاف كلها مجانبة لحقائق الإيمان والتوحيد عافانا الله منها والشك: ضيق الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها فإذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهم والحزن وطهارته منه إنما تكون بوجود ضده وهواليقين فبه يتسع الصدر وينشرح ويزول عنه الحرج والضيق وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه وعند ذلك يجد القلب الروح والفرح بالله تعالى وبفضله وفى الحديث عن رسول الله(ﷺ)(إن الله تعالى بقسطه وعدله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط).

والشرك: تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبب ونسيانه له تعلق العبد بالشرك ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة القلب فيحلو له حينئذ الهوى فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التى يتوصل بها إلى بغيته إذ لا يرى غيرها فيرتبك من أجل ذلك فى حبائل الشرك وطهارته منه بضده وهو: نور التوحيد الذى يقذفه الحق تعالى فى قلبه فتطمئن بذلك نفسه وتسكن عن الشره والطيش الذى أصابها وكلما قوى نور التوحيد فى قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر فتحمى عن الأسباب ويثبت فيه خالص التوحيد.

فإذا تطهّر العبد من الشك والشرك تولاه الله تعالى بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد.

وفى أخبار داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أن الله أوحى إليه: يا داود هل تدرى متى أتولاهم: إذا طهروا قلوبهم من الشرك ونزعوا من قلوبهم الشك.

بكَ أَسْتَنْصِرُ.. فانصرنى، وعليكَ أتوكَّلُ.. فلا تَكِلْنى، ولجنابكَ أنتسبُ.. فلا تُبْعِدْنى، وببابكَ أقفُ.. فلا تَطْرُدْنى، وفى فَضْلِكَ أرغبُ.. فلَا تَحْرِمْنى، وإياك أسألُ.. فلا تُخَيِّبْنى.

تعلق بالله تعالى فى كل مطلب من هذه المطالب وأضرب عن الوسائط والأسباب وذلك من تحققه بالتوحيد الذى سأل من مولاه أن يحققه به بتطهيره من أضداده ومعانى هذه الكلمات قريب بعضها من بعض.

قال أبو الحسن علىّ بن هند الفارسى رضى الله تعالى عنه: اجتهد فى أن لا تفارق باب سيدك بحال فإنه ملجأ الكل فمن فارق تلك السدة(١) لا يرى بعدها لقدميه قرارا ولا مقاما.

إلهى.. تقـدَّس رِضـاكَ عـن أن تكونَ له عِـلَّةٌ منك.. فكيف تكونُ له علَّةٌ منى؟!

رضا الله تعالى صفة من صفاته وصفاته قديمة ولذلك امتنع عليها سبقية العلل والقديم لايكون مسبوقا بشئ.

وإذا كانت صفاته العلية منزهة عن أن يكون لها علة منه فكيف يكون لها علة من غيره فرضا الله تعالى لاعلة له ولا سبب بل رضاه وسخطه هما سبب أعمال العاملين حسنها وسيئها رضى عن قوم فاستعملهم بأعمال أهل الرضا وسخط على قوم فاستعملهم بأعمال أهل السخط قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه: «الرضا والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الأبد بما جريا فى الأذل يظهران الوسمين على المقبولين والمطرودين فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلامها عليهم فأنى تنفع من ذلك الألوان المصفرة والأكمام المقصرة والأقدام المنتفخة؟!.

أنتَ الغَنىُّ بذاتكَ عن أنْ يصلَ إليك النَّفعُ منك. فكيف لا تكونُ غنيًا عنى؟!

الكلام فى الغنى كالكلام فى الرضا وكأن المؤلف رحمه الله تعالى قصد فى مناجاته بهذه الكلمات الاسترضاء والاستعطاف فطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة وذلك من أحسن المقاصد للداعى.

---

(١) السدة «بضم السين» فَنَاء البيت أو باب الدار.

إلهى.. إن القضاءَ والقدرَ غَلَبنى، وإن الهوىَ بوَثائقِ الشَّهْوةِ أسَرَنى..

فكنْ أنتَ النَّصيرَ لى.. حتَّى تَنْصُرَنى فى نفسى وتَنْصُرَ بى، وأَغْننى بجُودك.. حتى أستغنىَ بكَ عن طَلَبى.

هذا اعتذار واعتراف والله تعالى أكرم من أن يرد عذر من اعتذر إليه أو يخَيب أمل من اعترف بذنبه وأقر به لديه يقال: إن العبد يبتهل إلى الله تعالى فى الأعتذار والحق سبحانه وتعالى يقول له: عبدى لو لم أقبل عذرك لما وفقتك للاعتذار.

وقال الكتانى رضى الله تعالى عنه: «لم يفتح الله تعالى لسان المؤمن بالمعذرة إلا لفتح باب المغفرة» فلا جرم لما وثق بذلك وقوى رجاؤه فيه طلب منه النصرة له على أعدائه ولم يقتصر على ذلك بل أضاف إليه طلب النصرة به لتكون تلك النصرة بسببه وعلى يديه.

كما قال أبو الحسن رضى الله تعالى عنه: «واجعلنا سبب الغنى لأوليائك وبرزخا بينهم وبين أعدائك». ثم لم يقنع بذلك حتى طلب منه أن يغنيه بما يستغنى به عن الطلب منه وهو ما يؤتيه من فضله العظيم وكرمه الجسيم وهذه هى غاية السعادة كما قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه: والسعيد حقا من أغنيته عن السؤال منك.

أنتَ الذى أَشْرقْتَ الأنوارَ فى قلوبِ أوليائك، وأنت الذى أزلت الأغيارَ من قلوب أحبابك. حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلي غيرك أنت المؤنسُ لهم حيثُ أوْحَشَتْهمُ العوالمُ.

سبب إيحاش العوالم لهم ماهى عليه من الفاقة والأفتقار والحاجة والأضطرار فكل واحد منها جالب لنفسه طالب لحظّه من كمال نقصه ووفاء بخسه والله تعالى غنى حميد عزيز مجيد وهو مع ذلك لطيف بعباده عطوف عليهم متودد إليهم رءوف بهم فلما شاهدوا هذا كله مشاهدة يقين ومعاينة بإشهاده إياهم لم يتمالكوا أن

أحبوه وأووا إليه، وقصروا هممهم عليه وجعلوه معتمد أنسهم واستغنوا به عن أبناء جنسهم فحصلوا إذ ذاك على غاية النعيم وفازوا بالحظ العظيم قال ذو النون المصرى رضى الله عنه: «بينما أنا أسير فى بعض البوادى إذ لقيتنى امرأة فقالت لى: من أنت؟ فقلت: رجل غريب فقالت: وهل توجد مع الله أحزان الغربة»

وكتب «مطرف بن عبد الله بن الخشير» إلى عمربن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهما: «وليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه فإن لله عبادا استأنسوا بالله فكانوا فى وحدتهم أشدّ من الناس فى كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس مايكون الناس أوحش ما يكونون.

وأنت الذى هديتَهم حيثُ استبانتْ لهم المعالمُ.

لما تولى الله هدايتهم إلى التوحيد والمعرفة أبان لهم علامات ذلك ودلائله فعند نظرهم فى تلك العلامات والأدلة انشرحت صدورهم بنور الإيمان واليقين فلم يتداخلهم ولم يخالجهم ريب.

والمعالم: جمع «معلم» كأنه - رحمه الله تعالى - عرض فى هذه الكلمات بالمطلب الذى بحصوله له يستغنى عن الطلب وهوإشراق الأنوار فى قلبه وإزالة الأغيار عن سره وإيناسه له وهدايته إياه وهذه الأربعة مطالب متضمنة لأسنى الرغائب.

ماذا وَجَدَ من فقدَكَ؟! وما الذى فَقَدَ مَنْ وَجَدَك؟!

قد تقدم غير ما مرة أنّ ما سوى الله تعالى عدم وظلمة وأن الوجود الحق والنور المتحقق إنما هو الله عز وجل.

فإذا كان الأمر على هذا صح ما قاله المؤلف رحمه الله تعالى ها هنا وكان حقا لا مرية فيه.

قال ابو على الروزبارى رضى الله عنه: سألنى أبو بكر الدقاق رضى الله عنه فقال لى: يا ابا على لم ترك الفقراء أخذ البلغة فى وقت الحاجه؟ فقلت: لأنهم يستغنون بالمعطى عن العطاء فقال: نعم ولكن وقع لى شىء اخر فقلت: هات افدنى ما وقع لك؟ فقال: لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود اذ الله فاقتهم و لا يضرهم الفاقه اذ الله وجودهم» وكان أبو حمزة البغدادى رضى الله تعالى عنه يقول فى مناجاته«اللّهم إنك تعلم أنى أفقر خلقك اليك فان كنت تعلم أن فقرى اليك بمعنى

هو غيرك فلاذ فقرى»

لقد خاب مَنْ رَضىَ دُونَكَ بَدَلاً!

ولقد خَسِرَ مَنْ بَغَى عنكَ مُتَحوَّلاً!

هذا بين وهو مبنى على ما تقدم الآن من الكلام رؤى الشبلى رضى الله تعالى عنه فى المنام بعد وفاته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبنى بالبراهين على الدعاوى الا على شئ واحد قلت يوما: لا خسارة اعظم من خسارة الجنه ودخول النار فقال: واى خسارة أعظم من خسران لقائى وفى معناه انشدوا

سهر العيون لغير وجهك باطل

وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

وقال بعضهم: كان عندنا رجل مكث عندنا ثلاث عشرة سنة يصلى كل يوم وليله ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فاذا صلى العصر احتبى(١) واستقبل القبله ثم قال: عجبت للخليقه كيف ارادت بك بدلا بل عجبت للخليقه كيف استأنست بسواك ثم يسكت إلى المغرب.

إلهى.. كيف يُرجَى سواكَ، وأنتَ ما قطعتَ الإحسان؟!

وكيف يُطلَبُ من غيرِكَ، وأنتَ ما بدَّلْتَ عادةَ الامتنان؟!

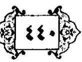
هذا تعجيب ممن كان على هذا الوصف وهو اعجب من كل عجيب والمعنى فى ذلك بين

يا مَنْ أذاقَ أحبَّاءَه حلاوةَ مؤانَسَتِه، فقاموا بين يديه متملِّقين..

التملّق: هو التلطف فى التودد وترتبه على ذوقهم لحلاوه مؤانسته بيّن.

---

(١) احتبى بالثوب. اشتمل به، واحتبى فى جلسته: ضم ركبتيه إلى صدره.



ويا مَنْ ألبسَ أوليـاءَه مـلابسَ هَيْبَـتـه، فـقـامـوا بعـزَّته مُسْتَعزِّين..

استعزازهم بعزته هو رفع هممهم عن تعليقها بغير الله تعالى تيها، وتكبرا عليها وثقة منهم به وذلك لما البسهم من ملابس هيبته حتى لم يهابوا معه غيره ولم تتأله قلوبهم إلى سواه ولذلك قالوا المعرفة حَقْر الأقدار سوى قدره ومحو الاذكار سوى ذكره.

قال بعض المشايخ: «اذا عظم الرب فى القلب صغر الخلق فى العين».

وقيل فى معنى قوله تعالى: ﴿تُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾(١) قال: بأن يكون لك بك معك بين يديك.

أنتَ الذاكرُ منْ قَبْلِ ذكْرِ الذَّاكرين، وأنتَ البادئُ بالإحسانِ من قَبْلِ توجُّهِ العابدين، وأنتَ الجَوَادُ بالعَطايا من قَبْلِ طَلَبِ الطالبين، وأنتَ الوهَّابُ.. ثم أنتَ لما وهبْتَنا من المُسْتَقْرِضين!

الحق تعالى له الأولوية فيما ذكر كما ذكر.

قال ابويزيد رضى الله عنه: «غلطت فى ابتداء أمرى فى أربعة اشياء: توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه واطلبه فلما أنتهيت رايت ذكره سبق ذكرى ومعرفته تقدمت معرفتى ومحبته اقدم من محبتى وطلبه لى أول حتى طلبته».

فاذا كانت له الأولوية فى ذلك لم يبق للعبد وسيلة يتوسل بها سوى فضله وكرمه.

وممّا يوافق ما ذكره المؤلف ما حكى عن الجنيد رضى الله تعالى عنه انه كان يقول فى مناجاته: «يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ويا بادىء العارفين بما به عرفوه ويا موفق العابدين لصالح ما عملوه من ذا الذى يشفع عندك الا باذنك من ذا الذى يذكرك إلا بفضلك».

واستقراض الربّ من عبده ما وهبه له غاية فى ترفيعه لقدره وإبانته لشرفه ووعده مع ذلك جزيل الثواب علقه نهاية فى اكرامه له وتفضله عليه.

(١) سورة ال عمران الآية ٢٦

قال بعضهم: ملّكك ثم اشترى منك ما ملّكك ليثبت لك معه نسبة ثم استقرض منك ما اشتراه ثم وعدك عليه من العوض اضعافا بيّن فيه ان نعمه وعطاياه بعيدتان ان يكونا مشوبتين بالعلل.

إلهى.. اطلبنى برحمتكَ.. حتَّى أَصِلَ إليكَ، واجْذِبْنى بمنَّتكَ.. حتى أُقْبِلَ عليكَ.

لا سبيل للعبد إلى وصوله إلى الله تعالى الا برحمته فلذلك طلب منه ان يطلبه بها ولا يتأتى له الاقبال عليه الا بمنته، فلذلك طلب منه ان يجذبه اليه بها وذلك لتحقيق الأولوية التى ذكرناها من قبل.

إلهى.. إنَّ رجائى لا ينقطعُ عنكَ وإنْ عصيتُكَ، كما أنَّ خوفى لا يُزايلُنى وإنْ أطعْتكَ.

الخوف والرجاء حالان يتعاقبان على قلب العبد واعتدالهما واستواؤهما هو المطلوب سواء كان العبد فى طاعة أو فى معصية وقد مثلوا ذلك بكفتى الميزان وجناحى الطائر وهذا من أعلى مشاهدة العارفين والأولياء وذلك لان منشأهما عندهم إنما هو من شهود الصفقا المخوفة والمرجّوة وصفات الله تعالى لا تفاوت فيها فكذلك مشاهدتها لا تفاوت فيها فان وقع فيها تفاوت كانت مشاهده ناقصة واحوالا معلولة فلذلك يتصور وجود كمال الخوف مع عمل العبد بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكابه المعصية كما وصف به المؤلف نفسه.

قال يحيى بن معاذ رضى الله تعالى عنه: «يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الأعمال لأنى اجدنى اعتمد فى الأعمال على الإخلاص وكيف احررها وانا بالآفة معروف؟ ! واجدنى فى الذنوب اعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف» وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى: «من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل».

ومن دعاء سيدى أبى العباس رضى الله تعالى عنه: «الهى معصيتك نادتنى بالطاعة وطاعتك نادتنى بالمعصية ففى أيهما أخافك وفى أيهما ارجوك؟ ان قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك فلم تدع لى خوفا وان قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاء فليت شعرى كيف أرى إحسانى مع إحسانك ام كيف اجهل فضلك مع عصيانك».

ومن كلامه ايضا رضى الله تعالى عنه: «العامة اذا خُوفّوا خافوا واذا رجّوا رَجوا والخاصّة متى خُوفّوا رجوا ومتى رجُّوا خافوا».

قال فى» لطائف المنن»: «ومعنى كلام الشيخ هذا: ان العامة واقفون مع ظواهر الامر فمتى خوفوا خافوا اذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لاهل الله واهل الله اذا خوفوا رجوا عالمين ان من وراء خوفهم وما به خوفوا اوصاف المرجو الذى لا ينبغى ان يقنط من رحمته ولا ان ييأس من منته فاحتالوا على اوصاف كرمه علما منهم انه ما خوفهم الا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك اليه واذا رجوا يخافون غيب مشيئته الذى هو من وراء رجائهم وخافوا ان يكون ما اظهر من الرجاء اختبارا لعقولهم.

هل تقف مع ظاهرةالرجاء او تنفذ إلى خوف ما بطن فى مشيئته فلذلك اثار الرجاء خوفهم.

إلهى.. قد دَفَعَتْنى العوالمُ إليكَ.

إنما دفعته العوالم إليه لما تضمنته من السمات الموحشة كما تقدم.

ولقد أحسن من قال: «لا وحشة مع الله ولا راحة مع غير الله».

وفى هذا المعنى أنشدوا

يا قرة العين سل عينى هل اكتحلت

بمنظر حسن مذ غبت عن عينى

وقد أوقَفَنى علْمى بكرمكَ عليكَ..

إذ الكريم لا تتخطاه آمال المؤملين ولا يتوجه نحوه سواه طلب الطالبين.

إلهى.. كـيف أخـيبُ وأنتَ أمَلى؟! أمْ كـيفَ أُهانُ وعليكَ مُتَّكَلى؟!

لَمّا تعلق بالله تعالى وتوكل عليه استبعد أن يخيب أمله أو يناله هوان يؤوده تحمله.

إلهى.. كيف أستعز.. وأنت وفى الذلة أركزتنى؟!
أم كيف لا أستعزُّ.. وإليك نسبتنى؟!
إلهى.. كيف لا أفتقر.. وأنتَ الذى فى الفقر أقمتَنى؟!
أم كيف أفتقر.. وأنتَ الذى بجُودكَ أغنَيْتَنى؟!

تلُّونه فى هذه الأوصاف المتضادة لما يغلب عليه من مشاهدة ما يوجبها.

والذلة المثبتة هنا هى: ذلة الخليقة والعبودية.

والنسبة التى اشار اليها هى: سر الخصوصية.

والافتقار بمعنى الذلة، والاستغناء بمعنى العزَّة.

قال بعضهم: «رأيت ذلّ كل ذى ذُلٍّ فزاد ذلى على ذلهم، ونظرت عزَّ كلِّ ذى عز فزاد عزى على عزهم».

وقال الشبلى، رضى الله تعالى عنه: «لقد ذللت حتى عّز فى ذلى كلُّ ذى ذُلٍّ وعززت حتى ما تعزز احد إلا بى وبمن به تعززت».

أنْتَ الذى لا إلهَ غيـركَ.. تعـرَّفْتَ لـكلِّ شىءٍ، فـمـا جـهلَكَ شىء.

وأنتَ الذى تعـرَّفْتَ إلىَّ فى كلِّ شىء، فرأيتُكَ ظاهراً فى كلِّ شىء.

فانت الظاهر فى كل شىء.

هذا كله تقدم معناه ولفظه فى كلام المؤلف على غاية الكمال والتام.

والحاصل منه أنَّ الظهور التامّ للّه تعالى بكل اعتبار، ثم انه عبرّ هنا عن ذلك بعبارة لم يذكرها فيما تقدم وهو قوله:

يا مَنْ ا ستوى برَحْمانيَّته على عَرْشه، فصار العَرْشُ غَيبًا فى رَحْمانيَّته، كما صرت العَوالمُ غَيْبًا فى عَرْشه..

كانه اشار بهذا إلى معنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾(٢) ورحمانية الله: كونه رحمانا. والرحمن اسم لله تعالى يقتضى وجود كلّ موجود، وهو مشتق من الرحمة، والرحمة، ها هنا، هى: الرحمة العامة التى وسعت كل شىء كما وسع علمه كل شىء فى قوله تعالى مخبرا عن حملة العرش اذ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾(٣)، ولذلك دخلت تحت مقتضى اسمه» الرحمن» جميع اسمائه تعالى الايجادية.

ويفهم من معنى» الاستواء» القهر والغلبة، ومقتضاهما فى حق الله تعالى الا يكون لغيره وجود مع وجوده، ولا ظهور مع ظهوره فلا جرم لما كان الحق مستويا برحمانيته على عرشه الذى العوالم كلها فى طيه كان العرش غيبا فى الرحمانية مندرجا فيها والعوالم كلها غيب فى العرش، لانها فى طيه فلا ظهور اذن للعرش ولا للعوالم وانما الظهور التامّ لله عز وجل.

مَحَقْتَ الآثارَ بالآثار.

كما بين العوالم والعرش.

ومَحَوْتَ الأغيارَ بمُحيطات أفلاك الأنوار!

كما بين العرش والرحمانية ومحيطات أفلاك الانوار هى: أسماء الله الحسنى والله تعالى اعلم.

يا مَنْ احتجَبَ فى سُرَادقات عزِّه عن أن تدركَه الأبصارُ..

عزة الله اقتضت كون كلٍّ ما سواه محجوبا عن رؤيته لله عزّ وجل، فإن العزيز معناه المنيع الذى لا يوصل اليه يقال: «حصن عزيز» اذا تعذر الوصول اليه.

وقيل العزيز: الذى لا يرتقى اليه وهم طمعا فى تقديره ولا يسمو إلى صمديته فهم قصدا إلى تصويره.

وقيل: العزيز: من ضلت العقول فى بحار تعظيمه وحارت الالباب دون ادراك نعته وكلت الالسنة عن استيفاء مدح جلاله ووصف جماله. قال رسول الله ﷺ: «لا احصى ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك».

وذكر السرادقات مضافة إلى عزه واحتجابه فيها مجاز حسن.

(١) آية رقم ٥ من سورة طه.
(٢) من الآية ٥٩ من سورة الفرقان.
(٣) آية رقم ٧ من سورة غافر.

يا مَنْ تجلَّى بكمال بَهائه، فتحقَّقتْ عَظَمَتَه الأسرارُ..

كمال بهائه: محاسن صفاته وأسمائه فبظهور ذلك وتجلّيه تحققت عظمته أسرار العارفين.

كيف تَخْفَى.. وأنت الظاهر؟!

أم كيف تَغيبُ.. وأنت الرَّقيبُ الحاضِر؟!

واللّه الموفِّق.. وبه أستعين.

هذ كله بين لا إشكال فيه والحمد للّه وقد تقدم معناه غير ما مرّة من كلام المؤلف رحمه اللّه.

●●●

قال مؤلف هذا الكتاب: وقد نجز بحمد اللّه ما أردناه وبلغنا الغرض الذى قصدناه ولا حول لنا فى ذلك ولا قوة إلا باللّه وبذلك تبين ما عندى فى مسائل الكتاب واللّه تعالى الهادى للصواب.

وقد تقدم فى أول هذا التنبيه أنى لم أقصد فيه إلا هذا المعنى ولم نلتزم كون ما ذكرناه صحيح المبنى حتى نحتاج إلى نصب الأدلة والبراهين على ما إدعيناه فيه وإنما سقنا ذلك على سبيل حكاية مذهب من المذاهب، وللمحكى له ذلك أن يصححه أو يبطله إن أحب وما وقع فيه من توخى استدلال على مطلب من المطالب فأنا فى ذلك متبرع، فإن صح ذلك الدليل فهو المطلوب، وان بطل لم يلزم من بطلانه بطلان المدلول ويبقى المذهب قابلا للتصحيح او الابطال من غير ان تتوجه على مطالبة بذلك، والذى حملنى على سلوك هذا السبيل ما فيه من وجدان السلامة لى من الخطر الذى يتعرض له كل من يتكلم على طريق التصوف ممن لا تحقق له فيه ويدّعى صحة ما ينظر بعقله وفهمه، وينسب ذلك إلى القوم، ولعل شيئا من ذلك لا يصح عنهم فيكون بذلك مفتريا كذابا عليه.

ثم فيه من سوء الادب معهم، والتقدم بين ايديهم مالا يقوم له شيء، وعند ذلك يكون الخرس والبكم وذهاب الحس والحركة أولى به واحمد عاقبة له لتخلصه بذلك من شر لسانه وبنانه.

●●●

ثم ان ما قصدناه من ذلك لا يمنع من حصول الفائدة لمن اراده اللّه تعالى بها، ووفقه لها، فعلى العبد ان يعمل على خلاص نفسه، ولا يلزمه اتباع مرضاة غيره،

فقد قيل: «رضا الناس غاية لا تدرك».

ونحن نرغب إلى من وقع بين يديه هذا التأليف، وظهر له فيه خطأ أو تحريف، ان يصلح منه ما ألفاه مختلا، وأن ينتهج من الاعتذار عنه الطريقة المثلى وإن ظهر له ان يضع فى ذلك تأليفا يتضمن تنبيها وتعريفا، فذلك من المذاهب التى ترضى، ومما لم يزل من شأن من قد مضى.

●●●

ونحن نستغفر اللّه تعالى مما يعلمه منا من التعدى والجراة فيما تعرضنا له من بيان كلام الأولياء، والراسخين من العلماء، وتقرير عباراتهم واشاراتهم من غير اطلاع منا على كنهها، ولا بصيرة فيها.

ونستغفره ايضا مما اقدمنا عليه من اظهار ما ستروه واعلان ما اسروه.

ونستغفره ايضا مما وقع منا فيه من ذكر احوال الأولياء، رضى اللّه عنهم ومقاماتهم، وتحريضنا على سلوك طريقهم المستقيم مع افلاسنا من جميع ذلك، وعدم احتظائنا به.

ونسأله مع ذلك ألا يؤاخذنا بما انطوت عليه ضمائرنا وأكنته سرائرنا من انوا ع القبائح والمعايب التى يعلمها منّا ولا نعلمها، او نعلمها ولا تسمح نفوسنا بالتنقى منها، والتنزه عنها، اغترارا منا بحلمه، واستهانة بنظرة وعلمه.

ونرغب اليه، جل وعلا، ان يمنّ علينا بتوبة تمحو عنا كلّ حوبة(١) حتى تنقلب اعدائنا عنا خائبين خاسرين داخرين(٢) صاغرين لم ينالوا من تحقق ارادتهم فينا مطلبا، ولم يبلغوامن عدم اسعافه ايانا بما طلبناه منه مأربا، وأن يشمل فى ذلك معنا كل من أمنَّ على هذا الدعاء ممن سمعه، وممن دعا لنا بمثله من اخواننا المسلمين، ونتوسَّل اليه فى بلوغ الامل والوصول إلى المبتغى الاجل بمن صرفنا به عن كل جحود وكفور، واخرجنا على يديه من الظلمات إلى النور سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين وحبيب رب العالمين صلى اللّه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه البررة الأكرمين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا، والحمد للّه رب العالمين.

---

(١) الحوبة ـ بضم الحاء وفتحها: الإثم.

(٢) داخرين: أذلاء.

الفهرس

الجزء الأول:

رقم الإيداع : ١٠٢٨٤ / ٢٠٠٥

